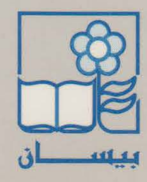
الدكتور
نديم البيطار

المثقفون والثورة

(الإنتيليجنسيا كظاهرة تاريخية)

الطبعة الثانية





المثقفون والثورة

(الإنتيليجنسيا كظاهرة تاريخية)

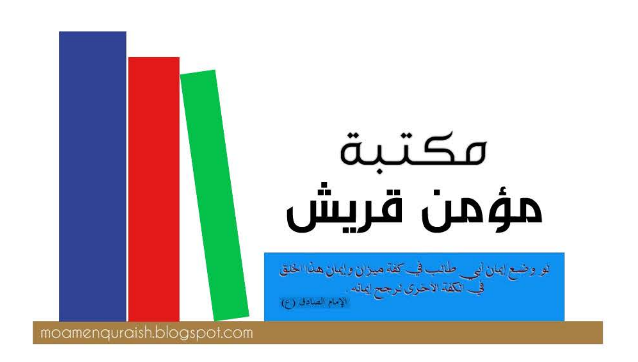
د. نديم البيطار

المثقفون والثورة

(الإنتيليجنسيا كظاهرة تاريخية)

الطبعة الثانية





* المثقفون والثورة

* تأليف: د. نديم البيطار

* الطبعة الثانية: كانون الثاني 2001 م.

* جميع الحقوق محفوظة © بيسان للنشر والتوزيع والاعلام. لا يجوز نشر اي جزء من هذا الكتاب او اختزان مادّته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية، أو ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك. إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام

■ ص. ب 5261-13 بيروت ـ لبنان

■ هاتف: 351291 ـ فاكس 747089-1-961

مقدمة الطبعة الثانية

إنني لم أكن أفكر بكتابة مقدمة أخرى لهذه الطبعة الثانية (الطبعة الأولى صدرت عام 1987) لأن المقدمة الأولى كافية، تقول ما يجب قوله في تقديم الموضوع، ولا تحتاج إلى أي تعديل في ضوء ما طرأ على النضال العربي من أحداث كانت، في الواقع، تؤكد ما وصلت إليه من نتائج وما يمكن توقعه في ضوء ما تقوله. ولكن هناك بعض الملاحظات الإيضاحية التي رأيت ان من المفيد الإشارة إليها في تكامل الموضوع.

الدراسة الحالية تشغل بالإنتيليجنسيا ودورها كظاهرة تاريخية، وبالتالي فإنها دراسة الغاية الأساسية منها إدراك التاريخ نفسه من زاوية معينة، وفي ضوء ذلك إدراك دور الإنتيليجنسيا العربية في صنع النضال العربي وتحديد مسؤوليتها عن هذا النضال. ما تقوله الدراسة الحالية هو، بكلمة مختصرة، أن كل نضال سياسي أو ثوري كبير في صنع التاريخ يقترن بإنتيليجنسيا تعبر عنه، وتمثل الوعي الذي يحدد علاقته بالواقع الذي يتفاعل معه، الواقع المدعو إلى تغييره وتطويعه لمقاصده، وبالتالي فإن طريقة تعامله مع هذا الواقع أو درجة فاعليته في إعادة تكوينه في ضوء هذه المقاصد، ترتبط بنوعية هذه الإنتليجنسيا، بالإمكانات التي تميزها وبقدرتها على ممارسة الدور الذي يترتب على وجودها. إنها دراسة لا تخلص إلى ذلك كتصور ذهني، أحكام ذاتية، أو توجيهات تبشيرية، بل نتيجة مراجعة موضوعية تحليلية للحركات والتجارب الثورية التي لا يمكن إدراك المجتمع أو التاريخ الحديث من دون الرجوع إليها. إنها دراسة تترك هذه التجارب والحركات نفسها تتكلم إلينا عن محورية دور الإنتليجنسيا في تكوينها وصنعها. هذا كان يعني أن الإنتيليجنسيا كانت تكشف في مجرى هذه الأخيرة عن تكوين نفسي ـ عقلي متماثل، ولهذا فإن القصد من الدراسة الحالية كان تحديد العناصر الأساسية، المقومات الواحدة التي تكوّن الإنتيليجنسيا، وتجعل منها القوة الأساسية التي يجب الرجوع إليها، الاعتماد عليها، والانشغال بها كالأداة الأولى للنضال السياسي أو الثوري، وخصوصاً في مراحل ـ كالمرحلة التي يمر فيها حالياً النضال العربي ـ لا تتوفر فيها، كما تشير المقدمة الأولى، الأوضاع الموضوعية التي يحتاج اليها هذا النضال في ترجمة ذاته الى واقع. هذا يعني أنه يجب، في غياب أوضاع كهذه،

الانشغال بالعمل الفكري الذي يحافظ على استمرارية النضال، يهيىء لظهور أوضاع كهذه، حتى إذا ظهرت يكون على استعداد لها، قادراً تماماً على العمل معها، واستخدامها في تحقيق مقاصده. هذا الإعداد يكون العمل الأهم والأساسي الذي يجب القيام به في غياب أوضاع موضوعية كهذه. هذا يعني انتيليجنسيا قادرة على ذلك، ولكن هذه الإنتيليجنسيا غير متوفرة بالنسبة للنضال العربي، وهذا هو المأزق الذي يواجه حالياً هذا النضال. الخروج منه يفترض بالتالي تجديد الإنتيليجنسيا، ظهور إنتيليجنسيا جديدة.

ظهور إنتيليجنسيا جديدة يأخذ وقتاً طويلاً نسبياً، ولكن ما قد يساعد على اختصار هذا الوقت هو أن هناك، في الإنتيليجنسيا العربية الحالية المسؤولة عن النضال العربي قطاعات لم تتلوث بسقوطها، ويمكن اتحادها في إنتيليجنسيا جديدة تأخذ زمام المبادرة في إحياء النضال العربي والتخطيط له. ما تحتاج إليه هذه القطاعات كي تكون نواة إنتيليجنسيا جديدة هو تفسير منظم (systematic) عام لما حدث، أي لسقوط النضال العربي الحالي، لعجزه عن تحقيق مقاصده، أو حتى التوجه الفعال نحوها، وذلك بالانطلاق من عقلية علمية منسقة تفرض وجودها بالنسبة لأي مثقف لا يقول فقط بالعقل العلمي، أو يضع هذه العبارة بشكل خارجي بليد ـ كما هو الحال مع الأكثرية الساحقة من الإنتيليجنسيا الحالية، بل يستوعب ويتمثل تماماً هذا العقل. هذه الدراسة هي محاولة متواضعة في توفير هذا النوع من التفسير.

هنا تجدر الإشارة بشكل سريع الى أن سقوط الإنتيليجنسيا يعود نهائياً وأساسياً إلى عقلية تبشيرية أحلّت الرغبات، والمشاعر، والحوافز الذاتية محل الإدراك الموضوعي للواقع الذي تتعامل معه. إنها عقلية تدور حول ما يجب أن يكون عليه الواقع بدلاً مما يمكن أن يكون عليه في ضوء ما يكشف عنه من وقائع، اتجاهات، قوانين أو علاقات انتظامية موضوعية تتسق هذا الواقع. إنها عقلية تتعامل مع الواقع بالانطلاق مما تريده من هذا الواقع، وليس بالانطلاق مما يسمح به هذا الواقع، من الاحتمالات التي يمكن أن يكشف عنها، والحدود الموضوعية التي يجب أن يعمل فيها. هذا موضوع أعود إليه في كتاب «سقوط الإنتيليجنسيا العربية» الذي أمثل فيه بكثافة على هذا السقوط، ويصدر مباشرة تقريباً بعد صدور الدراسة الحالية. التفاسير المتتابعة التي ظهرت حول هذا السقوط والمشاريع المختلفة في الخروج منه كانت حتى الآن تعبر عن هذه العقلية التبشيرية، أي عن الخلل الذي كان مسؤولاً عنه، وبالتالي كانت جزءاً من المشكلة التي لا تزال تواجه النضال العربي، وليس من الحل الذي يمكن أن يخرج به من سقوطه، أو بالأحرى من الحل الذي يدل على طريق موضوعية يمكن بها الخروج منه. هنا يجب أن نذكر أن الحل، أو ظهور إنتيليجنسيا جديدة قادرة على هذا الحل يشكل سيرورة وليس حادثة، وأن السيرورة تكون طويلة أو قصيرة وفق طبيعة أو جدلية الأوضاع التاريخية التي تمر فيها وتتفاعل معها. ولكن كي يمكن أن تكون، يجب أن تتجه بوعي عقلاني علمي يحدد الطريق أمامها، وهو وعي يحتاج طبعاً إلى توفر نظرية عقلانية علمية يرجع اليها.

في بعض المناسبات، وخصوصاً في المقدمة لكتاب «فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والإيديولوجيات الحديثة» أشرت ان الانتاج الجدي أو الكبير يكشف عادة في مجرى إعداده عن جدلية خاصة به، تقود المؤلف في اتجاهات لم يكن يتوقعها. هذا ما حدث عند

إعداد الدراسة الحالية. فجدلية الموضوع دلت أن تكامله يفترض الانشغال بهذا الجانب، أي التدليل أن الإنتيليجنسيا التي رافقت النضال العربي في العقود الأربعة الأخيرة بشكل خاص كانت عاجزة في ممارسة عملها عن القيام بدورها بشكل ايجابي، وأن سقوط النضال العربي كان بقدر كبير أساسي يترتب على سقوطها. هذا كان يعني ضرورة تفسير هذا السقوط. كتاب «سقوط الإنتيليجنسيا العربية» كان النتيجة. ولكن جدلية هذا الموضوع وجهت أيضاً في دورها الى بعض الموضوعات الإضافية التي يفترضها تكامل جوانبه الأساسية، وهي موضوعات أعالجها في دراسات أخرى لاحقة. لهذا يمكن القول ان الدراسة الحالية تقوم بدور المقدمة ليس فقط للدراسة القادمة «سقوط الإنتيليجنسيا العربية»، بل لهذه الدراسات الأخرى أيضاً.

د. نديم البيطار

المقدمة

بما أنني أعالج موضوع الدراسة الحالية كدراسة ضرورية نحو العمل على إحياء النضال العربي، دفعه الى الخروج من سقوطه الحالي، وتصحيح اتجاهه نحو مقاصده الأساسية، وبما أن القصد الوحدوي هو القصد المحوري لهذه المقاصد، وبما أن هذا يتم في ضوء نظرية وحدوية ترجع إلى شتى أشكال تجارب التوحيد السياسي عبر التاريخ، من الطور القبائلي حتى القرن العشرين وقد ظهرت في دراسات سابقة[1]، كان من الضروري في هذه المقدمة استعادة خاطفة لبعض النتائج العلمية الأساسية التي وصلت إليها في تلك الدراسات لأن الدراسة الحالية تجد سياقها العام فيها وتترتب عليها. أهم ما توصلت إليه كان جلاءً للقوانين الوحدوية العامة التي تكشف عنها تلك التجارب، أي التجارب التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة وكيانات سياسية مستقلة من حالة تجزئة إلى حالة وحدة، فالعقل العلمي يفرض أول ما يفرض الرجوع إلى الظاهرة التي يعالجها، والكشف عن القوانين أو العلاقات الانتظامية الواحدة التي تعيد ذاتها فيها. وجود قوانين أو علاقات من هذا النوع في تجارب التاريخ الوحدوية يعني أن طبيعة عملية التوحيد السياسي نفسها تفرض في موضوعيتها أو جدليتها الخاصة المستقلة هذه الانتظامية أو القوانين، وأن وجودها يفرض بالتالي العمل معها وفي ضوئها إن نحن أردنا السيطرة على التجزئة وممارسة عمل وحدوي فعال نستطيع به الانتقال من التجزئة إلى دولة - الوحدة.

دراستي العلمية الجامعة لهذه الظاهرة الوحدوية عبر التاريخ[1] كشفت ليس فقط عن وجود قوانين وحدوية عامة كانت تعيد ذاتها في تلك التجارب الوحدوية، بل إن هذه القوانين كانت تتفاوت أهمية، ولهذا كان من الضروري تقسيمها إلى مجموعتين، مجموعة أساسية وأخرى ثانوية، الثانوية لا تعني أن أهميتها ليست كبيرة، بل إن الكشف عن طاقتها الوحدوية، أي قدرتها على الدفع نحو التوحيد السياسي، يرتبط بتوفر الأولى. بين قوانين المجموعة الأولى تبين أن وجود إقليم - قاعدة تتمحور عليه عملية التوحيد السياسي ويرتبط به النضال الوحدوي عبر المجتمع

(1) راجع كتاب "من التجزئة.. إلى الوحدة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1979. كتاب "النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية"، معهد الإنماء العربي، بيروت 1978. كتاب "حدود الهوية القومية: نقد عام"، دار الوحدة، بيروت، 1982 لكن ينبغي التركيز على الكتاب الأول بشكل خاص.

المجزأ، يمثل القانون الأهم، ولهذا أسميته بالقانون الحفاز، أي الذي يكشف عن الطاقات الوحدوية في القوانين الأخرى، يحركها ويركّزها.

هذه القوانين، وخصوصاً المجموعة الأساسية، تشكل ما أسميته بالوضعية الوحدوية الموضوعية، أي الوضعية التي لا يمكن بدونها القيام بأي توحيد سياسي فعال. هذه القوانين تتوفر لنا في أكثريتها الساحقة باستثناء الإقليم ـ القاعدة، ولكن إن كان دور القوانين الثانوية يرتبط، عند توفرها، بتوفر القوانين الأساسية، وإن كان دور هذه الأخيرة يفترض من ناحيته توفر الإقليم ـ القاعدة، فإن هذا الأخير يصبح بالتالي ضرورياً في ظهور وضعية وحدوية موضوعية، وهذا يعني أن العمل الوحدوي العربي سيراوح في مكانه كما كان منذ نهاية السبعينات إلى أن يتوفر له هذا الإقليم ـ القاعدة، وبالتالي هذه الوضعية.

لقد شرحت أولاً، في تلك الدراسات، أن حالة الجزر الثوري التي نقاسيها تعود: إلى جزر وحدوي يترتب على غياب هذه الوضعية الوحدوية الموضوعية، لأن أي مد ثوري لا يمكن أن يتحقق دون أن يكون مداً وحدوياً، وثانياً، أنه لا يمكن تجاوز هذا الجزر أو الانزلاق المستمر في التجزئة والإقليمية الفكرية ـ النفسية التي تترتب عليها دون توفر بديل، وأن هذا البديل يمكن أن يكون فقط البديل الوحدوي، وثالثاً، أن هذا البديل لا يمكن أن يفرض ذاته دون توفر الإقليم ـ القاعدة، وأن مصر هي القطر العربي الذي يستطيع ممارسة هذا الدور، وقد سبق له أن مارسه، ورابعاً، إن الساداتية أخرجت مصر من هذا الدور، لكن الساداتية تمثل انحرافاً تاريخياً، ولهذا ينتظر أن تعود مصر إلى دورها الوحدوي كإقليم ـ قاعدة، لأن الحل الوحدوي هو الحل الوحيد لخروجها من المشاكل والتحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها.

هنا يجب الإشارة إلى ناحية أخرى عالجتها في بعض المناسبات[1] وهي أن رجوع مصر إلى دورها كإقليم ـ قاعدة لا يكفي في ذاته لممارسة هذا الدور بفاعلية عبر الوطن العربي، أو إفراز مدٍّ وحدوي جديد يمكن به الانتقال إلى دولة ـ الوحدة، أو تحقيق خطوات كبيرة نحوها. هذا الدور يعني، في الواقع، توافر خطوات توحيد سياسي يجب أن يقود إليها، ويعني أيضاً أن الخطوة الوحدوية الأولى يجب أن تكون مع ليبيا، لهذا دعوت ابتداء من كتاب «من التجزئة... إلى الوحدة» إلى ما أسميته «بالقاعدة ـ المركبة» كأساس لتكامل الدور الذي يفترض أن يقوم به الإقليم ـ القاعدة. السبب الذي يدعو إلى ذلك هو المقاومة الشرسة التي سيتخذها العدو الأميركي ـ الإسرائيلي ضد أي خطوة وحدوية بين مصر وأي قطر عربي آخر، والذي سوف يستخدم، دون شك، كل ما يمكنه من وسائل في ضرب خطوة كهذه، وذلك لأنه يدرك تماماً، ومع الأسف، أكثر من كثير من «الوحدويين» أنفسهم دور وأهمية مصر كإقليم ـ قاعدة، وخطر هذه الخطوة على احتلاله لفلسطين وعلى مطامعه في الوطن العربي، لهذا يجب أن تحدث الخطوة الأولى في أحسن الأوضاع الملائمة لها، وأن تكون ذات أسس قوية إلى أعلى درجة ممكنة، كي لا يمكن لهذا العدو اختراقها من الداخل.

هذا يعني أن هذه الخطوة الأولى يجب أن تكون مع قطر عربي بين الأقطار المجاورة

(1) آخر هذه المناسبات كان مقالاً صدر اخيراً في مجلة "الوحدة" عدد يناير 1986، بعنوان: "المرحلة الناصرية. الفرصة الوحدوية الفريدة التي ضاعت".

للإقليم ـ القاعدة، أي ليبيا، السودان، الأردن، سوريا. الاتحاد مع ليبيا يتميز عن الاتحاد بين الأقطار الثلاثة الأخرى، أولاً، لأن التجاور الجغرافي، وهو ضروري جداً لا يتوفر مع الأخيرة، وغياب هذا التجاور كان من أهم الأسباب التي أدت إلى فشل بعض التجارب الوحدوية التاريخية، ثانياً، إن ليبيا لا تنطوي على التعدد الطائفي والأثني الموجود في سوريا أو في السودان، والذي يسهل معه للعدو الأميركي ـ الإسرائيلي اختراق الوحدة وضربها من الداخل، وخصوصاً في السودان، ثالثاً، الإقليم ـ القاعدة يجب أن يتحمل،ٰأو بالأحرى، يرى نفسه مضطراً بأن يتحمل نفقات كبيرة في ممارسة دوره الوحدوي وهي نفقات لا يمكن له تحملها في السودان إن أريد للوحدة معه أن تكون ـ كما يجب ـ قوية، مثمرة وذات منافع وفوائد تشعر بها الجماهير بشكل مباشر، كما أن هذه النفقات قد لا تحتمل في سوريا أيضاً مما يضعف أيضاً هذه الخطوة الأولى ويفتح فيها ثغرات تعرضها لخطر قاتل من العدو الأميركي ـ الإسرائيلي المتربص بها. ليبيا لا تحتاج إلى نفقات كهذه، وهي عند الاتحاد مع مصر في «قاعدة ـ مركبة» توفر للعمل الوحدوي المحور المتكامل الذي يحتاجه، لأنها تستطيع بمصادرها المالية سدَّ هذا العجز عند تحقيق الخطوة التالية مع السودان أو سوريا أو أي قطر عربي آخر، وخصوصاً مع السودان الذي يكون آنذاك المرشح الأول للخطوة الوحدوية الأولى التي تقوم بها القاعدة المركبة وذلك لتجاوره الجغرافي معها.

هذا لا يعني طبعاً أنه إن توفرت الوحدة مع سوريا أو السودان كخطوة أولى يقوم بها الإقليم ـ القاعدة، يجب تأجيل هذا الاتحاد إلى أن تتحقق وحدته مع ليبيا، بل يعني فقط أن الأوضاع التي يتطلبها نجاح هذه الخطوة الأولى والمهمة تتوفر في أحسن شكل مع الأخيرة، ولهذا وجب التركيز عليها في البداية.

هذه، بكلمة عابرة، بعض الملامح الأساسية العامة للنظرية الوحدوية العلمية الجامعة التي قدمتها حتى الآن في الدراسات الوحدوية التي أشرت إليها والتي أتابعها في الدراسة الحالية، وفي دراسات أخرى قادمة، وذلك بغية تقديم نموذج فكري جديد للعمل الوحدوي.

هذه الملاحظات تطرح، وذلك واضح، المشكلة التالية التي تواجه العمل الوحدوي حالياً:

إن كان التوحيد السياسي غير ممكن الآن بسبب غياب الوضعية الوحدوية الموضوعية، فما الذي يمكن للعمل الوحدوي صنعه إلى أن تقوم هذه الوضعية، وإلى أن يتوفر الإقليم ـ القاعدة الذي يكشف ويحرك القوانين الوحدوية الأخرى المتوافرة لنا، والتي تتشكل من مجموعها هذه الوضعية؟... السؤال الذي يطرح نفسه هو بكلمة أخرى: ما العمل إذن؟... وهو سؤال يجب أن نواجهه بصدق وأمانة.

هذه الدراسة تجيب عن هذا السؤال وتدل، بالرجوع إلى تجارب التاريخ الثورية وتحولاته الكبرى، إن العمل الوحدوي يجب أن يركز أساسياً جهده في هذه المرحلة، وإلى أن يتوفر الإقليم ـ القاعدة، على تنظيم المثقفين الوحدويين وذوي الاستعداد الوحدوي عبر الوطن العربي في إنتليجنسيا وحدوية جديدة يمكن لها التصدي الفعال للتجزئة وما يترتب عليها من إقليمية فكرية ـ نفسية إلى أن تتوفر تلك الوضعية الوحدوية الموضوعية، إنها بكلمة أخرى، تحدد في ضوء

المنهج التاريخي المقارن الأوضاع التي تفرض الاعتماد على الإنتليجنسيا كقوة اجتماعية أولى، أو بالأحرى، كأداة أولى للعمل الثوري[1].

الفكر الوحدوي يركز بشكل عام على دور الجماهير ويتحدث حول الموضوع عادة أو في كثير من الأحيان وكأن دور الإنتليجنسيا لا قيمة إيجابية له، أو غير موجود، إنه لا يتساءل مثلاً كما يفرض التحليل الاجتماعي التاريخي العلمي، عن الأوضاع التي تأخذ فيها الإنتليجنسيا دور المبادرة الثورية، وعن تلك التي تمارس فيها الجماهير هذه المبادرة، فيدرسها ويحللها ويخلص منها إلى بعض المفاهيم العامة. إنه ينظر في كثير من الأحيان إلى العلاقة بين الجماهير والمثقفين أو الإنتليجنسيا في ضوء مفاهيم ميتافيزيقية، لا في ضوء علاقة جدلية، وهو عندما يعترف بدور المثقفين الثوري فإنه يرى أن هذا الدور يشكل في أحسن الحالات دوراً ثانوياً.

الدراسة الحالية تحاول تصحيح هذا الخطأ، وذلك بالتدليل ليس فقط على الدور الطليعي، بل الدور الأساسي الذي تمارسه الإنتليجنسيا في أوضاع أو مراحل كالتي نعيشها حالياً. هذا التصحيح ضروري وملح في تصحيح حركة العمل الوحدوي نفسه في المرحلة الحالية.

هذا الدور الذي تمارسه الإنتليجنسيا لا يضفي عليها - على الأقل في المعنى الذي نميزها به في هذه الدراسة - أي تفوق من حيث القيمة الاجتماعية، أو من حيث الذكاء الضروري لعمل ما. إنه يميز فقط نوعاً من العمل الذي يتطلب بشكل استثنائي ممارسة أحكام فكرية تتطلب، بدورها، الحصول السابق على بعض أنواع المعرفة الجدية والمسؤولة في صعيد الفكر والعقل، وذلك على نقيض العمل الذي يتطلب الاعتماد على القوة العضلية أو يفترض أداء هذه القوة أو الطاقة، هذا لا يعني أبداً، من جهة أخرى، أن المثقف يكون في ذاته أكثر ذكاء من العامل أو الفلاح، بل إنه سيستخدم ذكاءه بطريقة أخرى، وبأن المعرفة التي يحتاج إليها في ذلك تتميز بمقاصد وإمكانات وكفاءات أخرى، وتفترض بالتالي مشاغل أخرى. إن صفوف الإنتليجنسيا تكون مفتوحة بالتالي لأي فرد يكون حياته في عالم الفكر وبموجب العقل النقدي، وهي تشمل جميع الذين يشاركون في السمات المميزة لها - كما أشرنا إليها في الصفحة السابقة - أو يكونون على استعداد لتشكيل هويتهم بموجبها، وذلك بصرف النظر عن مكانتهم أو طبقتهم الاجتماعية، وسماتهم العضوية، وما يملكون، إلخ... ليس من فرد يُستثنى منها، ولكن كل فرد يمارس حق استثناء نفسه منها.

ولكن كي يمكن لهذه الإنتليجنسيا أن تقوم بدورها الوحدوي بشكل فعال خلاق فإنها تحتاج إلى نموذج فكري وحدوي عام يحل محل النماذج التي كانت حتى الآن نماذج تبشيرية، وفي أحسن

---

(1) المجال لا يتسع هنا لأي تحديد او تحليل مفصل عام لكلمة الإنتليجنسيا، طبيعتها، معناها (او بالأحرى معانيها)، جذورها التاريخية، أوضاع ظهورها ودلالتها، إلخ.. ولكننا سنعود إلى هذا الموضوع في دراسة ثانية تكمل الدراسة الحالية، بعنوان "الثورة: بين الإنتليجنسيا والجماهير". هنا نكتفي بالقول أن الكلمة هي كلمة روسية "من اصل بولندي كما يقول البعض" وقد استخدمت لأول مرة في روسيا، في الستينات من القرن الماضي وذلك للإشارة إلى المثقفين الذين كانوا يمارسون النقد الفكري لزمانهم ومجتمعهم، ويرفضون النظام القائم ويدعون إلى تغييره ويقدمون تصورات ومفاهيم عامة جديدة أو نظريات نقدية حول المجتمع والتاريخ، أو النظام الاجتماعي السياسي ككل، يلتزمون بالأفكار الثورية التي يقدمونها ويعيشون لها ويحيون بها. في هذا المعنى نستخدم هذه العبارة هنا.

الحالات ميتافيزيقية، أي نماذج فاشلة لا تستطيع قيادة العمل الوحدوي، بتوفير طاقاته وإمكاناته وتوجيهها ضمن استراتيجيا صحيحة نحو دولة ـ الوحدة.

الإنتليجنسيا لا تستطيع أن تمارس دورها نتيجة الرغبات والمشاعر الوحدوية، لا تستطيع، مهما كانت صادقة، أن تقود النضال العربي نحو دولة ـ الوحدة بصرف النظر عن الوضعية الوحدوية الموضوعية التي يجب أن تتوفر لها، لا تستطيع أن تحل محل الإدراك العلمي للطريق الموضوعية التي يمكن أن تقود إلى هذه الدولة. إفلاس النماذج الفكرية السابقة والتي لا تزال، مع الأسف، تهيمن على النضال العربي فيما يتعلق بالطريق إلى دولة ـ الوحدة، يعني في الوقت نفسه إفلاس الإنتليجنسيا الوحدوية التي كانت تعبر عن هذه النماذج، هذا يعني ضرورة ظهور إنتليجنسيا جديدة تعبر عن نموذج فكري علمي جديد يحل محل تلك النماذج ذات الطبيعة التبشيرية أو الميتافيزيقية.

هنا نجد الخلل الأساسي الذي وقفت عنده مراراً في دراساتي الوحدوية السابقة،، والذي يجب الإشارة إليه مرة أخرى إشارة عابرة في التمهيد للدراسة الحالية التي تحاول، كتلك الدراسات، إضاءة الطريق إلى دولة ـ الوحدة من زاوية أخرى جديدة. هذا الخلل هو تجاهل تلك النماذج بشكل عام الرجوع إلى الظاهرة الوحدوية، أي إلى تجارب التاريخ الوحدوية التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة أو كيانات مستقلة من حالة تجزئة إلى حالة وحدة. المجتمع العربي ليس أول مجتمع في التاريخ يحاول تحقيق وحدته، فالتاريخ مليء بالتجارب التي كانت تحاول فيها مجتمعات مجزأة أو كيانات سياسية مستقلة تجاوز التجزئة وتحقيق الاتحاد بينها، فتنجح حيناً وتفشل حيناً آخر.

العقل، والمنهج العلمي، كلاهما يفرض أول ما يفرض، وهذا بديهي، الرجوع إلى الظاهرة التي يعالجها، ودراسة وتحليل طبيعتها وسياق تحولاتها قبل إعطاء أحكام حولها. هذا العقل يقول بذلك لأنه اكتشف أن الظواهر الاجتماعية السياسية ليست ظواهر منفصلة واعتباطية، وليست تعبيراً عن رغبات وأهواء ذاتية، ليست أشياء نكونها كما نريد، ليست انعكاساً لعقل صرف، إلخ... بل هي تتميز بموضوعية، بسياقات خاصة بها، هذه هي ميزة العقل الحضاري الحديث التي تميزه عن كل عقل حضاري سابق[1]. هذه هي الميزة الأساسية التي تفسر سر نجاحاته ومنجزاته الضخمة والهائلة الأبعاد في العصر الحديث. إنه عقل يرى أن الظواهر الطبيعية، وكذلك الظواهر الاجتماعية السياسية، تخضع لقوانين، أو انتظامية عامة تتميز بموضوعية وبجدلية مستقلة نسبياً عن إرادتنا، وأن درجة الحرية التي يحققها الإنسان، ودرجة قدرته على تطويعها والسيطرة عليها ترتبط بدرجة إدراكه لها والعمل في ضوئها.

الفكر الوحدوي كان حتى الآن يقدم ـ وطيلة مائة عام ـ نماذج فكرية حول الطريق إلى دولة ـ

(1) هذا هو سر نجاح ابن خلدون التاريخي كمفكر مبدع كبير إنه كان اول من اكتشف هذا المبدأ في دراسة الظواهر الاجتماعية السياسية وطبقة في دراسته لها. إنه اول من نبه بأن التفاعل الاجتماعي يقود إلى نتائج غير مقصودة تترتب عليه ويمكن تنظيمها بقوانين أو انتظامية عامة تسودها. إننا نتكلم في هذا الأيام كثيراً عن التراث، ولكن كي نصل عادة إلى نتائج راكدة، خاملة حيث تتجاهل اساسياً خصائص هذا التراث الأساسية، أو "الروح" الحقيقي الكامن وراء جوانب الخلق والإبداع فيه. هنا نجد أحد هذه الجوانب الذي نحتاج إلى الارتباط به وتجديده والعمل به.

الوحدة، ولكن دون الرجوع إلى هذه الظاهرة، وكأن هذه الظاهرة غير موجودة أبداً. منذ نصف قرن على الأقل كان يتكلم «علمياً» عن الطريق إلى الوحدة ولكن دون أي وعي لهذا المبدأ العلمي وضرورة الانطلاق منه إن كان يريد الكلام «علمياً» عن هذه الطريق. لهذا ليس من الغريب أن نجد بأن تلك النماذج الفكرية كانت فاشلة وعاجزة عجزاً ذريعاً في توجيه العمل الوحدوي بشكل فعال نحو دولة ـ الوحدة. إنها ألحقت، في الواقع، أذى كبيراً بالعمل الوحدوي وكانت، في بعض الأحيان، كارثة تاريخية على هذا العمل كما حدث، مثلاً، في المرحلة الناصرية حيث توفرت لنا الوضعية الوحدوية التي لا يمكن بدونها الانتقال إلى هذه الدولة أو تحقيق قفزة كبيرة نحوها، فعجز العمل الوحدوي عن الإفادة منها وتطويعها لهذا القصد، وهو عجز يعود بقدر كبير إلى تلك النماذج الفكرية التي كانت تهيمن عليه(1).

لهذا كان من الضروري جداً تصحيح هذا الخلل ومن الضروري جداً تقديم نموذج فكري وحدوي جديد يتجاوز تلك النماذج المهزومة، وذلك بالانطلاق من الظاهرة الوحدوية (ومن الظاهرة الثورية أيضاً لأن العمل الوحدوي هو بطبيعته ذاتها عمل ثوري) في تحديد الجوانب الأساسية للطريق إلى دولة ـ الوحدة. إن الدراسات الوحدوية التي أشرت إليها، ما صدر منها حتى الآن وما سيصدر قريباً تشكل محاولة في تصحيح هذا الخلل.

الميزة الأساسية التي تميز المثقف الحقيقي ليست الشهادات الجامعية العليا، ليست الدكتوراه (التي أسميها شخصياً لقب الأمية الحديثة)، ليست حتى عدد الكتب التي يكون قد قرأها، بل هي استيعابه وتمثله، وليس فقط إدراكه، لهذا العقل العلمي الذي أشرنا إليه، وقدرته بالتالي على ممارسته في المشاكل التي يدرسها ويعالجها، وفي الحوار أو النقاش الذي يدخل فيه حولها. إنها القدرة على الموضوعية العلمية والعقلانية العلمية والعقل النقدي في استيعاب المعرفة، لهذا كان من الأسهل على المتعلم أو المثقف بأن يكون نصف. مثقف على أن يكون مثقفاً حقيقياً، لأن النصف الآخر لا يتوفر عن طريق القراءة، أو الشهادات الجامعية، أو المعرفة فقط، بل بإدراك طبيعة المعرفة الحقيقية.

إن جوهر النموذج الفكري العلمي الجديد في تاريخ المعرفة هو في الطريقة الجديدة التي ينظر بها إلى المشاكل أو الظواهر التي يعالجها. هذا هو أيضاً جوهر الثورة، أي ثورة، إنه في الطريقة الجديدة في رؤية المجتمع والتاريخ والحياة نفسها.

إن توماس باين، المفكر الثوري الكبير في القرن الثامن عشر، يؤكد أنه عندما تفشل السوابق وجب علينا الرجوع إلى مبادىء أولى وبأن نفكر كما لم نفكر أبداً في السابق. النماذج الفكرية الجديدة التي كانت تظهر عبر التاريخ كانت نتيجة فشل من هذا النوع، لكنه فشل كانت ترافقه إعادة نظر جذرية في الأفكار والمفاهيم السابقة، وبالتالي القدرة على صياغة نموذج أو نماذج فكرية جديدة تصححها وتتجاوزها. الفكر العلمي الحديث جعل من الممكن حالياً ظهور نماذج فكرية علمية بالمعنى الذي أشرنا إليه. الفكر الوحدوي مدعو الآن، وبالضبط بسبب فشل

---

(1) في كتاب "جذور الإقليمية الجديدة" معهد الإنماء العربي، 1983، بيروت. حللت بشكل مفصل الأسباب الأساسية التي تفسر هذا العجز.

النماذج الفكرية الوحدوية السابقة، إلى إعادة نظر علمية جذرية في هذه النماذج لتصحيحها وتجاوزها.

هناك، كما يكشف التاريخ، فرق بين ظهور نموذج فكري جديد وبين قبوله. فالنموذج الجديد لا يستطيع أن يفرض ذاته نتيجة عقلانيته العلمية فقط، بل يحتاج في ذلك إلى انهيار النموذج السابق، أو عجزه الواضح أمام الظاهرة أو القضايا والتناقضات التي يفترض به إدراكها ومعالجتها وضبطها. هذا واضح حتى في العلوم الطبيعية حيث نجد أن النماذج العلمية الجديدة كانت تجد مقاومة شديدة من النموذج الفكري السابق ودعاته.

إن داروين، مثلاً، يكتب في فقرة من نهاية كتابه «أصل الأنواع»، «على الرغم من قناعتي التامة بصحة وجهات النظر المقدمة في هذا الكتاب... فإنني لا أتوقع بأي شكل إقناع العلماء الطبيعيين المجربين، المحشوة أدمغتهم بكمية كبيرة من الوقائع التي ينظر إليها كلها، وأثناء سنوات عديدة، من وجهة نظر تتعارض مباشرة مع وجهة نظري... ولكنني أتطلع بثقة إلى المستقبل، إلى علماء طبيعة شباب صاعدين من الذين يكونون قادرين على رؤية كلا الجانبين من المسألة دون تميز»[1].

وماكس بلانك في عرض لحياته العلمية في «سيرة ذاتية علمية»، لاحظ بحزن «بأن الحقيقة العلمية الجديدة لا تنتصر بإقناع معارضيها وجعلهم يرون النور، بل بالأحرى، لأن معارضيها يموتون في نهاية الأمر، وجيل جديد ينمو مطلعاً عليها[2].

الدراسة الحالية حول دور المثقفين أو الإنتليجنسيا تنطلق، كالدراسات الوحدوية السابقة، من هذا العقل العلمي الذي أشرنا إليه وتحاول جاهدة التقيد بأحكامه أو عقلانيته.

لهذا فإن أي نقد أو تعليق علمي حولها يجب أن ينطلق من هذا العقل وأحكامه. عندما ينتقد مفكر علمي مفكراً ما في أطروحة أو نظرية يقدمها، أو نتيجة يخلص إليها، فإنه يصنع ذلك، أو يفترض أنه صنع ذلك بالرجوع إلى الواقع والاحتكام إليه، أي بالتدليل على أن الأشياء أو الاتجاهات الانتظامية التي تكشف عنها ليست كما وصفها وحددها. لهذا كان على أي نقد للنتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة - أو الدراسات السابقة - أن يرجع، إن أراد أن يكون علمياً، إلى الواقع الذي تعود إليه هذه النتائج، وأن يدل بالاحتكام إليه أنها تتناقض معه. إن النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة كانت نتاج بحث علمي، أي بحث يتبع منهجاً معيناً في الوصول إلى نتائجه، ولهذا يمكن لأي باحث أو قارىء علمي التحقق من موضوعية النتائج بالرجوع إلى المنهج نفسه، أو الواقع الذي يرجع إليه هذا المنهج، الوقائع التي يتشكل منها هذا الواقع.

---

(1) Darwin, Charles: On the Origins of the Species, 1889.

(2) Plank, Max: Scientific Autobiography and other Papers, 1949, pp 33-34.

(1)

جدلية التخلف الموضوعي الثوري

التخلف الموضوعي وأشكال الوعي الثوري الحديث

ما العمل إذن؟... أين يجب تركيز الجهد الوحدوي[1] في غياب وضعية وحدوية موضوعية لا يمكن بدونها نجاح العمل الوحدوي السياسي؟.

هنا أيضاً يجب أن نرجع إلى المنهج نفسه الذي رجعنا إليه في تحديد «الوضعية الوحدوية» فندرس عبر التاريخ الثوري وتحولاته الاجتماعية والفكرية وفي ضوء المنهج التاريخي المقارن، ما كان يحدث عندما تكون الأوضاع الموضوعية غائبة أو متخلفة عن تقديم الأساس الموضوعي للتحولات أو المقاصد الجديدة التي يبغيها العمل الثوري. عندما يغيب هذا الأساس كيف كان يتجه الجهد الثوري؟... وأين كان يركز طاقته؟.

مراجعة مراحل من هذا النوع تدل بوضوح أن تخلف الأوضاع الموضوعية التي يحتاجها العمل الثوري أو بالأحرى المقاصد التي يدعو إليها كان يعني تركيزاً أساسياً على دور الوعي الثوري، وأداته الإنتليجنسيا، وأن هذا التوكيد كان يزداد بقدر تخلف هذه الأوضاع. ليس من قبيل المصادفة أن تكون أعظم ثورات العصر الحديث، وابتداء من الثورة الفرنسية، قد حدثت في بلدان متخلفة.

إننا نرجو، عن طريق تحليل للحالات التاريخية الثورية المماثلة لحالتنا، أي الحالات التي كانت فيها الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية غير ناضجة للثورة، أو كانت بالأحرى، تكشف عن هوة كبيرة بينها وبين مقاصد الثورة، أن نقدم نظرية عامة تساعد ليس فقط في إدراك المشاكل والقضايا والمخاطر التي تواجه الثورة بل مساعدتنا في تنظيم أنفسنا في مجابهة

---

(1) إنني لا اقول الجهد "الثوري" لأن كل جهد ثوري لا يكون جهداً وحدوياً ينطلق من موقع وحدوي ويتمحور على دولة. الوحدة، لا يمكن أن يكون في المدى البعيد، على الأقل، جهداً ثورياً أو حتى تقدمياً في أي شكل جدي كان. إن جهداً من هذا النوع ينتهي عاجلاً أو آجلاً إلى الثورة. المضادة، ويكون "حرباً" على التقدم والثورة. ثم إنني لا اقول الجهد الوحدوي "الثوري" لأن الجهد "الوحدوي". سواء كان فكرياً أو سياسياً. يكون بطبيعته ذاتها ثورياً، ولا يمكن أن يكون وحدوياً دون أن يكون ثورياً.

إنني الآن أُعد دراسة بعنوان: "ضرورة دولة الوحدة" تشرح الأسباب التي تجعل من هذه الدولة ضرورة أساسية وبقائية تتقدم وتعلو علو كل قصد آخر، وكيف أن التركيز عليها والانطلاق من فكرتها كقياس يقيس كل عمل وكل فكر، يشكلان قاعدة ومنطلق كل يسار وكل موقف يساري صحيح.

التحديات الكبرى التي يواجهنا بها الجزر الوحدوي حالياً. الدراسة تتجه بشكل خاص إلى الذين يتمردون على هذا الجزر ويتذمرون من الوضع القائم من زاوية وحدوية، ويتطلعون إلى مخرج منه، مخرج يتميز بعقلانية علمية مقنعة.



الأمثلة والشواهد التاريخية على هذه العلاقة «الجدلية» بين تخلف الأوضاع الموضوعية وحدة التركيز على دور الوعي وأداته الإنتليجنسيا كثيرة، تحتاج، في الواقع إلى دراسة خاصة مستقلة ضخمة، هنا نكتفي بمجموعة من هذه الأمثلة والشواهد بغية التمثيل العام على ذلك.

عند مراجعة التجارب الثورية الحديثة نجد، مثلاً، أن «مركز» الثورات والحركات الثورية كان ينتقل من الغرب شرقاً ويزداد ثورية مع ازدياد درجة التخلف الموضوعي.

الإيمان الثوري بقوة الشعب التحريرية كان يتجه بازدياد إلى اليسار مع تزايد امتداده إلى شرقي أوروبا. إن نشاط باكونين، مثلاً، كان تعبيراً عن ذلك، دليلاً عليه، وواضحاً بشكل خاص في توكيده على إمكانات الفلاحين الثورية، على الطبقة المتخلفة الأوضاع، وليس على إمكانات العمال كطبقة - متقدمة الأوضاع نسبياً. «الشعبية (populism) الثورية نمت من وهم المفكرين حول شعب غير ملوث، يتشوق إلى التحرر، ويتفرع التحرر الأخلاقي من وسطه ذاته. في أعقاب ثورة 1848، أخذت هذه «الشعبية» تتطور ببطء في كتابات باكونين، وألكسندر هيرزن، الروسيين القياديين اللذين شاركا في أحداث ذلك العام في غربي أوروبا»[1].

الإيمان بعفوية الجماهير الذي كان ضمنياً، أصبح صريحاً مع ظهور ثورة 1905 الروسية. إن روزا لوكسمبورغ حللت، في نشرتها «الإضراب الشعبي، الحزب السياسي، ونقابات العمال» هذه الأحداث الجديدة «التي أدهشت فيها روسيا المتخلفة - التي كان الاشتراكيون في كل مكان يتوقعون أن تكون آخر بلد تبرز فيه حركة ثورية - العالم الغربي كله»[2].

على عكس ما حدث في أوروبا الغربية - حيث انطلقت النظرية الماركسية في طور كانت تقترب فيه الثورة البرجوازية من نهايتها، وحيث عبرت عن اتجاه حقيقي ومباشر نحو تجاوز مقاصد الحركة البورجوازية الثورية، وهو الاتجاه الطبقي البروليتاري. - فإن هذه الماركسية، كما كتب المفكر الماركسي كورش، لم تكن في روسيا، من البداية، أكثر أو أقل من شكل أيديولوجي في لباس صراع مادي يرمي إلى نقل التطور الرأسمالي إلى بلد غير رأسمالي. كل الإنتليجنسيا التقدمية قذفت نفسها بشراسة، لأجل هذا القصد، في الماركسية التي اعتبرتها الكلمة النهائية التي تقولها أوروبا حول الموضوع[3].

الفلاحون «المتخلفون» وليس البروليتاريا الصناعية هم الذين كانوا يشكلون القوة الاجتماعية المحركة الأساسية في الثورات الاجتماعية الكبرى الحديثة. البروليتاريا الألمانية أو

---

(1) Billington, James: Fire In The Minds of Men, Origins of the Revolutionary Faith, Basic Books, 1980, p. 163.

(2) Friedland, Williams et al., Revolutionary Theory Allenheld, Osmumand co. 1982, p. 91.

(3) Korsh, Karl: Marxisme et Contre - Rivolution Editions du Seuil, 1975, p. 144.

البريطانية، مثلاً، الأكثر تقدماً هي التي فشلت في صنع ثورات بروليتارية، وليس البروليتاريا الروسية المتخلفة، إن أنجلز كتب بأن العمال الألمان يدركون معنى الاشتراكية العلمية الألمانية أحسن بكثير من إدراك العمال البرودونيين في البلدان اللاتينية لبرودنهم[1]. ولكن العمال الألمان لم يصنعوا الثورة رغم، «إدراكهم» للاشتراكية العلمية الألمانية «أكثر» من غيرهم.

الفلاحون دللوا، بشكل خاص، على إمكاناتهم الثورية أثناء أحداث عام 1917 الدراماتيكية، ولكن البولشفيك ظلوا في البداية يتجهون إلى نشر ثورتهم في البلدان الصناعية في الغرب. ولكن في مؤتمر عقد في باكو عام 1920 ظهر اهتمام باستخدام إمكانات الفلاحين الثورية في البلدان الآسيوية[2]، في عام 1924، كانت قد حدثت مجموعة من الثورات والانتفاضات البروليتارية التي فشلت، في ألمانيا، هنغاريا، إيطاليا، وأمكنة أخرى، ومع هذه الهزائم اتجه البولشفيك إلى الشرق وإلى الفلاحين في آسيا، ولكن الاعتراف بالفلاحين كطبقة اجتماعية حية قادرة على العمل الثوري لم يحدث إلا بعد قيام الثورة الصينية.

لهذا لم يكن غريباً أن نجد بأن الإنتليجنسيا، في المعنى الذي أشرت إليه، تشكل ظاهرة متكاملة في أوروبا الشرقية وخصوصاً روسيا، «إن الإنتليجنسيا الروسية مارست في مرحلة ما - قبل الماركسية، وما بعدها، دوراً أساسياً لا نجد ما يعادله في البلدان الغربية. ولكننا نجد اتجاهات مماثلة له في البلدان النامية»[3].

هذه الإنتليجنسيا تشكل سمة مميزة للمجتمع في البلدان غير المتقدمة أو المتوقفة النمو، إن عناصر مثقفة تنفصل نفسياً وأخلاقياً - كما حدث في روسيا في القرن التاسع عشر - عن وسطها، وعن نفسها، لتشكل نخبة - مضادة للنخبة الحاكمة، وتكرس ذاتها للتحول الجذري. وعلى الرغم من انها تشكل جزءاً من الأقلية المحدثة في المجتمع فإنها تربط مصيرها بالأكثرية المظلومة. وعلى الرغم من أنها أقلية من ناحية العدد، فإنها - كما كانت في روسيا - تستطيع الاعتماد على دائرة ثورية واسعة كبيرة بين السكان، وخصوصاً تحت وطأة أوضاع غير عادية تدفع الفقراء والمظلومين إلى الاستجابة للقيادة الثورية المنظمة في حزب يتشكل أساسياً في الإنتليجنسيا التي عقدت عزمها على صنع الثورة. «في وضع كهذا يتحرك المجتمع المنفتح للثورة نحو ما أسماه لينين بالوضعية الثورية»[4].

التوكيد على العامل السياسي بلغ بالتالي قمته في اللينينية، الستالينية، ومن ثم الماوية، أي

---

(1) Anarchism and Anarcho-Syndicalism, Selected Writings by Marx, Engels, Lenin, International Publishers, New York, 1974, p. 91.

(2) إن لينين تبنى مفهوماً غير ماركسي، في الواقع، حول الدور الذي يقوم به الفلاحون في الثورة. إن ماركس اعتبر الفلاحين كطبقة متخلفة تمثل الملكية الخاصة في وسائل الإنتاج في أكثر أشكالها رجعية. إن زوال الملكية الخاصة الصغيرة في الزراعة كانت تعني، كما كانت تعني في الصناعة، التقدم الاقتصادي. ولكن لينين رأى أن الثورة لا تستطيع الانتصار في روسيا دون تعاون الفلاحين، ولهذا كان مستعداً بأن يدعم مطالبهم في تقسيم الملكيات الإقطاعية الكبيرة. النتيجة المباشرة لهذه السياسة قد تكون ظهور طبقة قوية من ملاكين مستقلين يمكن أن تهدد السيطرة الاشتراكية على روسيا، ولكن لينين كان مستعداً للمجازفة. إنه سيستخدم تذمر الفلاحين كأداة في تحقيق الثورة البروليتارية، وبعد ذلك يفرض عليهم التخلي عن ملكيتهم الخاصة، المكتسبة حديثاً، وتبني الاشتراكية.

(3) Coser, Lewis: Men of Ideas. The Free Press, 1966, p. 158.

(4) Tucker, Robert: The Marxian Revolutionary Idea, W.W Norton and Co 1969, p. 121.

في الماركسية التي ظهرت في بلدان تخلفت فيها الأوضاع الموضوعية - من اقتصادية واجتماعية وسياسية - تخلفاً كبيراً عن مجاراة المقاصد الثورية التي قالت بها، ولكن الماركسية التي ظهرت في البلدان الغربية المتقدمة، المتمثلة في الأممية الثانية أكدت بشكل كلي على عمل العنصر الاقتصادي الذي يقود آلياً إلى الاشتراكية.

كثير من المفكرين الماركسيين الكبار ابتداء من إدوار بيرنتشتين، جورج لوكاش، وأنطونيو غرامشي، مثلاً، قاوموا أطروحة هذه الماركسية (كورش يقول الماركسية الوسطية) التي ترى في «انهيار الرأسمالية ومجيء المجتمع الاشتراكي والشيوعي نتيجة حتمية اقتصادية تتحقق من ذاتها، عاجلاً أم آجلاً، وذلك بحتمية القانون الطبيعي»[1]. بعض هؤلاء كانوا يرون في الماركسية أو يجعلون منها نشاطاً نقدياً من حيث جوهرها: يتجلى في نقد الاقتصاد الرأسمالي والأيديولوجية البورجوازية في جميع أشكالهما.

ولكن نقداً كهذا ينسى أن القضية ليست قضية فكرية صرفة يمكن حلها بالحجة المنطقية، بل هي قضية أوضاع موضوعية تدفع نحو نمط معين من التفكير، وأن ما يفسر بالتالي هذه الماركسية التطورية أو الميكانيكية ليس خطأً في تفسير الماركسية، بل ما تكشف عنه هذه الأوضاع نفسها من «أسباب» تدعو إلى هذا «الخطأ»، أي من تحولات موضوعية تبدو وكأنها تدفع نحو المقاصد الثورية العليا، أو تقرب باستمرار بين الواقع الموضوعي وهذه المقاصد. لهذا فإن رجوع أصحاب هذا النقد إلى كتابات ماركس وأنجلز وما «تقوله» في دحض هذه الماركسية لا يكون قادراً على تغييرها[2]. الدليل على ذلك هو أن الماركسية الغربية استمرت في سلوك هذا الطريق الاقتصادي - السياسي التطوري إلى أن امتدت إلى الأحزاب الشيوعية نفسها في ما يُسمى «بالشيوعية - الأوروبية»، فأصبحت كالأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي عبرت سابقاً عن هذه الماركسية. إن كانت الأحزاب الشيوعية الطليعية الثورية في الغرب عاجزة، على نقيض مثيلتها في شرقي أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، عن صنع الثورة، فذلك لا يعود لأسباب ذاتية، بل إلى أسباب موضوعية تتميز أساساً بتخلفها الكبير عن مجاراة مقاصدها الثورية، بالهوة الضخمة الموجودة بينها وبين هذه الأخيرة.

عند توفر هذا الحزب الثوري الطليعي المنظم، لا تكون هناك حاجة، كما يكتب المفكر الماركسي الأميركي، ألفين فولدنر، «إلى توفر مجموعة خاصة من الأوضاع الاجتماعية الضرورية للثورة. كل ما يجب توفره آنذاك هو التعبئة الفعالة لما قد يتوفر من استياء واستخدام بعض الأحداث السيئة. الطلائع اللينينية نجحت فقط في مناطق متخلفة نسبياً، حيث كانت

---

(1)K. Korsh: op. cit. p. 17.

(2) إن كارل كورش، مثلاً، كتب: "إن الصراع القاسي الذي قاده الماركسيون في إطار الأممية الأولى ضد أتباع برودون وباكونين يدل بوضوح أن ماركس وانجلز لم يتخليا أبداً عن مفاهيمهما السابقة حول أهمية العامل السياسي الحاسمة، العامل الذي اعتبره كالشكل الواعي الوحيد والمتطور تماماً لعمل الطبقة الثورية. إن ماركس وانجلز أعلنا، في الواقع، بصراحة، وذلك في البيان الشيوعي" بأن "كل صراع طبقي هو صراع سياسي" وأن تشكيل البروليتاريين في طبقة" يفترض "تشكيلهم في حزب سياسي". هكذا نجد أن ماركس كان، من أول حياته إلى آخرها، يحدد مفهومه الطبقي، من ناحية أساسية، في عبارات سياسية، كما كان، من حيث الواقع، هذا إن لم يكن من حيث الكلام، يخضع شتى النشاطات التي تمارسها الجماهير في صراعها الطبقي اليومي إلى الأعمال التي يمارسها، باسمها، قادتها السياسيون".
I Korsh, K: op. cit, pp. 160 - 161.

الطبقات المالية لا تزال غير ناضجة، والطبقات الإقطاعية كانت قد خسرت سمعتها، والدولة كانت ضعيفة أو في حالة تمزق»، ثم يضيف «إن مستقبل النموذج الطليعي اللينيني يرتبط إذن بسياسة المناطق غير النامية. فهنا يمكن له النجاح عندما يواجه جهازاً حكومياً غير متطور، أو حيث تكون أدوات الدولة القمعية، وخصوصاً الجيش قد سحقت من قبل دولة أخرى. إن ثورة أكتوبر كانت نتيجة الإعداد لها من قبل طليعة لينين و«الجيش الألماني»، (وليس بدون استعدادات مشتركة غير مباشرة بين الاثنين). ولكن ليس من المحتمل أن يحقق النموذج اللينيني. الطليعي نجاحاً كبيراً في دولة سليمة وفي مجتمع صناعي متقدم يعتمد جهازاً حديثاً من المواصلات العامة. إن مبادرات هذا النموذج تنجح على الأرجح عندما تكون الولاءات العامة للدولة قد انهارت نتيجة كوارث عسكرية كبيرة واستسلام نخبتها العاجزة المُذِل لإمبريالية أجنبية»[1].

إن ثورات العصر الحديث، ابتداء من الثورة الفرنسية أو الثورة الأميركية، دللت بوضوح بأن أزمة الدولة، أي عجزها الذي يكشف فجأة عن ذاته، في عرقلة أو تجميد حركات اجتماعية غير متوقعة، كذلك أيضاً عجزها عن التحول، أو الاستمرار كقوة باطنية في الوجدان الاجتماعي. أن هذا العجز هو الذي يمهد الطريق لظهور محاولات ثورية ضدها.

في كتابه «حرب العصابات» يعلن شي غيفارا بوضوح أن نشاط العصابات ينمو فقط بعد استنزاف إمكانات الصراع السلمي. «عندما تصل حكومة إلى السلطة عن طريق شكل ما من أشكال الانتخاب العام، سواء كانت مزورة أم لا، وتحافظ على الأقل ظاهرياً على الشرعية الدستورية، لا يمكن لحرب العصابات أن تقوم لأن إمكانات الصراع السلمي لم تستنزف بعد»[2]. طالما أن الشعب يرى، بكلمة أخرى، ان التغيير الاجتماعي يمكن أن يحدث بوسائل سلمية، فإن ظهور الكفاح المسلح لا يكون ممكناً لأن بناء أساسه الضروري في وسط الشعب لا يكون متيسراً. هذا يفسر، مثلاً عجز اليسار الجديد عن خلق تعبئة ثورية عن طريق أعماله السرية في الولايات المتحدة، بعد عام 1970، أو في أوروبا الغربية عند انفجار ثورة الطلاب عام 1968.

هذا يدعم من زاوية سياسية، النظرية التي نقدمها هنا حول علاقة الوعي الثوري بالتخلف، لأنه يعني أن «التقدم» السياسي أي وجود نظام ديمقراطي مستقر يسمح بحرية الرأي والتنظيم، وتشكيل الأحزاب والمناقشة الحرة، يشكل حاجزاً منيعاً أمام قيام العمل الثوري، وأن «التخلف» السياسي، أي غياب نظام من هذا النوع يشجع على ذلك.

التجربة الماركسية ـ الشيوعية تدل وإن بشكل ضمني غير مقصود، على جوانب أخرى عديدة حول هذه العلاقة. فأمام إلحاح أتباعه في روسيا الذين كانوا يسألونه، مثلاً، إن كان من الممكن قيام الثورة الاشتراكية فيها وفي أوضاعها المتخلفة أجاب ماركس بأن حدوث هذه الثورة قبل تفكك نظام «المير» (Mir) في القرى الروسية ـ وهو تفكك يعني بروز الفردية وحب الملكية بين الفلاحين ـ يجعل من الممكن فوزها وانتقالها رأساً إلى الاشتراكية دون المرور في الطور

(1) Gouldner, Alvin: The Future of Intellectuals and the Rise of the New Class, The Seaburg Press, 1979, p. 80.
(2) Friedland, W. et al.: op. cit. p. 181.

البورجوازي. هذا يعني، بكلمة أخرى، أن ماركس رأى في التخلف نفسه عنصراً إيجابياً يساعد الثورة على تحقيق ذاتها.

من الممكن أيضاً القول إن نظرية ماركس حول الثورة هي نظرية تنطلق من «تخلف» طبقة معينة، البروليتاريا، وترى في هذا التخلف نفسه القوة المفجرة للثورة الاشتراكية. إن ماركس وأنجلز حاولا التدليل بأن ثورة طبقة العمال تجد جذورها في ملكية الرأسمالية وعلاقاتها الطبقية التي تعني استثماراً ساحقاً لها، وهو استثمار ينتج عن المقومات الأساسية للرأسمالية: الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وللملكية المنتجة، أجور العمل ونظام الإنتاج، والتبادل المتمحور على الربح والمنافسة الاقتصادية واللامساواة اللتين تنظمهما السوق التجارية. هذا الوضع البائس هو الذي يحول طبقة العمال إلى طبقة ثورية، أو إلى الطبقة الوحيدة التي تنطوي على إمكانات إسقاط الرأسمالية وإقامة نظام اجتماعي جديد يستخدم التحسينات التي حققتها الرأسمالية، ولكنه يزيل الآلام التي ترتبت عليها.



إن نحن انتقلنا إلى أوروبا الغربية نجد أيضاً أن التجارب الثورية التي حدثت فيها تكشف عن العلاقة الجدلية نفسها بين تخلف الأوضاع الموضوعية وبين ظهور وعي ثوري متكامل فعال.

المؤرخ الفوضوي، دانيال غيرين، وجد أن «أحد الأسباب الأولى لقوة الفوضوية في إسبانيا يعود إلى الحالة المتأخرة لبلاد متخلفة.. إن التسيير - الذاتي الزراعي الذي أقامته الحركة الفوضوية في إسبانيا أثناء الحرب الأهلية في الثلاثينات كان ناجحاً بشكل لا يمكن الشك فيه، وهو نجاح كان ممكناً بسبب وضع الزراعة المتخلف»[(1)].

الفوضوية كما أشار أحد الكتّاب الإسبان آنذاك، «كانت من حيث نفسيتها ومزاجها وردود فعلها القطاع الأكثر أسْبَنَةً في جميع إسبانيا.. إنها ضربت جذورها ليس في المدن فقط، بل في الريف، بين الفلاحين الفقراء، حيث استمر تقليد سابق من الجماعية القروية»[(2)].

إن الثورة - المضادة «أي الفاشستية» في أوروبا الغربية واجهت في بلد واحد فقط مقاومة كانت حقيقية - مستقلة، وبناءة رغم هزيمتها النهائية. هذا البلد لم يكن أحد البلدان المتقدمة بل إسبانيا المتخلفة اقتصادياً وسياسياً[(3)].

حوالى عام 1975، حل الحزب الشيوعي الإسباني محل الحزب الإيطالي كالحزب الأكثر صراحة في التعبير عن «الشيوعية الأوروبية». إن أحد المعلقين كتب آنذاك بأن «الإسبان يقولون ما يفكر به الإيطاليون»[(4)]. حدث هذا في أعقاب التنمية الاقتصادية الضخمة التي حققتها إسبانيا في الخمسينات والستينات، وليس قبلها.

في إسبانيا المتخلفة اقتصادياً كان يوجد القليل من العمال، ومن التقدم الاقتصادي،

---

(1) Guerin, Daniel :L, anarchisme, Gallimard, 1976, pp. 137, 155.
(2) ibid, p. 137.
(3) Korsh, K: . cit, p. 241.
(4) Laqueur, Watler: A Continent Astray, Europe 1970-1978 Oxford University Press, 1979, p. 102.

والكثير، الكثير، من الروح الثورية، ولكن في إسبانيا المتقدمة اقتصادياً التي تكاثر فيها العمال، نجد القليل من الروح الثورية السابقة.

إن كانت القومية الباسكية في إسبانيا أكثر عنفاً في المرحلة الحديثة، فذلك يعود جزئياً إلى سياسة القمع القاسية في ظل نظام فرانكو. ولكن هناك أيضاً، كسبب آخر، خوف الباسك بأنهم يخوضون معركة خاسرة لأجل الحفاظ على هويتهم القومية إن عجزوا عن تحقيق مقاصدهم سريعاً. إن انحسار نسبة الباسك المئوية في عدد السكان دفع إلى رد قوي، وحدّة في هذا الرد من القوميين الثوريين.

كانت فرنسا، وليس البلدان الأوروبية المتقدمة، في نهاية القرن الثامن عشر مركز الحركة الثورية العالمية. في أواسط القرن التاسع عشر انتقل هذا المركز إلى ألمانيا المتخلفة نسبياً حيث نمت ولادة الماركسية ودخلت البروليتاريا المسرح السياسي. في بداية القرن العشرين أو النصف الأول منه، انتقل هذا المركز إلى روسيا، وكانت اللينينية أداة انتصار الثورة فيها. فمن دون اللينينية التي صَعَّدت إلى مستوى جذري جديد دور الوعي الثوري والإنتليجنسيا، لما انتصرت الثورة الروسية، وقد انتقل هذا الدور في أواسط القرن العشرين أو بداية النصف الثاني منه إلى الصين.

بين البلدان التي انتصرت فيها الاشتراكية نجد فقط حتى الآن أن ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا حققتا تقدماً رأسمالياً نسبياً عند استلام الشيوعية للسلطة، أما في جميع البلدان الأخرى فكان هذا المستوى متخلفاً جداً. إن الثورة لم تتفجر في بلدان أوروبا الغربية ذات المستوى الرأسمالي المتطور، كما كانت الماركسية تتوقع، بل في بلدان غير صناعية.

في الولايات المتحدة، بلد التركيز الصناعي المتقدم، يوجد الكثير، الكثير من العمال، والكثير، الكثير من التطور الصناعي. التقني، ولكن الروح الثورية مفقودة. الدستور الأميركي الذي كان ثمرة الثورة الأميركية، كان أعظم وثيقة ثورية في ذلك الوقت، وأساساً لأول ديمقراطية حديثة، ولكن هذا لم يحدث في إحدى الدول الأوروبية الكبيرة والمتقدمة.

أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر استمرت ألمانيا كمصنع للأفكار الثورية التي كانت تزداد ثورية، لأنها كانت نظرية محضة لا تجد مجالاً لها في الواقع. هذا النشاط الفكري الثوري كان يجري في الوقت نفسه، على ثلاثة مستويات مختلفة. فلاسفة كشوبنهاور، وفيورباخ، وشتارنر؛ أدباء كبوختر، والكتّاب الألمان الشباب؛ اشتراكيون كبرونو باور، وموريس هيرتز، وكارل ماركس وهؤلاء أصبحوا منسيين تقريباً، ما عدا كارل ماركس الذي كان يدين بقدر كبير لأسلافه المباشرين(1).

إن السمة التي كانت تميز ألمانيا في عالم التسعينات من القرن الثامن عشر كانت فقدان أيّ تجربة ثورية، أو حتى أيّ تجربة سياسية جديدة من أي نوع كان، وهذا في مرحلة كانت فيها الثورات والحركات الثورية مشتعلة في كثير من أرجاء أوروبا. ولكن هذا لا يعني أن الألمان لم

(1) Dawson, Christofer: Understanding Europe, Image Books, 1962, p. 194.

يكونوا منشغلين بالتطورات الجارية. على العكس، إن مشاعرهم كانت ثائرة، يعيشون الثورة شعورياً وفكرياً، إما معها وإما ضدها. إنهم كانوا يقرأون كثيراً، وعدد الكتب والمجلات التي كانت تنشر في ألمانيا كان على الأرجح أكبر مما كان عليه في أي بلد أوروبي آخر. إنهم لم يمارسوا الثورة في الواقع الموضوعي، ولكنهم أعطوها الكثير من فكرهم، وجيل 1789 كان يمثل العصر الأعلى للأدب والفلسفة في ألمانيا. إنه كان جيل غوته، وشيللر، وكانْت، وفيخته، وهيجل، وهردر، وشلابرمايخر، وثيك، ونوفاليس، وشليغل، وهومبولدت. كل هؤلاء وغيرهم كثيرون كانوا يعبرون عن أفكار حول العصر الذي يعيشون فيه. لم يكن هنالك ثوريون ألمان، ولكن كان هناك عدد كبير من المعلقين على الثورة ومن فلاسفة الثورة. لقد قيل غالباً ان هناك طلاقاً بين الفكر والعمل في ألمانيا، وان هذا الطلاق يشكل سمة تميز الثقافة الألمانية. ولكن بصرف النظر عن ذلك، فإن ما يميز ألمانيا في عالم الثورة الفرنسية كان غياب العمل مع الوجود المهيمن للفكر: كانْت، فيخته وهيجل هؤلاء الفلاسفة الثلاثة الكبار، كانوا دعاة متحمسين للثورة الفرنسية.

إن الثورة مارست أثرها الأكبر والأكثر استمراراً في عالم الفكر الألماني. إنها عززت قوى كانت مضادة للثورة أكثر منها محافظة في المعنى الصحيح، وأسهمت في خلق حياد لا سياسي كان يرى في العمل الثوري شيئاً بدون فائدة. ولكنها هيأت من ناحية أخرى، لظهور نظرية في الثورة كانت تقيم الثورة كظاهرة ضخمة في التاريخ العالمي، كتحرر تام للعقل الإنساني، بدلاً من أن تكون صراعاً عابراً بين جماعات معينة لأجل مقاصد معينة[1].

في ألمانيا القديمة بلغت الثقافة قمتها في المدن الحرة في القرون الوسطى، ووسط عالم من البربرية الثقافية، أي في وضع ساده الضعف السياسي. المدن كانت الأمكنة الوحيدة التي كان يستطيع فيها الفن والصناعات اليدوية الامتداد. تاريخ الثقافة الألمانية الأكثر حداثة يؤكد أيضاً هذه الحقيقة القديمة التي لم يشر إليها سوى نفر قليل من المؤرخين والمفكرين[2]. إن جميع منجزات ألمانيا الفكرية الكبيرة تعود إلى مرحلة سادها الضعف السياسي، أي إلى عهد تجزئتها القومية. إن أدبها الكلاسيكي، من كلوبشتوك إلى شيللر وغوته، من المدرسة الرومانطقية، وفلسفتها الكلاسيكية من كانْت إلى فيورباخ ونيتشه، وموسيقاها من بيتهوفن إلى ريتشارد فاغنر - كل هذا كان قبل ولادة الرايخ، أي قبل وحدتها السياسية وتحولها بالتالي إلى دولة عظمى.

عندما تجاوزت ألمانيا تخلفها الاقتصادي، وضعفها السياسي فحققت وحدتها السياسية وأصبحت دولة عظمى من حيث البنية الاقتصادية والسياسية، تغير الوضع. هذا التغيير عبر عن ذاته في «الأممية الثانية» التي كانت تحت الهيمنة الفكرية الألمانية التي انطلقت من تصور اقتصادي تطوري حتمي[3].

هناك مرحلة تمتد لمدة ستين سنة، من السبعينات في القرن الماضي حتى الثلاثينات من

---

(1) Palmer, R.R.: The World of the French Revolution, Harper and Raw, 1971, pp. 233, 234, 242.
(2) Rocker, Rudolf: Nationalism and Culture, Covici-Friede Publishers, 1937, p. 433.
(3) Debray, Regis: Les Scribes, Grasset 1980, pp. 198-199.

هذا القرن، عندما كانت الماركسية تقوم بدور الأيديولوجية التي توحد حركة عمالية جماهيرية في أوروبا الوسطى. ولكن هذا كان، من السخرية بمكان، في وقت كانت فيه البروليتاريا تناضل أساساً في سبيل كسب حقوق بورجوازية - كحق الانتخاب، والتنظيم، وبأن تكون جزءاً من المجتمع، وليس لأجل خلق ثورة. في هذه المعارك كانت البروليتاريا مشغولة بمكاسب خاصة، وليس بمشاغل ثورية[1].

في حديثه عن الثورة الجامعية أو ثورة الطلاب في أواخر الستينات، وعن ظهور مثلها العليا في ألمانيا الغربية، يكتب أحد المؤرخين لهذه الثورة، «ولكن عزلة حركة الطلاب الألمان والعداء البارز الذي واجهته من قبل السلطات، ومن السكان، وحتى من المجموعات الاجتماعية التي كان يجب أن تكون حليفة لها (كالعمال مثلاً). هذه العزلة هي التي ساعدت في إنضاج طوبى أصيلة إلى درجة دفعتها إلى عبور حدود الجمهورية الاتحادية نحو تربة أكثر خصوبة في بلدان أوروبية أخرى. إن الجماعات التي تكون هامشية بشكل تستثنى معه حتى من التصور المفاهيمي للنظام الاجتماعي القائم، هي الجماعات التي لا تستطيع إدراك الواقع الاجتماعي إلا برفض ما يحيط بها موضوعياً، وتكون بالتالي قادرة على توليد «الطوباويات». إنها لا تستطيع أن تضعها موضع التنفيذ إلا بعبارات سلبية، وهذا يوحي بفشلها الظاهري»[2].

إن التناقض أو الهوة بين الواقع الموضوعي وبين الثورة الجامعية في ألمانيا هو الذي، بكلمة أخرى، دفع هذه الأخيرة إلى صياغة ذاتها في «طوبى» تعبر عن المُثل العليا لهذه الثورة في أوروبا الغربية.



هناك علاقة واضحة بين ظهور الحركات الثورية الجذرية وبين وعي عام بأن المجتمع يواجه مشاكل اجتماعية واقتصادية وأوضاعاً سلبية كبيرة، ولكن دون كفاءة على حلها. مراجعة تجارب هذه الحركات الحديثة تدل بوضوح أنه بقدر ما يكون الشعور بالعجز أمام هذه المشاكل والأوضاع كبيراً، وواسع الانتشار، بقدر ما يكون الميل أو الوعي كبيراً إلى إحداث تغيير جذري في النظام القائم. وبقدر ما يكون كبيراً عدد المشاكل الحقيقية أو المزعومة التي لا تجد حلاً لها عند إقامة السلطة الثورية الجديدة، بقدر ما يكون ميل وتبرير هذه السلطة للاستمرار لمدة طويلة من الوقت، واتساع الفرصة أمامها في إضفاء شرعية ثابتة على وجودها، ولكن بشرط أن تكون قادرة على حل الكثير من هذه المشاكل، وتحسين الوضع. لهذا كانت الأيديولوجية الثورية تلعب في أوضاع كهذه، دوراً أساسياً كبيراً. بالنسبة إلى البلدان الأوروبية التي دخلت حركة التصنيع أو الثورة الصناعية متأخرة عن غيرها، أشار كثيرون من الباحثين إلى الأهمية القصوى لهذا الدور الذي تمارسه الأيديولوجية كحافز قوي على ذلك. إن غيرشنكرون، مثلاً، أوضح بشكل بارز هذه العلاقة، سواء في دور السان سيمونية في فرنسا، أو الماركسية في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر. إنه يذكر بأن السمات الاقتصادية المختلفة التي أشار بأنها تميز البلدان التي

(1) Harrington, Michael: The Twilight of Capitalism, Simon and Schuster, 1976. p. 33.
(2) Statera, Gianni: Death of A Utopia, Oxford University Press, 1975, p.119.

دخلت متأخرة الثورة الصناعية دفعتها إلى إقامة أو تقوية حكومات أوتوقراطية بغية تعبئة الرأسمال، الحد من الاستهلاك، وضبط الرواتب، ولكنه كان غامضاً حول العملية السياسية التي حدث فيها هذا التغيير السياسي[1].

لهذا نجد «أن الأشخاص المتعلمين، ومنهم موظفو الحكومة يؤكدون بشكل نموذجي، في المجتمعات التي تدخل التصنيع متأخرة على أهمية الأفكار كأداة في تحقيق التغيير الاجتماعي»[2].

ولكن مع ظهور المجتمع الصناعي وحركات العمال الكبيرة يتقلص دور الأفكار والوعي وتخسر الإنتليجنسيا دورها الثوري الطبيعي. المفكر الاشتراكي هنري دي مان أشار في العشرينات أنه «في البلدان التي تطورت فيها حركات العمال خسرت هذه الشريحة «أي الإنتليجنسيا» منذ زمن طويل الأهمية التي كانت تميزها بالنسبة للاشتراكية، أي بين عام 1848 وعام 1890، أو التي يمكن أن تميزها حالياً في بلغاريا أو المكسيك. عندما نتأمل حالياً في العلاقات القائمة بين المفكرين والاشتراكية في البلدان الصناعية الكبيرة، لا نفكر أبداً بمفكرين خارج طبقتهم، كظاهرة خارجية، بل بالمفكرين كطبقة متوسطة جديدة، بظاهرة وسطية، أي بجماعة أبعد ما تكون عن الغرق، وتمسك بزمام الصناعة والدولة، والحضارة»[3].

إن مكانة المثقفين، كما تدل تجارب التاريخ، تكون عند تساوي الأشياء الأخرى، أعلى في أمم ضعيفة. كثيرون من المفكرين لاحظوا أنها، في أوروبا، كانت أعلى في الدول الصغيرة مما كانت عليه في الدول الكبيرة. إن مستواها في ألمانيا الامبراطورية كان بالأحرى منخفضاً عند المقارنة بما كانت عليه في هولندا والدنمارك، مثلاً، هذا على الرغم من أنه كان عالياً جداً عند مقارنته مع بريطانيا وأميركا.

في حديثه عن أثر الفلسفة الإيجابي في تاريخ اليونان، يكتب موللر «بأنه كان من الممكن تجاهل هذا الأثر لأن الفلسفة كانت جديدة، ولم تصبح جزءاً من التقليد والتعليم إلا عندما كانت اليونان على وشك خسارة استقلالها السياسي، أو سيادتها على تاريخها. إن قسماً كبيراً من فلسفتهم الأكثر نفوذاً، مثل فلسفة أفلاطون والرواقيين، كانت بوضوح رداً على فشل اليونان السياسي»[4].

بعض المؤرخين أكدوا بشكل خاص على «تخلف» الأوضاع السياسية، بدلاً من «الضعف» السياسي، كسبب لدور الوعي الطليعي الأساسي، وللتركيز على مبادرات الإنتليجنسيا في صنع الثورة.

في دراسته الكلاسيكية حول الثورة الفرنسية ودور المفكرين الأساسي في تفجيرها

(1) Gerchenkron, Alexander: Economic Backwardness in Historical Perspective, Harvard University Press, 1962, pp. 22-26.

(2) Bendix, Rinhart: Kings or People, University of California Press, 1978, p. 545.

(3) De Man, Henri: Andeli Du Marxisme, Editions du Senil, 1974, p. 206.

(4) Muller, Herbert : History of Freedom in the Ancient World, Harper and Brothers, 196, p.174.

وتوجيهها، يكتب ألكسي دي توكفيل، «بأن نمط حياة هؤلاء نفسه قادهم إلى الانغماس في النظريات والتعميمات المجردة.. وإلى وضع ثقة عمياء فيها. إنهم كانوا يحتاجون، في حياتهم المنفصلة تماماً عن السياسة العملية، إلى الخبرة التي كان يمكن أن تعدل من حماسهم. إنهم فشلوا بالتالي تماماً في إدراك العثرات الحقيقية التي تقف في طريق أفضل الإصلاحات، وفي تقييم المخاطر التي تنطوي عليها أحسن الثورات. غياب هذا الشعور السبقي بهذه المخاطر كان شيئاً متوقعاً لأنهم كانوا، نتيجة الغياب التام لأيّ حرية سياسية، دون اطلاع على حقائق الحياة العامة الواقعية التي كانت، في الواقع، أرضاً مجهولة بالنسبة لهم.. إنهم أصبحوا، نتيجة لذلك، أكثر جسارة في تفكيرهم، أكثر إدماناً على الأفكار والمذاهب العامة، أكثر ازدراءً لحكمة العصور السابقة، وحتى أكثر ميلاً إلى الثقة بعقلهم الفردي من أكثرية الذين كتبوا الكتب حول السياسة من زاوية فلسفية».

إنه يضيف بأن الجهل السياسي الذي ساد الشعب الفرنسي مهد الطريق أمام المفكرين في دعوتهم الثورية، وكان سبب انتصارها بين الجماهير. «لو أن الشعب الفرنسي مارس دوراً نشيطاً في السياسة، عن طريق الجمعية العامة، أو أنه استمر على الاهتمام بالإدارة اليومية للقضايا العامة عن طريق الجمعيات المحلية، لما كان ترك نفسه. ونقول ذلك بثقة. ينجرف بتلك السهولة مع أفكار المفكرين في ذلك الوقت. أيّ خبرة، مهما كانت محدودة، كانت قادرة على الأرجح، بأن تجعله حذراً من قبول آراء المنظرين في تنظيرهم الصرف»[1].

دي توكفيل كان أول من نبه إلى هذه الناحية عندما قارن منذ قرن ونصف بين الأميركيين والفرنسيين متسائلاً «لماذا لم يعبر الأميركيون عن الرغبة نفسها التي عبر عنها الفرنسيون في الأفكار العامة حول القضايا السياسية»، وذلك كعنوان لفصل خاص في الجزء الثاني من دراسته، الكلاسيكية أيضاً، «الديمقراطية في أميركا». إنه خلص إلى القول بأن هذا التناقض بين المنهج التجريبي أو العملي في أميركا والمنهج الأيديولوجي في فرنسا، يعود إلى كون الفرنسيين حققوا تذوقاً للأيديولوجية لم يتحقق للأميركيين، وذلك لأنهم كانوا طيلة قرون غير قادرين على المشاركة في القضايا العامة والحياة السياسية. فبقدر ما تقل مشاركتنا في هذه القضايا بقدر ما يزيد اعتمادنا على النظريات[2].

المفكرون الفرنسيون، في القرن الثامن عشر بشكل خاص لم ينقلوا فقط أفكارهم إلى الأمة الفرنسية، بل « ...كونوا مزاجها القومي ونظرتها إلى الحياة»، كما يكتب دي توكفيل، وذلك نتيجة « العملية الطويلة التي كانت تكوّن عقول الناس وفق مثالهم. مهمة هؤلاء المفكرين كانت سهلة بشكل خاص لأن الفرنسيين لم يكونوا مدربين على الصعيد السياسي، وهذا أعطاهم ميداناً حراً للعمل. النتيجة كانت أن المفكرين الفرنسيين انتهوا بإعطاء الشعب الفرنسي الغرائز، العقلية، والأذواق، وحتى الجوانب الشاذة التي تميز المفكر. وعندما حان وقت العمل

---

(1) De Tocqueville, Alexis: The Old Régime and the French Revolution, Tr. Gilbert, S. Doubleday Anchor Books, 1955, pp. 140-141.

(2) Aron, Raymond: Main Currents in sociological thought vol. L, Tr. Horward, R. and Weaver H., Doubleday Anchor Books, 1968, pp. 280-281.

دخلت هذه الميول الأدبية إلى الساحة السياسية». عندما ندرس الثورة الفرنسية «نجد أنها كانت توجه تماماً بنفس الروح الذي أدى إلى إنتاج ذلك العدد الكبير من الكتب التي كانت تدعو إلى نظريات مجردة حول الحكم. الثوريون الفرنسيون كانوا يعبرون عن المحبة نفسها للتعميمات الكبيرة والأنظمة التشريعية الجاهزة.. الازدراء نفسه للوقائع القاسية، الذوق نفسه في إعادة تكوين المؤسسات تبعاً لخطوط جديدة، بارعة ومبدعة، الرغبة نفسها في إعادة بناء الدستور وفقاً لقواعد المنطق، ولمذهب تمَّ تصوره مقدماً ...»(1).

ما يسمى «بالإيمان الثوري الجديد» الذي امتد بين «قوميين رومانطقيين وثوريين اجتماعيين»، انتشر في أوروبا أثناء القرن التاسع عشر في المجتمعات التي لم تكن قد حققت الأوضاع التالية:

1 ـ معارضة أيديولوجية شرعية تقطع العلاقة مع أشكال السلطة الدينية القروسطية.

2 ـ سلطة ملكية معدلة تقبل أحد أشكال المعارضة السياسية.

في شمالي أوروبا وشمالي أميركا، حيث تحققت هذه الأوضاع عن طريق التقاليد البروتستانتية والبرلمانية، لم يستطع الإيمان الثوري الجديد أن يكسب أتباعاً محليين له. هكذا يمكن إدراك التقليد الثوري كمعارضة سياسية ـ أيديولوجية برزت أولاً ضد استبدادية كاثوليكية (في فرنسا، إيطاليا، بولندا)، ثم ضد استبدادية أخرى ذات أساس ديني (بروسيا، اللوثرية، وروسيا الأرثوذكسية). إن أكبر دعاة الثوريين الاجتماعيين، ابتداءً من مارشال ومروراً في بلانكي وماركس وباكونين، وانتهاء في لينين جاؤوا من مجتمعات كهذه ومالوا بالتالي إلى النضال الإلحادي(2).

إن كارل ماركس لاحظ، عام 1868، بأن كتابه حول برودون «بؤس الفلسفة»، عام 1847، وكذلك أيضاً كتابه «إسهام في نقد الاقتصاد السياسي» 1859، «حققا في روسيا مبيعاً أكبر من أي مكان آخر»، وبأن «الأمة الأجنبية الأولى التي ترجمت كتاب «رأس المال» كانت روسيا». ثم أضاف «بأن الطلاب الروس من الأرستقراطية، الذين تعلموا في جامعات أوروبا الغربية، كانوا يركضون دائماً وراء أكثر ما يمكن للغرب تقديمه من أفكار متطرفة»(3).

النظرية الوضعية التي صاغها أوغست كونت في النصف الأول من القرن التاسع عشر مارست نفوذها، كغيرها من النظريات التي ظهرت في ذلك القرن، في البلدان التي كانت متخلفة نسبياً في تطورها الثقافي والاقتصادي. إن جاذبيتها للإنتلجنسيا الروسية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي دُرست حديثاً، ولكنها مارست أكبر نفوذ لها في أميركا اللاتينية(4).

الديناميك الثوري الذي شاهدته أوروبا في بداية القرن التاسع عشر لا يفسر كنتاج محض لحركة البورجوازية المتقدمة باستمرار. قوة الثورة الصناعية الأساسية لم تكن قد وصلت بعد إلى القارة، والحركة الثورية كانت قد بلغت أقوى أشكالها ـ في إيبيريا، اليونان، روسيا ـ حيث كانت

(1) De Toqueville, A; op. cit. p. 147.
(2) Billington, James: op. cit. p. 5.
(3) Marx, K. : Letters to Dr. Kugelmann, 1934, pp. 77-78.
(4) Frank Manuel, The Prophets of Paris, Harper Torchbooks, 1965, p. 274.

البورجوازية في أضعف حالاتها، والقيادة كانت أساسياً أرستقراطية. المثال الليبرالي جاء، في الواقع، من الجنوب. إذ كانت اليونان أصبحت بعد إيطاليا، القضية المختارة للثوريين الأوروبيين في العشرينات من القرن الماضي، فإن كلمة «ليبرالي» كُتبت على راية الثورة القومية في إسبانيا، في العقد السابق لذلك، وكانت تعني نقيض «الذليل». الديسمبريون الروس اتخذوا كنموذج دستوري أساسي لهم دستور الملكية الإسبانية الليبرالية عام 1812، وكنموذج لعصيانهم، الثورة الإسبانية اللادامية عام 1820(1).

القومية في أوروبا لم تكن كما نبه عدد من المؤرخين التقدميين، من صنع البورجوازية ولم تترتب على تقدم الثورة الصناعية. إنها ثورة جذبت إليها جماعات متنوعة تمزق نمط حياتها السابق في الأطوار الأولى لهذه الثورة. القوميون الثوريون الجدد لم يأتوا من بروليتاريا المصانع (التي لا تكاد تكون موجودة عام 1830 في القارة)، أو من البورجوازية التجارية والصناعية في أكثريتهم. ثلاث ميزات مشتركة كانت تميز معظم الذين ربطوا الثورة بالقومية في ذلك الوقت. سواء كانوا من أرستقراطيات أوروبا الشرقية، كضباط فرنسيين أو إيطاليين، كطلاب ألمان، أو كحرفيين متعلمين، إلخ...

1. القوميون الثوريون أرادوا من ناحية سياسية قسطاً من السلطة كان أكبر مما كان الملوك على استعداد للتنازل عنه. هذا النضال لأجل السلطة تبنّى فكرة السيادة الشعبية الجديدة، ودفع إلى زاوية الإهمال الاهتمام السابق بالأشكال الدستورية والتوزان العقلاني الذي ميز عصر التنوير.
2. من ناحية اجتماعية، كان جميع القوميين الجدد تقريباً من الذين خسروا جذورهم. إنهم كانوا بصرف النظر عن موقعهم الطبقي، قد خسروا بشكل عام الشعور بتوقعات منظمة كانت توفرها سابقاً المجتمعات التقليدية.
3. من ناحية مهنية كان القوميون الثوريون يعملون أساساً في الصحافة والمسارح(2).

الملاحظة السابقة تقود إلى التنبيه إلى الحقيقة التالية وهي أنه حيث تكون البورجوازية ضعيفة تكون الحركات السياسية اليسارية ثورية، وتزداد ثورية مع ازدياد هذا الضعف، هذه حقيقة اعترف بها، في الواقع، ماركسيون كبار ابتداءً من لينين وانتهاءً بماو تسي تونغ.

في البلدان الوحيدة التي حدثت فيها ثورات تنطلق من الماركسية نجد أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية البورجوازية التي تفرضها الماركسية كوضعية ثورية أو كأساس للثورة، غير موجودة. هذا يعني، فيما يعنيه، أن الثورة، وإن كانت تنطلق من الماركسية، هي غالباً ظاهرة سياسية وليست نتيجة نضج موضوعي صرف لأوضاع اقتصادية معينة. الماركسية تحولت، من نظرية تترتب على نتائج تفرزها تناقضات المجتمع الصناعي الرأسمالي، إلى أيديولوجية الانتقال إلى المجتمع الصناعي في رقابة الإرادة السياسية. النظرية التي كان يفترض معها أن تكون نتيجة لهذا التحول، تحولت هي نفسها، فأصبحت الحافز له.

---

(1) Billington, James op. cit. pp. 129-130, 135, 142.
(2) Ibid, pp. 148-149.

إن قوة الماركسية الثورية كانت، في الواقع، تزداد مع ضعف طبقة العمال وازدياد مكانة ونفوذ المثقفين.

في أوروبا كما يكتب ديبريه كانت قوة الجذب في الماركسية تمارس ذاتها بشكل عكسي للتركيب العمالي في مختلف الحركات العمالية، ومن ناحية عامة، كسبب مباشر للأهمية الاجتماعية التي تميز الطبقة المثقفة في مختلف البلدان. فحيث كانت الإنتليجنسيا تقوم تقليدياً بدور كبير - في ورسيا، فرنسا، وإيطاليا - كانت الماركسية تنتشر بسهولة، وكذلك الأمر عندما لم تستطع البورجوازية الليبرالية تحقيق سيادتها (ألمانيا، وإسبانيا). إن نفوذ الماركسية كان، على العكس، محدوداً جداً حيث كانت الإنتليجنسيا دون مركز أو نفوذ - (السويد، بريطانيا، الولايات المتحدة، بلجيكا، إلخ) إننا نعرف اليوم إذن أنه حيث تكون البورجوازية الليبرالية ضعيفة، فإن الماركسية الثورية تكون قوية. هذا يفسر لماذا يأتينا ماركس، اليوم أيضاً، من البلدان الحارة، من الجنوب، من الفقراء. في إيطاليا، نجد أن المفكرين والقادة الماركسيين كانوا من الجنوب، وقد ذهبوا إلى الشمال (من غرامشي إلى برلينغوير). ونابولي (التي جاء منها لابريولا، كروشه، بورديغا، مالاتيستا، إلخ) كانت أكثر ثورية من ميلانو. إن الميل إلى دمج المثقف في البلدان «المتخلفة» هو أضعف مما هو عليه في البلدان «الحديثة»، وهذا كان من أهم الأسباب التي دعت الاشتراكية إلى تفضيل الأولى على الثانية، أو المثقفين على العمال، وذلك على عكس ما قدمته النظرية الماركسية من تحليل واضح.

هذا المعطى كان ذا نتائج شاذة عديدة، كما نعرف، وآخرها كان ظاهرة التشكيلات العمالية في بعض البلدان المتقدمة، الإصلاحية بشكل عفوي، والتي كان عليها أن تحيا لمدة طويلة في ظل التصاعد الأيديولوجي لمفكرين ثوريين من البلدان النامية. على أي حال، هناك واقعة واضحة وهي: أن الإنتليجنسيا كانت دائماً، بين جميع التشكيلات الاجتماعية، الجماعة الأكثر نشاطاً - اجتماعياً - وأن الأحزاب الجماهيرية لا تشكل موصلاً جيداً للفكرة الثورية، وبأن المذهب الماركسي لم يستطع التسرب إلا في جماهير المدن البورجوازية التي يتمتع فيها المثقفون المذهبيون بمكانة معترف بها. إن تاريخ الماركسية وضع رأس نظرية ماركس تحتاً. كلنا نعرف هذا، وبقي أن نحدد النتائج التي تترتب على ذلك.

إن ماركس لم يفكر بالوساطة، والمتوسطون الذين ذكرهم رجعوا بقوة. إن نظريته حول التاريخ لم تدمج الذين دمجوا نظريته في التاريخ: المثقفون. هؤلاء انتقموا جيداً[1].

هناك تماثل سياسي واضح بين أوضاع أول حركة عمالية جماهيرية ماركسية كبيرة تحقق ظهورها في ألمانيا في أواسط القرن الماضي، وأوضاع حركة العمال الماركسية في روسيا، في بداية القرن العشرين. فالأولى كانت تواجه أيضاً، كالثانية، نظاماً سياسياً مطلقاً، كان أكثر الأنظمة رجعية في أوروبا الغربية، وبورجوازية كانت في بداية ولادتها، لكنها رجعية مائة بالمائة. إن إحدى الفرضيات الأولى التي انطلق منها فرديناند لاسال، قائد هذه الحركة في ألمانيا آنذاك كانت ضرورة التوكيد، في جميع المستويات، على استقلال البروليتاريا السياسي (الطبقة

(1) Debray, Regis: Les Scribes, Bernard Grasset, 1980, pp. 189-192

الرابعة) تجاه البورجوازية ككل. ولكن مع نمو هذه الاشتراكية الماركسية الألمانية واتساع قواعدها الشعبية بشكل جماهيري ضخم، تحول الوعي عن الثورة إلى الإصلاح. هذا ينطبق على الأحزاب الاشتراكية الأخرى في أوروبا. فهذه «الأحزاب الاشتراكية الأوروبية، وخصوصاً أكبرها، الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، مالت في اتجاه محافظ بالقدر الذي كانت فيه الجماهير الضخمة تتبنى الاشتراكية، وبالضبط مع درجة تنظيم هذه الجماهير». الديمقراطية الاشتراكية «التي تتمثل تجربة البروليتاريا السياسية، كما يكتب تروتسكي، تصبح بالتالي عند نقطة معينة في نموها عثرة مباشرة ضد نمو الصراع المكشوف بين العمال والردة البورجوازية»[1].

على الرغم من أن كتابات ماركس وأنجلز لا تخلو من التناقضات حول الموضوع، فمما لا شك فيه أن تصورهم للحركة الشيوعية كان تصوراً غير «تآمري»، وفي بداية هذا القرن كان التصور التطوري الديمقراطي لهذه الحركة هو التصور الذي كان يعبر عن الماركسية ويهيمن على الأحزاب الاشتراكية في أوروبا الغربية والوسطى. هذه الهيمنة لم تكن، في الواقع، ثمرة لترجمة فكرية محضة للماركسية بل، بشكل أكثر أهمية، نتيجة ظهور واتساع القوة المتزايدة لاتحادات العمال. هذه الاتحادات أو النقابات التي كانت ديمقراطية التركيب أساسياً، يقودها رجال ينشغلون أولاً بنتائج مباشرة ومحسوسة في دفع قضية العمال إلى الأمام، كانت تنفر في الوقت نفسه من المخططات الثورية ومن قيادة المفكرين الثورية.

في روسيا كان الوضع يختلف. فالحزب الديمقراطي الاجتماعي (الماركسي) كان يتشكل أساسياً من المثقفين والطلاب الذين كانوا في معظمهم لا يريدون تجاوز الديمقراطية الليبرالية البورجوازية. أما جماهير العمال الذين كانوا قد بدأوا يخوضون صراعات مباشرة ضد أصحاب العمل، فإنهم لم يكونوا ليفكروا بعد بثورة تقود إلى نظام اشتراكي.

في هذا الوضع دعا لينين إلى خلق حزب من نوع جديد، يتشكل من ثوريين محترفين، مدربين بالنظرية الماركسية، ومستعدين إلى تكريس كل حياتهم للعمل السياسي، إنه حزب كان يجب أن يرفض عضوية ليس فقط العمال غير المدربين سياسياً، بل المثقفين الديمقراطيين أيضاً. هذه هي المشكلة التي أدت إلى انقسام الديمقراطية الاجتماعية الروسية إلى بولشفيك ومنشفيك.

إن إيمان لينين بقوة الوعي الثوري الخارقة أو الإعجازية تقريباً تتناقض بوضوح ليس فقط مع نظرة المنشفيك بل مع نظرة كوتسكي - الممثل للماركسية الغربية في بداية هذا القرن - حول الحدود الدقيقة التي تضعها الأوضاع الاجتماعية والمادية على العمل السياسي. ماركسيو الأممية الثانية كانوا يجدون سنداً في اعتقادهم بأن الدخول إلى نمط التفكير الاشتراكي كان يجاري درجة السرعة في نضج قوى الإنتاج. إنهم افترضوا، في خط ماكس فابر، وجود حاجة لقرابة انتقائية بين أي مذهب مقبول على صعيد عام وبين بنية اجتماعية معينة من المصالح والقيم. أي تناقض مهم في المطابقة بين الاثنين يقود إلى رفض المذهب من الجميع ما عدا مجموعة قليلة من المؤمنين المنحرفين. إن الترجمة العضوية للماركسية التي تبناها كوتسكي وزملاؤه كانت تُعتبر منسجمة

(1) Brossat, Alain: Aux orgines de la révolution permanente, la pensée politique du jeune Trotosky. Maspero, 1974, p. 193.

تماماً مع مشاعر ومُثل البروليتاريا التي نشأت في جو الديمقراطية والليبرالية المعتدل، جو غير مضياف أبداً لنشر مبادىء لينين. لينين نفسه اعترف، في الواقع، في بعض الأحيان بذلك واقترح مرة أن السلطة الاستبدادية أو المطلقة ما دامت، كنظام استبدادي، أكثر شفافية من الديمقراطية البورجوازية، كان من الأسهل نسبياً كسب البروليتاريا الروسية للثورة.

مع تطور المجتمع الصناعي أخذت الماركسية الألمانية تمارس ثورية لفظية كبيرة، بينما كانت تمارس، في الواقع، الإصلاحية، أو بالأحرى إصلاحية متزايدة أصبحت واضحة بارزة عام 1914 عندما صوت نواب الحزب الاشتراكي موافقين على مخصصات الحرب. هذا الاتجاه انتهى فيما بعد برفض الماركسية نفسها.

إن فرديناند لاسال شكل «اتحاد العمال الألماني».. عام 1873. هذا الاتحاد كان اشتراكياً ولكن لاسال لم يكن ماركسياً. في نفس الوقت ابتدأت مجموعة من الماركسيين بقيادة أوغست بابل، وويلهايم لايبنخت في تنظيم حركة أخرى. ولكن بعد توحيد الحركتين عام 1875، هيمن المنظور الماركسي الثوري، كما ركز الحزب جهوده بوضوح وحدد قصده النهائي كثورة اشتراكية.

ولكن ما حدث فيما بعد هو أن هذه الثورية كانت تتقلص مع تقدم ألمانيا الصناعي والبورجوازي إلى أن أصبح الحزب إصلاحياً تماماً. هذا المنعطف التاريخي الذي أكد ذاته عند بداية الحرب العالمية الأولى كان قد عبر فكرياً عن ذاته سابقاً، في اتجاه جديد أعلن عنه في مطلع هذا القرن أدوار بيرتشتين الذي كان يرتبط بأنجلز بعلاقة تعاون وثيق، وكان أيضاً المنفذ الأدبي القانوني له. كتابه «الاشتراكية التطورية»، الذي صدر عام 1899 قدم النقد الكبير الأول لمنطلقات الحزب الماركسية. إنه لم يرفض فقط نظرية ماركس حول بؤس البروليتاريا المتزايد بالتدليل على أن وضع العمال كان يتحسن باستمرار، بل قدم أيضاً وقائع تدل على أن الطبقة الوسطى لم تسقط إلى صف البروليتاريا، وأعلن علاوة على ذلك عن تصور يقول بتحسن تدريجي مستمر لأوضاع العمال يقود نهائياً إلى مجتمع اشتراكي عن طريق الإصلاحية البرلمانية.

هنا نستطيع أن نخلص مما تقدم إلى القول بأنه يجب الاعتراف بالواقعة التالية، وهي أنه من الممكن للجماهير وللناس بشكل عام أن تكون متقدمة اقتصادياً ومتخلفة سياسياً، أن التقدم الاقتصادي والصناعي يفرز جماهير متخلفة سياسياً أو أن الوعي الثوري أو السياسي يفترض تخلف الأوضاع الاقتصادية السياسية. الماركسية - والماركسيون بشكل عام - افترضوا أن جماهير مجتمع صناعي تقني متقدم تكون أيضاً متقدمة سياسياً وثقافياً ووعياً ثورياً. ولكن الوقائع التاريخية الحديثة تدل على عكس ذلك. ليس هناك، مثلاً، من قوة اجتماعية منظمة في العالم أكثر محافظة، هذا إن لم نقل رجعية، من اتحادات العمال الأميركية. الجماهير في الولايات المتحدة، (المجتمع «المتقدم» على غيره صناعياً وتقنياً ورأسمالياً)، رضيت بالبقاء على هامش المسرح السياسي، منشغلة بمصالحها الاقتصادية الخاصة. «حتى الذين يشعرون بأنهم مظلومون جداً بين هذه الجماهير لا يزالون يسلكون كضحايا ولا ينظرون إلى أنفسهم كأداة ممكنة في خلق مجتمع جديد»[1].

(1) Boggs, James and Grace: Revolution and Evolution in the Twentieth Century, Monthly Review Press, 1974, p.191.

ولكن في البلدان النامية ـ المتخلفة اقتصادياً وسياسياً ـ تجد أن أكثرية الناس تحمل تصوراً عما يجب عليهم تحقيقه لأنهم يناضلون أساسياً للتغلب على حالة التخلف، ويريدون بلوغ التطور المادي الذي حققته البلدان المتقدمة، ولكن بطرق جديدة أكثر إنسانية. هذا ما يفسر بالتالي وبقدر كبير القبول العام للاشتراكية في هذه البلدان. ماو تسي تونغ، وكاسترو، مثلاً، كانا يدركان بشكل خاص المعضلة التي ينطوي عليها السماح للتقنية بأن تسود السياسة، ولهذا نجد توكيدهما على التطور السياسي كأداة للتطور التقني.



الناحية الإرادية التي تؤكد على دور الوعي الثوري (وأداته الإنتليجنسيا) عبرت عن ذاتها أولاً، بشكل خاص، في اللينينية والثورة البولشفية. فهذه الثورة كانت، في الواقع، نقضاً للماركسية التطورية أو الاقتصادية، وقد ركزت ذاتها من البداية على تثقيف الشعب الروسي بمذهب سياسي يتقدم بكثير على تركيبه الاقتصادي الاجتماعي، ويعوض عن تخلف الواقع الموضوعي عن مجاراة المقاصد الثورية، ويدفعه بالتالي عن طريق العمل الثوري إلى اللحاق اقتصادياً واجتماعياً بهذا المذهب، وبالنمط الفكري الجديد. الماركسيون كانوا ينظرون، قبل اللينينية، إلى العالم الغربي على أنه المنطقة الوحيدة التي يمكن حدوث الاشتراكية فيها، وذلك بسبب الثورة الصناعية والمجتمع الرأسمالي. ماركس كان يرى أن الغرب هو الإطار الجغرافي الوحيد للمادية التاريخية. أما آسيا فكانت دون أهمية، لأنها لم تعرف الثورة الصناعية والنظام الرأسمالي. فهي في حالة استاتية، لا تعرف التاريخ كحركة ديناميكية، وستتبع الثورة، عفوياً، عند حدوثها في الغرب. أما روسيا فكانت جباراً متخلفاً يجب على الغرب أن يحذر منه ويعمل على تدجينه.

هناك فرق بين ماركس ولينين في استخدام مفهوم الوعي الثوري، وهو فرق يدل بوضوح على توكيد ناحية الإرادية الثورية على ناحية المادية التاريخية في التجربة الشيوعية. فالأول كان يؤمن بقدرة البروليتاريا على تحقيق هذا الوعي، ولهذا كان يستخدم مع أتباعه عبارة «الوعي الطبقي»، ولكن لينين كان يستخدم باستمرار كلمة الوعي (soznamie) أو (soznatelmost) لأنه لم يكن يؤمن أنه بمقدور البروليتاريا أن تصل بذاتها وقواها الخاصة إلى الوعي الثوري(1).

لهذا نراه يكتب في دستور هذه الإرادية الثورية: «ما العمل؟» إنه «إن كانت المنافع الاقتصادية تلعب دوراً حاسماً، فذلك لا يعني أن النضال الاقتصادي يتميز بأهمية أولية، لأن مصالح الطبقات الأولى لا يمكن أن تتحقق دون تحولات سياسية أساسية، وبالأخص المصلحة الاقتصادية الكبرى للبروليتاريا لا يمكن أن تتحقق دون ثورة سياسية تستبدل دكتاتورية البورجوازية بدكتاتورية البروليتاريا».

الماركسية كانت تتأرجح منذ ظهورها في ثنائية أساسية، بين مادية تاريخية تطورية قالت بها، وإرادية ثورية كانت تقترن بها. وهي منذ ابتدائها في ماركس، ومن قبل ماركس، في هيجل والهيجلية، كانت تُقدم في عنصر ثوري مثالي يدعو إلى الوعي والإرادة كأداة في تغيير التاريخ، وفي عنصر تطوري يؤكد أنها ستحقق ذاتها تدريجياً في تطور الأوضاع الاقتصادية وتحول البنية

---

(1) Meyer, A.: Leninism, Praeger, 1962, pp. 29-30.

التحتية، أي في قيام وضعية اقتصادية اجتماعية موضوعية تفرز في ذاتها التناقضات التي تحققها[1]. اللينينية سجلت نهائياً انتصار الإرادية الثورية على التطورية التاريخية.

هذا التوكيد على الوعي الثوري دعا لينين في عام 1920، في المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية، بأن يصف الناحية العلمية في الماركسية، القائلة بضرورة المرور بالطور البورجوازي الرأسمالي وقيام بورجوازية متقدمة قبل تحقيق الثورة البروليتارية بأنها تغرّض علمي. وفي مناسبة أخرى قال: الهدف هو استلام السلطة، وبعد ذلك نرى ما يمكن أن نصنع بها[2].

في اللينينية تقدم الوعي الثوري على المادية التاريخية، وحلت فكرة البروليتاريا التي تعبر عنها إنتليجنسيا منظمة في حزب ثوري محل البروليتاريا كواقعة موضوعية. هكذا يمكن القول، إن الثورة البولشفية - وهذا يصدق على كل ثورة شيوعية أخرى - كانت برهاناً ليس فقط بأن الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية المتخلفة لا تحول دون الثورة الاشتراكية، بل إنها بالضبط تشكل عنصراً أساسياً في التحفيز على هذه الثورة، وفي إفراز أشكال الوعي الثوري وأدواته الضرورية (الإنتليجنسيا) التي يحتاجها نجاح كل ثورة. لو كان الأمر كما جاء في الماركسية التطورية أو العلمية، لكان على الثورة الشيوعية في روسيا الزراعية، المتخلفة صناعياً، أن ترقب - كما قال بذلك بليخانوف والمنشفيك، والماركسية الغربية بقيادة كوتسكي - تطور الصناعة الرأسمالية، وظهور الثورة البورجوازية وسيادتها، قبل أن ترى إمكان نجاحها في مضمونها الماركسي المادي الأصيل.

إن كارل كوتسكي، مفكر الاشتراكية الديمقراطية الغربية الأول في ذلك الوقت، كتب عدة كتب في نقد الثورة الشيوعية في روسيا، وفيها حاول أن يدلل بأن هذه الثورة لم تكن ماركسية بل بورجوازية، فهي ثورة اعتمدت على العامل السياسي وليس العامل الاقتصادي في تحقيق ذاتها، أي إنها لم تنتقل من الاقتصاد إلى السياسة كما قالت الماركسية، بل من السياسة إلى الاقتصاد.

إن لينين كتب، في الواقع، بصراحة ومباشرة بعد ثورة أكتوبر: «إن السياسة لا تستطيع سوى التقدم على الاقتصاد، ومنازعة ذلك يعني تجاهل ألف باء الماركسية». وتروتسكي فسر الثورة بأنها قبل كل شيء مسألة سلطة، وأن «إرادة النشاط السياسي شرط ضروري في إدراك الديالكتيك الماركسي».

إن نظرية ضرورة التركيز (Centralisation) السياسي للسلطة التي شغلت لينين وكانت تفصل بين الجناح البولشفيكي والأجنحة الأخرى في الحركة الاشتراكية الروسية كانت ترى، فيما تراه، أن هذا التركيز الذي يعتمد حزباً ثورياً كأداة سياسية للثورة، قصده الأساسي أن لا يتذيل بنمو حركة العمال ولا يرتبط بالضرورة بعلاقة منسجمة معها، كان ضرورياً بالضبط لأن حركة العمال كانت لا تزال غير ناضجة للثورة. فبقدر ما تكون هذه الحركة غير ناضجة، حتى وإن كانت نشيطة جداً، بقدر ما كانت تحتاج، في رأي لينين، إلى قيادة قوية. إن حركة الجماهير ونظرية الثورة تنتشران في أرضيتين مختلفتين وتبعاً لعمليات لا يربط بينها أي انسجام مسبق، ولهذا كان من الضروري طرح مشكلة لقائهما والقيام بجهد كبير في إيجاد حل لذلك بعمل تقوم به الإرادة

(1) Calvez, J. Y.: La pensée de Karl Marx, Editions du Seuil, 1956, pp. 433-434.
(2) Schmalhausen, S., ed.: Recovery through Revolution, Covici-Friede publishers 1933, p. 320.

السياسية. إن التوسط الملائم بين الواحد والآخر هو الحزب، والدور الخاص الذي تلعبه في قلب هذه الوساطة نفسها الإنتليجنسيا، أي المفكرون الثوريون المهنيون (Professionals). إن لينين يعكس هنا العلاقة المعترف بها تقليدياً: الاشتراكية لا تبرز من وسط حركة العمال، بل يجب أن تأتيها من الخارج. في هذا الموقف كان لينين يوضح ويحدد مسألة كانت تسودها بلبلة كبيرة ابتداءً من ماركس وانتهاءً بروزا لوكسمبورغ وتروتسكي الشاب[1].



إن نظرية تحرر البروليتاريا الذاتي، كما حددها ماركس أساسياً، كانت، في الواقع، تُستخدم كحجة ضد اللينينية بغية التدليل على أمانة لوكسمبورغ وتروتسكي الشاب لماركس. ألم تدل هذه النظرية التي تعلن «أن تحرر العمال سيكون من صنع العمال أنفسهم» بأن طبقة العمال لا تحتاج إلى معلمين في تحقيق الثورة؟.. إن روزا لوكسمبورغ وتروتسكي كانا يفسران وعي البروليتاريا الطبقي كنتيجة آلية لوضعها في نمط الإنتاج، فارتكبا بالتالي خطأ عرف لينين كيف يتجنبه. تسطيح العامل السياسي على العامل الاجتماعي، جعل تروتسكي يعمل على تقدير مفرط لإمكانات التحرر الذاتي في طبقة العمال الروسية[2].

إن تروتسكي أخطأ، كما أخطأ جميع الذين اعترضوا على كوادر الفكر اللينيني في إدراك ناحية أساسية لدور التنظيم الثوري، وهو أن البعد الذي يميز نشاطه لا يتحدد أساسياً بمستوى معين لوعي البروليتاريا، بل يتحدد نهائياً بموجب المصالح التاريخية لطبقة العمال.. إن انحرافات اليسار واليمين تنمو دائماً من الاعتقاد بأصالة الوضع الراهن. موقف كهذا يحول القائد الثوري من صوت للعفوية الثورية إلى صوت للعفوية الإصلاحية. إن لينين دلل، على العكس، بأن واجب الثوري ليس تحويل ذبذبات وعي العمال إلى أساس لسلوكه السياسي، بل تصحيح هذا الوعي في ضوء مصالح البروليتاريا التاريخية[3].

إن تفاسير فشل الانتقال الثوري إلى الاشتراكية في أوروبا الغربية كانت تقبل غالباً النظرية الكوتسكية بأن أوضاع العمال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الغرب كانت ملائمة لهم إلى درجة لا تسمح بانتشار الميول الثورية، ولذلك فإن النداء البولشفيكي الثوري إلى بروليتاريا تحيطها الديمقراطية الليبرالية، وتنعم بتحسن مستمر لأوضاعها، لم يكن عملياً وملائماً. إن اللينينية بدت لهؤلاء العمال كشيء غريب عنها، يمكن لها أن تنجح في أوضاع يهيمن عليها الاستبداد السياسي والتخلف الاقتصادي، ولكن ليس في أوضاع أفرزت المجتمع الصناعي المتقدم وتعبر عنها الحريات والحقوق الديمقراطية. إن لينين نفسه اعترف، في الواقع، بهذه الحقيقة عندما قارن بين الاحتمالات الثورية في روسيا وفي المجتمعات البورجوازية التي أنتجت ثقافة وتنظيماً ديمقراطيين ووفرتهما لجميع الناس حتى آخر فرد[4].

---

(1) Brossat, A.: op. cit. pp. 54-55
(2) Ibid, pp. 54-55,63.
(3) Ibid p. 65.
(4) Lenin I. : Selected Works, Vol. II. 1950, p. 429.

لهذا لا يمكن القول، كما أشار البعض، بأن لينين لم يُدرك لماذا لم تكن الإصلاحية تعني شيئاً في روسيا، بينما كانت خصماً ناجحاً للثورة في أوروبا الغربية. إن كتابات لينين حول الموضوع تدل أنه كان يدرك تماماً جاذبية الديمقراطية الاجتماعية الغربية وإغراءاتها للعمال، ولكنه كان يرى، من ناحية أخرى، أن هذه الجاذبية والإغراءات تستطيع ممارسة قوتها في أوضاع حياة يومية رتيبة، وتعجز عن ممارستها، على الأقل بنفس القوة أو الدرجة، أثناء أزمات كبيرة واضطرابات اجتماعية حادة يمكن أن تتعرض لها هذه الديمقراطية.

هذا التوكيد على الدور الأساسي الذي يلعبه الوعي الثوري، كان يدل على ذاته أيضاً في توكيد لينين على المخاطر الكبيرة التي تترتب عليه عندما يكون خاطىء المنطلق، ومنحرف الاتجاه. فهو كان يرى مثلاً، أن العامل الذي عثَّر الثورة والانتقال إلى الاشتراكية في أوروبا الغربية كان ظهور أرستقراطية جديدة من صفوف العمال، تتمثل في قياداتهم التي خانت قضية البروليتاريا والثورة. ففي مناسبات عديدة نراه يوبخ ويشجب بقوة الكوادر القيادية لحركة العمال في الغرب، وذلك لميلهم إلى تحويل أنفسهم إلى أرستقراطية عمالية تستخدم هذه الحركة في تأمين مصالح وفوائد خاصة بها. وبعد الانهيار الأخلاقي الذي أصاب الأممية الثانية عند بادية الحرب العالمية الأولى لم يحاول لينين إخفاء أبعاد احتقاره الكبيرة لقيادات الديمقراطية الاجتماعية (الاشتراكية) في الغرب.

إن فشل حدوث الثورة يمكن إذن أن يفسر مباشرة كنتيجة لسياسة القيادة نفسها. إن لينين اتهم هذه القيادة ليس فقط بالإحجام عن الثورة، بل إنها عملت ناشطة على خنقها. إذن تهمة تروتسكي، بأن المانع الوحيد لامتداد الثورة إلى ألمانيا كان موقف الاشتراكيين الديمقراطيين، تُعد تعبيراً عن الرأي البولشفيكي العام[1]. في تفسير ظهور الفاشستية في بعض البلدان الرأسمالية دون أخرى، نجد أن تروتسكي يعود إلى هذا التفسير البولشيفي آنذاك، فيكتب بأن السبب يرجع إلى نوعية قيادة طبقة العمال. فظهور الحركة الفاشستية يشكل الإشارة الأكثر حسية ووضوحاً على وجود وضعية ثورية، وبالتالي فإن فشل البروليتاريا بالاستجابة لها يترك الطريق مفتوحاً أمام البديل الفاشستي. سقوط بلد معين للفاشستية أو تجبنه لها يتقرر، بكلمة أخرى، بالاستجابة السياسية لطبقة العمال. إن موقف تروتسكي كان يعبر عن ذاته في شكل «قانون تاريخي» يقول بأن الفاشستية استطاعت النجاح فقط في البلدان التي تمكنت فيها أحزاب العمال المحافظة بأن تمنع البروليتاريا من استخدام الوضعية الثورية والاستيلاء على السلطة[2].

ما تجدر ملاحظته هنا هو أن بعض قادة الديمقراطية الاشتراكية عبروا عن رأي مماثل. إن رد كارل كوتسكي المباشر على استلام البولشفيك للسلطة لم يكن يدعو إلى تقليدها، بل إلى رفضها لأن الدولة السوفياتية وليس فِرق الرأسمالية هي التي تشكل الخطر الأكبر وتسبب الأذى الأول لصراع طبقة العمال الحديثة في سبيل التحرر[3]، شايدمان لم يتردد في الإعلان بأن

(1) Trotosky, L. : The Revolution Betrayed, Faber,1930, p. 30.
(2) Trotosky, L. : The struggle against fascism in Germany, Penguin Books, 1975, p. 468.
(3) Kautsky, K. : Social democracy versus Communism, Rond School Press, 1946, p. 142.

الحزب الاشتراكي الديمقراطي يستطيع أن يزعم لنفسه الفضل الأول في كبح المشاعر الثورية في صفوف العمال، وبأنه لولا الديمقراطية الاشتراكية لكانت ألمانيا سقطت فريسة دون أمل للبولشفية[1].

ولكن من ناحية أخرى، كان لينين يعتمد على نجاح الثورة في روسيا كمحرك لهذه الحركة الديمقراطية الاشتراكية الغربية التي سمحت بظهور قيادات من هذا النوع، قيادات تدل في وجودها ذاته على غياب الروح الثورية بين العمال. إن مفهوم لينين حول هذه الثورة لا يفترض فقط أن أكثر حلقات السلسلة الرأسمالية تخلفاً (روسيا) هي التي تنهار أولاً، ولكن ما هو أهم من ذلك هو أن انهيار دولة رأسمالية سيدفع الدول الأخرى إلى الانهيار (عن طريق التحفيز للوعي الثوري الذي يحدثه هذا الانهيار الأول). لهذا فإن لينين كان يعمل في ضوء تصور استراتيجي يرى أن الانتقال إلى الاشتراكية في أوروبا يمكن أن يبدأ ويشق طريقه بإسقاط الدومينو الأكثر تخلفاً والأقل استقراراً، ولهذا نراه يردد في مناسبات عديدة أن التبرير الأساسي لثورة روسية هو أثرها المتوقع على المجتمعات الرأسمالية الأكثر تقدماً.



هذا التوكيد على دور الوعي الثوري اتخذ أبعاداً ضخمة في الماوية تجاوز كثيراً ما نجده في اللينينية نفسها. أيّ مراجعة جدّية لكتابات ماو تسي تونغ وسياسته تكشف عن ذلك بسهولة، هذا ينسجم مع النظرية التي نقدمها في هذا البحث، بأن تخلف الأوضاع الموضوعية يعني اتجاهاً شديداً إلى التركيز على الوعي الثوري، وأنه مع ازدياد هذا التخلف تزداد درجة هذا التركيز. إن الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية التي كانت سائدة في الصين عند قيام الثورة الشيوعية كانت أكثر تخلفاً مما كانت عليه في روسيا عند قيام ثورتها، ولهذا ليس من الغريب بأن تتخذ الماوية هذه الأبعاد الجديدة الضخمة في التوكيد على دور العامل السياسي والوعي الثوري. فهي ترى، مثلاً، أن التوكيد على العنصر الاقتصادي أو تقديمه يعني ابتداءً من الثورة الثقافية في الستينات . الانحراف وسلوك الطريق الرأسمالي، ولهذا نراها تدعو إلى أولويات أربع تحتل المكان الرئيسي في تصورها، وتقول إنه أولاً بين الإنسان والأسلحة يعطى المكان الأول للإنسان، وثانياً: بين العمل السياسي وغيره من الأعمال يعطى المكان الأول للعمل السياسي، وثالثاً: بين الواجبات الأيديولوجية والواجبات الروتينية في العمل السياسي يعطى المكان الأول للعمل الأيديولوجي، ورابعاً: بين أفكار الكتب والأفكار السائدة شعبياً في العمل الأيديولوجي يعطى المكان الأول للأفكار الحية السائدة في الشعب[2].

النتيجة الطبيعية لفكر اقتصادي يضع توكيده بشكل اختياري على العامل السياسي هي الأهمية التي يعطيها للأيديولوجية، وللبنية الفوقية، وفي التحليل النهائي، للإنسان. إن المنظم النهائي في الماوية ليس قوى السوق الاقتصادية، أو حتى التخطيط الاقتصادي، بل الإنسان نفسه. إن ماو تسي تونغ كان يريد أن يجد حلاً لمشكلة التنمية بالتدخل المباشر في سلوك

(1) Scheidmann, p. : Memoirs of a Social Democrat, Hodder and Stoughton, 1929, p. 645.
(2) Fan, K.H. : The Chinese Cultural Revolution, Selected Documents, Monthly Review Press, 1968, p. 199.

الإنسـان. في الإنتـاج والاستـهلاك وحتى العـادات اليـوميـة. وذلك عن طريق تعبئـة سيـاسيـة، أيديولوجيـة، وأخـلاقيـة. هذه الفكرة، على الأقل في شكلها الحاسم هذا، لا تجد لها سابقة في تاريخ الفكر الاقتصادي. إن علم الاقتصاد الكلاسيكي، الذي رفض بعناد معالجة البنى الصناعية والاجتماعيـة، لم يستطع أبداً دمج الإنسـان تماماً في تحـاليله. بعض «المعـارضيـن» الذين كانوا يعملون خارج المجرى الإنكلو - سكسوني التقليدي، ماكس فابر، وسومبارث في ألمانيا، ميردال في السويد، مثلاً، اضطروا إلى إرجاع تحليل النشاط الاقتصادي إلى إطاره الأوسع في النظام الاجتماعي، ولكن ليس بينهم من ذهب بعيداً، كما ذهب ماو تسي تونغ، في محاولة حصر العنصر الاقتصادي في معاقله الأخيرة. النظرية الاقتصادية الماركسية تعترف بأن بعض عناصر البنية الأيديولوجية الفوقية تستطيع أن تؤثر في التطور الاجتماعي، إن أنجلز، مثلاً، يكتب في «أصل العائلة، والملكية، والدولة» بأن ازدراء العمل المنتج من قبل الرجال الأحرار، الذي ورثه هؤلاء من مجتمع الاسترقاق، كان يشكل مكبحاً لنمو قوى الإنتاج في العالم الروماني، وبأن الدواء الوحيد لهذا الوضع هو ثورة كاملة. ولكن إن كان أنجلز يكتفي بالملاحظة النظرية، لأنه لم يكن قادراً أن يصنع أكثر، فإن ماو تسي تونغ كان يعمل على التدخل والتأثير فعلياً في حركة التطور الاجتماعي عن طريق تعديل عميق للبنية الأيديولوجية الفوقية. إن إيمان ماو القوي بإمكان تغيير الإنسان أيديولوجياً قاده منطقياً إلى رفض بعض فرضيات الماركسية - اللينينية الأساسية. فهو يؤكد مثلاً بأنه ليس من الضروري توافر قوى إنتاج متطورة كي يصبح بالإمكان تغيير علاقات إنتاج باطلة أو متخلفة، وبأنه بقدر ما يكون البلد متخلفاً بقدر ما يكون انتقاله إلى الاشتراكية سهلاً[1].

تخلف الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية كان بالنسبة لماو تسي تونغ عنصراً إيجابياً يساعد في تفجير الثورة وتكاملها. غياب الثورة الصناعية والطور البورجوازي في الصين كان عاملاً يدفع إلى الثورة وليس عاملاً معثراً لها. لهذا كان يرى أنه من الصعب جداً صنع الثورة وبناء الاشتراكية في البلدان الغربية لأن نفوذ البورجوازية المفسد في هذه البلدان عميق جداً، وقد تسرب إلى كل شيء. البورجوازية موجودة في الصين منذ ثلاثة أجيال فقط بينما هي موجودة في بلدان كإنكلترا وفرنسا منذ عشرات الأجيال. تاريخ البورجوازية في هذه البلدان يمتد إلى 250 عاماً أو حتى 300 عام، أيديولوجية البورجوازية ونمط حياتها يمارسان النفوذ في كل مكان، وفي جميع الطبقات الاجتماعية، ولهذا كانت طبقة العمال الإنكليزية تتبع حزب العمال وليس الحزب الشيوعي.

التخلف المشترك بين روسيا والصين كان وراء نجاح الثورة الشيوعية فيهما. إن ماو ينبه إلى قول لينين «بأن الثورة ستتفجر أولاً في الحلقة الأضعف في سلسلة العالم الرأسمالي»، ويقول، في زمان ثورة أكتوبر كانت روسيا تشكل هذه الحلقة الأضعف، ولكن بعد هذه الثورة أصبحت الصين تمثل هذه الحلقة. ولكن ماو يعترض على قول آخر للينين، يقول فيه «بقدر ما يزيد تخلف بلد ما، بقدر ما تزيد صعوبة انتقالها من الرأسمالية إلى الاشتراكية» وذلك لأننا عندما ننظر إلى

---

(1) Mao Tse-Toung et la Construction du Socialisme. Textes inédits traduits et Présentés par Hu Chi-Hsi, éditions du Senil, 1975, pp. 20, 81, 82.

هذه الأطروحة من زاوية الحاضر، نجد أنها غير صحيحة. على العكس ـ كما يقول ـ بقدر ما يزيد التخلف الاقتصادي في بلد ما، بقدر ما يصبح انتقالها من الرأسمالية إلى الاشتراكية سهلاً وليس صعباً، بقدر ما يكون الفرد فقيراً بقدر ما تزيد رغبته في الثورة.

البلدان الرأسمالية الغربية تعرف، كما ينبه ماو مستوى عمل ونسبة معاشات أعلى، ونفوذاً بورجوازياً أعمق على العمال، ولهذا فإن التحول الاشتراكي فيها يكون أكثر صعوبة مما يعتقد الناس. إن درجة التقنية في هذه البلدان عالية جداً، وبعد انتصار الثورة لا تواجه عملية التعجيل بالمكننة (mecanisation) مشاكل كبيرة. ولكن المسألة الأهم هي تحويل الناس. في الشرق، بلدان كروسيا والصين، كانت في الأصل بلداناً متخلفة وفقيرة. ولكن الآن لا نجد فقط أن النظام الاجتماعي في بلدان كهذه أكثر تقدماً بكثير مما هو عليه في البلدان الغربية، بل إن نسبة نمو قوى الإنتاج هي أيضاً أعلى بكثير. عندما ندرس تاريخ التمية في البلدان الرأسمالية، نجد أيضاً أن البلدان الأقل تقدماً كانت تتجاوز البلدان الأكثر تقدماً. في نهاية القرن التاسع عشر كانت الولايات المتحدة تتجاوز إنكلترا، وفي بداية القرن العشرين كانت ألمانيا تتجاوز بدورها إنكلترا.

إن ماو ينتقد، من ناحية أخرى، سياسة الاتحاد السوفياتي القائلة بأن «البلدان التي تتخذ الخط الاشتراكي تواجه مهمة التعجيل بتمية الصناعات الكبيرة (الأساس الاقتصادي للتحول الاشتراكي) كي يمكن بأكبر درجة ممكنة من السرعة إزالة بقايا السيطرة الرأسمالية، لأنها تعتبر تطور الصناعة الثقيلة كالأساس الاقتصادي للتحول الاشتراكي. إن ماو يرى «أن هذه الأطروحة ناقصة لأن تاريخ جميع الثورات دلل بأنه لم يكن من الضروري بأن تكون قوى الإنتاج متطورة تماماً بشكل مسبق كي يمكن تحويل علاقات الإنتاج المتخلفة. إن الثورة الصينية بدأت بنشر الماركسية، وبفضل هذا الانتشار ظهر رأي عام جديد سهل بالتالي الثورة. يجب أولاً قلب البنية الفوقية عن طريق الثورة كي يمكن إلغاء علاقات الإنتاج القديمة، فبعد إزالة هذه الأخيرة يمكن خلق علاقات إنتاج جديدة وخلق ثورة تقنية كبيرة في تطوير نشيط لقوى الإنتاج في المجتمع، وذلك مع الاستمرار على تحويل علاقات الإنتاج والأيديولوجية[1].

إن أحد الأسباب التي دعت، في الواقع، ماو تسي تونغ «إلى قبول مبدأ التطور الستاليني ككل (رغم ما كان يشعر به من نفاد صبر تجاه سياسة ستالين نحو الصين) كان يعود إلى التعديل العام الذي أجراه ستالين في مفهوم ماركس حول نمط الإنتاج، وذلك عندما أكد بأن بناء نمط الإنتاج الصناعي في الاتحاد السوفياتي سيكون من عمل البنية الفوقية نفسها. فدكتاتورية البروليتاريا نفسها هي التي ستبني الصناعة بوسائل الاشتراكية، كما أنها ستبني أيضاً بنجاح الاشتراكية في بلد واحد». إن السياسة «كانت بالنسبة لـ ماو قبل وبعد الاستيلاء على السلطة، كما كانت سابقاً بالنسبة إلى لينين، العامل ـ القائد، البعد الذي يحدد جميع الأبعاد الأخرى في النشاط الإنساني»[2].

إن ماو تسي تونغ كان، في الواقع، يعود في مناسبات عديدة إلى توكيد وإيضاح دور التخلف

(1) **Ibid, pp. 80-83.**

(2) **Wilson, D., ed. : Mao Tse-Toung in the scale of History, Cambrige University Press, 1977, pp. 25, 36-37.**

في تفجير الثورة وتكاملها. إنه قال، مثلاً، أثناء «القفزة الكبيرة إلى الأمام» في عام 1958، بأن «شعب الصين يتميز، بالإضافة إلى ميزاته الأخرى، في كونه، أولاً، شعباً فقيراً: وثانياً، في كونه شعباً أجوف. هذا قد يبدو شيئاً سيئاً، ولكنه في الواقع، جيد. فالناس الفقراء يريدون التغيير، يرغبون في صنع أشياء كثيرة، يرغبون في الثورة. الورقة البيضاء لا تكون ملوثة، وبالتالي يمكن الكتابة عليها أجمل وأحدث الكلمات، ورسم أجمل وأحدث الصور». هذا كان يعني أيضاً بالنسبة له بأن «الصين قد لا تحتاج إلى الوقت الطويل الذي كان يقدر أنها تحتاجه في اللحاق بالبلدان الصناعية الكبيرة في إنتاجها الصناعي والزراعي»(1).

إن ماو تسي تونغ كان يقدم العديد من الأدلة في التدليل على هذا الدور الإيجابي للتخلف. إنه يكتب، مثلاً «إننا نجد في التاريخ أن الكثير من الأشياء الطليعية لم تكن من اختراع البلدان المتقدمة، بل من صنع بلدان متخلفة نسبياً. ليس من الصدفة أن الماركسية ولدت في ألمانيا حيث كانت الرأسمالية قد بلغت في تطورها درجة وسطى، وليس في إنكلترا أو فرنسا حيث كانت متطورة نسبياً».

العبقرية لا تبرز عادة في صفوف الجماعات المترفة، «إن الأفراد الأذكياء العباقرة يظهرون غالباً من صفوف شبيبة مسحوقة، محتقرة، من أصل اجتماعي دوني، هذا ينطبق على المجتمع الاشتراكي أيضاً.. إن أبناء كوادرنا هم أقل ذكاءً من أبناء الذين لا يشكلون جزءاً من هذه الكوادر».

المعامل الصغيرة كانت تكشف عن درجة من الإبداع أعلى من المعامل الكبيرة. «إن عدداً كبيراً من الاكتشافات والاختراعات كان من صنع المعامل الصغيرة. المعامل الكبيرة تستخدم آلات ممتازة وتعتمد التقنية الحديثة، هذا يعني أنها تنطوي غالباً على روح مغرور، تلتزم بالوضع الراهن ولا تحاول التقدم، إن روحها الخلاقة تكون غالباً أقل مما نجده في المعامل الصغيرة». ثم يكتب وكأنه يبشر بمثالية تاريخية: «إننا نجد، من زاوية التاريخ العالمي أن الثورة البورجوازية وإقامة الدول البورجوازية حدثا قبل الثورة الصناعية وليس بعدها، وهنا أيضاً نجد أن البنية الفوقية تحولت، وجهاز الدولة أقيم قبل انتشار الأفكار التي تسمح بالاستيلاء على السلطة الحقيقية. إن انقلاباً عميقاً في علاقات الإنتاج حدث كنتيجة لذلك. عندما رسخت علاقات الإنتاج الجديدة، فتحت هذه العلاقات الطريق أمام نمو قوى الإنتاج. إن الثورة في علاقات الإنتاج نتجت طبعاً عندما بلغ تطور قوى الإنتاج مستوى معيناً. ولكن تطور قوى الإنتاج تطوراً كبيراً يأتي دائماً كنتيجة لتحويل علاقات الإنتاج»(2).

هذه الملاحظات حول التجربة الشيوعية التي تمثل في جذريتها المنظمة أكبر نموذج ثوري في العصر الحديث، تدل بوضوح أن الأوضاع المتخلفة التي ظهرت فيها كانت عاملاً إيجابياً في

---

(1) Lifton, Robert: Revolutionary Immortality, Mao Tse-Toung and the Cultural Revolution, W.W. Norton, 1976, pp. 96, 102

(2) Mao Tse-Toung et la Construction du Socialisme, op. cit.pp. 175, 174, 101-102.

صنع الثورة لأن منظماتها وقياداتها عرفت كيف تصوغ ذلك بتركيز قوي على دور الوعي الثوري المنظم في حزب يتشكل أساسياً من الإنتليجنسيا الثورية، أو من كوادر تنظم هذه الإنتليجنسيا في دور طليعي.



على الرغم من هذه الاتجاهات التي أشرنا إليها في التجربة الشيوعية، والتي تؤكد على دور «التخلف» الإيجابي وما يترتب عليه من تركيز على الوعي الثوري الذي ينظم ذاته في حزب ثوري ينظم بدوره الإنتليجنسيا الثورية ككوادر قيادية له، فإن الحركة التي أكدت بشكل سيستامي «منظم» واعٍ على دور التخلف في صنع الثورة كانت ـ في الواقع ـ الفوضوية وخصوصاً التيار الباكونيني فيها. هنا نجد رؤية أكثر وضوحاً وتكاملاً لهذا الدور.

هنا نجد أيضاً أن الفوضوية لم تجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تربتها الخصبة في بلدان صناعية متقدمة، بل في بلدان غير متقدمة صناعياً، روسيا، إسبانيا، إيطاليا، وفرنسا. الشيء نفسه ينطبق على النقابية ـ الثورية، المماثلة لها[1] والتي تفرعت منها.

إن باكونين كان يرى بأن الثورة تكون من صنع الشعوب والجماهير غير المتحضرة، فالبروليتاريا لا تتشكل من العمال الصناعيين في البلدان المتقدمة، بل من الجماهير غير الملوثة بعد بالحضارة الغربية. كثيرون آخرون من الثوريين في القرن التاسع عشر كانوا يرون، في الواقع، أن الجماهير السلافية هي أداة الثورة والخلاص لأنها كانت لا تزال بريئة وغير فاسدة.

إن الثورة الاجتماعية في زماننا هي أولاً كما كتب باكونين تمرد «غير متحضر»، «للأجناس الدنيا» المزعومة. ما يحرك هذه الثورة هو «حماس الجماهير الغريزي للمساواة». إن ماركس، تبعاً لباكونين، فشل في إدراك سيكولوجيا الثورة، لأنه تمسك بقانون أطوار اجتماعية ميكانيكي وتطلع إلى العمال كأداة للثورة في المجتمعات الأكثر تقدماً والتي بلغ فيها الإنتاج الرأسمالي درجته العليا، واعتقد أن إنكلترا تمثل نموذجاً لتطور العالم المقبل. إن باكونين كتب «إن طور التطور الصناعي ليس المحدد الأساسي للثورة» بل هو بالأحرى «غريزة الثورة». إن «حدة غريزة الثورة.. التي تشكل واقعة أولية وحيوانية»، هي التي تصنع الثورة، «ولكن هذه الغريزة الثورية تصبح ضعيفة بين الشعوب المتحضرة، إما بسبب استنزافها أثناء تطورها السابق، وإما لأنها كانت أصلاً غير موهوبة كغيرها».

إن البروليتاريا الثورية في الأزمنة الحديثة ليست، كما أعلن باكونين «العمال الصناعيين في البلدان المتقدمة» بل هي «الجماهير العريضة، تلك الملايين غير المتحضرة، المحرومة، والبائسة، والأمية». «هؤلاء «الرعاع» غير الملوثين تقريباً بالحضارة البورجوازية، هم الذين

---

(1) النقابية الثورية (Syndicalism) مذهب ثوري كان يدعو العمال إلى السيطرة على الاقتصاد والسلطة بأنفسهم عن طريق الإضراب العام، وإلى التمثيل النقابي وليس الجغرافي، وكسبت دعماً كبيراً في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا. النقابية. الثورية كانت تعبر عن العقلية النقابية بطريقة ثورية وليس إصلاحية. إنها رفضت النظرية الماركسية حول الحتمية التاريخية وأعلنت بدلاً من ذلك إيماناً وجدانياً بحرية الإرادة الإنسانية، كما أنها رفضت أيضاً الدعوى الماركسية إلى دكتاتورية بروليتارية مركزة كأداة في خلق المجتمع الاشتراكي وطالبت باستقلال منظمات العمال في كل صناعة.

سيدشنون الثورة الاجتماعية»، إن «الأجناس المسماة بالأجناس الدنيا» التي نبذت الحضارة البورجوازية، أو لم تتأثر بها، هي التي ستصنع الثورة. باكونين، وليس ماركس، هو الذي أعلن عن ضرورة تحالف المثقفين والفلاحين، ولقد كتب «إنني أؤمن تماماً بوحدة الفلاحين والمثقفين من الطلاب العنيدين الذين لا يقبلون التسوية.. كتيبة من أربعين ألف (عددهم آنذاك في روسيا).. هؤلاء الطلاب ينتمون إلى الثورة، سواء عرفوا ذلك أم لا»[1].

أنجلز لم يعبر عن أي حماس، عام 1870، لهذا التحالف بين الطلاب «العدميين» وبين شعب متخلف، إنهم كانوا يبدون، بالنسبة له، كخليط يهدد بتفكك التقدم الغربي، «إنه لأمر رهيب للعالم..» كما كتب «وجود أربعين ألفاً من الطلاب الثوريين في روسيا، إن كان هناك من شيء يمكن أن يدمر الحركة الأوروبية الغربية، فإنه سيكون استيراد هذه الألوف الأربعين من الروس العدميين، الجياع، الطموحين، المشكوك في ثقافتهم، المرشحين كلهم لدور الضباط ولكن دون جيش»[2]. أما ماركس، فإنه هزأ من باكونين «كأحد الناس الأكثر جهلاً في صعيد النظرية الاجتماعية»[3]. ثم كتب «بأن نبرة باكونين كانت نبرة الذين تعودوا على الهجوم على الحضارة الغربية كي يلطفوا بربريتهم نفسها»[4].

كان لينين، على عكس أنجلز وماركس، أكثر إدراكاً لهذا التصور الباكونيني للثورة، فكان ما يمكن تسميته بالوسيط في تلقيح الماركسية به. إنه قال عام 1920 بأن 70% من سكان العالم يعيشون في بلدان آسيوية متخلفة، والشكل السوفياتي للمجتمع يمكن أن يتكيف مباشرة مع هذه الأنظمة التي لا تعرف الرأسمالية. ثلاث سنوات بعد ذلك نراه يقول بأن نتيجة الصراع العالمي ستقرر بالواقعة التالية وهي أن البلدان المتخلفة تملك «الأكثرية الساحقة من سكان العالم».

ولكن هذا العنصر الباكونيني كان أكثر بروزاً ووضوحاً في الماوية. لين بياو، وزير الدفاع لماو تسي تونغ، في أواسط الستينات، عبر عنه عام 1965. إن استراتيجية ماو، كما كتب هي «إقامة قواعد ريفية ثورية تحاصر المدن.. الفلاح يشكل القوة الأساسية للثورة ضد الإمبرياليين.. إن التناقض بين شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وبين الإمبرياليين الذين تقودهم أمريكا، هو التناقض الأساسي في العالم المعاصر.. إن كان من الممكن القول إن أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية تمثل، عندما ننظر إلى الكرة الأرضية ككل، مدن العالم، عندئذ تشكل آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية مناطق العالم الريفية.. في هذا المعنى تمثل الثورة العالمية المعاصرة أيضاً صورة مدن محاصرة بالمناطق الريفية».

هناك عدد من المفكرين الذين يرون، في الواقع، أن توقعات باكونين لاتجاه الثورة في القرن العشرين كانت أصدق بكثير من توقعات ماركس. «إن اليسار الجديد في الستينات أحيا عبارة العالم الثالث الصوفية (وإن كان بشكل غير واعٍ)، العالم الثالث الذي قال به كان عالم غير

(1) Feuer, Lewis: Marx and the Intellectuals, A Doubleday Anchor Book, 1969, pp. 222-224.
(2) Nomad, Max: Apostles of Revolution, 1961, p. 133.
(3) Marx, K.: Letters to Dr. Kugelmann, 1934. pp. 103, 102.
(4) Levin, M.: National Liberation Movements in the East, Moscow, 1957, pp. 265, 267

البيض، العالم خارج أوروبا والعالم المسحوق بالرأسمالية والشيوعية. ولكن هذا العالم كان. كالعالم القديم. يحمل بالنسبة لهذا اليسار نظاماً اجتماعياً جديداً بالضبط بسبب عدم إسهامه في عمليات السلطة الموجودة»[1].

بعد مراجعة شواهد من هذا النوع، وعلاقة الماركسية والفوضوية الباكونينية بتجارب القرن العشرين الثورية، يخلص فيوير، أحد مؤرخي هذه التجارب، إلى القول:

إن شبح ماركس امتد على العالم أثناء سنوات الكارثة الاقتصادية في الثلاثينات، ولكن من الواضح أن شبح باكونين هو الذي يحرك الحركات الثورية حالياً، إن ماركس هزأ من باكونين، ولكن ظهر أن خصمه الفوضوي كان أكثر بصيرة وحدساً في إدراك ديناميك الواقع الثوري.. هكذا هيمنت أيديولوجية باكونين النيو - بدائية بين الجيل الجديد من الماركسيين. إن فوضوية باكونين تلعب دوراً بسيطاً، ولا شك، ولكن تحديده لدور المثقفين، والفلاحين، والعنف، والغريزة الثورية، كان التحديد الذي انتصر[2].

باكونين كان أول من ألهم الفوضويين بالاتجاه إلى العناصر المحرومة تماماً من الحقوق الإنسانية في المجتمع الحديث. الشرائح الأكثر بؤساً واضطهاداً، المجرمين وغيرهم من الخوارج في المجتمع. وليس إلى البروليتاريا الصناعية كأداة للثورة. إن توكيده على البؤس، والحماس، والغريزة كالقوى المحركة على الثورة الاجتماعية كان يميزه عن الذين كانوا يضعون إيمانهم كله في العقل، والعلم أو قوانين التاريخ، مما جعله قادراً على التنبؤ بطبيعة الكثير من الثورات في القرن العشرين. إن إيمانه بأن الغرائز الثورية كانت أقوى في البلدان المتخلفة في جنوبي وشرقي أوروبا - خصوصاً إيطاليا، إسبانيا، وروسيا - منها في البلدان المتقدمة في الشمال، يكشف عن تماثل قوي مع التمييز الذي يحدث حالياً بين بلدان العالم الثالث والبلدان المتقدمة في شمالي أميركا وأوروبا الغربية، ونقده للماركسيين، رغم أنه كان مشوهاً بموقفه المعادي لألمانيا كان ينطوي على نبوءة صحيحة بشكل غير اعتيادي حول الاشتراكية الأتوقراطية التي تترتب على النظرية الماركسية.

إن جواكين مورين، الفوضوي الإسباني، أشار عام 1924، بأن الفوضوية لن تستطيع المحافظة على ذاتها إلا في بعض «البلدان المتخلفة» حيث تتمسك الجماهير بها لأنها تماماً دون تربية اشتراكية، وتُركت على غرائزها الطبيعية، ثم يخلص إلى القول بأن أي فوضوي ينجح في تحسين ذاته، في التعلم، وفي الرؤية الواضحة، يتحول آلياً عن الفوضوية[3].

هنا تجدر الملاحظة بأن هذا لا يعني أن الفوضوية كانت تقدم بوعي نظرية جامعة لدور التخلف الموضوعي بالثورة، نظرية تُدرك العلاقة الجدلية العامة بينهما وتعتمد عليها في صنع الثورة أو في صياغة برنامج ثوري معين. ما قدمته كان بالأحرى يقتصر على ملاحظات أو مواقف، ولكن من النوع الذي لا تنظمه نظرية من هذا النوع.

---

(1) Billington, J.: op. Cit. P. 305.
(2) Feuer, L.: op. cit. pp. 224-225, 226.
(3) Schatz, Marshall, ed.: The Essential Works of Anarchism, Bantam Books, 1971, pp. 551-124.

هذه المواقف لا تعني، من ناحية أخرى، أن الفوضوية التاريخية كانت، من حيث طبيعتها، ضد التصنيع أو أنها كانت كحركة، تريد إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، إلى عالم من الفلاحين البسطاء والحرفيين المستقلين (هذا على الرغم من أن البعض، من المتأثرين بشكل خاص بفكر الفوضوي تولستوي، كانوا يرغبون تماماً بذلك). كروبتكين، مثلاً، كان يقدر تماماً التقنية الحديثة وحاول دمجها في تصوره للمجتمع الفوضوي. النقابية ـ الفوضوية حاولت تكييف المبادىء الفوضوية مع نظام المصانع ونقابات العمال، والحركات الفوضوية التي ظهرت بين عمال الملابس في لندن ونيويورك كانت ذات اتجاه مديني تام، إلخ.. ولكن من الصحيح أيضاً، كما كتب شاتز، أحد مؤرخي الفكر الفوضوي، أن الفوضوية تشككت في جوهر الحضارة الصناعية ـ التقنية نفسها: الاندفاع القسري إلى زيادة الإنتاج الاقتصادي إلى أبعد قدر ممكن، والأبعاد الضخمة للمؤسسات التي أفرزها هذا الاندفاع. الفوضويون اعتقدوا أن حضارة كهذه تقتلع جذور الفرد من وسطه الطبيعي، وتفصله عن الآخرين وتحول دون نموه الذاتي وسعادته اللذين يتحققان له فقط في جماعات صغيرة إرادية حيث يستطيع الفرد الانشغال بعلاقات شخصية ذات معنى، وبعمل خلاق حقيقي. لا شك أن هذه المقاصد هي أيضاً المقاصد النهائية للماركسية، ولكن الطوبى الماركسية، طوبى المجتمع اللاطبقي الذي تزول الدولة فيه ـ طوبى فوضوية حقاً، كما أشار كثيرون ـ يمكن أن تظهر فقط في نهاية تحول اقتصادي اجتماعي تاريخي طويل، وليس قبل ذلك، كما أرادت الفوضوية أو اقتنعت به.

النقابية ـ الثورية كانت أهم تجسيد للفوضوية. إنها تدعو البروليتاريا بأن تنظم ذاتها في نقابات تخوض صراعات طبقية ضد أصحاب العمل ليس فقط حول الأجور وأوضاع العمل، ولكن بشكل خاص لأجل حق السيطرة المباشرة على الإنتاج، أداتها في تحقيق ذلك الإضراب العام الذي يُسقط الرأسمالية، ويعود بعده العمال، عن طريق نقاباتهم الثورية، إلى المصانع حيث يبدؤون الإنتاج من جديد على أساس من المساواة، إنها كانت بكلمة أخرى، تعبر عن النقابية بطريقة ثورية وليس إصلاحية. القوة الثورية المهمة في صفوف العمال لم تكن الماركسية بل هذه النقابية ـ الثورية، إنها مذهب رفض «الحتمية» الماركسية القائلة بتطور المجتمع الرأسمالي تجاه الاشتراكية، ولقد أعلنت بدلاً عن ذلك إيماناً «برغسونيا» بحرية الإرادة الإنسانية، كما رفضت أيضاً الدعوة الماركسية إلى دكتاتورية مركزة كأداة في خلق المجتمع الاشتراكي وطالبت باستقلال نقابات العمال في كل صناعة.

هذه النقابية ـ الثورية وجدت دعماً كبيراً لها في بلدان أوروبا المتخلفة اقتصادياً، في إسبانيا، إيطاليا، فرنسا، وروسيا، بشكل خاص. ولكن مع تقدم هذه البلدان الاقتصادي كانت هذه النقابية تضعف تدريجياً إلى أن خسرت نفوذها، إنها تحولت في فرنسا إلى حركة «خبز وسمن» مع بداية الحرب العالمية الأولى، وفي إيطاليا كان الإضراب العام المأسوي الذي أعلنته عند نهاية هذه الحرب الضربة القاضية «لوهم» الإضراب العام كانتقال آلي تقريباً إلى سلطة البروليتاريا، وفي روسيا وفي إسبانيا عجزت هذه النقابية أيضاً، مع مرور الوقت، عن الحفاظ على قوتها.

هذا التحول ابتدأ، في الواقع، في أواخر القرن التاسع عشر، بعد تجربة الكومونة الباريسية

الثورية وفشلها. هذه التجربة كشفت عن صعوبة القيام بعصيان مديني ناجح من النوع التقليدي، الذي يعتمد على المواطنين المتطوعين، والمتاريس والحواجز التي تقام في الشوارع، وذلك بسبب الأسلحة الجديدة، المتوفرة للسلطة. العمال أخذوا بعد ذلك يتطلعون بازدياد، في الدول الصناعية في شمالي أوروبا، إلى الأحزاب السياسية المنظمة جيداً أو إلى نقابات العمال الإصلاحية بغية تحسين أوضاعهم. ولكن في البلدان الأكثر تخلفاً حيث كان البؤس الزراعي المزمن يقترن بنتائج التحول الصناعي الجديد على طبقة حرفية قديمة، استمر الإيمان بالعمل الثوري المباشر، وبالعصيان وأعمال الإرهاب، على طريقة الفوضوية أو النقابية. الثورية.

على الرغم من الردة المضادة بعد الكومونة الباريسية، وعلى الرغم من تكرر أزمات الاقتصاد الرأسمالي، فإن الآلية الدستورية والقانونية في نهاية القرن التاسع عشر كانت أكثر قدرة من أي وقت سابق منذ الثورة الصناعية على تحقيق الإصلاح الاجتماعي والتحسين الاقتصادي.

في البلدان الأكثر تقدماً كان يبدو إذن أن الانضمام إلى حزب سياسي أو اتحاد عمال، والعمل عن طريقهما على تحقيق إصلاحات جزئية، يشكل أداة معقولة أكثر من العمل على إحداث تحولات جذرية مباشرة على الطريقة الفوضوية، «بهذا كان العنف الفوضوي الثوري المباشر يجد قبولاً عاماً فقط في بلدان، كإسبانيا مثلاً، حيث لا يوجد فيها أي مكان لنشاط سياسي حر يمارسه العمال»[1].

إن ماركس كتب مشيراً إلى برنامج باكونين «بأن هذا البرنامج الصبياني وجد ترحيباً له في إسبانيا وإيطاليا حيث الأوضاع الحقيقية لحركة عمال لم تكن بعد نامية[2]»، ولكن ماركس لم يُدرك الجانب الآخر وهو أن نمو هذه «الأوضاع الحقيقية» يجرد حركة العمال من الثورية التي توقعها منها، ويحولها ليس فقط إلى حركة إصلاحية، بل، كما نرى حالياً في بعض البلدان الصناعية المتقدمة، وخصوصاً أميركا، إلى طبقة محافظة أو حتى رجعية.

إن ضعف الحركة النقابية الثورية، نفسه هو الذي جعل، في الواقع، فكرة العمل الثوري المباشر جذابة. إن كانت المكاسب في المدى القريب صعبة التحقيق كالنصر النهائي، فلن يكون هناك إذن أي سبب يمنع تحويل هذا الأخير إلى قصد مباشر. فكما أن الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان كانوا، من ناحية عامة، يرون أن منطق التاريخ كان يحقق النصر لهم دون أن يقوموا بجهد كبير، كذلك أيضاً كان النقابيون الثوريون الفرنسيون يعتقدون أن من الممكن إسقاط النظام الرأسمالي بضربة واحدة.

ولكن بعض النقابيين كانوا ينكرون باستمرار هذه الهرطقة. إن آميل بوجيه، مثلاً، كتب عام 1904، إن كان علينا فقط أن ننفخ على المجتمع القديم كي يسقط، فإن الأمر يكون حقاً سهلاً جداً. إن نحن خدعنا أنفسنا حول حجم الجهد الضروري لذلك، فإننا سنواجه خيبة قاسية، إن

---

(1) **Joll, James: The Anarchists, Harvard University Press, 1980, pp. 126-127.**
(2) **Anarchism and Anarcho Syndicalism, Selected Writing by Marx, Engels, Lenin, International Publishers, 1974, pp. 55-56.**

الثورة الاجتماعية لن تتحقق دون جهد ضخم، ولكن ليس هناك، في الواقع، من ينكر احتمال الثورة المفاجئة إن توفرت لها الإرادة. «ولكن مجرد انتباه الحكومة (الفرنسية) إلى بعض شكاوى العمال، وإصدارها بعض القوانين بغية تحسين أوضاع العمل، ومعاشات التقاعد، أضعف جاذبية النقابية الثورية. علاوة على ذلك، كان يبدو أن الحكومة كانت تنتصر في كل مجابهة»(1).

قبل عام 1914، كتبت بياتريس واب «إن النقابية الثورية حلت محل الماركسية العتيقة الزي، فالشباب الغاضب.. أصبح اليوم فوضوياً يمضغ عبارات النقابية الفرنسية بدلاً من عبارات الاشتراكية الديمقراطية الألمانية»(2).

الأفكار الفوضوية في النقابية الثورية لم تعش في البلدان الرأسمالية المتقدمة «ولكنها بقيت قوية في بلدان كان الصراع الطبقي فيها قديماً، والدولة عاجزة، أو غير راغبة في التدخل - في الأرجنتين، البورغواي، بوليفيا، المكسيك، البيرو»(3).

في أواسط القرن العشرين أصبحت الفوضوية في الولايات المتحدة والغرب حلماً يناقشه المثقفون، أو رمز تمرد ضد مجتمع الرفاهية، لا يزال قادراً على جذب طلاب مثاليين ولكنه كان قد خسر منذ مدة قدرته بأن يكون قوة اجتماعية فعالة.

الفوضوية نجحت في التحول إلى حركة شعبية في إسبانيا إلى درجة لم تتحقق لها في أي بلد آخر. إسبانيا كانت آنذاك بلداً متخلفاً، ذا حكومة ضعيفة وهوة كبيرة تامة بين الأغنياء والفقراء، وشعب يعيش في كثير من المناطق على حافة الجوع تحركه بغضاء عارمة ضد الإقطاعيين والكهنة.

لقد أشرنا فيما تقدم أن الماركسية الكلاسيكية المتمثلة في كتابات ماركس وأنجلز لم تُدرك الإمكانات الثورية التي ينطوي عليها الواقع الموضوعي المتخلف. إن ماركس وصف، كما رأينا برنامج باكونين كبرنامج صبياني، يجد صدى له فقط في بلدان متخلفة كإسبانيا وإيطاليا.

في نقده لموقف الفوضوية من ثورة 1873 الإسبانية، يكتب أنجلز، في تقييم الدروس التي يمكن استنتاجها من تلك الثورة «بأن النضال لأجل الجمهورية في إسبانيا لم يكن، ولا يستطيع أن يكون نضالاً لأجل الثورة الاشتراكية، وذلك لأن إسبانيا بلد متخلف اقتصادياً إلى درجة لا يمكن فيها التفكير بتحرير تام مباشر لطبقة العمال في ذلك البلد. قبل ذلك يجب على إسبانيا أن تمر ببعض أطوار التطور الأولية وإزالة عدد كبير من العثرات في طريقها. الجمهورية وفرت لهذا البلد فرصة المرور بهذه الأطوار في أقصر وقت ممكن.. لهذا فإن المسألة كانت مسألة نضال لأجل الجمهورية، مسألة ثورة ديمقراطية وليس ثورة اشتراكية»(4).

إن ماركس يكتب، من جهة أخرى «أن النِحل (Sects) الثورية تجد تبريراً من ناحية تاريخية طالما أن طبقة العمال غير ناضجة لحركة تارِيخية مستقلة، ولكن عندما تبلغ هذا النضج تُصبح

(1) Joll, James: op. cit. pp. 184, 196.
(2) Cole, Margaret, editor Beatrice Webb's Diaries, 1921-1924, London, 1952, p. 7.
(3) Joll, James: op. cit. p. 205.
(4) Anarchism and Anarcho Syndicalism, Selected Writing by Marx and Engels Intrnational Publishers, 1974, p. 191.

هذه النحل رجعية بشكل أساسي(1)». هذا ينطبق أيضاً على أشكال الاشتراكية الأولى، أي السابقة «للاشتراكية العلمية»، أو ما أسماه بالاشتراكية الطوباوية. بما أن الأوضاع الاجتماعية لم تكن ناميةً إلى درجة كافية تسمح لطبقة العمال بأن تشكل طبقة نضالية، كان من المحتوم على الاشتراكيين الأولين (فوريه، سان سيمون، أوين، إلخ...) الارتباط «بأحلام» حول المجتمع المثالي للمستقبل.

ولكن من سخرية الأقدار أن الثورة الاشتراكية حدثت بالضبط في أوضاع من هذا النوع، وأن الماركسية نجحت في استلام السلطة فقط في مجتمعات متخلفة، أي مجتمعات لم تكن قد أفرزت بعد التطورات أو الأوضاع الموضوعية التي كان يُفترض بها أن تفرز حركة عمال «ناضجة» أو ثورية، وتمهد الطريق أمامها للقيام بثورتها(2).

تخلف الواقع الموضوعي عن مجاراة المقاصد الثورية أو الانفتاح لها على صعيد عام يقود ليس فقط إلى توكيد دور الإنتليجنسيا الأولي والرئيسي في صنع الثورة، بل غالباً إلى الاعتماد، على الأقل في الأطوار الأولى، على ما يمكن تسميته بالعنف الإرهابي. هذا كان واضحاً جداً في التجربة الروسية الثورية، التجربة النموذجية لظهور الإنتليجنسيا الحديثة.

المثقفون الروس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبلوا بالمفهوم القائل بأن الثورة الاجتماعية ستكون من صنع الطبقة المثقفة الصغيرة نفسها، وخصوصاً بعد أن انتهت حركة الرجوع إلى الشعب والعمل على تحريكه السياسي بالخيبة والفشل. مفهوم بيتر لافروف في «الرسائل التاريخية» حول النخبة الفكرية أو الإنتليجنسيا كصانعة للتاريخ حل محل مفهوم باكونين حول الإيمان بطبقة الفلاحين الثورية.

مع هذا الإيمان بقوى الإنتليجنسيا النقدية على إنجاز التحولات الثورية جاءت أيضاً القناعة

---

(1) Ibid, p. 55

(2) هنا تجدر الإشارة أن الجماعات الطوباوية الصغيرة تظهر، من ناحية عامة، في "ربيع" التحديث وتشكل جزءاً من التذمر العام الذي ينتج عنه. إنها تشكل عناصر من صراع أكبر في إصلاح وتجديد روتين الحياة التقليدية التي تتمزق نتيجة عملية التحديث. إن نحن اخذنا أكبر وأهم المجتمعات الصناعية في الغرب والشرق، والولايات المتحدة واليابان نجد ذلك واضحاً. إن أحد الباحثين راجع هذه الظاهرة وخلص إلى النتائج التالية، وهي أن هذه الجماعات ظهرت عادة في ما يمكن تسميته بالمناطق المحروقة، أي مناطق تشتعل بالإصلاح. سواء كان دينياً، سياسياً أو طوباوياً. والذي تدفع إليه مؤسسات التحديث في اصطدامها بالأرضية البدائية المتحجرة المتشكلة من عناصر ما قبل الصناعية. ومع تقدم عملية التحديث يتقدم العنصر الطوباوي معها.

هذه الجماعات الطوباوية ظهرت في الولايات المتحدة في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، وفي اليابان بعد قرن تقريباً من ذلك. في الأولى، كانت الجماعات الطوباوية العلمانية تظهر حيث كانت ضغوط التصنيع الجديد على أشدها، في شمالي الأطلنطي والولايات الشمالية الوسطى. وكانت تتشكل من إصلاحيين ديمقراطيين، زراعيين، دينيين، مجددين، نقابيين، الخ.. نظمت أولاً في الشمال مقاومتها للراسمالية الأميركية التجارية والصناعية. بعد ذلك امتدت هذه الحركات غرباً وجنوباً مع امتداد هذه الراسمالية.

الطوباوية اليابانية ظهرت، هي الأخرى، أولاً في منطقة ناجويا وأوساكا، المنطقة التي ظهرت فيها الصناعة أولاً، وحيث كان يوجد اقتصاد تجاري متقدم قبل ابتداء التصنيع. التنمية اليابانية، كما تُقاس بمؤشرات إقتصادية، مرت بمنعطفين أساسيين، الأول حول عام 1906، والثاني حول عام 1953. كلاهما شاهد بطريقة مماثلة انفجاراً مفاجئاً من النشاط الطوباوي. جميع الطوباويات الصغيرة الحالية ظهرت منذ عام 1953. من هذا يخلص الكاتب إلى القول بأنه من الممكن أن نقيس مجرى تحديث اليابان بمؤشرات الإحتجاج الطوباوي وليس فقط بإنتاج الحديد الخادم.
Plath, D,: Movements of Withdrawal in Gusfeld, J, editor, Protest, Reform, and Revolt. John Wiley, 1970, pp. 94-96.

بأن الأعمال الفردية الإرهابية يمكن أن تنجح بتحريك القوى الاجتماعية الأساسية. الإنتليجنسيا أفرزت آنذاك مجموعات وحركات، منها حركة الطلاب التي اعتمدت العنف الإرهابي في تحقيق هذا القصد. هناك نتيجة أخرى ترتبت على رفض الشعب لهذه الحركات وتمثلت في عدمية فردية، أي أن العدم أو الفراغ يتسرب إلى ديالكتيك التاريخ وأن ليس هناك من اتجاه يقود الإنسان وأعماله، ولهذا فإن الإنسان يمكن بالتالي أن يعطي ذاته لأعمال ومقاصد شخصية صرفة.

هنا نجد مثلاً من نوع آخر على النظرية التي نقدمها هنا وهو أننا عندما نراجع تاريخ العنف الذي يعلن عن رغبة في إحداث تحويل جذري في بنية المجتمع، يمكن لنا التمييز بين العنف الثوري وما أسميناه بالعنف الإرهابي، الأول يعمل مع اتجاهات تاريخية أصبحت ناضجة للعمل أو التدخل الثوري الفعال في صنع التاريخ من جديد، ولكن الثاني يعمل خارج هذه الاتجاهات، إما لأنها ليست ناضجة بعد، وإما لأنه يكون عاجزاً عن الكشف عنها، والعمل معها[1]. عند المقارنة بين الاثنين نجد أن أشكال الوعي والدعوة إلى التغيير تكون أكثر حدة في الثاني، وهي ظاهرة تجد تفسيرها بالضبط في الهوة التي تفصل بينه وبين حركة الواقع الموضوعي.



هذه الأمثلة، وما رافقها من تحليل، كافية في التدليل العلمي على الأطروحة التي بدأنا بها هذا الفصل، وهي أن التاريخ الثوري الحديث يكشف بوضوح في تجاربه الثورية المختلفة بأن تخلف الأوضاع الموضوعية يعني الاعتماد الرئيسي على الوعي الثوري وأداته الإنتليجنسيا، الأداة التي تعبر عنه وتنظمه في تحقيق المقاصد الثورية الجديدة، وفي صنع التاريخ من جديد، هذا يعني، بكلمة أخرى، أن غياب وضعية وحدوية موضوعية، كما أشرنا في المقدمة، يفرض حالياً التركيز على الإنتليجنسيا الوحدوية في مواجهة التجزئة والإقليمية، وذلك إلى أن تتوافر وضعية وحدوية جديدة يمكن فيها للعمل الوحدوي السياسي أن يحقق، إن صح استخدامه لها، دولة - الوحدة أو قفزات كبيرة نحوها.

---

(1) في كتاب "حدود اليسار الثوري" دللت بأن كل ثورة تواجه يساراً متطرفاً يجد جذوره وأسبابه في عجزه عن إدراك الديالكتيك الموضوعي للواقع التاريخي في مرحلة معينة، وللإمكانات التي يسمح بها وينضجها. ولتلك التي لا يسمح بها أو يُعدلها.

تفسير علاقة التخلف الموضوعي بالوعي الثوري

ما تقدم يدل بوضوح على وجود علاقة جدلية واضحة بين تخلف الأوضاع الموضوعية والوعي الثوري، بين تلكؤ هذه الأوضاع عن مجاراة المقاصد الثورية وبين الدور الأساسي الذي تقوم به الإنتليجنسيا، أداة هذا الوعي. السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما هي الأسباب التي تفسر هذا الديناميك الثوري الذي يترتب على هذا التخلف؟.. المجال لا يتسع لتحليل جامع مفصل لهذه الأسباب، ولهذا نقتصر هنا على عرض سريع لما يبدو لنا بأنه أهمها:

(1) تخلف الأوضاع الموضوعية عن مجاراة المقاصد الثورية أو الانفتاح لها موضوعياً يعني هوة كبيرة بين هذه الأوضاع وبين المقاصد، وهي هوة تعني، فيما تعينه أن هذه المقاصد لا تكون مثقلة بممارسات فكرية تشوه وحدتها، وتكاملها، ووضوحها، أو مرهقة بنماذج فكرية سائدة، بل تطرح نفسها كنقيض جذري يتناقض كلياً مع هذه الممارسات والنماذج. هذا لا يفرز فقط حدة وتكامل الوعي الذي يحمل المقاصد الثورية الجديدة، بل يكشف أيضاً، وأولاً، عن طاقات فكرية هائلة، وذلك لأن الوعي لا يكون متعثراً بمركبات فكرية تقليدية ينطلق منها فيقتصر عمله على التعبير عنها. فبدون منطلقات ومواقع أساسية جديدة تسمح بتصورات جذرية جديدة حول المجتمع والتاريخ، لا يمكن للوعي أن يكشف عن طاقاته كلها.

هذا التناقض يكشف أيضاً عن قدرة فكرية كبيرة في رؤية الواقع التاريخي الموضوعي كما يصنع نفسه في إرهاصاته الأولى، وفي التحولات التي أخذ يفرزها، والتي تشير إلى ضرورة ظهور نموذج فكري جديد يعبر، على الأقل في المدى البعيد، عن هذه الإرهاصات والتحولات كما تتبلور، ويساعد بالتالي على تكاملها.

هذا يعني أن الوعي الذي يحمل المقاصد الثورية الجديدة يشكل في البداية نمطاً فكرياً «هامشياً» في هذه الأوضاع المتخلفة، ويقف خارج أنماطها الثقافية والأيديولوجية، فلا تكون طاقاته ورؤيته مشلولة بها، ويكون أكثر حرية في إفراز الفكر الخلاق. هذه «الهامشية» الأولى تجعل من حملة الوعي الجديد، أي الإنتليجنسيا، أقلية تعيش «خارج» المجتمعات التي تعيش فيها، وهذا «يرغمها» على دراسة الواقع أو المجتمع الذي يحيط بها بدقة علمية أكبر على الأقل

كدفاع عن وجودها، وكأداة في توكيد تصوراتها. إنها تجد نفسها مضطرة بأن تدرك الواقع الذي يحيط بها أكثر من غيرها لأن انتصارها يفترض معرفة خاصة بهذا الواقع، وهي معرفة لا يرى الآخرون ضرورة لها لأنهم يعتبرون الأفكار والتصورات القائمة أو التقليدية كأمر طبيعي أو كمنطق لهم. إنها بكلمة أخرى، تكون مضطرة بأن تكرس جميع طاقاتها ومواهبها في الكشف عن الاتجاهات الموضوعية العامة، والتمييز بدقة بينها وبين الأوضاع الاجتماعية والسياسية العابرة والخاصة، وفي الغالب قبل أن يحدث أي انتباه لها. هذا يفسر الحدة أو القدرة النقدية والتحليلية التي تميز عادة الإنتليجنسيا الخلاقة أو الناجحة، والقدرة التي تميزها تاريخياً في تحليل الحاضر، والماضي، وفي كثير من الأحيان المستقبل نفسه. بكلمة مختصرة العبقرية الخاصة التي كانت تكشف عنها، وخصوصاً في المفكرين الكبار الذين كانوا يعبرون عنها. أفراد الإنتليجنسيا يجدون أنفسهم بشكل عام، وكحملة نموذج فكري جديد، يعيشون كخوارج في الأوضاع التي يتفاعلون معها، وبالتالي مرغمين على دراسة هذه الأوضاع بعناية كبيرة كي يمكن لهم السيادة عليها، وذلك على نقيض الذين لا يحققون هذا الخروج، فيتطلعون إلى نماذج فكرية قائمة، ويكون عملهم مقتصراً عليها، على الاقتداء بها، ومحدود بها، أي عمل يخسر الكثير، الكثير، من القدرة على الإبداع والخلق، وبالتالي على إفراز أشكال وعي جديدة. لهذا لم يكن من قبيل الصدفة بأن أهم أشكال الإبداع الفكري التاريخية كانت ترتبط بظهور نماذج فكرية جديدة تتناقض جذرياً مع نماذج فكرية سابقة وتحل محلها.

(2) الأمثلة والوقائع التي قدمناها حول علاقة الوعي الثوري بتخلف الواقع الموضوعي تشير إلى جانب آخر في هذه العلاقة وهو أن قرب هذا الواقع بالمقاصد التي يعلن عنها الوعي الثوري يضعف، أو حتى يشل إمكانات هذا الوعي، وذلك لأن هذا القرب يدفعه إلى الاعتماد الكبير على عمل هذا الواقع نفسه في الدفع إلى هذه المقاصد، ويعتم بقدر كبير التناقض بين هذا الواقع والمقاصد، ويحول الفكر إلى الانشغال بالقوى والاتجاهات الموضوعية التي تعبر عن هذا القرب بدلاً من تلك التي تدفع نحو تلك المقاصد.

المذاهب الثورية الجذرية ترمي إلى تجديد الحياة من الجذور، أي أنها مذاهب تريد إما كل شيء أو لا شيء، وبالتالي فإنها تكون أقل نجاحاً في البلدان التي يمكن فيها الاعتماد على كسب شيء من النظام القائم. عندما تستطيع نقابة ما أن تفاوض بنجاح حول أجور أعلى أو أوضاع عمل أحسن، وعندما تكون الأحزاب السياسية قادرة على تحقيق إجراءات إصلاحية ومعالجة بعض أسباب التذمر، فإن الحل الثوري يصبح أقل جاذبية وأهمية أو مرغوبية. من هذه الناحية وبهذا القدر، يجد المفهوم القائل بأن الثوريين الحقيقيين هم الذين ليس عندهم من شيء يخسرونه - ما يدل على صحته.

(3) الوعي الثوري يعني كما أشرنا «نماذج فكرية وأيديولوجية جديدة»، ولكن الواقع الموضوعي المتخلف يعني تقاليد ونماذج سائدة تتناقض معها وهو تناقض يغذي باستمرار الوعي الثوري ويساعد على صياغته وبلورته. التقوقع في نماذج وتقاليد سائدة يشل القدرة على الخلق، أو بالأحرى، على التكيف والانفتاح لتحولات تاريخية جديدة لأنه يشل القدرة على الرؤية الموضوعية أو الجديدة، وهذا يدفع إلى ظهور الوعي الثوري وتحفيزه باستمرار.

هذا ليس واضحاً فقط في الصعيد السياسي الذي أشرنا إليه حتى الآن، بل في تاريخ العلوم الطبيعية والهندسية نفسها، فهذا التاريخ يكشف بوضوح، مثلاً، أن الاختصاصي الذي ينغمس بواقع أو جانب معين يكون آخر من يكتشف إمكانات التطور والتغيير التي تدفع فيه نحو اختراعات جديدة، ولهذا نراه يقاوم، وبشراسة في بعض الأحيان هذه الاختراعات، وهي اختراعات كان يحققها في كثير من الأحيان مخترعون من الخارج، أي من الذين لا يكونوا مُثقلين أو مرهقين بروتين النموذج السائد في اختصاص أو علم معين.

كل مؤرخ يعرف، مثلاً، أن العسكريين المهنيين يعجزون باستمرار تقريباً عن التكيف مع اختراعات جديدة أو بالأحرى في اكتشاف فاعلية اختراعات كهذه. «كلنا يعلم»، كما كتب، هارولد لاسكي، مثلاً «أن الأميرالات يفشلون دائماً في تقييم السياسة البحرية، بمقاييس ملائمة. وفي بريطانيا العظمى، في أي حال، كان على المنظمين العسكريين الكبار، من أمثال كاردويل، وهالدان، متابعة عملهم ضد مقاومة منظمة من قبل العسكري المهني. إن الدوق ولانغتون فشل تماماً في رؤية أفضلية البندقية المؤخرية، التي تلقم من مؤخرتها، وتاريخ الدبابة في الحرب العالمية الثانية كان بقدر كبير تاريخ مشروع مدني وجد العسكري المهني صعوبة في إدراك قيمته»[1].

إن عجز الأطباء عن رؤية النور من الخارج مسألة مشهورة. والمحامي الإصلاحي ظاهرة غريبة بغرابة المهني الذي يرحب بنقد لمهنته من قبل الذين لا يمارسونها.

كل واحد يعلم الصعوبات التي واجهت جينير في جهده الرامي إلى إقناع معاصريه من الأطباء بأهمية التلقيح. «الجمعية الملكية» البريطانية رفضت نشر أهم بحوث جول، ومعارضة رجال علم من أمثال ريتشارد أوين، وأدم سيدجويك لداروين كان يماثل، أكثر من أي شيء آخر، معارضة روما لغاليليو. إن جراحاً كبيراً من وزن سيمبسون لم يرَ أيّ فضيلة في اكتشاف ليستر لاستخدام المطهرات. إن مقاومة باستور من قبل رجالات الطب كانت حادة إلى درجة دفعته إلى القول بأنه لم يكن يعرف أن أعداءه كانوا كثيرين إلى هذه الدرجة.

إن لاكروا، وبواسون قدما تقريراً لأكاديمية العلوم الفرنسية أشار بأن عمل غالوه حول «نظرية المجموعات» غير مفهومة، وهي النظرية التي أعلن غايلي فيما بعد بأنها كانت من أهم منجزات القرن التاسع عشر الرياضية. كلنا نعلم كيف أن علماء البيولوجيا والفيزياء عجزوا طيلة سنين عديدة عن رؤية أهمية عمل غريغو، مانديل، وويلارد جيبز. لا يوجد، في الواقع، أيّ مجموعة من الاختصاصيين لا تنكر احتمال وجود الحقيقة خارج «حدود البيرينية» الخاصة التي تحيط بها. هناك أمثلة عديدة من هذا النوع الذي يتوفر حوله مباشرة الدليل القابل للقياس والاختبار، ولكن في كل مرة كانت جدة النظرة الجديدة قاتلة لإدراك أهميتها.

ليس هناك من وهم قاتل للحكم الجيد أكثر من وهم الرجل الذي يجعل من بصيرته كخبير قياساً للحاجة الاجتماعية. إننا لا نتقدم في نزع السلاح البحري عندما نفاوض الأميرالات. إننا لا

(1) Las, Harold: The limitation of the Expertin, Georges Huszar, ed. The Intellectuals, A Controversial Portait, Free Press, 1960, p. 170.

نحقق تقدماً قانونياً من اجتماعات نقابات المحامين. مؤتمرات المعلمين نادراً ما تكون قادرة على توفير وسائل التقدم التربوي. إن معرفة ما يمكن صنعه بالنتائج المتحققة في فروع اختصاصية تتطلب، كما يبدو، نموذجاً من العقل المتسق لا يميز عادة الاختصاصي كاختصاصي[1].

إن الاختصاصي يكشف، بسبب انغماسه في روتين عمله، أنه يحتاج إلى مرونة عقلية تنقصه عندما يضطر إلى مواجهة قضايا تتجاوز حدود اختصاصه الضيق، إنه عاجز عن التكيف السريع مع أوضاع جديدة لأن الوعي الذي يحتاجه في هذا التكيف يكون قد استنزف إمكاناته في مشاغل هذا الواقع التي تدور حول قصد ضيق معين، وبالتالي فإنه يخاصم المفاهيم والتصورات التي لا تُحدد في ضوء الواقع الذي تعود عليه أو لا تتفرع منه مباشرة، إنه قادر جداً على الكشف عن صعوبات تواجه واقع اختصاصه الضيق، ولكن قليلون هم الذين يكشفون عن عجز مماثل في مواجهة أوضاع تقع خارج هذا الواقع. الاختصاصي يُبدي، كما، يظهر، خوفاً رهيباً من كل تجربة غير مألوفة، وضعفاً في التكيف، وهذا يعطيه قيمة مشكوكاً فيها عندما يهيمن تماماً على وضع معين. إن المعرفة الاختصاصية تنتج حدوداً معينة تعمل فيها ومن الصعب عليها تجاوزها أو رؤية ما يكمن وراءها رؤية موضوعية.

التخصص يتكون من إدراك تحليلي لصعيد خاص من الوقائع، وبالتالي فإنه يهدد بالعجز عن رؤية هذا الصعيد من زاوية الكل. الانشغال السياسي الاجتماعي بإصلاحات وتعديلات وحاجات ضرورية مباشرة يقتل هو الآخر القدرة على رؤيتها من زاوية الكل، وفي ضوء **تحولاته** واتجاهاته الأساسية. أي انشغال باختصاص أو واقع معين، يغذي عجزاً عن قبول أيّ مفاهيم جديدة تتجاوز هذا الواقع أو الاختصاص، وهو عجز ينمو من طبيعة هذا الانشغال نفسه. إن أرسطو قال مرة، «إن الضيف يستطيع أن يحكم على مأدبة أحسن من الطباخ».

انشغال الوعي بحاجات ومقاصد مباشرة ويومية يقتل قدرته على تجاوز ذاته وحاضره وربطهما بتصورات بعيدة المدى، لهذا كان التخلف الموضوعي الكبير يُبرز الهوة الكبيرة القائمة بين واقع معين وبين المقاصد الثورية المستقبلية، وبالتالي يشغل الوعي بها، ويشحذ حدته حولها بالضبط لأنه لا يستطيع الانشغال عنها بالانغماس بواقع لا ينفتح لها. طالما أن واقع التخصص أو الانشغال بإصلاحات ومقاصد مباشرة يوفر إمكانات موضوعية في تحقيق معالجة أو مواجهة ما للمشاكل والقضايا والحاجات التي تواجهه، فإن الوعي يتقوقع فيه، وفي هذا التقوقع الرتيب يخسر حدته.

(4) تخلف الأوضاع الموضوعية عن مجاراة المقاصد الثورية يعني حالة يمكن فيها الإفادة من تجارب المجتمعات المتقدمة، وتوفير طاقات وإمكانات يمكن حشدها في حرق المراحل والانتقال إلى نظام جديد دون المرور بالتحولات أو الأطوار التاريخية التي مرت بها هذه المجتمعات قبل بلوغ حالتها الجديدة، هذا يدفع إلى التركيز على دور الوعي وأداته الإنتليجنسيا.

إننا نجد مثلاً كلاسيكياً حديثاً على ذلك في التجربة الماركسية التي أشرنا إليها سابقاً، أو بالأحرى التجربة اللينينية عند مقارنتها بالماركسية الغربية، فالأولى ظهرت في أوضاع متخلفة،

(1) Ibid pp. 171-172, 169, 170.

استطاعت أن تفيد من تجربة الثانية التاريخية، فاعتمدت على الوعي الثوري وأداته الإنتليجنسيا، وتمكنت بالتالي أن تحرق المراحل وتحقق الثورة، الثانية التي ارتبطت بنظرية الأطوار الماركسية عجزت عن ذلك.

اللينينية التي رفضت الميكانيكية التاريخية تكشف عن الفكرة الأساسية التي تقول بأن المضمون الاقتصادي ـ الاجتماعي للثورة لا يتطابق بالضرورة مع القوى المحركة التي يجب عليها «شرعياً» تنفيذها. أما النظرية الأخرى التي تؤكد على الكل الاقتصادي ـ الاجتماعي المنعزل كأساس للنموذج الماركسي النظري، كما يُفسر حرفياً، فإنها وجدت في روسيا، في بلاخهنوف، أحد دعاتها الرئيسيين الذي تمسك متصلباً بالتدليل بأن روسيا لا تستطيع أن تحرق المرحلة الرأسمالية. «إن خطأ بلاخهنوف وأتباعه، رغم الاعتماد على فرضيات نظرية صحيحة، كان الاستنتاج من استحالة القفز فوق المرحلة الرأسمالية، ضرورة ثورة بورجوازية والتمسك بذلك إلى أن تبنوا هم أنفسهم دور هذه البورجوازية الثورية الغائبة، مما كان يعني الانزلاق في الحتمية الاقتصادية. هذه المدرسة الفكرية «الميكانيكية» ولدت تقليداً قوياً وغير مجد خارج الثورة الروسية التي سحقتها، وإلى أن أصبحت كادراً لتفكير يميز منظري ومحترفي الثورة ـ المضادة»[1].

إن التصنيع الرأسمالي ظهر في ألمانيا متأخراً عن ظهوره في بريطانيا، ولكن ألمانيا تقدمت بسرعة أكبر. كان يجب على بريطانيا، تبعاً لنظرية الأطوار الماركسية، أن تكون متقدمة أكثر في طريق الثورة البروليتارية، ولكن طبقة العمال الألمانية كانت منظمة بشكل أقوى بكثير. في عام 1905 حدثت ثورة في روسيا هزت قواعد النظام القيصري، إنها بدأت بجماهير وبروليتاريا المدن، ولكنها لم تلبث أن جذبت إليها بشدة الفلاحين، وقطاعات من الجيش، وخصوصاً البحرية. الثورة فشلت ولكن حدوثها أثار الشك في نظرية الأطوار التاريخية. في مارس 1917، قامت ثورة أخرى في روسيا أسقطت نهائياً النظام القيصري. وفي نوفمبر 1917، سقطت حكومة تلك الثورة أمام موجة ثورية أخرى قادها البولشفيك. تحقيق ثورة بروليتارية جماهيرية ناجحة في أكثر بلدان أوروبا تخلفاً كان يحتاج إلى تفسير.

بعد الحرب العالمية الأولى كان يُنتظر حدوث ثورات بروليتارية في المجتمعات الصناعية المتقدمة في أوروبا الغربية. ما حدث كان بعض المحاولات أو الانتفاضات الفاشلة، ولكن الثورة المنتظرة لم تتحقق. إن فشل هذه الثورة في الغرب كان يتناقض بحدة مع نجاحها في روسيا، النجاح الذي كان يتناقض بدوره مع نظرية الأطوار الماركسية. في الشرق الأقصى قامت ثورة كبيرة أخرى، الثورة الصينية، وبعد ثلاثين سنة من الكفاح أسقطت نظام شان كي شك الإقطاعي ـ البورجوازي، وهذا تحدى مرة أخرى صحة نظرية الأطوار الماركسية.

إن ماركس وأنجلز كانا يحددان مواقفهما السياسية نفسها في ضوء نظرية الأطوار، أو النظرية الاقتصادية التطورية التي كانت تشكل محور الماركسية. ففي الحرب الفرنسية ـ البروسية، 1870-1871، مثلاً، انتصرا لبروسيا على الرغم من توكيدهما على تماثل المصالح بين الطبقات العاملة، الفرنسية والألمانية. بما أن الحرب كانت تدفع نحو تدعيم الهوية القومية

(1) Brossat, A.: op. cit. pp. 32-33.

الألمانية ضد الإمارات الإقطاعية، فإنهما وجدا أن هذه الحرب كانت تقدمية. وفي الحرب الأهلية الأميركية دعم ماركس بقوة الولايات الشمالية وذلك بسبب سياسة لينكولن الداعية إلى الاحتفاظ بالاتحاد السياسي (دولة بورجوازية واحدة كانت أهم من عدة دول متخلفة)، ونتيجة عداء ماركس الشديد للرق. في كلا الحالين كان ماركس وأنجلز يجدان حاجة إلى تشجيع الأشكال الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية البورجوازية كشرط ضروري لنمو البروليتاريا. إن أنجلز كان واضحاً كل الوضوح عندما أعلن «أن كل من يقول بأن من الممكن تحقيق ثورة اشتراكية في بلد لا توجد فيه بروليتاريا أو بورجوازية يبرهن بقوله هذا أنه لا يزال عليه أن يتعلم ألف وباء الاشتراكية». وفي أحد كتبه الأولى، «حرب الفلاحين في ألمانيا»، 1850، أكد بأن الثورة لا تستطيع تجاوز بنية المجتمع الطبقية عند حدوثها[1].

فشل الكومونة الباريسية كان بمثابة تحذير من مخاطر ثورة بروليتارية تحدث قبل أن يصل الطور الرأسمالي إلى حالة نضج تام. قبل ثورة 1905، كان لينين نفسه يتخذ، في الواقع، موقفاً يشارك فيه جميع الاشتراكيين الروس آنذاك، وهو أن الثورة ستقود إلى دولة تحت سيطرة البورجوازية. موقفه تغير بعد هذه الثورة.

ولكن الثورة الشيوعية نفسها، التي أفادت من تجارب الماركسية الغربية في مجتمع متطور، ورأت كيف أن هذا التطور نفسه ينحرف بها عن ثوريتها، كانت نقضاً صريحاً لهذه الماركسية التطورية.

(5) تخلف الواقع الموضوعي يدفع في ذاته إلى مخرج ما. ولكن بما أن هذا التخلف يعني أنه لا يمكن الاعتماد على قوى واتجاهات موضوعية يفرزها هذا الواقع وتدفع في ذاتها إلى تحقيق المقاصد الثورية، أو تقرب بينه وبين هذه الأخيرة، فإن تدخل الوعي يمثل آنذاك، المخرج الوحيد في صنع الواقع ويتخذ بالتالي أولوية بارزة. إن كان الواقع الموضوعي بعيداً عن المقاصد الثورية، وإن كان لا يكشف عن تحولات واضحة وسريعة نسبياً تدفعه نحوها، فإن الحل الذي يطرح نفسه عفوياً تقريباً يكون الرجوع إلى الوعي الثوري وأداته الإنتليجنسيا في تجديد هذا الواقع وصنعه بطريقة تحقق هذه المقاصد.

في وضع كهذا يتولد إغراء كبير بأن يُنسب للنظرية وللمبدأ، وللأفكار قوة ضخمة في تحريك الناس، لأن هؤلاء يحاولون توكيد سيادتهم حيث يجدونها، وعندما تكون الأفكار أسلحتهم الوحيدة، فإنهم ينسبون إليها قوة خاصة ويعتمدون علها كقوة متميزة. لهذا نجد، في أوضاع

---

(1) على الرغم من أن ماركس وانجلز كانا متشددين في التوكيد على طور بورجوازي قبل أن تصبح الاشتراكية ممكنة، فإنهما اعترفا في بداية إنتاجهما في "الإيديولوجية الألمانية" عام 1846، بأنه من الممكن التعجيل بالمرور عبر أطوار التطور في بعض الأوضاع. إن أكثر هذه الأوضاع شيوعاً كان "النمو المتأخر". إنهما ذكرا كمثل على ذلك الولايات المتحدة، وهي بلد لم يعرف الطور الإقطاعي، وأشارا بأن أفراداً مُبدعين من بلدان أكثر نمواً حملوا إليها أفكاراً متقدمة استطاعت التعجيل بحركة مرورها عبر الأطوار المختلفة. وانجلز اعترف فيما بعد، عام 1846، بأن البلدان التي تصل متأخرة إلى طور الراسمالية يمكن أن تفيد من ذلك. إنه أشار إلى هذا في ضوء التقدم السريع الذي حققته طبقة العمال الألمانية، انه كتب «أن حركة العمال في ألمانيا يجب أن لا ننسى أبداً أنها نمت على أكتاف الحركات الإنكليزية والفرنسية، وأنها كانت قادرة ببساطة على استخدام تجاربها التي دفعت لها ثمناً غالياً، وبالتالي استطاعت تجنب أخطائها، الأخطاء التي كان لا يمكن في ذلك الوقت تجنبها. أين تكون الآن حركة العمال الألمانية دون سابقة نقابات العمال البريطانية، وصراع العمال الفرنسيين السياسي، وخصوصاً دون الاندفاع الجبار الذي ميز الكومونة الباريسية؟".

كهذه، أن التعبئة الفكرية كانت في البداية منفصلة تقريباً عن العمل الاجتماعي السياسي، وأن المثقفين، ومنهم حتى موظفي الحكومة، يؤكدون بشكل نموذجي في المجتمعات التي تدخل التصنيع متأخرة، على أهمية الأفكار كأداة في تحقيق التغيير الاجتماعي السياسي.

«إن المثقف، فيما يُسمى بالبلدان المتخلفة، يميل إلى إقامة أوتوقراطية معادلة للهوة بين أفكاره والمحيط الاجتماعي، فالواقع الاجتماعي يمثل بالنسبة له عثرة قائمة أبداً، عنيدة وممتنعة على أفكاره. إن وعيه كمثقف يعمل على تحديد وجود ما وبقدر ما يكون الوجود كابحاً له، بقدر ما يزداد وعيه شدة هجومية في أفكاره، كارل ماركس، وميل، لاحظا أن المثقفين في البلدان المتخلفة اقتصادياً تبنوا أكثر الأفكار تقدماً. إن مذهباً كالسان سيمونية، في برنامجه الذي يقول بسلطة المثقفين، كان يمكن أن يظهر فقط في بلد متخلف نسبياً كفرنسا[1]». هذه الظاهرة تساعد بقدر أساسي على «تفسير النفوذ الكبير الذي تمارسه جماعات من المثقفين في هذه البلدان، والذي يعمل على تعزيز الاتجاه إلى إعطاء السياسة طابعاً أيديولوجياً حاداً يميز، كما يبدو، بصورة نموذجية المجتمعات السياسية التي تبز فيها المزاعم السياسية الوقائع الاجتماعية الاقتصادية التحتية»[2].

عند تساوي الأشياء أو الأوضاع الأخرى، يمكن القول إن مكانة المثقفين تكون أعلى في البلدان الفقيرة والضعيفة. «فكما أن الرجال والنساء يحاولون التعويض عن عاهات جسدية بمنجزات فكرية، فمن الممكن أيضاً أن عدم النجاح في تحقيق القوة والثروة يغري الأمم بتقييم ثقافتها بشكل أكبر، وبالتالي فإن الذين يسهمون فيها ويضيفون إليها هم المثقفون. ثم إن ازدراء العمل اليدوي يضفي درجة ما من التميز على المهن الفكرية، واقتران اسمهم بحركات شعبية ناجحة يضفي أيضاً مكانة إضافية على المثقفين»[3].

التخلف يصعّد كثيراً المواجهة الثورية في هذه البلدان، لأن توقف حركة التاريخ فيها أغلق الباب أمام الكثير من التاريخ الحديث، وكون هذه البلدان لا تجابه الرأسمالية في بدايتها، بل الرأسمالية الاحتكارية المتقدمة، لا تجابه حتى الليبرالية الإصلاحية بل الثورة الشيوعية، كل ذلك يضاعف كثيراً من مشاكلها وبالتالي من حدة الوعي في مواجهتها. هذا لا ينعكس فقط في المحافظ الذي يحاول أمام هذه التحديات الكبيرة التمسك المتصلب بالنظام القديم، بل بشكل خاص في الإنتليجنسيا المبدعة التي تتشوق، بالضبط بسبب النقطة الأكثر بعداً والتي تراها في الأفق وتعمل على بلوغها، إلى حرق المراحل التي لا تسمح لها تحديات وضغوط العصر باختبارها والمرور بها. لهذا كان نفاد الصبر سمة عامة تميز هذه الإنتليجنسيا التي تعمل وكأن الانتظار أصبح أمراً لا يُطاق. هنا تقوم جاذبية الوعي الثوري الجذري الذي تحمله وتعبر عنه هذه الأخيرة. هذا الميل الذي كان يدفع المثقفين بشكل عام، والإنتليجنسيا بشكل خاص، في البلدان المتخلفة اقتصادياً وسياسياً (أي البلدان ذات الأنظمة الأوتوقراطية) إلى البحث عن

(1) Pankhurst, Richard: The Saint-Simonians, Mill and Carlyle, London, 1957, p. 15.
(2) Daadler, H., in Lapalombara, J., and Weiner, M. eds. Political Parties and Political Development, Princeton University Press, 1969, p. 56.
(3) Stanislav, Andreski: The Uses of Comparative Sociology, University of California Press, 1969, pp. 221, 223.

أكثر الأفكار ثورية، وكان يعبر باستمرار عن توترات نفسية من هذا النوع الذي يفرزه الواقع الموضوعي المتخلف.

(6) الواقع الموضوعي المتخلف - كما نراه حالياً في العالم الثالث، مثلاً - يشكل تربة خصبة لمجموعة منظمة في الإنتليجنسيا بأن تستولي على السلطة وتمارسها باسم مقاصد ثورية جديدة.

إن نخبة أو «طليعة» لينين اللاطبقية، التي تتشكل من المثقفين أبناء الطبقات الوسطى والعليا استلمت السلطة، كما أشرنا سابقاً، ليس كما توقع ماركس، حيث يكون الاقتصاد أكثر تقدماً والطبقة العاملة واعية، مثقفة، منظمة، كثيرة العدد ونشيطة سياسياً، بل في بلدان كانت فيها هذه البروليتاريا غائبة، أي بلدان كان الاقتصاد فيها متخلفاً، وطبقة العمال غير ناضجة أو حتى غير موجودة، وأحزاب جميع الطبقات لا تزال بدائية. هذه التجارب تدل، في الواقع، أنه بقدر ما يكون المجتمع مبعثراً، قليل التنظيم والتقدم الاقتصادي والتعليم، بقدر ما يكون سهلاً على الإنتليجنسيا أن تستلم السلطة باسم الاشتراكية أو البروليتاريا. هذه الأوضاع جعلت من الممكن لمثقفين مغتربين أو ضباط متململين، قلقين، استلام السلطة، حتى حيث تكون البروليتاريا في طفولتها. طلبة هوشه منه قاموا بالثورة في بلد كان فيه عمال المزارع الكبيرة العمال الوحيدين. ماو تسي تونغ استلم السلطة باسم البروليتاريا، ولكن بواسطة جيش من الفلاحين تنظمه كوادر حزبية من الإنتليجنسيا. في بعض بلدان العالم الثالث التي يتمتع فيها العمال الصناعيون بمكانة مميزة بعض الشيء بالنسبة للفلاحين وفقراء المدن، خسر هؤلاء العمال الانتماء أو الاستعداد الثوري.

الإنتليجنسيا لم تستطع تنظيم الثورة في البلدان الصناعية المتقدمة، ليس فقط لأن طبقات العمال ليست ثورية فيها، بل لأنها لا تكشف عن التناقضات الحادة والتحديات الكبيرة التي نجدها في بلدان العالم الثالث، لهذا لم يكن من الغريب أن يكون هذا العالم المسرح الذي دلت فيه الإنتليجنسيا على أكبر انتصاراتها. «التخلف» يعني أنظمة إقطاعية واجتماعية ومؤسسات وولاءات، وانتماءات وتصورات أيديولوجية تقليدية عميقة الجذور، ولهذا فإن التحول التاريخي عنها يتطلب صراعاً حاداً يفرض بدوره درجة عليا من التركيز على الوعي الثوري وأداته الإنتليجنسيا. انحسار الماركسية الثورية مثلاً في البلدان الغربية يعود إلى كونها لم تكن مضطرة إلى الصراع ضد تحديات من هذا النوع.

التخلف يعني، من ناحية أخرى، تناقضاً حاداً واضحاً بين الطبقات التقليدية الحاكمة، الصغيرة العدد، وبين جماهير الشعب. إنه تناقض من السهل صياغته بوعي ثوري حاد لأنه من النوع الذي يحياه الشعب يومياً وبأشكال حسية مرئية.

في بداية النظام الرأسمالي كان الوعي الطبقي أو الثوري ممكناً بالانطلاق من أوضاع الاستثمار المحلية القاسية أو من التجربة اليومية نفسها، ولكن تفسير أشكال الاستثمار أو الظواهر الاقتصادية - الاجتماعية أصبح حالياً أصعب بكثير لأنها بلغت درجة عليا من التعقيد، وهي تتطلب جهداً فكرياً كبيراً في الكشف عنها، فالوعي لها لا يتم بشكل عفوي، ووجود أو غياب

وعي كهذا ليس طبعاً مسألة صدفوية وعرضية. إن المدى الذي تظهر فيه أفكار تشير إلى علاقة سببية بين وعي ثوري أو طبقي وبين أوضاع اجتماعية وسياسية أخرى يرتبط بشفافية العلاقة، أي بدرجة وضوح فائدة الحركة الثورية أو الطبقة من عمل موجه ضد قوى أو طبقة أخرى. هذه الشفافية كانت بارزة في فرنسا 1789، وفي روسيا، وفي الصين، ولهذا ظهرت فيها أكبر الثورات الحديثة وتكامل في تجاربها دور الإنتليجنسيا الثورية.

التناقض الحاد الذي يبرز في أوضاع كهذه بين الفكر الاجتماعي السياسي الحديث، في اتجاهاته ومدارسه المختلفة، وبين الفكر التقليدي الجامد، يحفز الوعي بشدة ويدفعه إلى صياغة نماذج فكرية جديدة يتجاوز بها وضعه. فبقدر ما يزيد تخلف الواقع الموضوعي عن هذه الأشكال وأوضاعها، بقدر ما يزيد احتمال ظهور حركات ثورية جذرية تنظمها إنتليجنسيا طليعية.

إن ألكسندر هيرزن، أحد «الآباء» الأولين للإنتليجنسيا الروسية، كتب حول الطلاب الثوريين في روسيا أثناء القرن الماضي، أن «ما خلّف في أنفسهم انطباعاً قوياً كان التناقض التام بين الكلمات التي يتعلمونها وبين الحياة حولهم. معلموهم وكتبهم، وجامعاتهم، تكلموا لغة كانت واضحة للعقل والقلب؛ آباؤهم وأمهاتهم، وعلاقاتهم، وكل ما كان يحيط بهم كان يتكلم لغة أخرى لا يمكن للعقل أو القلب الموافقة عليها، ولكنها كانت تنسجم مع المصالح المالية والسلطات السائدة. هذا التناقض بين التعليم والحياة العادية لم يحقق في أي مكان آخر الحجم الذي حققه بين نبلاء روسيا»(1).

في دراسة جامعة لحركات الطلاب الثورية في العصر الحديث، كان فابر يتكلم عن ظاهرة مماثلة عندما كتب بأنه حيث تكون المسافة الثقافية بين الطلاب والسكان المحيطين بهم كبيرة، فإن إمكانات ظهور حركة طلاب تزيد. فالتطور المتباين حيث تختلط الأفكار التقدمية مع التخلف المادي يولّد الضغط الثقافي، الاغتراب الثقافي الذي يبرز حاداً بين الطلاب، لأنه يعني نزع السلطة عن الأجيال السابقة كأجيال ثقافية دونية، يخجل الإنسان بها(2).

الإنتليجنسيا تعيش حياتها الخارجية في واقع موضوعي مادي، اجتماعي، ثقافي وسياسي متخلف عن مجاراة التاريخ الحديث، ولكن حياتها الداخلية تكون مشربة باتجاهات هذا التاريخ، بتصوراته وتطلعاته وقيمه، وبالمناخ الفكري الذي يترتب عليه. إن مقاصدها الأيديولوجية والفلسفية تتجاوز بالتالي هذا الواقع وأنظمته ومؤسساته، ولا تنسجم معه. الإنتليجنسيا تنطلق إذن من «مثالية تاريخية» وليس من «مادية تاريخية» في دورها التاريخي كأداة طليعية في تجديد هذا الواقع وتنظيمه في ضوء تصور إنساني تاريخي جديد.

---

(1) Herzen, Alexander: My Past and Thoughts. The Memoirs of Alexander Herzen, Tr. Garnett, C. London, 1924, p. 141.
(2) Feuer, Lewis: Conflict of Generations, Basic Bokks, 1969, p.5.

(2)

مقومات وأوضاع الإنتليجنسيا

الإنتليجنسيا كحاملة للوعي

بما أننا نعالج موضوع «المثقفين والثورة» بغية الوصول إلى نتائج يمكن الإفادة منها في العمل الوحدوي، أشرنا فيما تقدم بأن تجارب التاريخ الوحدوية تكشف عن قوانين عامة تشكل ما أسميناه بالوضعية الوحدوية الموضوعية، أي الوضعية التي لا يمكن دونها أن يحقق العمل الوحدوي السياسي مقصده، أو دولة - الوحدة. ثم دللنا بأن غياب هذه الوضعية يفرض، كما تدل تجارب التاريخ الثورية، الاعتماد على الإنتليجنسيا إلى أن تتوفر هذه الوضعية. كي يكتمل البحث وجب إذن، بالإضافة إلى تحليل الأوضاع التي تظهر فيها الإنتليجنسيا والذي قدمناه فيما سبق، تحليل المقومات التي تضفي على الإنتليجنسيا هذا الدور وتميزها به. فما هي هذه المقومات؟

إن أهم هذه المقومات هو طبيعة عمل الإنتليجنسيا كحاملة للوعي الثوري.

الإنتليجنسيا تُعطي ولاءها للأفكار والمعرفة، وتمثل الجانب الخلاق في الفكر الاجتماعي السياسي. إنها تراقب، تدرس وتتأمل وتنظر وتحلل، وتشغل نقدياً بالأفكار والقيم والتصورات الأيديولوجية التي تتجاوز المشاغل والمقاصد العملية المباشرة. في ضوء هذا التحديد العام يمكن القول إن المثقف الذي يهتم فقط بالأفكار والتحليل الفكري، والوقائع، يكون منظّراً، والذي ينشغل فقط بالأفكار المعيارية والتقييمية يكون أخلاقياً، وهو يصبح جزءاً من الإنتليجنسيا عندما يهتم بالنوعين ويوحدهما في نقد يرفض الأوضاع القائمة عن طريق الفكر المنضبط والمنظم. الإنتليجنسيا تتميز إذن عن المثقفين الآخرين في كونها، كما يقولون في بعض الأوساط الفكرية الفرنسية، لا تشكل «كلاب حراسة» لهذه الأوضاع، للنظام القائم، لما هو موجود، بل، بالأحرى، قوة نضالية في خدمة ما يجب أن يكون. المثقف الذي يرتبط بالوضع الراهن لا يستطيع فصل نفسه عنه، وعن قيمه وافتراضاته ومنطلقاته ومؤسساته، وبالتالي لا يستطيع القيام بتحليل موضوعي علمي نقدي حوله، أو ممارسة النقد الجذري له. إنه يكون ملتزماً به بشكل مباشر أو غير مباشر، ويجد عقلنة له في ضوء تبرير فكري يضفي عليه الشرعية الأيديولوجية. هذا يعني أنه يكون مثقفاً دون الوعي الأصيل الذي يميز، أو يجب أن يميز المثقف، وليس الإنتليجنسيا فقط، وذلك لأن هذا الوعي، الوعي غير المزور كان القوة المحركة لتقدم

الفكر الإنساني نفسه. يعني في ذاته، فيما يعنيه، ما يلي:

قدرة الإنسان على «الخروج» من الذات والوسط الخارجي، ككل أو في بعض جوانبهما الأساسية، «وكأنه» ليس جزءاً منهما، لتحليلهما وتقييمهما، ومن ثم رفضهما جزئياً أو كلياً في ضوء تصور جديد، هذا هو عنصر الوعي الأساسي.

الإنسان ليس شيئاً من الأشياء، ليس ظاهرة محتومة كالنبات والحيوانات، فهو يتميز بوعي يرد به على الماضي، ويتفاعل ويؤثر به في الحاضر. إنه يتأثر ولا شك بالنمط الفكري الذي يتسلمه من هذا الماضي ولكنه يتميز بالقدرة الفكرية الإبداعية، أو الوعي الذي يسمح له بتجاوزه. إنه يتمثل وينقل، ولكنه يُبدع ويخلق لأنه قادر بأن يقف على مسافة ما مما يتسلمه من الماضي، وبأن يخلق أفكاراً وتصورات وعلاقات جديدة تنظم مواقف جديدة تجاه واقعه. إن العمل الفكري نفسه يدعو المثقف إلى النقد الذي يمثل هذا الوعي ويعبر عنه، ولهذا ليس من الغريب أن نجد في أوضاع محافظة أو غير ثورية، كالتي تسود مثلاً الولايات المتحدة حالياً، قسماً من المثقفين يقف خارج النظام، على مسافة منه، ويمارس دور الإنتليجنسيا النقدي. لهذا نحتاج كي نُدرك السلوك الإنساني بأن نكون حساسين ليس فقط بالماضي والحاضر، بل بالمستقبل بشكل خاص، فنخلق في تفكيرنا مكاناً أساسياً لهذا الوعي الذي يتطلع إلى المجتمع كما يجب أن يكون، وليس كما هو، أو كما كان. إن الوعي، الذي يعني القدرة على الخروج من الذات والوسط الخارجي والوقوف على مسافة ما منهما، يندفع بطبيعته ذاتها إلى الكشف عن التحولات والتناقضات التي تدفع بالحاضر إلى تجاوز ذاته، إلى إضفاء الوضوح والمعنى عليها، وإلى مساعدة العمل السياسي، مباشرة أو غير مباشرة، على إدراك ذاته ووضعه. إن الإنتليجنسيا - كما تكشف هذه الدراسة - تمارس إذن دوراً تاريخياً مهماً، لا يمكن دونه إدراك التاريخ الحديث نفسه، إنها تمثل أشكال الوعي التي يمكن بها التعبير عن هذه التحولات والتناقضات، ومن ثم ضبطها وتوجيهها[1].

العقلانية تفترض قيام خط فاصل بين «الذات» التجريبية المنشغلة بممارساتها اليومية وبين «الذات» الواعية التي تقف، أو يمكن أن تقف خارجها وعلى مسافة ما منها. النتائج التي تترتب على هذه الذات التجريبية تعني مشاغل آلية تقيم جداراً بينها وبين الوعي الذي يعني مشاغل تحدث على صعيد عام جامع عندما يمارس هذا الوعي دوره النقدي أو الثوري. إنه وعي يحتاج إلى الخروج من هذه الذات التجريبية كشرط للرؤية الموضوعية وللنقد الثوري. الحس الزماني الذي يميز الفرد الذي يتمحور عالمه على هذه المشاغل اليومية يكون قصيراً جداً مما يعني أنه يكون عاجزاً عن الرؤية العامة لهذا العالم، وغير مستعد للتضحية بالحاضر لأجل المستقبل. لهذا كانت المثالية التاريخية تعبر نفسياً وأخلاقياً عن الإنتليجنسيا حتى وإن كانت تنطلق نظرياً أو فلسفياً من المادية التاريخية أو أحد أشكال المادية الأخرى. هذا ما دفع أيضاً البعض إلى تحديد المثقف وليس فقط الإنتليجنسيا كشخص يحدد وعيه وجودَه.

---

(1) هذا لا يعني أن جميع قطاعات الإنتليجنسيا قادرة بأن تقوم بهذا الدور الأخير. فهي قد تمثل الوعي ولكن في كثير من الأحيان يكون هذا الوعي عاجزاً عن تحديد التحولات والتناقضات الموضوعية التي تدفع الواقع إلى تجاوز ذاته، وبالتالي عن العمل معها. إنها في أوضاع كهذه تعثر هذا التجاوز من حيث لا تريد.

الإنتليجنسيا تُعطي ولاءها للأفكار والتصورات التي تتجاوز الواقع اليومي أو التجريبي، والوعي الذي تعبر عنه يمثل الجانب النقدي، الخلاق، والتأملي في الفكر. إنه يفحص، يتأمل، يحلل، يتعجب، ينظر، ينتقد، يتصور.. إنه جانب يمكن تسميته بالجانب الإضافي في الفكر، وينشغل نقدياً بالغايات وبالقيم والمقاصد التي تتجاوز الحاجات العملية المباشرة(1). هذا الوعي ينشغل إذن بالمفاهيم والمجردات العامة، ولكن «إنسان الشعب» كما يكتب المفكر الفوضوي كروبتكين، «لا يفكر حول مجردات، بل في عبارات محسوسة، ولهذا فإن المجرد «دولة» يتخذ بالنسبة له شكل موظفين عديدين..»(2).

الوعي يعني النقد، ولهذا ليس من الغريب أن نجد عناوين عدد من كتب ماركس تبدأ بهذه الكلمة «نقد فلسفة الحقوق عند هيجل»، «نقد فلسفة الدولة عند هيجل» إلخ.. أو أن فيلسوفاً مثل كانْت يستخدم عناوين مماثلة، «نقد العقل الصرف»، «نقد العقل العملي».

هناك آخرون ينبهون بأن النقد يشكل أداة التطور الذاتي نفسه، إن الـ «ضد» تأتي قبل الـ «لأجل»، كما كتب بيكاسو، وإن كنت تريد إدراك ما أصنعه ولماذا أتغير، سَلْ نفسك دائماً ضد أي شيء أرسم، هذا يحدث غالباً ضد رسومي السابقة.

الوعي الثوري يعني إعادة نظر جذرية في الأسس، في الإنسان والمجتمع، في المعرفة والممارسة. والثورة واقعة اجتماعية كلية، تؤثر في كل شيء وتحاول تجديد كل شيء. «الوضعية الثورية» تبرز إذن، من حيث التحديد، عندما يحدث نقد وليس فقط في الصعيد الاجتماعي والسياسي، بل في كل صعيد ثقافي، ويظهر رفض لقيم قديمة وإعداد لقيم جديدة تشمل هذا الكل الاجتماعي الثقافي. هذا النقد يكون ممكناً فقط لأن الوعي يمهد له بخروجه من الوضع الراهن.

القول بأن النقد يعمل على زيادة درجة الوعي وبأن الوعي يكشف عن إمكانات ورؤى جديدة يشكل، في الواقع، فكرة عادية تنال قبولاً عاماً باستثناء العناصر اليمينية المتطرفة. الإنتليجنسيا تنطلق واعية أو لا واعية من الفرضية التالية وهي أن مجابهة الواقع بالعقل هي القيمة الأساسية لكل فكر، بصرف النظر عن المفهوم التاريخي الخاص حول طبيعة الواقع. إنه عقل يُدرك في معنى هيجل والفلسفة الألمانية الكلاسيكية، أي كخاصة نقدية توافق بين المعرفة والتحول الاجتماعي بطريقة تدعم تحقيق الحرية والإمكانات الإنسانية. إنه مفهوم يضفي على العقل القدرة على اكتشاف واقع أعمق وراء الظواهر، أو القدرة على اختراق هذه الظواهر والذهاب إلى ما وراءها حيث يكشف عن واقع أكثر عمقاً وأهمية. الصفة المميزة للوعي هي أنه على الرغم من كونه جزءاً من الوجود الاجتماعي فإنه في الوقت نفسه يفكر حوله ويتأمل به ويحتويه عقلياً في ذاته.

الوضعية أنكرت دائماً شرعية هذه الفكرة التقليدية حول العقل ونبذتها كميتافيزيقا فارغة.

---

(1) إن أحد قادة حركة الطلاب في اليابان لاحظ، في ضوء ممارسة امتدت لعدة سنوات، "إننا لا نستطيع إدراك حركة الطلاب إن نحن حاولنا ذلك في ضوء حركة العمال. إن قوة حركة الطلاب تتمثل في نشاط الوعي الذي يحاول أن يحدد الواقع، بدلاً من العكس". Feur: of. Cit, 8; 19.

(2) Guerin Daniel'nidieuni maitre, Maspero, vol. ll, 1979, p. 156.

ما نجده عند هيجل هو، على العكس، أن تحقيق العقل ليس واقعة بل مهمة. فالشكل الذي تظهر فيه الأشياء مباشرة ليس بعد شكلها الحقيقي، وولادة الحقيقة تتطلب زوال الحالة المعطاة.. إن تفاؤل هيجل يقوم في مفهوم مدمر للوقائع والعلاقات المعطاة، وبأن جميع الأشكال التي نضع يدنا عليها تنتج عن حركة العقل المبددة التي تلغي وتعدل إلى أن تصبح ملائمة لصورتها. إن فلسفة هيجل هي، إذن، فلسفة نقدية (negative). إنها تجد حافزها الأول في القناعة بأن الوقائع المعطاة التي تبدو للحس العادي كالمقياس الوضعي للحقيقة تشكل في الواقع نقضاً للحقيقة، وبالتالي فإن الحقيقة يمكن أن تكشف عن ذاتها بتدمير هذه الوقائع. إن هيجل يؤكد دور العقل النقدي وهو تدمير عالم الإدراك والمعنى العادي الثابت والمضمون. إنه يعني التدمير التام لهذا العالم(1).

هذا هو الوعي الذي يميز أو يجب أن يميز الإنتليجنسيا، والذين يرغبون في التغيير الاجتماعي السياسي يجدون أنفسهم مضطرين إلى تبني موقف فلسفي مناقض للموقف الذي يهيمن على الواقع القائم، وهذا يعني أنهم يحتاجون إلى الفكر الذي يصوغ هذا الموقف، أي إلى المفكرين. الذين يريدون إحداث تحولات جذرية ثورية يجدون أنفسهم عادة بحاجة إلى سلاح أيديولوجي، أو بشكل أكثر دقة بحاجة إلى مهاجمة الأساس المنطقي للنظام القائم(2).

هذا الأساس المنطقي أو «روح» النظام ليس أولاً في المؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، إلخ.. بل في مجموعة القيم، في فلسفة الحياة التي تضبط، وتحفز وتساند، وتعزز النظام ككل، إنه في قدرة النظام على خلق فائض من الطاقة الخلاقة، يتقدم ويعلو على الاعتبارات الأنانية. الوعي الذي يعبر عنه يكون إذن من النوع العام أو الجامع، أي الوعي الذي يقترن عادة بالإنتليجنسيا. الالتزام الثوري الذي يمثل الوجه الآخر للإنتليجنسيا يقود بدوره إلى هذا النوع من الوعي لأنه يعني نهائياً توكيد الشخصية المستقلة، أي البحث عن طرق تمزق

---

(1) إن الأطروحة الأساسية التي يقدمها ماركوزه في كتاب "العقل والثورة" وكتاب "الإنسان ذو البعد الواحد" هي التناقض بين "الفكر الوضعي" و"الفكر النقدي" (Negativ). الأول يعني مبدأ اللاتناقض، والثاني يعني العقل الديالكتيكي والفلسفي، الفكر الوضعي هو الفكر الذي يعترف بوجود العالم وبسلطة وحقيقية الوقائع، ولكن الفكر "النقدي" هو الفكر الذي ينكر الوقائع. فالمحدود (Finite) خارج اللامحدود (Infinite) يكون دون حقيقية واقعية (Reality).

إن نقيض هيجل يتمثل في هيوم وكانت، إن ماركوزه يكتب "لو تحقق قبول هيوم، فإن دعوة العقل إلى تنظيم الواقع كان يجب أن تُرفض، لأنها تقوم من خاصة العقل الذي يصل إلى الحقائق التي لا تتفرع صحتها من التجربة، والتي يمكن في الواقع، أن تتناقض مع التجربة.. هذا الاستنتاج للبحوث التجريبية قاد إلى أكثر من تقويض دعائم الميتافيزيقا. إنه جعل الإنسان حبيس حدود "المعطى" في إطار نظام الأحداث والأشياء الموجودة.. النتيجة لم تكن فقط الشكوكية، بل التكيف. إن التقييد التجريبي للطبيعة الإنسانية الذي يقصرها على معرفة "المعطى" ازالت الرغبة في تجاوز "المعطى" واليأس منه في آن واحد"

Marcuse, Herbet,: One Dimensional Man, Beacon Press, 1966, chaps, V, VI

Marcuse, H,: Reason and Revolution, Hegel and the Rise of social Theory, Beacon Press, 1960, part II. Chap.2.

راجع حول هذا الدور الذي يميز العقل:

Watson, G. Liewellyn. Social Theory and Critical Understanding, University Press of America, 1982.

(2) Parkinson, C. Northcate: L évolution de la pensée politique, Gallimard, 1965, p. 117.

الخنوع أو التبعية التي تسود وتحدد مختلف العلاقات الاجتماعية والسياسية وعن طريقها علاقة الفرد، بالنظام القائم[1].

في دراساتي السابقة أشرت في مناسبات عديدة أن هذا النوع من العقل ومن الوعي الثوري يبرز أثناء «الأزمات» الكبيرة، مما يعني أن هذه «الأزمات» هي التي تفرز الإنتليجنسيا. إن واطسون، المفكر الماركسي الأميركي، ينبه بأن «إحدى الطروحات الماركسية تقول بأن الوعي يظهر في عملية مجابهة وحل مشاكل الوجود. ولكن إن كان أكثرنا لا يجدون فرصة أو أوضاع ملائمة لإسهام ذي قيمة في تحديد وصياغة هذه المشاكل، فإن تطور الوعي يجب أن يكون بالضرورة أمراً جهيضاً. في هذا الإطار يبرز دور ومسؤولية المفكر. إن الموقف الذي نتخذه هنا يقول إنه يجب على المثقفين أن يمارسوا مسؤولية في تنمية وتبني العقل النقدي، والقيام بنقد لا مهاودة فيه لكل شيء يوجد، ودفع البحث العقلاني، إلى أي مكان يمكن أن يقود إليه»[2].

وبول باران، مفكر ماركسي أميركي آخر، يلتزم بالعقل في المعنى الذي أخذه هنا، وذلك كمنهج أساسي في إدراك تحولات التاريخ ككل. إنه وصف المفكر (intellectual)، من ناحية جوهرية، كناقد اجتماعي، كشخص ينشغل بالتحليل والتحديد، والمساعدة بذلك على معالجة الحواجز التي تقف في طريق بلوغ نظام اجتماعي أحسن، وأكثر عقلانية وإنسانية. المفكر يصبح في دوره هذا ضمير المجتمع، والمتكلم بلسان القوى التقدمية كما تعبر عن ذاتها في كل مرحلة تاريخية. هكذا، بالإضافة إلى الوضع العادي الذي يميز المفكر. وهو الرغبة في قول الحقيقة. يضيف باران وضعاً آخر «الشجاعة، والاستعداد في متابعة البحث العقلاني إلى أي مكان يقود إليه، وممارسة النقد الجسور لأي شيء موجود، نقد جسور بمعنى أنه لا يتردد أمام النتائج التي يصل إليها، ولا أمام الصراع ضد السلطة القائمة»[3].

هذا الوعي الذي نتكلم عنه هنا يبرز ويؤكد ذاته بشكل خاص عندما يصوغ ذاته في أشكال جديدة. لهذا عندما نتكلم عن الأفكار التي يقترن بها، نعني الأفكار الجديدة، وذلك لأنه عندما تكون الأفكار مستقرة، موجودة منذ مدة طويلة، فإننا نقف عن التفكير حولها كأفكار، وننظر إليها كحقائق ثابتة، أو كوقائع لا نعيها لأنها تكون جزءاً من التجربة اليومية الرتيبة.

الوعي الذي يصوغ أفكاراً جديدة يشكل قوة ثورية حتى عندما يكون المفكر المسؤول عنها غير ثوري: «من الواضح أن الأفكار الجديدة تعني المشاكل والاضطراب. الأفكار كما كتب إمرسون، تدمر النظام الاجتماعي والاطمئنان وتجعل المتملك أحمق.. وجون ديوي يكتب، عندما نبدأ بالتفكير لا يستطيع أحد أن يضمن ماذا تكون النتيجة، سوى أن الكثير من الأشياء،

---

(1) في مقارنة بين الشباب والمفكرين (Intellectuals) أو ما نشير إليه هنا بالإنتليجنسيا كتب هنري دي مان: الشباب، كالإنتليجنسيا، "لا يرون في السياسة سوى تحقيق لفكرة تجد أساسها في وقت واحد في الحس الأخلاقي والعقل، بعد أن شاهدوا مرة بعد أخرى تمزق وسقوط تطلعاتهم ومثلهم، يشعرون أكثر من أي وقت مضى بالحاجة إلى نمط فكري جديد يدلل على صدقه في الحياة الفردية العملية".

(De Man, H,: of. Cit. p; 46)

(2) Watson G.L.. op. cit. pp. 6-7.

(3) Clecak, Peter: Radical Paradosces, Dilemmas of the American Left, 1945-1970. Harper Torchbooks, 1974, pp. 72-73.

والأهداف، والمؤسسات، يصبح محكوماً بالإعدام. كل مفكر يضع قسماً من العالم الذي يبدو مستقراً في خطر، وليس من أحد يستطيع تماماً التنبؤ بها يظهر مكانه.. إن دور المفكر كعنصر إبداع يفسر الإعجاب الخاص به في بعض الأوساط، والرعب الذي يثيره في أوساط أخرى»[1].

من ناحية أخرى، يجب التنبيه أيضاً، كما أشرنا سابقاً، أنه حتى عندما يكون الوضع الاجتماعي السياسي وضعاً غير ثوري، فإن الوعي أو العمل الفكري يدفع بطبيعته ذاتها ـ القدرة على الخروج من الذات والوسط الخارجي، الوقوف على مسافة ما منهما، تحليلهما ومن ثم رفضهما جزئياً أو كلياً ـ إلى نقد النظام أو الأوضاع القائمة «المفكرون الأميركيون ليسوا طبعاً مبدعين ككل. بعضهم يدافع بحزم عن الوضع الراهن، ولكن معظمهم عبروا عن عدم رضاهم ودعوا إلى التغيير. الذين يرغبون بالاحتفاظ بالأشياء كما هي لا يشعرون بحاجة إلى الأفكار، وهم يستطيعون الاعتماد على العادة والجمود.. إن حزب الإصلاح والذين يعملون معه هم الذين يجب أن تكون لديهم أفكار، هذا يفسر طبعاً سمعة المفكرين السيئة، خصوصاً بين الذين يفيدون من النظام الاجتماعي الموجود.. إننا نستطيع توقع المشاعر البدائية من جانب الذين يكرهون حياة العقل ولكن «الكومينوتة» الفكرية يجب أن تكون الحارس الخاص لحياة العقل»[2].

إن كان الوعي يدفع في ذاته إلى أحد أشكال النقد أو التمرد، فإن أشكاله الفكرية الثورية تتكامل في الإنتليجنسيا. النظريات التي تعبر عن هذه الأشكال لا تمتد إلى جميع الناس الذين يقفون معها أو حتى إلى جميع المثقفين الذين يشكلون جزءاً منها. إنها تمتد إلى أولئك كشعارات ورموز، وإلى هؤلاء كأيديولوجية، أي كنظام من التصورات المبسطة يتميز عن النظرية أو الفكر العلمي في كون الدور العملي يتغلب فيها على الدور النظري أو دور المعرفة العلمية[3]. إن استخدام شعار، أو صياغة مبسطة أو بسيطة في تفسير مشكلة ما أو وضع معقد، ودون تحليل لعناصر وتناقضات المشكلة والوضع، يعبر عن ميل شعوري عفوي ليس فقط بين الجماهير بل بين أكثرية الناس الساحقة إلى ربط كل ما يكرهونه بعنصر واحد. إن الكاتب أو الخطيب الذي يريد النجاح في تحريك مشاعر جمهور كبير يجب أن يعمل مع هذا الميل ويعبر عنه في تحديد مشكلة أو وضع كهذا، وبشكل يفرّغ كل المشاعر ويركزها على شيء محسوس رمزي. لهذا كتب المفكر الهيجلي اليساري، برونو باور «بأن كل نظرية تتحول إلى دين عندما تشترك فيها الجماهير»[4]. وميدفيديف، المؤرخ الماركسي السوفياتي يخلص إلى القول بأنه من الأسهل الاعتماد على الرموز بدلاً من التعميمات النظرية في إثارة الشك بعقائد مقبولة بشكل عام[5].

ما أشرنا إليه سابقاً كميزة أساسية للوعي وهي قدرة الإنسان على الوقوف على مسافة ما، أو «الخروج» من الذات والوسط الخارجي ككل أو في بعض جوانبهما الأساسية وكأنه ليس جزءاً

---

(1) Schlesinger, Arthur: The Crisis of Confidence, Ideas Power and violence in America, Houghton Mifflin Co. 1969, pp. 69-70.
(2) Ibid, pp. 69-70, 33.
(3) راجع للكاتب، كتاب "الإيديولوجية الانقلابية"، وفصل "تفسير دور شخصنة السلطة في تجارب التاريخ الوحدوية" في كتاب "من التجزئة.. إلى الوحدة".
(4) Kolakowski, Leszek: Toward a Marxist Humanism, Grove Press, 1969 p. 163.
(5) Medvedev, Roy: On socialist democracy, Knopf, 1975, p. 316.

منهما.. هذه الميزة تفترض أو تقود إلى ميزة أساسية أخرى وهي القدرة على تجاوز الأحداث المباشرة والظواهر الفردية، والكشف عن علاقاتها الانتظامية العامة ليس فقط في الحاضر، أو في التعبير عما هو كائن، بل في تناقضاتها واتجاهاتها النامية التي تدفع نحو حالة جديدة في المستقبل. عندما يقف الوعي على مسافة ما من الواقع، فيدرس ويحلل من «الخارج»، فإن طبيعة الموقف نفسه تعني «عفوياً» وتقريباً أنه يشمل بذلك ليس فقط وقائع وظواهر هذا الواقع في آنيتها، بل في ترابطها، وحركة تجاوزها لذاتها، وذلك لأن كل واقع تاريخي، وخصوصاً ما كان يمر في أزمة أو مرحلة انتقالية كالواقع الذي تظهر فيه الإنتليجنسيا، يفرز قوى وتناقضات تدفعه إلى ذلك. لهذا يجد الوعي ذاته أن طبيعة الواقع نفسه تفرض عليه الانتقال من هذه الآنية إلى التحولات (processes) التي تقف وراءها.

هناك بالنسبة للعقل واقعان، واقع من الظواهر التي يراها مباشرة بالملاحظة الحسية، وواقع آخر من العلاقات والتحولات غير المباشرة التي يراها عن طريق الوعي والإدراك. العقل العلمي يبدأ بالأول ويتدرج منه إلى الثاني بغية الكشف عن طبيعته. الباحث النظري يمارس دوره عندما يخترق الأول كي يصوغ مقومات وديناميك الثاني.

من ناحية أخرى، يمكن القول إن الوعي يواجه عالمين اجتماعيين، عالم مقبول، عادي، مسموح به، وعالم غير مقبول غير عادي أو مسموح به. الثاني يتمثل في العلاقات والقوى والاتجاهات الاجتماعية والتاريخية الجديدة التي يكشف عن وجودها في الواقع غير المباشر، والتي تجعل تجاوز الواقع المباشر ضرورة تاريخية. الوعي التقدمي أو الثوري يعمل على دعم هذه الأخيرة والعمل على تحويلها في المستقبل إلى واقع مقبول ومسموح به، هذا على نقيض الوعي المحافظ الذي يحاول تعثيرها وتجميدها أو إلغاءها بالتوكيد على قوى واتجاهات وعلاقات أخرى تتناقض معها. إن دور المفكر أو رجل العقل هو بالضبط إدراك الواقع الكامن وراء الظواهر، والكشف عن معنى أعمال معينة في إطار مشروع تاريخي أوسع. الوقائع لا تصنع في ذاتها تصوراً فكرياً أو نظرية اجتماعية سياسية. وهي لا تكون، بالنسبة للوعي، إشكالية في واقعيتها. المسألة المهمة ليست تحديد الوقائع أو التحقق منها، بل تنظيمها والكشف عن معناها العام. الباحث الاجتماعي العلمي ينتقد ويحلل، ويجب أن ينتقد من وجهة نظر لا يستطيع تبريرها أو إبرازها بالرجوع إلى الوقائع أو حتى إلى المجتمع كما هو، لهذا كان الوعي الذي تعبر عنه الإنتليجنسيا يحدث باسم مثال جديد يلغي ويتجاوز الواقع المباشر.

التجريد، كما حدده كثيرون من الفلاسفة والمفكرين، يعني فصل العام عن ظواهر متماثلة. هذا يعني، أولاً، أن لكل ظاهرة من الظواهر المتماثلة «خاص» يقتصر عليها ويميزها، إذ بدون ذلك كان يمكن للعام أن يفرض نفسه عفوياً بوضوحه أو ظهوره البديهي، ولما كان يحتاج للدراسة والتحليل بغية الوصول إليه. وهو يعني، ثانياً، أن تطبيق العام أو الانطلاق منه يجب أن يكون أيضاً موضوع دراسة أخرى تحلل علاقته بالخاص الذي يتجه إليه، بالوضع أو الحالة التي نريد تحقيقه فيها، أي في ضوء أشكال البنى الاجتماعية والثقافية والنفسية المختلفة تاريخياً من وضع إلى آخر. إن أوضاع الوجود الحيواني والنباتي فقط يمكن أن تكون متماثلة تماماً بصرف النظر عن أي خاص أو أوضاع خاصة. ولكن أوضاع الوجود الإنساني تختلف تماماً، لأننا نعرف أن

الإنسان عاش ولا يزال يعيش في ظل أشكال مختلفة لهذا الوجود.

القول بعلاقات عامة أو نظام عام يتجاوز الظواهر المباشرة لا يقتصر على العقل العلمي الحديث بل كان دائماً مقصد العقل الإنساني في أشكاله الدينية والميتافيزيقية والأخلاقية الصرفة. السمة الأكثر وضوحاً لهذه الأشكال والسمة التي نتج عنها كل علم، لكن يتناقض معها، هي بالضبط ما يلي: طالما أن الإنسان لا يعلم كيف يقارب دراسة الواقع، فإنه يخترع استنتاجياً نظريات عامة تبقى عقيمة في إدراك هذا الواقع. إنه بكلمة أخرى، يُحلّ مثالاً عاماً محل الشيء أو الواقع الحقيقي نفسه، الواقع الذي يجب *تفسيره*. تلك الأشكال الميتافيزيقية لم تكن تنتج أبداً تحليلاً فعالاً للواقع لأن الوقائع لم تكن موجودة بالنسبة لها، أو بشكل أدق، لأنها بدلاً من الوقائع الاجتماعية التاريخية، كانت تقحم المثال في الواقع، أو في أحسن الحالات، كانت، بدلاً من مجتمع معين وعيني، ترجع إلى مثال عام عن المجتمع. لهذا كانت القدرة أو الفاعلية التي تميز وعي الإنتليجنسيا في تحديد المشاكل والقضايا الكبرى والاتجاهات الأساسية الجديدة في مرحلة تاريخية معينة، تشكل قوة هذا الوعي العميقة والمستمرة.

بما أن المراحل التاريخية التي تبرز فيها الإنتليجنسيا هي مراحل تتميز بالأزمات الكبيرة، أو تكون مراحل انتقالية، فإن الوعي الذي يمكن أن يمارس دوراً فعالاً يكون بالضبط من هذا النوع القادر على تحديد تلك المشاكل والقضايا والاتجاهات. لهذا كان هذا الوعي يشكل إطاراً نظرياً يوفر لمن يستخدمه مؤشرات تحدد أين يجب أن يبدأ بحثهم عن المعرفة، وكيف يجب استخدام هذه المعرفة في إحداث تغيير جذري في بنية الواقع. إنه وعي كان دائماً يدرك ذاته كأداة أو إمكان تحرير بسبب قدرته في الكشف عن هذه القضايا والمشاكل والاتجاهات، وفي تبديد الأوهام التي تشوه رؤيتها.

هذا ما يميز دور العقل الميتافيزيقي عن دور العقل العلمي والجدلي. الأول يخرج في تصاعديته (transcendentalism) عن الواقع ويتجاهله فيعجز عن توفير مؤشرات أو دليل يساعد على «التحرر» النسبي منه أو القدرة على سيادته، ولكن الثاني، وإن كان يلتقي مع الأول في صعيد تصاعدي، فإنه يتناقض معه في كونه يستمد هذه التصاعدية من حركة الواقع نفسه، ومن الاتجاهات والتناقضات الجديدة التي تعبر عنها، فيعلو عليها عن طريق الارتباط بها والتفاعل معها. هذا العقل العلمي الجدلي يعني أن الحقيقة التي يمكن تحقيقها بالنسبة للإنسانية لا ترتفع فوق هذه الإنسانية، ويجب أن تعبر عن جوهر الحقيقة التاريخية في مرحلة أو ظاهرة معينة، وليس عن حقيقة أحد المعاني والتصورات التصاعدية أو الشاملة (universal) التي تحوم حول وفوق الواقع التاريخي. إن حقيقة هذا العقل يمكن أن تتفرع فقط من جدلية هذا الواقع الموضوعي، ومن التناقضات والصراعات التي يفرزها، من الوعي الذي يستوعبها ويحقق بها، أو بالعمل معها، الإمكانات الإنسانية الممكنة في واقع تاريخي أو وضع معين[1]. إنه عقل لا يستنتج

---

(1) إن ماركوزه يكتب في دراسة قيمة لفلسفة هيجل، إن فلسفة هيجل هي فلسفة الثورة لأن اقتران (Identity) او تماهي الواقعي والعقلاني يجب ان يدرك في معنى ان العقل يجب ان يتحقق، وان الواقع غير العقلاني يجب أن يعدل إلى أن يصبح مطابقاً للعقل. Marcuse, H; Reason and Revolution.

إن مفكراً ماركسياً آخر كتب معلقاً على ذلك، إن النقطة الأساسية في هذا الخط من التفسير هي، بالنسبة إلى اليسار،

طبيعة ونوع القوى التي تشغل بتحول وتحرير المجتمع أو الإنسان من «مثال» العقل الفلسفي الصرف - الذي يكون في أي حال عقل أو مثال فرد معين - بل من تحليل موضوعي علمي لمجتمع أو واقع معين. إنه لا ينبىء بالمستقبل دوغماتياً، بل يعمل على الكشف عنه في الاتجاهات الأساسية التي تصنع، أو بالأحرى تبدو كصانعة للواقع المتحول في فترة أو مرحلة معينة. هذا يعني أن المقاصد التي يريدها أو الحل الذي يبغيه لا يُستنتج من أيّ حقيقة تصاعدية خارجية، بل من الاتجاه إليه في قوى اجتماعية تاريخية حقيقية داخل المجتمع المتحرك، إنه يحدد الجديد في نقد العالم أو النظام القديم(1).

هذا التوتر بين «الجديد» وبين «القديم» بين «الحل» وبين الوضع الراهن، هو الذي يضفي على الإنتليجنسيا قيمتها كأداة تحول تاريخي وأداة توجيه وتثقيف. هذا التناقض بين دعوتها إلى سلطة مُثل وتصورات جديدة تعبر عن جدلية المجتمع كما يصنع ذاته، وبين سلطات تقليدية تعارض ذلك، هو الذي يحفز وعي الإنتليجنسيا ويدفعه إلى التدخل في الواقع بغية تجديده. في الغرب أولاً، ثم في آسيا وأميركا اللاتينية وأفريقيا حدث فصل حاسم بين النشاطات الدينية - الميتافيزيقية وغيرهما من النشاطات الفكرية التي تمثل العقل العلمي العلماني الحديث، ونما بالتالي شعور قوي بمسافة مهمة كبيرة تفصل بين قطاعات كبيرة من المثقفين وبين هذه السلطات التقليدية من دينية ودنيوية. هذا الشعور تحول إلى تقليد فكري من أهم التقاليد التي تميز الإنتليجنسيا، وكان يولد فيها شعوراً آخر بالقيمة الذاتية العليا، شعوراً يرافق عادة القيام بمهمات أساسية وأعمال كبيرة في معالجة القضايا الكبرى التي تواجه الإنسان في وضعه الإنساني والتاريخي. وبالتقريب فإن جميع الجوانب الأخرى في تكوين الإنتليجنسيا ودورها تعمل في ضوء هذا التناقض وتعبر عنه.

هذا الوعي الذي نتكلم عنه هنا كوعي لضرورة اجتماعية تاريخية، والذي يميز الإنتليجنسيا في العصر الحديث - هذا عندما تتميز به - يخلق الأوضاع الذاتية التي تقود، بالانضمام إلى الأوضاع الموضوعية، إلى تحقيق هذه الصورة. ولكن هذا لا يعني أبداً أن هذا الوعي يكون، أو يجب أن يكون مجرداً من كل أحكام معيارية وقيم أخلاقية كمنطق له. فالحركات الثورية التي تقودها الإنتليجنسيا تقدم سيكولوجياً معطيات أخرى لا تفسرها آلياً الأوضاع الموضوعية والمصالح أو الحاجات الاقتصادية أو حتى السياسية. فالمناضل الثوري الذي يضحي بكل شيء والذي يحيا حياة تقشف وبطولة، والذي يفضل الفقر والحرمان، السجن والتعذيب، والموت

ان وحدة الواقع والعقلاني يجب أن تُدرك كملاحظة او كتكريس لحالة موجودة، بل بالأحرى، كبرنامج يجب تحقيقه. إن الوحدة الهيجيلية تعني أنه يجب على العقلاني ان يتحقق. كل شيء موجود لا يطابق العقل يبدو وكأنه موجود، ولكنه في الحقيقة غير موجود، ويجب تدميره بغية التمهيد لظهور واقع جديد.

Colletti, Lucio; From Rousseau to Lenin, monthly review press, 1974, pp. 116, 119.

(1) إن العلاقات العامة أو النظام الذي يكشف عنه هذا العقل العلمي الديالكتيكي وراء الوقائع والظواهر المباشرة قد يكون ناقصاً ومحدوداً كما هي العادة. ولكن حتى ما يسمى بالعلوم الدقيقة (Efact) أو العلوم الطبيعية وفي طليعتها الفيزياء نفسها، ليست تامة ومطلقة وقوانينها ليست قوانين نهائية ويمكن أن يحدث في اي وقت ما يدعو إلى تجاوزها او تعديلها. إن الفيزياء الحالية، مثلاً، لا تعني التدليل على خطأ فيزياء نيوتن وقوانينها، بل على توسيعها وتصحيحها. ولكن طالما أنه من الممكن سيادة الواقع عن طريق هذه القوانين وطالما أنه من الممكن الاعتماد عليها والرجوع إليها بالنسبة إلى الوقائع التي يمكن مراقبتها والتحقق منها والتدليل عليها، لا يصح تجاهلها أو التلاعب بها.

أحياناً على التنكر لمثاله، يتحرك بقوة لا يمكن تحويلها إلى مصالح وحاجات مادية أو إلى ضرورة تاريخية. إنها قوة إرادة تعمل على تحقيق مثال إنساني، مقاصد أخلاقية، بناء مجتمع عادل وحر. إنها أيضاً قوة إرادة تغذيها بغضاء عارمة للطبقات والقوى التي تقاوم في نظره تحرير الإنسان وإقامة هذا المجتمع. الفرد يستطيع أن يكون مناضلاً ثورياً، أو قادراً على تجاوز ذاته في العمل الثوري فقط عندما يتجاوز هذه المصالح والأوضاع والحاجات، وبالقدر الذي يرتفع فوقها، فوق الضرورة التاريخية.

الماركسية التي ترى أن الأيديولوجيات تشكل جزءاً من البنى الفوقية يمكن أن تفسر بذلك أصولها، ولكنها لا تفسر هدفها، ومقاصدها، وفاعليتها ونجاحها وامتدادها الاجتماعي والتاريخي. هذا لا يعني أبداً الرجوع إلى مذهب ميتافزيقيا تصاعدية أخلاقية أو غيبية من أي نوع كانت، إلى قوانين وفلسفة خالدة أو طبيعية في تفسير ما يخرج عن المادية التاريخية. يكفي فقط أولاً الاعتراف بالإنسان ككائن قادر على تجاوز ذاته، ككائن يتميز بالوعي الذي يسمح بهذا التجاوز، الاعتراف باحتمال الكشف عن قيم متمايزة عن الواقع وذلك بالرجوع إلى الواقع الموضوعي نفسه وتحدياته[1].

لهذا أكدنا في هذا الفصل على ميزة الوعي الأساسية وهي قدرة الإنسان على الوقوف على مسافة ما، أو «الخروج» من الذات والوسط الخارجي ككل أو في بعض جوانبهما الأساسية وكأنه ليس جزءاً منهما.. ولكي يمكن تجنب خطر السقوط في شكل من أشكال الميتافيزيقيا، أو المثالية، أو أية تصاعدية أخلاقية، وهو خطر يمكن أن يترتب على هذا الوعي أن لم يرتبط بالواقع الموضوعي، لأنه يعني - كوعي - بالضبط درجة من الانفصال عن هذا الواقع، أكدنا من ناحية أخرى على ضرورة ارتباطه، إن أردنا له النجاح والفاعلية، بالاتجاهات والعلاقات الانتظامية الموضوعية التي يكشف عنها الواقع الموضوعي، أو النظام العام الكامن وراء الظواهر والأحداث الفردية التي يتشكل منها هذا الواقع[2].



---

(1) القارئ الذي يود التوسع في الموضوع يستطيع الرجوع إلى القسم الأخير من كتاب "الإيديولوجية الانقلابية" وإلى كتاب "من الحقيقة الإنسانية إلى الحقيقة الانقلابية"، حيث قدمت دراسة فلسفية انتروبولوجية حول الإنسان تنطلق من هذا المفهوم وتدور عليه.

(2) الوجودية تعترض على البراغماتية وفلسفات أخرى عملية (منها الماركسية) لأنها مادية. كل شكل من اشكال المادية يجرد، في نظرها، الإنسان من الحرية لأنه يجعل القيم مرتبطة بأوضاع إقتصادية إجتماعية، بينما الحرية تعني قدرة الإنسان على الارتفاع فوق وسطه المادي الخارجي بغية اتخاذ وجهة نظر حوله. جميع نماذج المادية عاجزة عن تفسير هذه الظاهرة، هذا الارتفاع فوق الوضع، ثم الرجوع إليه.

هذا الانفصال عن الواقع ينطوي كما أشرنا على خطر، وهو خطر السقوط في المثالية أو بعض الأشكال الميتافيزيقية. ولكن الوجودي يعي تماماً هذا الخطر، لأن هذا الانفصال قد يصوغ فلسفة، مثالاً، دون علاقة بالأوضاع التي نعيش فيها. الحل الذي يجده الوجودي يقول بأن الإنسان الذي يمارس الحرية، أي هذا الانفصال، يجب أن يقذف بنفسه مرة أخرى في الوضع الإجتماعي قصد تغييره. من هذا جاء مبدأ الإلتزام. إن سارتر يكتب "الإنسان الثوري يجب أن يكون كائناً عرضياً، دون تبرير، ولكنه حر، منغمس تماماً في المجتمع الذي يستبد به، ولكن قادر على تجاوز هذا المجتمع بجهده الذي يرمي إلى تغييره. المثالية تربكه لأنها تربطه إلى حقوق وقيم معطاة مسبقاً وتحجب عنه القدرة على ابتكار طرق خاصة به. لكن المادية تربكه أيضاً لأنها تجرده من حريته".

ثم إن فصل القيم والحرية عن اتجاهات وأوضاع موضوعية يجعلها مرتبطة كلياً بالإرادة، وبالتالي يحولها إلى جزء من المثالية التي تربك الإنسان.

إن مفهوم الإنتليجنسيا الذي يعني أنها مجموعة تبحث وتقدم المبادىء والنظريات والمقاصد التي تقود العمل الثوري، هذا المفهوم يفترض وجود حقائق موضوعية يمكن إدراكها في الصعيد الذي يُنسب إلى الفكر الاجتماعي السياسي، ويرى أن الذين تدربوا على المنهج العلمي، وعلى التفكير بوضوح وشكل منظم، وقاموا بالبحوث الضرورية، هم الذين يمكنهم إدراك هذا الصعيد والقضايا التي يفرزها. هذه القناعة بالتطبيق العملي للفكر يعني وجود شيء يمكن تحديده كمعرفة موضوعية للعمل الثوري أو السياسي الصحيح، وأن الإنتليجنسيا يجب، وذلك بسبب انشغالها بهذه المعرفة، أن تكون في مركز تستطيع فيه إعطاء النصيحة للآخرين وإرشادهم، لهذا فإن إمكان تطبيق عملي كهذا ينجح أو يفشل بقدر كبير مع درجة ارتباطه بواقع موضوعي يكشف عند إدراكه عن المفاهيم والمبادىء التي يمكن للعمل السياسي أو الثوري استخدامها كي يكون فعالاً وناجحاً، فيسود الواقع ويضبطه في وجهة مقاصده.

إن المعرفة تشكل سلاحاً قوياً وضرورياً في الصراعات الاجتماعية السياسية عندما تعبر عن اتجاهات وقوى اجتماعية تاريخية تحدد الوعي. بيد أن الاتجاهات الفكرية المتناقضة والمتمحورة أساسياً حول اتجاهين عامين، اتجاه يدافع عن النظام التقليدي أو الوضع الراهن، وآخر يدعو إلى تجديده وتجاوزه بنظام آخر جديد، لا تستطيع عن طريق هذه المعرفة العقلانية إقناع بعضها البعض بتغيير مواقفها.

الوعي الموضوعي العقلاني لا يعني أن هذا الوعي سيحدث أو يتحكم، عند توفره، بما سيحدث، بالعمل الثوري، أو «بإقناع» الناس بضرورته. فالإنسان الاجتماعي السياسي ليس كما كان يوصف ابتداء من الفلسفة اليونانية وانتهاء بالعقلانية الفرنسية كائناً عقلانياً صرفاً أو كائناً يتقدم فيه العقل على قوى أخرى غير عقلانية، وذلك لأن بواعث ودوافع عمله تتفرع أساسياً من تلك القوى. هذا يعني أن الوعي العقلاني لا يستطيع إن أراد أن يكون فعالاً الاعتماد فقط على عقلانيته العملية، بل يجب عليه العمل مع المشاعر والمصالح التي يفرزها الواقع الذي يعمل فيه. هناك الكثير، الكثير، من هذه المشاعر والمصالح - والإطارات النفسية العقلية التي يمكن أن تترتب عليها - التي لا تنفتح لهذه العقلانية، والتي يمكنها تخريبها. إن النظريات العقلانية العلمية لا تستطيع ممارسة أثر فعال في الواقع الاجتماعي السياسي إن لم تكن تلك المشاعر والمصالح قد أخذت تتحول تاريخياً بشكل يجعلها منفتحة عليها، أو بالأحرى، بشكل يكون التاريخ نفسه قد أفرز مشاعر ومصالح جديدة تمثلها قوى اجتماعية جديدة تستطيع أن تجد في هذه العقلانية والنظرية أو النظريات التي تقترن بها أداة في التعبير عن ذاتها.

ولكن رغم ذلك فإن معرفة كهذه تقوم بدور أساسي وضروري في تغيير هذه المواقف، على الأقل في المدى البعيد، وذلك للأسباب التالية:

(1) إن المعرفة العقلانية والعلمية تتميز في ذاتها بقدرة على تقويض قواعد أشكال المعرفة غير العقلانية، لأنها تدعو إلى الرجوع إلى أحكام العقل المتفاعل مع تحولات الواقع الاجتماعي التاريخي، لهذا فإن الاتجاه الذي يمثل هذا النوع من المعرفة يستطيع الاعتماد عليها في إضعاف الاتجاهات المقاومة له عن طريق الحجة العلمية، والنقد الموجه إليها، النقد الذي يكسبها تدريجياً وباستمرار عدداً متزايداً من المثقفين. بما أن هذه المعرفة العقلانية العلمية

تعبر في شكل ما عن القوى والاتجاهات الجديدة التي تفرزها حركة التاريخ المتحولة، فإنها تتميز بقوة إقناع كبيرة لأنها تستطيع أن تدل على ذاتها في هذه الحركة، وهذا يضعف تدريجياً أشكال المعرفة التي تخرج عن هذه الحركة ولا تعمل معها[1].

(2) الأدلة الموضوعية والحجة العقلانية تقوي وتعزز قناعة أتباع كل اتجاه، وذلك «بالتدليل» لهم بأن اتجاههم هو الاتجاه الصحيح بينما اتجاهات الآخرين خاطئة. قناعات كهذه تشكل، بصرف النظر عن موضوعيتها وعلميتها، قوة اجتماعية سياسية حقيقية. هذا ليس مهماً وضرورياً بالنسبة لمؤيدي النظام القائم أو التقليدي، كما هو مهم وضروري للمقاومين له، وذلك لأنهم يجدون إلى جانبهم المقاييس التقليدية التي تدل على صحته، وبالتالي لا يحتاجون إلى أدلة جديدة في إقناعهم بأنهم على صواب. المعارضون لهذا النظام يحتاجون، على العكس، إلى مقاييس أخرى تدل على صحة وشرعية اتجاههم، ويمكن لهم الاقتناع بها، لأن ذلك وحده يستطيع أن يكشف ويدل بأنهم ليسوا متمردين «اعتباطيين» ينفسون عن أنفسهم ويعبرون في التمرد عن استياء ذاتي فقط، بل مناضلون في سبيل قضية صحيحة موضوعياً. لهذا نجد عند مراجعة التحولات الاجتماعية السياسية أن الفكر النقدي لطبيعة وأسس النظام الاجتماعي السياسي القائم يظهر وينمو بين مفكرين مبدعين، وليس بين المحافظين الذين يكونون بعيدين عن هذا النمط الفكري ويعقلنون أساساً دفاعهم عن النظام التقليدي «بردود» على أدلة المعارضين.

(3) المعرفة كسلاح اجتماعي سياسي تبرهن على ذاتها أو ضرورتها في قدرتها على كسب الأتباع والمتعاطفين معها في أوساط المترددين بين الاتجاهات المتناقضة، أو الذين لا يهتمون أو ينشغلون بهذه الاتجاهات. إنها أداة قوية على الأقل في إمكان تحييد الكثرين من هؤلاء. إن استمر الصراع طويلاً ـ وهو طويل إن كان يعبر عن مراحل ثورية ـ فإن معرفة كهذه تستطيع أن تكسب الشباب أو الأجيال الجديدة. في أي حال، إن الدعوة الثورية تتجه نهائياً إلى

---

(1) إن السلطات القيصرية في روسيا لم تر في البداية أي خطر عليها في الماركسية. المراقبة سمحت بالترجمة الأولى لكتاب "راس المال" لأنها لم تجد في كتاب كبير الحجم، معقد المضمون، غالي الثمن كهذا الكتاب ما يشكل اي أذى. (ثمن الكتاب كان 25 روبلا، أو ما يقابل أجور عامل لمدة شهر شهر بكامله، وكان صعباً على أفراد الطبقة الوسطى، وحتى على بعض أفراد الارستقراطية وليس فقط على العمال). هذا يذكر بموقف وزير بريطاني سمح بنشر كتاب فوضوي في القرن التاسع عشر ايضاً لأنه وجد ان كتاباً نظرياً ضخماً، سعره جنيه لا يمكن ان يسبب أذى كبيراً.

ما ينساه هؤلاء هو أن نفوذ كتب كهذه تمثل نظريات ثورية عامة لا يرتبط بقراءتها وإدراكها تماماً من قبل الناس الذين يتحولون إليها ويجدون فيها أداة الشرعية الثورية أو الإيديولوجية لعملهم الثوري. النظريات التي تقول بها تحتاج فقط إلى مجموعة ما من المثقفين الذين يدرسونها أو يقرؤونها لأن نفوذها يتسرب بعد ذلك إلى الناس بشكل عام عن طريق عملية نشر وتبسيط يقوم بها هؤلاء. ثم إن عملية التبسيط نفسها تتسرب على صعيد شعبي عام عن طريق بعض التصورات الذهنية الشعائرية. إن ما يصنع قوة ونجاح كتب من هذا النوع هو الوضعية الثورية التي تنتج عن ظهور متزايد لتناقضات وقوى جديدة نامية سريعاً في قلب المجتمع، والتي يكشف النظام القائم عجزه عن حلها وإيجاد مخرج لها. هذه الوضعية هي التي تكون نهائياً مسؤولة عن نجاح كتب كهذه، لأنها تجد فيها العقلنة الإيديولوجية التي تحتاجها في صياغة ذاتها.

في بداية القرن العشرين كتبت صحيفة روسية ناطقة باسم الارستقراطية الرجعية: هناك ما يقارب المائة وخمسين مليوناً من السكان في روسيا. يوجد بينهم ما يقارب المليون من الذين يمارسون دوراً نشيطاً في الثورة. حتى وإن أعدم جميع الثوريين دون استثناء، يبقى هناك مائة وتسعة وأربعون مليوناً من السكان. ما هو كافٍ تماماً لسعادة وعظمة الوطن.

ولكن في هذا الحساب ينسى هؤلاء واقعة بسيطة تشكل أساس الثورة، وهي أن هذا المليون الذي يصنعها، يمثل أداة التاريخ التنفيذية. هذا يعني بدوره أن القتل لا يستطيع ان يضع نهاية للثورة، لأن الثوار يمثلون منطق التحول التاريخي، وهو منطق يفرز الثوار باستمرار، وبشكل لا يمكن الخلاص منهم عن طريق القتل.

الاتجاهات النشيطة بين القطاعات التي ترغب الأحزاب والحركات السياسية أن تؤثر فيها وتكسبها إلى جانبها. المعرفة تشكل أداة قوية في صنع هذه الدعوة وفوزها.

بما أن الإعداد الفكري الضروري الذي يحتاجه النقد الفكري العقلاني لا يتوفر للفرد العادي الذي يمثل أكثرية الناس الساحقة، كان من الضروري وجود مجموعة من الناس تكرس وقتها وجهدها في إعداد ذاتها لهذا الدور. هذا يعني ظهور الإنتليجنسيا.

المعرفة العلمية للوضع الاجتماعي السياسي الذي يحيط بطبقة أو جماعة أو حركة سياسية ما تسمح لنا بأن نحدد ما هي المصالح الموضوعية الحقيقية لها. بيد أن هذه المعرفة ليست في مقدور كل فرد أو كل الناس من ناحية عامة. لأنها تفترض حداً معيناً ليس فقط من المعرفة للوقائع والتحولات الاجتماعية التاريخية، بل من العقل العلمي الصحيح القادر ليس فقط على إدراك هذه الوقائع والتحولات بل أيضاً على إدراك القوانين أو العلاقات الانتظامية العامة التي تنظمها وتنطوي عليها. الذين لا يستطيعون إدراك ذلك، وممارسة واستيعاب التحليل العلمي الذي يقود إليها، لا يستطيعون، في الواقع، أن يدركوا، في المدى البعيد على الأقل، ما إذا كانوا يعملون تبعاً لمصالحهم أو ضد هذه المصالح، وعليهم بالتالي الاعتماد في ذلك على الذين يستطيعون توفير هذه المعرفة العقلانية العلمية، أي الذين ينشغلون بها كنتيجة لطبيعة عملهم نفسها، أي المثقفين، أو بالأحرى مجموعة من المثقفين الباحثين الكبار القادرين على هذا العمل.

ولكن هذا أيضاً غير كاف لأن إدراك المصالح الحقيقية لطبقة أو لجماعة، أو حركة سياسية ما لا يعني بالضرورة العمل بها من قبل هذه الطبقة، أو الجماعة أو الحركة. فهذه المصالح قد تكون - كما هي العادة - من النوع البعيد المدى الذي يتطلب التضحية بمصالح آنية مباشرة، أو تنظيمها بشكل لا يتعارض معها أو مع هذا الإدراك. العمل الثوري يواجه باستمرار خيارات من هذا النوع، وهو يحتاج إلى الوعي العلمي وأداته الإنتليجنسيا في مساعدته على التمييز بينها، واختيار ما يناسبه ليس فقط آنياً بل في المدى البعيد.

هذا التمييز بين هذين النوعين من الخيارات أو المصالح يواجهنا بنوعين من الصعوبات، الأول هو قدرة الفرد على التمييز الواعي بين هذه المصالح البعيدة المدى وغيرها، والثاني هو قدرته على العمل في ضوء هذه المصالح البعيدة المدى التي تخدم العمل الثوري، أو الشعب، وحتى مصالحه الخاصة نفسها. النوع الأول يفترض قدراً كبيراً من الوعي العلمي الذي يحتاج إليه الفرد أو العمل الثوري في هذا التمييز. بدون هذا الوعي يخضع العمل والفرد للمصالح المباشرة لأنها تكون، على نقيض الأخرى البعيدة المدى، مرئية، حسية وأقرب منالاً. هذا يعني أنه، عاجلاً أو آجلاً، يضيع فيها، وبالتالي يعجز عن خدمة مصالحه البعيدة المدى. بما أن العمل الثوري هو أولاً وقبل كل شيء التزام بمقاصد ومصالح بعيدة المدى تترتب عليها وترتبط بها، فإنه يخسر آنذاك ذاته ويتحول عاجلاً أو آجلاً، إلى جزء من الثورة - المضادة نفسها.

لهذا كان كل عمل ثوري ناجح يحتاج إلى هذا النوع من الوعي الذي يستطيع به التمييز بين المصالح المباشرة والمصالح البعيدة المدى التي تشكل، في الواقع، مصالح العمل الثوري

الحقيقية وتعكس طبيعته ذاتها كعمل ثوري يعمل على خلق نظام أو مستقبل جديد، هذا يعني بكلمة أخرى، دور المثقفين الطليعي - أو الإنتليجنسيا بالنسبة للعمل الثوري - حملة هذا الوعي. هؤلاء قد يكونون عاجزين عن ذلك في أكثريتهم الساحقة أو يمارسون هذا الدور بشكل منحرف ناقص، ولكنهم هم الذين يفترض فيهم تحقيق هذا الوعي، سواء في أشكال صحيحة أو مزورة.

ولكن حتى وإن كان بإمكان الفرد تحقيق هذا التمييز بين مصالح مباشرة ومصالح بعيدة المدى، فإننا نواجه صعوبة أخرى وهي القدرة على العمل بالثانية على حساب الأولى. هذا العمل يفترض، بالإضافة إلى الوعي الذي يميزه الالتزام الذي يجعل من الممكن تحقيق هذا العمل، وهو التزام يفترض استعداداً نفسياً وأخلاقياً. هذا الاستعداد يرتبط بعوامل عديدة، ولكنه يفترض ولا شك حداً أدنى من هذا الوعي، وذلك لأنه يعني الارتباط بتصور ذهني حول مستقبل جديد، وبمثال يعي فيه العمل أو الفرد ذاته ككائن يتجاوز ماضيه وحاضره. لهذا كان المثقفون أقرب إلى هذا الالتزام من غيرهم. الآخرون قد يلتزمون بهذا المثال بقوة، ولكن التزامهم يكون عادة شعائرياً ولا يتميز بالنفس الطويل، وبالديناميكية التي يجب أن تقترن به.

(4) المعرفة العقلانية العلمية تساعد العمل الثوري على تحقيق وحدة يحتاج إليها بين الوعي والممارسة، وهي وحدة يرتبط بها بقدر كبير نجاح العمل الثوري نفسه. فالمعرفة المشتركة تشكل أداة انسجام وتماسك وتناسق في هذا العمل، وتجعل من الممكن لقاء مختلف المجموعات التي يتشكل منها في موقف متماثل أو أرضية واحدة. الانتقال من الوعي إلى الممارسة الفعالة يحتاج إلى صياغة لهذا الانتقال بمعرفة عقلانية وهي معرفة تزداد فاعليتها مع ازدياد عقلانيتها العلمية. كل عمل ثوري كان ناجحاً في توحيد نضاله ضد النظام القديم وإسقاطه وتنظيم المجتمع من جديد كان قادراً على ذلك لأنه استطاع صياغة وعيه في مبدأ جديد. ولكن فاعلية هذا المبدأ تحتاج كي تكون متكاملة وحاسمة إلى معرفة تكون عقلانية أو علمية بقدر كبير على الأقل. عندما تظهر حركة ثورية نتيجة تناقضات وقوى جديدة تدفع إليها، لكن دون أن ترافقها معرفة عقلانية وعلمية تلائم ضرورات الواقع واتجاهه، فإنها قد تكون عاجزة عن تجاوز طور النقد، وقد تجد نفسها مضطرة إلى التراجع أمام القوى المناقضة لها.

العمل الثوري يعني بطبيعته ذاتها وحدة الوعي والممارسة، لأن القصد منه هو تغيير الواقع. هذا التغيير لا يحدث بشكل أعمى، إذ يرتبط، واعياً أو غير واعٍ، بشكل منظم أو تلقائي، بوعي معين لطبيعة الواقع وكيفية تغييره. لهذا ليس من الغريب أن تكون ولادة الوعي الثوري، أي الوعي الذي يرمي إلى إحداث تغيير جذري للواقع في ضوء تصور جديد له يُحل محله نظاماً جديداً، ظاهرة حديثة رافقت ظهور العقلانية العلمية في الفكر الاجتماعي السياسي الحديث.

هذا يعني بدوره أن الانسجام بين الوعي والممارسة لا يتحقق عفوياً أو يكون واقعة مباشرة، فمن الممكن أن يظهر الرفض الثوري العملي أو الممارسة الثورية قبل أن تتم صياغة نظرية لها أو للقصد الذي تحمله، كما يمكن أيضاً أن تتحقق صياغة للفكرة، للنظرية الثورية، لكن بدون ظهور الممارسة التي تتبوء بها أو تكون قادرة على تحقيقها. العمل الوحدوي العربي، مثلاً، كان يمارس ذاته لمدة قرن ونيف ولكن بدون نظرية علمية، وبدون وعي موضوعي علمي يصوغ هذه الممارسة ويقودها. إن برودون، مثلاً، أكد في تمييزه للشروط الضرورية لعمل العمال السياسي الثوري أن

طبقة العمال وصلت إلى الوعي الذاتي، إلى التعبير عن فكرتها عام 1864، ولكنها لم تكن قد استنتجت بعد من نظريتها الممارسة التي تتطابق معها[1]. ما يميز بشكل خاص، مثلاً، اللينينية ومن ثم الماوية هو بالضبط صياغة وتحديد ممارسة معينة واضحة المعالم من النظرية التي تنطلقان منها، أي الماركسية[2]. هذا يعني أن المعرفة النظرية، وإن كانت حاسمة لا يمكن أن تكون الشرط الوحيد أو الكافي للممارسة الثورية الفعالة والناجحة، بل تحتاج إلى وعي موضوعي علمي للواقع الاجتماعي التاريخي الخاص الذي تعمل فيه، وعي قادر بأن يشتق من النظرية استراتيجية صحيحة لممارسة ناجحة في هذا الواقع. النظرية تقوم بدور ضخم متعدد الجوانب، لكنها لا تفرض استراتيجية أو ممارسة معينة، ثم إن الممارسة يمكن أن تكون متخلفة عن الصياغة النظرية أو متناقضة معها.

من الممكن إذن للعمل الثوري أن يحقق وعياً لذاته، وللنظرية الثورية التي تصوغ هذا الوعي وتعبر عنه، ولكن دون أن يصل إلى المرتبة الثالثة، أي دون تحقيق الممارسة الثورية الملائمة. من ناحية أخرى، يمكن للعمل الثوري أن يحقق وعياً لذاته ويكون في الوقت نفسه عاجزاً عن دخول المرتبة الثانية عند توفرها، أي توفر نظرية علمية أو موضوعية ملائمة، وذلك لأنه يكون عاجزاً عن الانتباه لها، أو إدراكها واستيعابها. إن كانت المعرفة الثورية قادرة على إفراز تصور صحيح حول المنطق الداخلي للمرحلة التي تعبر عنها أو لحركة التاريخ فيها، فإنها تعطي للذين يعتمدونها قدرة ثورية تميزهم بحق في تحديد مجرى العمل الثوري. ولكن إن كانت هذه المعرفة ترى أنها بعيدة عن الثقة العلمية، أو لا يمكن بشكل مسبق اشتقاق استراتيجية صحيحة فعالة منها، فإن العمل يُصبح آنذاك مبرراً لذاته بذاته، وبالتالي «يختلق» أو «يرتجل» نظرية أو معرفة تكون فقط تبريراً له. حركة وتحولات الواقع ذات المضمون أو الدفع الثوري تتقدم عادة على الوعي الثوري، وهي قد تتابع نموها وتطورها بدون صياغة معرفة أو نظرية علمية لها. إن الخطر الذي يهدد العمل الثوري بالفشل في هذه الأوضاع يكون أكبر بكثير من الخطر الذي يهدد عملاً آخر توفر له الوعي لذاته وتوفرت له الصياغة النظرية العلمية لهذا الوعي.

(5) المعرفة العقلانية العلمية التي تصوغ العمل الثوري في نظرية جامعة له توفر له قدرة على الاقناع وفاعلية في الواقع لا تتوفران لعمل يقتصر وعيه على دراسات تجريبية محدودة تقتصر على مشاكل وأحداث فردية. هذه الدراسات الجزئية لا تستطيع الكشف عن البنية الاجتماعية أو المرحلة الثورية ككل. نظرية عامة فقط حول المجتمع أو المرحلة، يمكن أن تدرك التناقضات، والصراعات والتحولات التي تسودهما ككل. الدراسات التجريبية تستطيع أن تقدم معلومات ثمينة، ولكنها تقود إلى تفاسير مختلفة تبعاً للمذاهب أو النظريات التي تستخدمها، ويمكن أن تُستخدم كأدوات سياسة محافظة. لكن المعرفة الثورية الجدلية - وهي جدلية بسبب

---

(1) Ansart, Pierre: Sociologie de Proudhon, Presses universitaires de France, 1967, pp. 158-159.

(2) القارئ الذي يرغب في التوسع بهذا الموضوع يستطيع الرجوع إلى كتاب "حدود اليسار الثوري"، دار الوحدة، بيروت، 1982، حيث راجعت تجارب التاريخ الثورية وقدمت في ضوئها نظرية علمية تحدد المقومات العامة التي كانت تميز الحركات الثورية الناجحة في هذه التجارب، اي، بكلمة اخرى، الممارسة التي كانت تقود العمل الثوري إلى الانتصار على النظام القديم.

طبيعتها ذاتها. تفرض على عكس ذلك إعادة النظر في النظام القائم، والكشف فيه عن القوى والتحولات الجديدة، وعن التناقضات البارزة فيه، وبالتالي عن الضرورة الموضوعية التي تدعو إلى زواله.

لا شك أن المعرفة العلمية أو النظرية لا تُستنتج مباشرة من الملاحظة أو الدراسات الجزئية، وميزة المدافعين عن النظام القائم هي رفض النظرية، وعزل الجوانب والتحولات المترابطة في «الكل» الاجتماعي كي يمكن تجنب إعادة النظر في الحاضر، أو في الواقع ككل. لهذا فإن النقد الثوري لا يمكن أن يُفصل أو ينفصل عن نظرية أو معرفة علمية عامة تعطيه معناه. إن الجدلية لا يميز فقط حركة العقل، بل الشكل الثابت للتحول الاجتماعي التاريخي، والنظرية توجه البحث وتكشف عن العلاقات الموجودة بين الوقائع التي تبدو متمايزة في هذا التحول. إن قصد العقل العلمي هو الكشف عن قوانين الظاهرة التي يدرسها، والعمل الثوري يستخدم النظرية التي يمكن أن تتكون من ذلك في دفع حركة الواقع في وجهة مقاصده، أو إقامة نظام جديد يحرر المجتمع من تناقضات واغترابات معينة. النظرية تقوم في آن واحد بدور نقدي ودور إيجابي للعمل الثوري. إنها تنكر وضعاً معيناً وتدافع عن وضع آخر يتجاوزه، ويعالج انحرافاته، وبذلك تدمر الأوهام والمجالات التي تبذر الطاقات وتهدر الإمكانات التي يجب أن تُجند في خدمة المقاصد الثورية. المعرفة العلمية تسمح بالكشف عن الواقع المعقد الذي لا تستطيع الملاحظة أو الدراسات المجزأة أن تكشف عنه، وبذلك تسلح الوعي بالإدراك الذي يمكن أن يساعده في تطويع هذا الواقع لتلك المقاصد.

إن كان هذا الوعي المسلح بالمعرفة العلمية أو النظرية لا يتفرع من الملاحظة المباشرة أو الدراسات الجزئية، فهو أيضاً لا يتفرع من التأمل في الواقع الموضوعي عندما يكون في حالة عادية، إنه وعي يصبح ممكناً بشكل فعال عندما يصاب وضع ما بهزة قوية، بأزمة جذرية، فتظهر تناقضات يعجز عن استيعابها أو التغلب عليها وتمثلها في نظامه ومؤسساته. قواعد السلوك التي يعيش بها الإنسان تُنقل إلى مستوى الوعي فقط عندما يواجه أوضاع كهذه، عندئذ يبدأ الفكر بإخضاع هذه القواعد للدراسة النقدية التي يمكن أن تقود، في أوضاع معينة، إلى وعي ثوري جامع، وإلى إنتليجنسيا جديدة تعبر عنه.



هذا الوعي كان الحافز للمبادرات الفكرية الخلاقة في التاريخ وخصوصاً في العصر الحديث حيث ظهرت الإنتليجنسيا كأداة له، كل تنظيم للفكر لأجل قصد جماعي جديد يرتبط إذن بتعميم هذا الوعي وانتصاره. الفرق بين عمل الوعي الصرف والوعي كما تمثله الإنتليجنسيا هو أن الأول يحاول أن يدرك فقط، أو يكتفي بإدراك الظواهر التي تحيط به ومجمل العلاقات والتحولات التي تقترن أو تكون كامنة وراءها، بينما الثاني يحاول أن يُدرك كي يغير عن طريق الإدراك واقع هذه الظواهر.

هذا الوعي النقدي يتسرب إلى جميع جوانب الحياة الاجتماعية والفكرية، لهذا أشار كثيرون من علماء الاجتماع بأنه متأصل حتى في الدراسات الوصفية الصرفة التي تواجه الباحث

الاجتماعي. طرح الأسئلة السوسيولوجية نفسها يفترض قدراً من الشك بالطريقة التي تُفسر بها الأحداث الإنسانية رسمياً من قبل السلطات، سواء كانت سياسية، أو قانونية أو دينية الهوية. «إننا لا نكون بعيدين عن الحقيقة إن نحن رأينا في الفكر الاجتماعي جزءاً مما أسماه نيتشه بـ «فن عدم الثقة».. المنظور الاجتماعي يعني عملاً يخترق الظواهر، وواجهات البُنى الاجتماعية»(1). فبالقدر الذي يقدم فيه علم الاجتماع معرفة للكيفية التي يعمل فيها المجتمع فإنه يقدم إسهاماً بارزاً في الصراع لأجل التغيير الاجتماعي السياسي.

بعض الدراسات كشف بوضوح، في الواقع، عن مطابقة بين بعض فروع الدراسة الجامعية والاتجاهات السياسية الثورية أو اليسارية. من ناحية عامة يمكن القول إن الذين يتخصصون في الدراسات الإنسانية (Humanities) والعلوم الاجتماعية، أو ميادين العلم النظرية الصرفة ينتمون إلى هذه الاتجاهات أكثر بكثير من الذين يتخصصون في الميادين العملية، التطبيقية أو الاختبارية(2). «طلاب العلوم الاجتماعية وخصوصاً علم الاجتماع كانوا في طليعة ثورة الطلاب في أواخر الستينات وبداية السبعينات، وذلك لأنهم تدربوا على التعميم وعلى التفكير بلغة الأفكار والقضايا الاجتماعية»(3).

بالإضافة إلى ذلك فإن العلوم الاجتماعية، وخصوصاً علم الاجتماع تُدرب طلابها على الفكر الاجتماعي السياسي النقدي لأن علامات الاستفهام والتساؤلات التي تثيرها تتعلق بموضوعات اجتماعية، سياسية، وأخلاقية، أو بالتقاليد والمؤسسات التي نشأوا عليها، وبالتالي فإنها تخلق مسافة ما بينهم وبين هذه الموضوعات وهي مسافة ضرورية كأرضية لاحتمال ظهور أي وعي نقدي. كل علم من العلوم يثير، بسبب طبيعته نفسها كعلم، هذا النوع من التساؤلات وعلامات الاستفهام التي يمكن أن تقود إلى التشكك بصحة النظام الذي يحيط بنا ككل أو في بعض جوانبه الأساسية. ولكن بما أن موضوع العلوم الطبيعية والهندسية يدور حول مادة عضوية أو لا عضوية، فإن الفكر النقدي الذي تساعد تلك العلوم على إيقاظه بين طلابها لا يتجه إلى قضايا اجتماعية سياسية وأخلاقية، وبالتالي يمكن لهم أن يكونوا مبدعين جداً في هذه العلوم، ولكن في إطار عقلية سياسية محافظة أو حتى رجعية. لهذا أشار كثيرون بأن الإنتليجنسيا تتشكل من الجامعيين، حين كانوا يربطون بينها وبين التكوين الجامعي: «جميع المفكرين الماركسيين الكبار تقريباً كانوا من نتاج الجامعة البورجوازية. انتقادهم للتعليم الذي تسلموه ثم نقلوه إلى كوادر حركة العمال لا يغير شيئاً من الواقع، أي في كون العالم الجامعي، في معناه العام (أي الذي يشمل البحث) يبقى كأساس للتكوين النظري. من يكون خارج هذا التكوين ينطلق من موانع ثقيلة»(4).

الدراسة الجامعية لم تكن تهيىء طبعاً هؤلاء بأن يكونوا في اليسار لأن المواد التي تدرسها لا تدعو مباشرة لأيّ نظرية ثورية معينة أو لأي يسار كان. ولهذا يمكن القول أن التكوين الجامعي

(1) Berger, Peter: Invitation to sociology, Doubleday Anchor Books, 1963, pp. 29-31.
(2) Anderson, C.H.: Sociological Esseys and Research, The Dorsey Press, 1970, p. 250.
(3) Colfax and Roach, editors radical sociology, Basic Books ,1971, p. 344.
(4) Martinet, Giles: Les Cinq Communismes, Editions du Seuil, 1968, p. 178.

الفكري يحمل في ذاته بذور الانتقال إلى هذا التكوين الثوري - حتى وإن كان حيادياً تماماً أو معارضاً لهذا الأخير - أي الانتقال إلى نقيض النظام الاجتماعي السياسي الذي تعبر عنه الجامعات أو تعمل في إطاره، وذلك لأن التكوين الجامعي يمكن أن يقود، ويُفترض به أن يقود، إلى إيقاظ الوعي وتكوينه. (كما حددناه في هذه الدراسة)، وهو إيقاظ يشترط وجوده والانطلاق منه لكل موقف يساري أو ثوري.

اليسار الجديد أو الجامعي الذي ظهر، مثلاً، في الولايات المتحدة في الستينات وبداية السبعينات هزّ النظام الأميركي من الجذور، وكان بإمكانه إسقاط هذا النظام، على الأرجح، لو أن العمال انضموا إليه (وهذا ينطبق على اليسار في جامعات بعض البلدان الأوروبية)، هذا اليسار لم يصل إلى تكوينه الثوري لأن الجامعات كانت تخطط لإعداد طلابها أو قطاع منهم لهذا التكوين، بل لأن التكوين الجامعي في طبيعته ذاتها يهيىء له بشكل عام وغير مباشر، وذلك لأنه يساعد في تكوين الوعي النقدي الذي ينطلق منه ويرجع إليه التكوين الثوري، ولا يمكن بدونه ظهور الوعي الثوري. فالتكوين الجامعي يعني، فيما يعنيه، دراسات تقدم مفاهيم وأفكار ونظريات وتصورات فكرية عامة بعيدة الأفق الفكري، وبالتالي فإن دراستها نفسها تساعد في إخراج الوعي من المشاغل اليومية، الأحداث الفردية، والظواهر المجزأة، وتفرض عليه التطلع النقدي إليها ككل. هذا التكوين يلقح الجامعي، كما أشرنا سابقاً، بالقدرة على الوقوف على مسافة من الذات والوسط الخارجي، والنظر إليهما ودراستهما وكأنه ليس جزءاً منهما، ومن ثم تقييمهما، ورفضهما جزئياً أو كلياً.

منذ القرن السابع عشر، أصبح التكوين الفكري الحديث يوجه نظرة الإنسان إلى المستقبل وليس إلى الماضي، يحدد الحاضر في ضوء المستقبل لا العكس. هذا التوجيه كان جزءاً لا يتجزأ من التكوين الجامعي نفسه، وبالتالي كان يُعدّ الوعي لممارسة ذاته كوعي نقدي.

عندما يدرس الطالب الجامعي تاريخ الفلسفة، مثلاً، فإنه يدرس، في الواقع، تاريخ العقل النقدي لأن الفلسفة كانت أساسياً تعني هذا العقل الذي يتطلع إلى الوضع الإنساني فيرى فيه نقصاً ويحاول التنبيه إلى معالجته وكيفية تجاوزه باسم «الحقيقة» كما يراها. «إن المفكر السياسي الذي لا يكون فيلسوفاً ينشغل أساسياً بنظام أو سياسة معينة. بيد أن الفيلسوف السياسي ينشغل أو يرتبط أساسياً بالحقيقة[1]». القصد الأول من الفلسفة السياسية كان، في الواقع، الكشف عن النظام الفاضل والدعوة إليه. «ما يُوحّد جميع الفلاسفة السياسيين هو القناعة العقلانية باحتمال الكشف عن مبادىء نظام صحيح صالح للوجود الاجتماعي[2]». مؤرخون آخرون ذهبوا إلى أبعد من هذا، ورأوا أن كبار المفكرين أو فلاسفة السياسة كانوا «..يكتبون في ضوء قصد عملي. إن هدفهم كان التأثير في السلوك السياسي الفعلي، وكانوا يكتبون كي يدينوا أو يدعموا الأنظمة الموجودة، كي يبرروا نظاماً سياسياً أو إقناع مواطنيهم بتغييره.. إن الفيلسوف السياسي كان، في طريقته الخاصة، إنساناً حزبياً»[3].

(1) Strauss, L.: Natural Right and History, University of Chicago Press, 1953, pp. 35-36.
(2) Strauss, L.: What is Political Philisophy, Free Press, 1952, p. 12.
(3) Cobban, A.: In Search of Humanity, Braziller, 1960, pp. 20-29, 229-245.

مؤرخون أو فلاسفة آخرون كانوا يرون أن الفيلسوف السياسي كان يعمل مستقلاً عن أي قصد عملي أو التزام سياسي مباشر. إن أريك فوغلين، مثلاً، يكتب بأن مطالبة الفيلسوف بالسلطة هي مطالبة روحية لا صلة لها باتجاه حركة سياسية نحو الاستيلاء على السلطة في المجتمع. الفيلسوف السياسي يمارس دور التعبير عن الحقيقة التصاعدية تجاه المجتمع، وبقدر ما يستمع إليه ممثلو السلطة، بقدر ما تمارس تعاليمه أثراً عملياً في عمل مؤسسات المجتمع العامة. هؤلاء أحرار تماماً بعدم الاستماع إليه، وفي هذه الحالة يتابع الفيلسوف عمله في صياغة نقدية للحقيقة حول النظام الصحيح في المجتمع، إلى أن يقف تلقائياً أو يُرغم على التوقف. الفلسفة لا تستطيع أن تصنع مباشرة أي شيء في تغيير المجتمع بشكل يكيفه مع الحقيقة الجديدة، ولكنها تستطيع ذلك بطريقة غير مباشرة، بتغيير قيم عدد كبير من الناس، مما يقود بدوره إلى تغيير المؤسسات العامة[1]. وما ينطبق على الفلسفة ينطبق بدرجة أكبر على علم الاجتماع.

المجال لا يتسع لتقديم أمثلة أخرى، ولكن ما ذكرناه حول تدريس الفلسفة يكفي في التمثيل على ما ذكرناه وهو أن التكوين الجامعي ذاته يعد الفكر بطريقة غير مباشرة للوعي الثوري، وذلك لأن دراسة المواد التي تشملها الفلسفة والعلوم الاجتماعية تثقف الفكر بالوعي النقدي نتيجة لطبيعتها نفسها. هذه الملاحظات العابرة حول التكوين الجامعي وعلاقته بالوعي، وبالتالي بالتكوين الثوري، كانت ضرورية أيضاً لأن الإنتليجنسيا كانت تاريخياً، في أجيالها الأولى وفي أكثر نماذجها تكاملاً، وليدة هذا التكوين الجامعي.

من ناحية أخرى يجب التنبيه هنا أن التكوين الجامعي لا يعني عضوياً قدرة على النقد العقلاني، أو بلوغ الوعي الصحيح الذي أشرنا إليه، بل إنه يهيىء فقط لوعي كهذا ويمهد الطريق أمامه. لهذا كان الذين يشاركون في هذا الوعي دائماً أقلية محدودة. التكوين الجامعي يمكن أن يخلق، وهو في الواقع، يخلق «أمية فكرية» من نوع جديد، النوع الذي يحمل دكتوراه فيما إذا اقتصر الجامعي فقط على المواد التي يدرسها في الإعداد لشهاداته الجامعية. فلكي يمكن له دخول عالم هذا الوعي النقدي يجب عليه أن يتجاوز ذلك ويقوم بجهد فكري خاص، مستقل عن الدراسة الجامعية، وخارج هذه الدراسة، وإن أراد أن يدخل عالم الفكر المُبدع الخلاق يجب أن يحول هذا الجهد إلى قاعدة لحياته اليومية، فيدرس ويبحث باستمرار، دون انقطاع، بنفس طويل ومركز. إنه يحتاج، بكلمة أخرى، إلى درجة عليا من التقشف الفكري، فيدفع ضريبة الخلق الفكري العليا، أي جهداً متواصلاً مركزاً لا ينقطع.

لهذا كانت صفوف الإنتليجنسيا تمتد دائماً إلى خارج التكوين الجامعي، دائماً مفتوحة لأي فرد يُكوّن حياته بموجب الوعي أو العقل النقدي. إنها لا تستثني أبداً أي فرد على أساس ثروة أو مكانة اجتماعية أو عمل مهني، إلخ.. ولكن أي فرد يمكن له استثناء نفسه من عملها، والعمل خارج صفوفها.

الإنتليجنسيا تجد إذن أهميتها الثورية الأساسية و«شرعيتها» كقوة طليعية في كونها تشكل أداة لهذا الوعي الذي لا يصح بدونه أي عمل ثوري، خصوصاً ونحن نواجه هذا العمل في القرن العشرين، إنه دور يزداد أهمية واعترافاً بهذه الأهمية مع الوقت.

---

(1) Voleglin, E.: Order and Society, V. II. Louisiana State University Press, 1957, p. 283.

التصورات المستقبلية

الوعي النقدي الذي تعبر عنه الإنتليجنسيا وتكون أداة له يدفعها بجدليته ذاتها إلى صياغة تصورات مثالية تشكل هوية العمل الثوري، ولا يمكن بدونها للعمل السياسي أن يكون عملاً ثورياً.

إن نزوع التصورات الأيديولوجية إلى المثالية أو الشمولية الجامعة لا يعكس فقط أوضاع اجتماعية تاريخية انتقالية - أي ثورية - بل نزوع العقل الإنساني نفسه إلى حقائق ومفاهيم جامعة[1]. فهذا العقل «يمثل عنصراً أساسياً من قدرة الإنسان على البحث بحرية في الطبيعة، وبالتالي الوصول إلى معرفة لوقائعها الخاصة كشواهد على قوانين شاملة يجب قبولها بثقة احتمالية لا بثقة مطلقة.. العلم يقول لنا إن عقل الإنسان هو، على الأقل، هذا النوع من الأشياء»[2].

التفكير حول الذات، والماضي، والحاضر بغية صنع المستقبل يشكل الكفاءة الفريدة التي تميز الكائنات الإنسانية عن جميع المخلوقات الأخرى، إنها قدرة تؤهلهم للتعلم من الماضي والامتداد نحو المستقبل. الحيوانات تستطيع فقط الانفعال، إنها تعيش بغرائزها وتقضي وجودها في ذلك، ولكن الإنسانية كانت دائماً تتحول بالرجوع إلى أفكار وأعمال تمثل تصورات مستقبلية. دور هذه التصورات ازداد جداً وبشكل جذري في العصر الحديث، فلسفياً ابتداء من ديكارت في القرن السابع عشر، وسوسيولوجياً ابتداء من مؤسسي علم الاجتماع في بداية القرن التاسع عشر بشكل خاص حين أصبحت نظرة الإنسان تتجه إلى المستقبل وليس إلى الماضي، تحدد الحاضر في ضوء الأول وليس في ضوء الثاني، وإلى درجة أصبح بها الفكر الحديث ينظر بدرجة من الازدراء إلى الماضي. «فبقدر ما تكون الفكرة تقليدية أو قديمة بقدر ما تكون خاطئة، ولكن رغم ما في هذه الذهنية من تطرف، فإن التشكك بالأفكار الماضية والتقليدية كان يجد له أساساً قوياً في العلوم الطبيعية والاجتماعية، وأما في الفلسفة والفنون الجميلة فلم «تكن لهذا الأساس تلك القوة المماثلة»[3].

---

(1) راجع كتاب "الإيديولوجية الانقلابية" الذي اكشف فيه عن العناصر الواحدة او البنية العامة التي تعيد ذاتها في جميع الإيديولوجيات الانقلابية التاريخية.

(2) Northrop. F. C. G. The taming of nations, Macmillan 1952, p. 234.

(3) Dunham, Barrows: Heroes and Heretics, A Delta Book, 1968, pp. 19-20.

العمل الثوري يعني قدرة الفرد على الانتقال من الواقع الذي يحياه إلى عالم ذهني يرتبط به، من الأوضاع التي تحدد سلوكه اليومي بشكل عفوي إلى عوالم مجردة يتطلع إليها ويرتبط بها، من الحاضر الذي يعيشه إلى مستقبل مجرد يرغب فيه. إنه قدرة الإنسان بأن يضع نفسه في وضع غير موجود، والانتقال نفسياً من حالة قائمة إلى حالة مثالية غير قائمة. المهام التي يقوم بها المثقفون عديدة وهي تتسرب إلى جميع جوانب الحياة الثقافية، والاجتماعية والسياسية، ولا يمكن تصور مجتمع بدونها. التركيز هنا كان على دورهم الثوري الذي تمثله الإنتليجنسيا ليس لأنه يمثل أهم أدوارهم فقط، بل لأنه يشكل الدور الذي يهمنا أولاً وبشكل أساسي بسبب المرحلة الانتقالية الثورية التي نمر فيها، وفي ضوء النتائج التي خلصنا إليها في القسم الأول من هذه الدراسة.

إن مهمة الإنتليجنسيا في الأزمنة الحديثة، في الغرب أولاً، ثم في أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، كانت الإعلان عن مثل عليا أو تصورات أيديولوجية مستقبلية كان القصد منها تجديد المجتمع والإنسان نفسه. هذه التصورات، ابتداء من التصورات الليبرالية الدستورية، وانتهاء بالتصورات الاشتراكية في أشكالها المختلفة، كانت من صنع إنتليجنسيا تعمل أولاً في مجتمعات إقطاعية دينية، ثم في مجتمعات بورجوازية علمانية، وتعبر عن رفض كلي أو جزئي لها، لأن قوى التاريخ نفسها فرضت عليها التحرك نحو مستقبل يتجاوزها. هذا الدور يتطلب، عندما يصح، طاقات ضخمة وولاء «صوفياً» لهذه التصورات، وذلك بسبب الصعوبات الهائلة الأبعاد التي تواجهه، لهذا كتب روسو، «كي يمكن الكشف عن أحسن قواعد المجتمع الملائمة نحتاج إلى ذكاء متفوق.. يكون دون علاقة بطبيعتنا ولكنه يُدركها بعمق، تكون سعادته مستقلة عنا ولكنه يريد الانشغال بسعادتنا، يرغب في تحقيق مجد بعيد في مجرى الأزمنة ويجد متعته في قرن آخر، لكنه يعمل في قرن معين. إن إعطاء قوانين للناس يحتاج إلى آلهة»[1].

الإنتليجنسيا تقود الحركات الثورية لأنها، على نقيض الجماعات الأخرى، تكسر حصار المفاهيم التقليدية والخطوط الطبقية الجامدة في المجتمع القديم، تحمل تصورات مستقبلية تجند وتوجه الطاقات والجماعات المحررة، وتقدم بعض الأفكار، التي قد تكون غامضة وغير عملية، حول كيفية تحقيقها. هذه التصورات تحدد ليس فقط القضايا الجديدة التي يجب أن تشغل الناس، والقوى التاريخية التي تفرزها، بل أيضاً الحل الممكن لها في مستقبل جديد. «إنني اعتبرت دائماً أن مهمة المفكر هي توقع المشاكل التي سيواجهها القرّاء في الأيام المقبلة، وذلك كي يكونوا قادرين على دخول النزاع بعقل جدي يرى الحل من حيث المبدأ. يجب أن لا نكتب إلا كي نجعل الحقيقة معروفة، كما كتب مالبرانش وهو يدير ظهره لأدب القصة»[2].

لهذا كانت الإنتليجنسيا تتشكل من أكثر النقدة ثباتاً لنظام فكري قائم، تشعر أنها سجينة فيه، ولا تعطي أيّ قيمة لما يقدمه، ترفض الاكتفاء به وتقدر أشكالاً أخرى مناقضة له في إعطاء معنى لحياتها. التصورات المستقبلية التي تدعو إليها تكون عادة ممكنة فقط لأفراد يتميزون

(1) J. J. Rousseau: Du Contract Social, Livre. Ll. Chapitre lll.
(2) J. O. Y. Gasset History as a System, W.W. Norton, 1962, p. 87.

بشعور تاريخي حي، وينظرون إلى أنفسهم كأدوات تاريخية لاتجاه فكري جديد. «إن المسرّات التي ترغب فيها هي، في الواقع، من النوع الذي يعجز معاصروها عن توفيرها، والمسؤوليات التي تشعر بها ليست لهؤلاء، لهذا فهي تكون أقل تأثراً بما يقدمه الحاضر من إغراءات»(1).

إن كان الإنسان يجد صعوبة في الاختيار بين ما يشتهيه من أشياء موجودة، فإننا نستطيع، كما يكتب إغاسا، أن نتصور آنذاك الصعوبة المتزايدة التي يواجهها في اختيار أشياء غير موجودة، أو في الرغبة الخلاقة الصحيحة التي تتطلع إلى أشياء كهذه وتتوقع أهدافاً غير واقعية: على أي حال، كل رغبة في شيء معين ترتبط نهائياً بالشخص الذي يريد الفرد أن يكونه، وهو إن كان عاجزاً عن ذلك لأنه لا يملك تصوراً مستقبلياً «لذات» يريد تحقيقها، فإن رغباته تكون رغبات مزورة خالية من الجدية والحيوية. لهذا يمكن القول أن جانباً من أهم جوانب الأزمة الأوروبية الحالية التي تواجهنا هي أزمة الرغبات التي نعبر عنها، أو «استنزاف» الرغبات العميقة والجدية. «إن أوروبا تتعذب من استنزاف قدرتها على الرغبة»(2).

إن الاضطرابات والانتفاضات الثورية تستنزف طاقتها بسرعة، وهي لا تكون، في الواقع، ثورية صحيحة، بدون انتماء جماعي عميق لتصورات مستقبلية جذرية، وبدون إنتليجنسيا تمثلها. إن الإضراب العام الكبير في بريطانيا، 1926، مثلاً، دلل على أن العمال يستطيعون شلّ حركة الإنتاج كلها بالإضراب في جميع المصانع. ولكن الثورة تحتاج إلى أكثر من قدرة العمال على شلّ الإنتاج. إنها تحتاج أيضاً إلى جهاز سياسي ثوري يجعل من الممكن لأكثرية الشعب بأن تهزم الدولة وتنظم مؤسساتها من جديد. فرنسا، عام 1968، اقتربت من الثورة ونقل السلطة أكثر من أي بلد صناعي آخر أثناء المائة عام الأخيرة، لكن رغم أن السلطة كانت مطروحة في الشوارع، فلم يكن هناك أي تنظيم ثوري في فرنسا يريد السلطة، أو كان مستعداً لها، لأنه لم يكن هناك أي تنظيم ثوري يتميز بأي تصور عما يمكن أن يصنعه بهذه السلطة(3).

عندما يقترن الفكر بالنظام القائم يتعرض - هذا إن لم نقل ينحسر - إلى فقدان هذه التصورات المستقبلية والأبعاد النظرية الجامعة والبعيدة المدى التي تترتب عليها، وإلى الانشغال بمشاكل جزئية، منفصلة ومحدودة يضيع فيها، ما كان سابقاً نظرة جامعة يتحلل إلى مشاكل حسية، والنضال المثالي نحو أهداف عليا يتحول آنذاك إلى محاولات تكيّف مع الواقع وتفاعل مباشر يومي محدود معه. كل مرة تزول التصورات المستقبلية الجذرية أو الرؤية المثالية (التي تعني هنا فقط تجاوز الحاضر باسم تصورات كهذه، وليس معناها الفلسفي) ينقطع التاريخ كمجرى يُفترض فيه أن يقود إلى هدف مستقبلي معين. عندما يكفّ الفكر عن التطلع إلى واقعه ككل، ويتجاهل مشكلة الظواهر الاجتماعية السياسية كمجموعة كلية، فإنه ينصرف إلى الاهتمام بمشاكل فردية ويضيع في المشاغل اليومية. عندما يحدث ذلك تبتعد الإنتليجنسيا عن معناها السابق، وتتذيل بالنظام القائم كما هو.

---

(1) Gouldner, Alvin: The Coming Crisis of Western Sociology, Basic Books, 1970, pp. 15-16.
(2) J. O. Y. Gasset: op. cit. pp. 120-121.
(3) Boggs, James and Graw: op. cit. pp. 138-139.

عندما يزول الإطار الفكري أو الوعي العام الجامع الذي نقيّم به الظواهر الاجتماعية السياسية من زاوية المستقبل، نبقى أمام سلسلة من الوقائع والأحداث متساوية من حيث معناها الداخلي، وقيمتها التاريخية. إن مفهوم الزمان التاريخي الذي نحتاجه كي يمكن رؤية التاريخ كحركة ذات مراحل أو عصور مختلفة يزول آنذاك، ويصبح التاريخ «واقعاً»، أو «مكاناً». غير متمايز. عندئذ يتحول الوعي عن المستقبل إلى الحاضر، عن الجدلي إلى الآتي، الوظيفي الوضعي.. إلخ، فيصبح حاضره مستقبله، أي فكراً غير ثوري أو جذري، وينزلق، عن قصد أو غير قصد، مباشرة أو غير مباشرة في مجرى الثورة ـ المضادة. هذه هي النتيجة التي تترتب نهائياً على كل فكر يخسر مفهوم الزمان الديناميكي، هذا إن لم نقل الجدلي. الإنتليجنسيا تقف، بطبيعتها ذاتها، خارج البنية الاجتماعية السياسية أو النظام القائم، معارضة له كلياً أو في بعض جوانبه الأساسية، وبذلك تصون الوعي السياسي من الانزلاق في هذه النتائج. «الثورة تتقدم محمولة بالإنتليجنسيا، أي بجماعة من طبيعة عملها إنتاج التصورات الأيديولوجية الجامعة»(1)، المؤرخون الذين ينشغلون بالتحولات الثورية يجمعون تقريباً «بأن الثورات تُصنع من قِبل كائنات إنسانية يكون خيالها قد اشتعل بتصور مثالي، بمثال حياة جديدة أحسن، مجتمع جديد أحسن، فتبدأ عندئذٍ بتنظيم قواها كي يمكن لها تعبئة آخرين للصراع في سبيل هذا المجتمع أو هذه الحياة الجديدة»(2).

قليلون هم الذين يقفون للتأمل في الواقعة التالية وهي أن التفكير الثوري ذاته يمتد إلى مائتي عام فقط. الاستبداد والتمرد على الاستبداد كانا جزءاً متأصلاً في التاريخ الإنساني، ولكن أثناء المائتي سنة السابقة فقط ساد الاعتقاد القائل بأن المظلومين لا يستطيعون التمرد على الظلم والظالمين فقط، بل الانتقال من ذلك إلى خلق مجتمع جديد يتحرر من أشكال الظلم. هذا الاعتقاد كان يعكس ذاته في تصورات أيديولوجية جديدة تعبر عن نظريات اجتماعية سياسية جامعة تحدد الإنسان والمجتمع من جديد.. لهذا ليس من قبيل الصدفة بأن تكون الإنتليجنسيا، هي الأخرى، ظاهرة حديثة، لأن الأول يقترن بالثانية ولا يمكن الفصل بينهما.

إن طبقة المثقفين ككل، تشكل، في الواقع، نتاجاً مميزاً للعصر الصناعي، مثلها مثل البروليتاريا، لأن الفصل بين العمل الفكري والعمل اليدوي لم يصبح قاعدة للإنتاج إلا في ظل النظام الرأسمالي. إنها طبقة مهمة لأن القضية تتعلق بطبقة تحدد عقليتها المضمون الكامل للحضارة الحديثة، وتوفر للدولة وللنشاط الاقتصادي الملاك الموجه، وتشكل بالتالي الجماعة التي تحكم المجموع الاجتماعي(3).

إن العصر الحديث، بالنسبة لماكس فابر، يتميز «بالعقلانية الوظيفية» أو التطبيق المتزايد للعلم على الاقتصاد والمجتمع، ولكن ما ينقصه هو «العقلانية الجوهرية»، شعور بالكلّ. بيد أن الأداة الأساسية التي تعبر عن هذا النوع الأخير من العقلانية هي، في الواقع، الإنتليجنسيا، في

---

(1) Baechler, Jean: Qu'est-ce que lidéologie ? idées/ Gallimard, 1976, p. 197.
(2) Boggs, James and Grace : op. cit. p. 83.
(3) De Man, Henri: op. cit. p. 179.

تصوراتها المثالية الجامعة وفي أشكال الوعي الشاملة التي تعبر عنها. ولكن بدون أوضاع موضوعية ملائمة تتمثل في مراحل ثورية أو أزمات جذرية، فإن هذه التصورات والأشكال لا تكون ممكنة، وبالتالي فإن الإنتليجنسيا نفسها لا تكون ممكنة. عندئذ تكون العقلانية الوظيفية هي العقلانية التي تهيمن. المسألة ليست مسألة خيار بل مسألة أوضاع اجتماعية تاريخية. في المجتمع الصناعي المتقدم تسود الأولى، ولكن هذه السيادة تصاب بهزة عنيفة من قبل العقلانية الجوهرية أثناء الأزمات الحادة التي يتعرض لها ذلك المجتمع.

الإنتليجنسيا التي كانت تلازم هذه التصورات المستقبلية كانت ظاهرة تاريخية حديثة لأنها كانت تحاول باسم العقل والعلم ضبط الواقع وتنظيمه بغية تحويله في وجهة هذه التصورات وإقامة نظام جديد في ضوئها. لهذا لا نجد، مثلاً، بين آباء الفكر الثوري شعراء، وذلك لأن الشعر لا ينظم الواقع في صيغة فكرية تساعد على إدراك وتنظيم حركته. حتى أعظم الأدباء كان أثرهم جانبياً ودون أهمية كبيرة. «من يعتقد، بأن شكسبير كان أكبر شاعر في التاريخ، يمكن أن يعتقد في الوقت نفسه أن أثره كان تافهاً في مجرى التاريخ، أو حتى في مجرى الأدب الإنكليزي نفسه. لا شك أنه لم يمارس نفوذاً واضحاً في عصره»[1].

لهذا كانت الإنتليجنسيا تثير نقمة الأنظمة القائمة والطبقات الحاكمة ضدها، فتعمل جاهدة على اضطهادها وقمع أفكارها، فالتصورات الأيديولوجية التي تحملها وتدعو إليها كانت تشكل في المدى البعيد أكبر خطر يواجهها. هذا دفع كثيراً من المؤرخين إلى التنبيه بأن «هجرة» المثقفين من أي نظام قائم تمثل مؤشراً حاسماً على قرب نهاية هذا النظام.

أهمية[2] هذه التصورات المستقبلية التي تعبر عنها الإنتليجنسيا تنعكس في ملاحظة هوايتهد بأن «الفكرة العامة تشكل دائماً خطراً على النظام القائم»[3]. إن هوايتهد حاول التدليل على أطروحته هذه في دراسة لفكرة الحرية، وكيف أن هذه الفكرة «كانت قوة تاريخية للتحول.. جميع الأفكار ليست طبعاً بهذه الأهمية. ولكن المُثل الأخلاقية للإنسان بشكل خاص هي التي كانت المثل الأعلى في صياغة الأفكار التي تعمل كقوة دافعة في تحقيق انتقالات من حالة اجتماعية إلى حالة أخرى»[4].

إن دراسة مارتيندال حول دور المفكرين في التحول الاجتماعي التاريخي تعد من أهم الدراسات التاريخية الجامعة ـ القليلة ـ لهذا الموضوع. إنه يكتب بأن أهم الأحداث في التاريخ الإنساني هي تكوين وتدمير المجتمعات والحضارات، والمفكرون يمثلون مرجعاً استراتيجياً في دراسة هذه التحولات بسبب دورهم في تكوين وتبرير المجتمعات والحضارات[5]. إن مارتيندال يدرس بشكل خاص الصين، الهند، إسرائيل القديمة، اليونان، العصر التاريخي المعروف بالعصر

---

(1) Muller Herberto Freedom in the western word harper colphon books 1964, p. 148.

(2) في الجزء الثاني من هذه الدراسة سنعود بدرجة من التفصيل إلى تحليل أهمية دور الإنتليجنسيا التاريخي وعناصره المختلفة.

(3) Whitehead, A. N.: Adventures of ideas, mentor books, 1933, p. 22.

(4) Ibid: p. 25.

(5) Martindale, Don: Social Life and Cultural change, D. Van Nostrand Co,. 1962, pp. 60-503.

المحوري (900-200 ق.م)، والغرب الحديث. وفي كل مثل كان يجد أن المثقفين كانوا محركين أساسيين للتحول الاجتماعي التاريخي، إن دورهم كان يتغير كثيراً عبر هذه المجتمعات، ولكنه كان دائماً يتخذ هذه السمة الأساسية.

إن التصورات الأيديولوجية المستقبلية تعكس، ولا شك، أوضاعاً اجتماعية تاريخية، ولكنها عند ظهورها وتبلورها كقاعدة للعمل السياسي، تأخذ المبادرة وتمارس أثراً كبيراً في تحديد هذه الأوضاع، وصياغتها، وتشكيلها من جديد. بدون هذه التصورات المستقبلية التي تعبر عنها الإنتليجنسيا يكون من غير الممكن تفسير الحركات الثورية أو الإصلاحية نفسها، فهي التي تكشف أساسياً عن الطاقة الإنسانية التي تميز عادة هذه الحركات وخصوصاً الحركات الأولى.

إن دي مان، المفكر الاشتراكي، يتكلم بوضوح حاسم حول هذه الناحية، فهو يكتب « ..هكذا نرى من البداية أن التتابع التاريخي للأحداث يتناقض مع التصور العقلاني الذي يرى أن الهدف النهائي يتفرع من الوعي للمصالح. فالمذاهب الاشتراكية ليست نتيجة يقظة الطبقة العاملة في وعيها لوضعها كطبقة، بل كانت على العكس، شرطاً مهد لهذه اليقظة. إن الاشتراكية وُجدت قبل حركة العمال، وحتى قبل طبقة العمال». ثم يضيف في مكان آخر « .. إن فكرة الاشتراكية لم تتفرع من بؤس العامل اليدوي المادي، بل من بؤس العامل الفكري الأخلاقي، العمال الذين يستخدمون هذه الفكرة في صراعهم لأجل تحسين أوضاعهم لا يتحركون حقاً بها إلا بالقدر الذي يصبحون فيه مفكرين، أي بالقدر الذي يحدث به في عقليتهم ذاتها، الانتقال من الحافز الرأسمالي الاكتسابي الذي يتفرع من النضال المادي لأجل البقاء إلى الحافز الاشتراكي على الخدمة والعمل، والذي يتفرع من الاستعداد الإنساني الطيب والمنتج. من هذه الزاوية العالية، يمكن القول إن تحقيق الاشتراكية يبدو كتحويل البروليتاريين إلى مفكرين. إن نحن اقتصرنا على أوضاع الإنتاج الصناعية الحسية، يمكن لنا أن نقول الشيء نفسه في هذه العبارات: إن الاشتراكية لا تستطيع أبداً التحقق إلا بالقدر الذي نستطيع به تحويل العامل من خادم أحمق للآلة إلى سيد ذكي لها. ولكن الإدارة والكفاءة في سيادة الآلهة هما، من زاوية المعنى العام للسيادة على الأشياء بالعقل، ميزة الحافز الفكري للعمل. كل تنظيم للإنتاج لأجل قصد جماعي يرتبط إذن بتعميم دور هذا الحافز وانتصاره»(1).

الإنتليجنسيا هي التي تحمل لواء هذا الحافز في أقوى أشكاله، أي الشكل الثوري، لهذا كتب كولاكوسكي، المفكر الماركسي البولندي، « ..دون مساعدة الإنتليجنسيا، من الصعب على العمال أن يحرروا أنفسهم من النفوذ الثقافي للطبقة الوسطى.. والإنتليجنسيا لا تستطيع أبداً تحقيق استقلالها الروحي من الرأسمالية دون الارتباط بقدر الطبقة العاملة»(2).

(1) De Man, H. op. cit. pp. 50, 207.
(2) Kolakowski, L.Toward a Marxist Humanism, Essays on the Left Today, Grove press, 1969, p. 162.

عزلة الإنتليجنسيا
عن الممارسة العملية

بما أن الإنتليجنسيا تعبر عن الوعي أو العقل النقدي، وبما أن هذا الوعي يتخذ شكل تصورات أيديولوجية مستقبلية تعبر عن رؤية ثورية، فإنها تجد نفسها خارج النظام وحتى المجتمع نفسه، أي بعيدة عن الممارسة العملية للسياسة. هذا يقودها إلى تجاهل صلابة الوقائع والظواهر السلبية، أو «العنيدة» التي تواجهها كما كان يقول ويليام جايمس، وهذا يزيد من ميلها إلى التركيز على دور الأفكار، والمبالغة بقدرتها الذاتية، والمغالاة في اعتمادها على هذه القدرة وعلى فاعلية الوعي. هذا الطلاق مع الواقع السياسي العملي الحي، أو الابتعاد عن الممارسة السياسية التطبيقية، يمكن أن يقود الإنتليجنسيا إلى مواقف دوغماتية وإلى الإرادية، وهذا يعني بدوره تعميقاً لثوريتها ولحدة هذه الثورة. إنسان الإنتليجنسيا، بكلمة أخرى، يميل بشكل خاص إلى المفاهيم «المطلقة» لأنه كان محروماً من الاستهلاك المستمر لطاقته في الانتقال من الفكر إلى الممارسة، أو في الانشغال بهذه الممارسة. إنه إنسان يتألم غالباً، كرجل أفكار، من حرمان طويل من العمل، لأن طبيعة الإنتليجنسيا نفسها كوعي ثوري يُخرجها من هذا العمل. ولكن التفكير الذي لا يتوج ذاته بالعمل وحتى النجاح في العمل يكون من هذه الزاوية النفسية ظاهرة شاذة. إن وضع الإنتليجنسيا يحمل معه إذن درجة عليا من الكبت، وذلك نتيجة حياة طويلة تكون فيها حوافز المبادرة المهمة للعمل متوافرة، ولكن دون أي استهلاك تطبيقي لها. هذا الكبت يغذي الشيء المُتمم له، أي الاندفاع الإرادي العالي والحاد نحو فرض تصورات الإنتليجنسيا وتحويلها إلى واقع. عندما تكون الأوضاع الاجتماعية السياسية غير مناسبة أبداً والأمل في العمل الاجتماعي السياسي منحسراً جداً أو غائباً، فإن هذا الاندفاع الإرادي يمكن أن يرتد ويدفع صاحبه إلى الانسحاب من المجتمع أو الحياة السياسية كما نجد في البتنيكية (Beatnikism) أو الحياة البوهيمية، أو حتى الرهبنة، وهو، من ناحية أخرى، يمكن أن يدفع إلى «الإرهاب» حيث يحاول فيه إرغام الواقع الاجتماعي السياسي غير المختمر بعد للثورة، على الانفتاح السريع لمقاصده.

لقد أشرنا سابقاً إلى دراسة دي توكفيل الكلاسيكية حول دور المفكرين في صنع الثورة

الفرنسية، أو في صياغة التصورات والمبادىء التي لا يمكن بدونها إدراك هذه الثورة، وكيف أن هذا الدور نتج عن عزلتهم عن الممارسة السياسية. لقد أشار وهو يتطلع إلى القرن الثامن عشر من زاوية القرن التاسع عشر بأن رجال الفكر أخذوا المبادرة في السياسة والنتائج التي ترتبت عليها، وبأن الثوريين كانوا يماثلونهم في تأليفهم للكتب المجردة. فهؤلاء كانوا يتميزون بنفس الحب للتعميمات الجامعة، والأنظمة التشريعية الصافية، وبنفس الازدراء للوقائع الصلبة، ونفس الميل إلى بناء الأنظمة بموجب قواعد جديدة، ونفس الرغبة في تكوين الدستور كله تبعاً لقوانين المنطق ولنظام تصوروه مقدماً بدلاً من محاولة تصحيح للأجزاء الفاسدة في النظام السابق(1).

عالم المفكر هو ما يقرأ ويطالع، إن عالم كتبه يمثل عادة، بمفاهيمه وأفكاره والتزاماته الأخلاقية، عالماً أكثر واقعية، بالنسبة له، من عالم الناس. الكلمات والأفكار التي تكون هذا العالم هي أدوات المثقفين، والهدف من استخدامها هو تنظيمها في تصورات معينة حول قضايا معينة، أو في نظريات عامة جامعة للتاريخ، أو لمرحلة تاريخية، أو لمجتمع معين. هذه الأدوات، والأهداف التي تخدمها، تقتصر إذن على إرادة المثقف المستقلة، الذي يستخدمها كما يريد، وفي أيّ وجهة يرغب فيها. هذا يعني أن المثقف يعمل في دنيا مطواعة له، تنقاد لإرادته وتأخذ أشكالها وفق رغباته. هذا العمل، وخصوصاً إن كان مركزاً في عزلة عن الخارج ومشاغله وصراعاته اليومية وممارساته العملية، يولّد فيه نفسية خاصة ترى على الأرجح، وإن كان بشكل لا واعٍ، أن الواقع الموضوعي نفسه يخضع أو يجب أن يخضع لرغباته وإرادته فيكون مطواعاً وصاغراً لها مثل الأدوات التي يستخدمها. «عندما يكون هؤلاء المفكرون من دون خبرة بمشاكل الحكم يصبحون سكارى بالأيديولوجية»(2). ما قاله بيلينسكي، المفكر الثوري الروسي في القرن التاسع عشر، في وصف باكونين بأنه «يحب الأفكار وليس الناس» ينطبق على الكثير من المفكرين الكبار(3).

المثقفون يقضون وقتهم في دراسة التاريخ والتحول الاجتماعي، وفي الكتابة حولهما. هذا يولد مع الوقت رغبة أو نفسية تتطلع إلى تجاوز الدراسة والانتقال إلى صنع التاريخ. الذين يعانون هذه التجربة يتحولون إلى إنتليجنسيا. العالم الفكري الذي تعيشه هذه الإنتليجنسيا يدفعها إلى عملها الثوري دون اهتمام كبير بالنتائج الشخصية التي تترتب عليه، فتتخذ مواقف حاسمة كلية

---

(1) بعض المؤرخين اعترضوا على هذه الصورة التي قدمها حول الثوريين الفرنسيين مفكرون من امثال دي توكفيل، وتاين، ونبهوا بأن الانتليجنسيا الفرنسية في القرن الثامن عشر كانت تنشغل بالواقع العملي ولم تكن مذهبية أو طوباوية صرفة كما يقولون. إن أحد هؤلاء يكتب:

«إن ارنست كاسير قد يكون على حق في التقليل من أهمية اعتراضات تاين القائلة بأن الانسكلوبيديين كانوا مذهبيين طوباويين خلقوا مجتمعات اصطناعية دون اهتمام بالواقع التاريخي، وذلك لأنهم. وهذا ينطبق على فلاسفة القرن الثامن عشر من ناحية عامة. كانوا يتميزون بقابلية قوية للوقائع، والاختبار، والتجربة، كما كانوا مهتمين بشدة بالإصلاحات العملية في التعليم، وعلم الجريمة، والقانون، والإدارة، ما كان ينقصهم هو إدراك الاستراتيجيات السياسية والوسائل التنظيمية التي يمكن بها ربط نظرياتهم الكبيرة حول العقل، والتقدم، والعدالة، والاصلاحات الضرورية في تحقيق النظرية مع حاجات وآمال وإمكانات الفرد العادي».

(Burns, james: leadership, harper and Row, 1978, p.147).

(2) Aron, R, op. cit. V.I, p: 276.

(3) Joll, James: op.cit. p.68.

في مقاومتها للنظام القائم[1]. «إن رد الإنتليجنسيا سواء كان على البطالة، ومقاومة الأجيال المسنة، وعلى بطء الترقية، أو على أسياد أجانب، إلخ.. يكون عادة أكثر شدةً وحماسةً من رد القوى الاجتماعية الأخرى، وذلك لأنها تحمل مطامح أعلى وتملك وسائل أكثر امتداداً. إنها تعترض بصدق على الظلم، والفقر، والاستبداد، والمظالم الأخرى التي يقع الناس فريسة لها. ولهذا فهي ترفع صوتها عالياً جداً عندما تكون هي نفسها الضحية»[2].

بما أن علاقات المفكر، أو إنسان الإنتليجنسيا، بالآخرين تكون عادة (وهذا شيء يمكن أن يكون تعساً جداً) قليلة، أو هي، على أي حال، أقل بكثير من علاقات العامل، التقني، أو الإنسان السياسي، وبما أنه بالتالي لا يستطيع التأثير مباشرة حوله، فإنه يرى نفسه يتجه أو يميل إلى الأفكار الثورية كي يعوض بها عن الامتداد الضيق لعمله. هذا الاتجاه يكون أكثر قوة وصلابة إن كان يتميز بشعور صادق بالعدالة، وبالتزام أساسي بقضية ثورية.

(1) عندما نريد معالجة قضية تهمنا شخصياً نتحمل النتائج التي قد تترتب على عملنا إن اتجه هذا العمل في وجهة غير ملائمة. ليس هناك من حق في الخطإ، مثلاً، للطيار، والطبيب او الميكانيكي. ولكن تبني نظرية سياسية لا يقترن بهذه الهموم أو الحيرة.

لهذا كتب ديكارت «يبدو لي أنني استطيع أن أجد في التفكير الذي يمارسه الفرد حول قضايا تهمه، والذي يجد عقابه سريعا إن كانت احكامه خاطئة، قدراً اكبر من الحقيقة مما أجد في تفكير رجل الأدب في مكتبه، الذي يدور حول تأملات نظرية».

Grenier Jean: essai sur l'esprit d'orthodoscie, Gallimard, 1967, p.44.

(2) ARON, R, L'opium des Intellectuels Galimard, 1955, pp. 300 - 301.

تجاوز الظواهر الآنية

قدرة الإنتليجنسيا على الخروج من المشاغل اليومية، وتجزيئية الأحداث، وآنية الظواهر تعني تحقيق الموقع الأساسي الضروري لأي عمل ثوري، لأن هذا العمل يعني أول ما يعنيه هذه القدرة على هذا الخروج. مقومات الإنتليجنسيا التي حللناها سابقاً - بالوعي النقدي الذي تمثله، والتصورات المستقبلية التي تعبر عنها، والعزلة عن السياسة العملية التي تحيا فيها - تجعل هذا ممكناً، أو بالأحرى تدفع إليه وتفرضه.

إن أكثرية الناس الساحقة في جميع المجتمعات التاريخية المعروفة حتى الآن كانت بعيدة - ما عدا مراحل قصيرة هي مراحل انتقالية جذرية أو مراحل أزمات أساسية - عن الانشغال بمفاهيم وأفكار تتجاوز الظواهر والأحداث الآنية المباشرة، وتكشف عن القوى الأساسية الكامنة وراءها، والأهداف أو التصورات الأيديولوجية التي تدفع إليها أو يمكن أن تترتب عليها. هذه الأكثرية كانت أساسياً ودائماً تنشغل بمقاصد قصيرة المدى، وأعمال معينة، وضرورات وضع أو حالة محدودة، واعتبارات فردية أو عائلية، ومصالح مباشرة ويومية، وقواعد سلوك، ومحرمات حسية، إلخ.. وليس بتلك القوى، والأهداف التصورات، أو بأيّ مفاهيم فكرية جامعة للوضع الاجتماعي التاريخي الذي تحياه. ولكن في كل مجتمع كان يوجد، من ناحية أخرى، جماعة محدودة، حساسة بالمشاكل والقضايا الكبرى التي يكشف عنها هذا الوضع، تتطلع إلى إدراك موقعها، موقع الإنسان من المجتمع والتاريخ، وترغب في الكشف عن معنى عام أو عقلانية عامة فيهما، وعن القوى والتحولات (Proceses) التي تحركهما. إنها جماعة تأبى أن تعيش في الـ «الآن» أو الـ «هنا»، إنها تضيق ذرعاً بالحدود الضيقة التي تميز الأوضاع الحسية المباشرة، وترفض أن تستنزف إنسانيتها في مشاغل واهتمامات عابرة، وتعمل على اختراق التجارب المباشرة والحسية التي تحيط بها وتضغط عليها، وذلك كي تنفذ إلى الاتجاهات والمعاني الأساسية التي تحركها، هذه هي جماعة المفكرين التي كانت تدل على وجودها في جميع المجتمعات التاريخية. عندما كانت هذه الجماعة تنتهي إلى مفاهيم وتصورات ترفض بها النظام القائم أو تدعو إلى تعديله بشكل جذري تتحول إلى إنتليجنسيا.

المفكرون الاجتماعيون والسياسيون الكبار كانوا، في الواقع، يرون أن عملهم يتجاوز «الآراء» بغية الوصول إلى إدراك نقدي لدور الإنسان في المجتمع أو حتى في التاريخ نفسه. في بداية هذا التقليد الفكري ميز أفلاطون بين «الرأي» (Dot) وبين المعرفة (Epistème) وحدد ما يقوم به، في «الجمهورية»، «رجل الدولة»، و«القوانين»، بأنه معرفة سياسية أو علم. النظرية السياسية أو الاجتماعية هي العبارة الأكثر ملائمة، على الأرجح، في تحديد هذا التقليد الفكري الذي يؤكد إمكان أو ضرورة تجاوز صعيد الظواهر الآنية والنظر إلى الإنسان وإلى وضعه من زاوية نقدية جامعة.

هناك بين الناس من يجد لذة في التأمل في الوضع الاجتماعي التاريخي أو في بعض القضايا الأساسية التي يكشف عنها هذا الوضع، هذا ينطبق فقط على أقلية محدودة لأن أكثر الناس الساحقة لا تنشغل بهذا الوضع وقضاياه، وهي من ناحية عامة قد تمارس هذا التأمل أو التفكير عندما يتوقف مجرى حياتها الرتيب بسبب ظهور ما يمكن اعتباره مشكلة أساسية عامة. إن معظم التفكير الجدي يكون في الواقع في شكل حل المشكلة. هذا يعود، على الأرجح، إلى الواقعة التالية والبسيطة وهي أن التفكير يؤذي ويؤلم. على أي حال فإن معظم الناس يلجؤون أو بالأحرى ينفتحون لهذا النوع «المخيف» من النشاط فقط عندما يضطرون إلى ذلك. الناس عاشوا دائماً في مجتمع ولكنهم يقومون بقدر من التفكير حوله عندما يصبح، بصرف النظر عن الأسباب، مشكلة بالنسبة لهم. التفكير ليس فقط مؤلماً[1]، بل يأخذ وقتاً طويلاً ومتعباً في الإعداد العلمي له، ولهذا فهو يشكل حالة نادرة بالنسبة لأكثرية الناس الساحقة، وخصوصاً عندما يتخذ شكلاً منظماً.

من هذه الزاوية يمكن، أو بالأحرى يصبح من الأصح، تقسيم المجتمع إلى «طبقة» تقدمية صغيرة وأخرى لا مبالية كبيرة. الأولى تتشكل من الذين يدفعون ضريبة الجهد الفكري الجدي، هذا إن لم نقل المبدع، ويتميزون بوعي يقظ. إنها «طبقة» نشيطة ومستعدة للعمل في سبيل التقدم الاجتماعي، وأفرادها يأتون من جميع المستويات الاجتماعية، أما الطبقة الأخرى فتتشكل من الذين يكرسون أنفسهم لأهداف شخصية دون أن يقلقهم ما يحدث في العالم خارج دائرتهم اليومية، وهي قد تُعثر، أو تسهل، أو تقاوم ـ تبعاً للأوضاع التي تمر فيها ـ عمل الطبقة الأولى. من ناحية أخرى، يمكن إحداث تقسيم آخر بين الذين يُحمّلون أنفسهم مطالب عالية ويقبلون التحديات الكبيرة وبين من يتجنبون، وهم الأكثرية الساحقة، هذه المطالب والتحديات، وينشغلون عنها بمشاغل يومية. إن جايمس فرايزر كان يشير إلى «الطاقة الدافعة للأقلية» التي تعمل للتقدم ضد «الثقل الميت لأكثرية الإنسانية»[2].

إننا نعرف، مثلاً، أن التقدم في العمر الزماني لا يعني التقدم في الوعي أو في التفكير الاجتماعي السياسي. أكثرية الذين يبلغون النضج الزماني لا يطرحون على أنفسهم أسئلة

(1) هذا وجد تعبيرا له في قصة الرجل ذي اللحية الطويلة الذي لم يعد قادراً على النوم بعد ان سأله صديق، إن كان يضع اللحية، عندما ينام، فوق أو تحت اللحاف.

(2) Frazer, James: The Golden Bough, Macmillan Co., 1951.

أساسية، ولا يكونون مستعدين أبداً لأسئلة كهذه، أو لأي نوع من التفكير النقدي الجدي الذي يكون ضرورياً لتطور عملية الفكر الاجتماعي. الناس يقضون عادة حياتهم كلها في صعيد نفعي أو مادي منشغلين فقط بقضايا البقاء والرفاهية. إنهم يصنعون فقط ما يجب عليهم صنعه لمصلحتهم الشخصية الخاصة، وما يقال لهم بأن عليهم صنعه، ويقبلون ما يحدث في المجتمع كشيء يتجاوز سيادتهم، وكشيء يحدده آخرون. هناك قسم كبير يمارس هذا التفكير النقدي ولكن معظم هؤلاء لا يتابعون ذلك إلى مستوى ينظمه في تصورات فكرية جديدة جامعة. ثم إن قسماً كبيراً من الذين يحققون هذا لا يكونون مستعدين لمقاساة الجهد المنظم الضروري في تحويل هذه التصورات إلى ممارسة. الناس يرجعون عادة إلى تصورات من هذا النوع ولكن كتقليد رتيب دون علاقة حية ديناميكية بالتاريخ، ودون أن تقترن تلك التصورات بالوعي أو تحفز الفكر النقدي. الفلاسفة والمفكرون الذين ينظمون فرضياتهم وقناعاتهم الفكرية في نظام فكري قليلون، وكذلك أيضاً الذين ينتقلون من ذلك إلى طور السياسة. فهؤلاء لا ينشغلون عادة بنشر أفكارهم بين الناس أو في تنظيمهم لصراع اجتماعي سياسي وفي تحويل قناعاتهم إلى واقع. هذا ما تقوم به الإنتليجنسيا التي تؤمن بعمق أن المجتمع الذي تعيش فيه يجب أن يتحول وينتقل إلى صعيد تاريخي أعلى، وأن الأفكار والتصورات التي تعبر عنها قادرة على تحقيق هذا.

عندما نراجع مشاركة الناس في الحركات السياسية الثورية أو نشاطهم في الأحزاب السياسية نجد، كقاعدة عامة، أنهم لا يظهرون مبالاة بذلك إن لم يحدث تطور أو حادث خطير يُثير اهتمامهم، وأن الذين يلتزمون بشكل فعال بهذا العمل السياسي، وخصوصاً ما كان منه ثورياً، يمثلون دائماً أقلية محدودة نسبياً. «إن معظم الناس ينشغلون تماماً بأمورهم وقضاياهم الخاصة، ولا يظهرون اهتماماً مهماً بما يتجاوزها. إنهم يصنعون ذلك فقط عندما تصبح مصالحهم الخاصة وحياتهم اليومية مهددة بأزمة طارئة أو بخطر ما.. إن مستويات حالتهم النفسية العميقة لا تستجيب للدعوة الثورية، وتبقى منغلقة على ذاتها في سبات عميق إن كانوا لا يجدون أنفسهم في أوضاع اجتماعية وسياسية جديدة تهدد علاقاتهم وقواعد حياتهم اليومية نفسها»(1). معظم الناس «ينشغلون بمشاكلهم الشخصية اليومية إلى درجة لا تترك لهم أي وقت، أو طاقة أو مصلحة في أي شيء سياسي. هؤلاء لا يرون معنى في الاهتمام بالمسرح السياسي لأن همومهم الخاصة ملحة جداً، ويجب عليهم التفكير من زاوية الخطوة التالية التي عليهم اتخاذها في المستقبل المباشر إن هم أرادوا الاحتفاظ بروحهم وجسدهم معاً. الانشغال بأحزاب وسياسة يشكل بالنسبة لهم ترفاً لا يستطيعون توفيره لأنفسهم، أو جهداً لا يحمل لهم أيّ مكافأة ذات قيمة في سد حاجاتهم الأساسية، لأن عليهم تحقيق نتائج سريعة ومباشرة»(2).

«العقلانية» التي تميز الإنتليجنسيا تفترض قيام خط فاصل بين آنية الأحداث وبين الاتجاهات الاجتماعية التاريخية العامة التي تسودها، لأن الوعي الثوري يفترض إدراك الأخيرة وتطويع الأولى بها. الإنسان العادي، بشكل عام، ينشغل، على عكس الإنتليجنسيا، بآنية هذه

(1) Heberle, Rudolfe: Social Movements, Appleton - Century - Crofts. 1951, pp. 93, 115.
(2) Cantril, Hadley: The politics of Despair, Collier Books, 1962, pp. 134 - 135.

الأحداث، وعمله اليومي يرتبط بالنتائج التي تترتب عليها أو بالأعمال التي تؤثر فيها، وهذا يفصل بينه وبين الوعي الثوري. الحسّ الزماني، كما أشرنا سابقاً، قصير جداً في أكثر الناس، مما يعني أن هؤلاء لا يكونون مستعدين للتضحية بالمنافع التي يمكن تحقيقها من الارتباط اليومي العابر بالأحداث الآنية، وذلك في خدمة المستقبل البعيد. إنهم يقضون حياتهم كلها في صعيد نفعي مادي منشغلين فقط بقضايا البقاء، والعيش، والرفاهية. «إن الجماهير لا تنشغل أبداً بالإصلاحات إن لم تكن في الصعيد الاقتصادي.. إن الحكمة السياسية بالنسبة لها تقتصر على حق الانتخاب العام»[1].

إن أقرب الأمثلة على ذلك الثورة الجامعية في أميركا وغربي أوروبا في الستينات وبداية السبعينات. هذه الثورة وجدت بعد شهر فقط من أكبر نجاح لها - عام 1968 في فرنسا - أنها منبوذة من البروليتاريا، غريبة عنها. «لقد كان من الواضح أن أهداف العمال والطلاب لم تكن واحدة، فالطلاب كانوا يتحدّون كبارهم وأشكال السلطة القائمة، سواء كانت أبوية أو حكومية، لأنهم اعتبروها أشكالاً مفلسة. العمال دللوا، على العكس، أنهم لا ينبذون (المجتمع الاستهلاكي)، الذي يزدريه الطلاب، وأن ما يريدونه حقاً هو إسهام أكثر فاعلية فيه. إنهم لم يطالبوا بإسقاط المجتمع، بل بعضوية كاملة فيه. 90% من الطلاب كانوا من عائلات غير عمالية.. العمال كانوا رجال عائلات ومن جميع الأعمار.. ولكنهم لم يشعروا بظلم روحي. إنهم شعروا بحرمان مادي.. عالم الطلاب وعالم العمال بقيا متمايزين. الطلاب هاجموا نظام الامتحانات، المجتمع الآتي، اقتصاد الآلات، العمال كانوا يريدون ساعات عمل أقل وأجور أعلى، إنهم لم يكونوا يرغبون في شيء أكثر من رغبتهم في السيارة، الغسالة، وآلة التليفيزيون، أي أشياء يهزأ منها المثقف»[2].

لهذا كتب كولاكوسكي، إن «المعرفة النظرية حول المجتمع تستمر كشرط للصراع الناجح للحركة الشيوعية. إن إرادات هذه الحركة أن لا تصاب بالجمود كان من الضروري تغذيتها بمنجزات نظرية متقدمة يخلقها ويسهر عليها مثقفون شيوعيون.. إن دور الإنتليجنسيا في الحركة الشيوعية لا يقتصر على عملها النظري الذي لا غنى عنه في الصعيد السياسي. فالمثقفون هم الخلّاقون الفعليون للثقافة الاشتراكية في أكثر أشكالها تنوعاً، ولكن قبل كل شيء في الجوانب الفكرية والفنية. هذا يعني أنهم يعبرون عن تلك الاتجاهات التي تقود في التطور التاريخي، إلى تدمير الرأسمالية..» إن كولاكوسكي يذهب، في الواقع، إلى أبعد من ذلك ويفسر الفرق بين الأحزاب الشيوعية الثورية والأحزاب العمالية غير الثورية أو الإصلاحية، بأنه يعود إلى هيمنة حوافز العمال الاقتصادية في الثانية وليس إلى تصورات الإنتليجنسيا التي تهيمن في الأولى. «..إن دور المثقفين في الحركة الشيوعية، كان دائماً، أكبر بكثير مما هو عليه في أحزاب العمال التي تنشغل وبشكل استثنائي تقريباً بمكاسب اقتصادية مباشرة، خالية من أهداف بعيدة المدى في صراع البروليتاريا لأجل السلطة، ومن مشاريع لتنظيم الحياة الاقتصادية في هذا الإطار»[3].

---

(1) Parkinson, C.N.: L'évolution de la pensée politique, Gallimard, 1965, p. 162.
(2)Feuer, L.: The Conflict of Generations, Basic Books, 1969, pp. 282 - 283.
(3) Kolakouski, L.: op.cit. pp. 159 - 161.

ليس هناك بين المفكرين الماركسيين وقادة الحركة الشيوعية من أكد أكثر، أو حتى مثل ماو تسي تونغ، على دور الجماهير، ومبادرتها، ومقوماتها الخلاّقة، لكن ماو كتب « .يجب أن ننتبه جيداً لمصلحة الجماهير، من مشاكل الأرض والعمل إلى مشاكل الوقود، والأرز، وزيت الطبخ، والملح.. يجب أن نساعدها على الانتقال من هذه الأشياء إلى إدراك الواجبات العليا التي طرحناها.. هذا هو أسلوب القيادة الصحيحة»[1]. هذا يعني أن ماو يعترف أن ما يحرك الجماهير حقاً هو المكاسب الاقتصادية المباشرة، وأنها تحتاج إلى قيادة الإنتليجنسيا المنظمة في حزب ليس فقط لتثقيفها بالتصورات الأيديولوجية الثورية البعيدة المدى ومساعدتها على إدراكها، بل على تحقيق تلك المكاسب ذاتها.

---

(1) Burns, J.M.: op.cit. XI.

الاغتراب

حالة الاغتراب[1] التي يعانيها كثير من المثقفين تعدهم لدور الإنتليجنسيا . مفهوم الاغتراب مفهوم مطاط يجد له، ككل مفهوم فكري مهم آخر، تحديات عديدة. ولكن عند مراجعة هذه التحديدات يمكن أن نجد عنصراً مشتركاً تلتقي عنده، وهو أن هذا المفهوم يشير عادة إلى شعور بحالة نفسية حادة الانفصام عن الوسط أو العالم الخارجي، أو حتى عن الذات نفسها، حالة يشعر فيها المغترب بأنه أصبح كائناً عائماً يطفو على سطح المجتمع من دون جذور أو روابط قوية، وهي حالة يمكن أن تترتب عليها مشاكل أو حتى اضطرابات نفسية وعقلية.

في «حفيد رامو» عبر ديديرو في القرن الثامن عشر عن هذه الظاهرة الجديدة، أو القلق الذي يلازم المثقف العائم. هذه الظاهرة شغلت فيما بعد، في القرن التاسع عشر الفكر الغربي والروسي، (نيتشه في الفلسفة، بودلير، دوستويفسكي في الأدب، كياركيجارد في الدين، ماركس في الفلسفة أو علم الاجتماع). الانشغال بها كان يزداد مع الوقت إلى أن أصبح من أهم مشاغل

---

(1) هناك مفاهيم عديدة في دراسة أسباب الاغتراب السياسي، منها:

أولا، المفهوم الذي يرى أن الفرد المغترب من النظام السياسي يكون أيضا على الارجح مغترباً من المجتمع او الثقافة التي يشكل النظام السياسي جزءاً منها . في هذا المفهوم يفسر الاغتراب السياسي «كاستجابة تعميم» من صعيد معين (المجتمع) الى صعيد آخر (النظام السياسي).

ثانياً، المفهوم الذي يربط بين المكانة الاجتماعية - الاقتصادية وبين الاغتراب السياسي لأن المكانة المنخفضة تقود الى استياءات سياسية.

ثالثاً، المفهوم القائل بأن المكانة الاجتماعية العليا تقترن بالاغتراب لأن الذين يحتلونها يكونون اكثر كفاءة على التحليل واقل امتناعاً عن تقييم المظالم الاجتماعية والسياسية.

رابعاً، المفهوم القائل بأن الذين لا يرتبطون بقوة بالمجتمع، بمؤسساته وتنظيماته يكونون في حالة اغتراب لأنهم لا يملكون الوسائل المنظمة لبلوغ مقاصد سياسية.

هناك مفهوم آخر يرى أن الاغتراب ينتج على الارجح عن التزام اجتماعي غير صادق. فالاغتراب يتحقق ليس فقط عندما يكون الناس غير مرتبطين بقوة بالنظام الاجتماعي السياسي، بل عندما يكون التزامهم من النوع الاضطراري الذي لا يعبر عن حالة نفسية اخلاقية، او من النوع الذي لا يوفر لهم أي شعور بهيمنة حقيقية على القضايا، الاهداف أو السياسة التي يعمل لها .

Schwartz, D: political Alienation and political Behavior, Aldnie, 1973.

هذه المفاهيم المختلفة تدل بوضوح على حالة الانفصام التي أشرنا اليها كسمة أساسية تحدد الاغتراب.

الفكر الأوروبي الحديث. المثقفون عبر التاريخ كانوا ـ ما عدا أعداداً قليلة جداً في أوضاع محدودة ـ لا يعرفون عادة الاغتراب، فمن الشرق الأقصى إلى الشرق الأوسط، ومن اليونان، إلى روما، إلى أوروبا القرون الوسطى، كان هؤلاء يدافعون، في الواقع، عن التقاليد، يخدمون السلطة، بل يتمردون عليها عندما تحاول تغيير النظام. إن الشك والوعي النقدي يتسربان إلى عقول المفكرين والفلاسفة ـ كما كان يحدث دائماً ـ عندما ينحسر ما يمكن تسميته بعصر «الإيمان القَرَوسْطى» ويعطي مكانه للعقلانية والشكوكية.

النتائج السلبية وحتى المَرضية التي يمكن أن تترتب على الاغتراب عديدة، ولكن هناك جوانب إيجابية أخرى يميل الفكر الحديث إلى تجاهلها، وهي أن حالة الاغتراب ضرورية كتمهيد للعمل الثوري لأنها تُعد الإنسان إلى التمرد على النظام الاجتماعي السياسي القائم كسبب لتعاسته النفسية الأخلاقية، وذلك بغية تغييره أو استبداله بنظام آخر يوفر له الخروج من هذه الحالة وتجاوزها. لهذا كانت درجة من الاغتراب ضرورية لهذا العمل الثوري، وبقدر ما تزداد اتساعاً وشدة بقدر ما يزداد احتمال هذا العمل. حالة الاغتراب لا تعني طبعاً وضعية ثورية، مهما كانت هذه الحالة قوية وواسعة الانتشار، ولكنها تشكل جزءاً مهماً من هذه الوضعية، جزءاً لا يمكن دونه ظهورها أو تبلورها عملاً ثورياً. الإنتليجنسيا كانت تعكس هذا الاغتراب في حركة تجاوزه لذاته، فتعبر بالتالي عن هذا الجانب الإيجابي فيه، إن طبيعة الاغتراب نفسها كحالة انفصام بين الإنسان والوسط الخارجي تفرض الإنتليجنسيا كأداة لهذا الاغتراب لأنها تعاني هذا الانفصام أكثر من أية جماعة أخرى، وذلك بسبب الوعي الذي يميزها. النقطة الأساسية هنا هي أن اغتراب الإنتليجنسيا ليس فقط حالة طبيعية تميزها كنتيجة ضرورية للبحث عن الحقيقة أو عن تصورات أيديولوجية جديدة، بل لأن الموقف النقدي أو السلبي من المجتمع أو بالأحرى من النظام الاجتماعي السياسي الذي تعيش فيه يكون ضرورياً للخلق الفكري، للفكر المُبدع. إن إنسان الإنتليجنسيا النموذجي يفكر لأن التفكير يعني بالنسبة له إحدى الوسائل في التغلب على تمزق ذاته، وهو يُسكت هذا التمزق في كتابات تقدم ذاتها كوحدة، وتعبر عن هوية ثورية يجد فيها مخرجاً منه. بدون هذه الهوية التي تعبر عنها كتاباته أو التزامه الثوري يستمر المغترب في حالة الانفصام التي تميزه كمغترب، أي كفرد خسر حسه بالماضي، ودونما رابطة بالمستقبل، فريسة للحاضر، إنه شخص يبدو آنذاك في سرعة مسعورة لأنه على الأرجح لا يعرف أين يتجه، ومشلولاً بالخوف أو القلق لأنه لا يعرف ما يخيفه أو يقلقه. هذا ينعكس في حياته السياسية التي تمتد من الشلل إلى اللامبالاة طالما أنه لا يتوقف إلى الحل الثوري أو طالما أن هذا الحل لا يتوفر له كمخرج. لهذا كان تحول المثقف المغترب إلى جزء من الإنتليجنسيا يمثل انتقالاً طبيعياً بالنسبة له.

حالة الاغتراب تفترض إذن أن يكون المثقف مغترباً بالنسبة إلى شيء أو وضع ما. حتى عندما لا يكون هذا واضحاً، فإن العبارة نفسها تشير إلى سياق انحراف عن وضع يُعتبر عادياً أو رفض لحالة قائمة. هذا يعني بدوره «احتمال» رجوع الرفض إلى حالة «مثالية»، أي حالة يتجاوز بها الرفض الحالة القائمة، ويرى من الضروري الاتجاه إليها وتحقيقها. المثقفون الذين يحققون هذا «الاحتمال» ويحولونه إلى واقعة يشكلون الإنتليجنسيا. عندما يتكامل الاغتراب كحالة انفصام

عن المجتمع أو النظام الاجتماعي السياسي القائم ككل، فإنه يدفع إلى ظهور إنتليجنسيا يفترض وجودها بعض الفرضيات الأساسية التي تنطلق منها.

هذا الوجود يفترض، أولاً، بشكل ضمني أو صريح مفهوماً أنتروبولوجياً - فلسفياً حول الطبيعة الإنسانية نفسها، يحدد هذه الطبيعة وما يترتب عليها من سلوك وأعمال، ما تفترضه من نظام (System) أخلاقي يرتبط به الإنسان أو يجب عليه الارتباط به كي يعبر عن إنسانيته نفسها أو بالأحرى كي يجد هذه الإنسانية. وهو يفترض، ثانياً، نظرية حول طبيعة المجتمع، والنظام الاجتماعي القائم الذي يرفضه باسم ذلك المفهوم الأنتروبولوجي - الفلسفي. إنه يقترن، بكلمة أخرى، بنظرية اجتماعية حول المجتمع والفرد، وليس فقط بنظرية أنتروبولوجية - فلسفية. تكامل حالة الاغتراب في الإنتليجنسيا يقترن أيضاً بنظرية اخرى حول علاقة الفرد بالمجتمع في مرحلة تاريخية معينة تحدد التناقضات والانحرافات التي يجب معالجتها كي يجد الفرد إنسانيته فلا يُسلب منها، ويوفق إلى نظام اجتماعي يعبر عنها في ضوء النظرية التي يقدمها حول طبيعة المجتمع نفسه. إنه يعني، بكلمة أخرى، حلاً يقدمه للتناقضات والانحرافات التي تتكشف له نتيجة التصورين الأولين، عن الإنسان، وعن المجتمع الذي يعيش فيه. الإنسان يجب أن لا يخضع لقوى اجتماعية وتاريخية وأيديولوجية تتناقض مع تصوره لذاته وللمجتمع الذي يعيش فيه، والمشكلة التي تطرح ذاتها عليه هي، هل يخضع لقوى كان هو مسؤولاً عنها، أم هل يكون قادراً على سيادة هذه القوى؟.. هذا النوع من الخضوع والوعي به ولضرورة التغلب عليه يشكلان محور حالة الاغتراب الذي يفرز الإنتليجنسيا.

هذا الاستعداد الاغترابي عند المثقفين الذين تتكون منهم الإنتليجنسيا يتفرع من ثقافتهم الخاصة التي تميزهم، وذلك لأن عملهم لا ينشغل بمشاغل الحياة اليومية المباشرة، بل يهتم بمشاكل بعيدة المدى، بقيم نهائية، ويميل إلى التطلع وراء التجربة الحسية وتجاوزها إلى عالم آخر أوسع يحدد في ضوئه معنى هذه التجربة نفسها. إنه عمل ينطلق من مفاهيم وتصورات عامة حول المجتمع والمرحلة التاريخية التي يمر فيها، هذا إن لم نقل حول حركة التاريخ ككل والقوانين التي تحددها، ويعمل تبعاً لقواعد ونماذج سلوكية عامة، وذلك على نقيض الجماعات الأخرى التي تنطلق من مقاصد ومشاغل مباشرة وتعمل في ضوء ارتباطات وولاءات ذات طبيعة شخصية. إنه عمل ينشغل بما يمكن أو يجب أن يكون، ويحقق درجة أعلى من الوعي للاختيارات والاحتمالات الممكنة التي تدفع بوجودها إلى تجاوز الحالة القائمة. هذا التعديل لما هو كائن يشكل، في الواقع، ظاهرة متأصلة في المجتمعات التاريخية. «إن عملية التوسيع والتطوير لإمكانات نظام القيم الثقافية الموروثة تفترض أيضاً رفض هذه القيم.. في جميع المجتمعات، حتى تلك التي يتميز فيها المفكرون بمواقفهم المحافظة، نجد أن تعدد طرق الخلق وكذلك أيضاً الميل الحتمي إلى الشك بما يقوله الآخرون، يقودان إلى رفض جزئي لنظام القيم الثقافية السائدة»(1).

هذا لا يعني أن المثقف يرغب في تجاوز حالة الاغتراب. فهناك كثيرون يرون، في الواقع،

(1) Goul dner, A, op.cit, p. 32.

أن الاغتراب يجب أن يكون حالة عادية له. «ما يخافه المفكر أكثر من أي شيء آخر ليس الرفض أو العداء اللذين تعود عليهما وأصبح يرى فيهما قدره الخاص، ولكن خسارة حالة الاغتراب. كثيرون يشعرون أن الاغتراب هو الموقف المشرف والملائم الوحيد الذي يجب عليهم اتخاذه. ما يُثير خوف الكثيرين من هؤلاء المفكرين الشباب هو أن الاعتراف المتزايد بهم والاحتواء المستمر لهم واستخدامهم، سيجعلهم منسجمين مع النظام القائم فلا يعود بإمكانهم أن يكونوا خلاّقين، ونقديين، أو نافعين حقاً»[1]. هذا الاغتراب هو قدر الإنتليجنسيا طالما أن التصور أو الحل الثوري، الذي يشكل قاعدة تتجمع حولها في مقاومة النظام القائم، يظل مشروعاً للمستقبل. إنها تخسره، وبالتالي تخسر ذاتها كإنتليجنسيا، فقط عندما تنجح في الاستيلاء على السلطة، فتصبح جزءاً منها وأداة لها، وتحول التصور أو الحل إلى واقعة تمارسها، وإلى جزء من أجهزة ومؤسسات تشرف عليها. إن قول أحد أبطال أندريه مالرو، في قصة «الفاتحون»، «إنني مع الثورة طالما أن الثورة غير ناجحة ولكنني أصبح ضدها عندما تنجح» يعطي صورة واضحة عن التناقض الذي نشير إليه.

إن أهم تماثل يجمع بين مختلف الإنتليجنسيات هو عزلتها في المجتمع أو اغترابها. إن الشرط الضروري والكافي لظهور إنتليجنسيا، بصرف النظر عن خلفيتها الثقافية، ومهما كانت أوضاع التطور الاقتصادي، يتمثل في هذا الاغتراب[2]. الإنتليجنسيا تتشكل من مثقفين مغتربين. المجموعة الصغيرة من المفكرين الذين حركوا المعسكر الاجتماعي الثوري تجاه الشيوعية كانت تتميز بميزة أساسية: الاغتراب[3]. هذا ينطبق على كل مجموعة أخرى حركت أيّ قوى ثورية تجاه ثورة جذرية.



هناك مفهوم ينبه بأن الاغتراب السياسي ينتج عن الاستياء من العمل الذي نقوم به، ويرى أن هذا ينطبق على المثقفين أكثر مما ينطبق على العمال. بما أن العمل المنظم اندمج كقوى شرعية وقوية في المجتمع الصناعي المتقدم وأنظمة هذا المجتمع السياسية، فإنه أخذ يرتبط بشكل متزايد بهذه الأنظمة أو بالوضع الراهن، وأخذ يتميز بوجهة إصلاحية محدودة، لكن بدون أي اغتراب سياسي. لهذا لم يكن من الغريب تحول طبقات العمال في الغرب ليس فقط عن الثورة، بل إلى الثورة ـ المضادة. هذه واقعة اعترف بها مفكرون من اتجاهات تقدمية مختلفة. إن أحد هؤلاء كتب «إن كنت تريد الثورة، انس العمال. إنهم ينشغلون بشرب البيرة، بقيادة سيارات رامليرز، وهم في تخمة من الثروة، إن عمال العقل هم العمال الوحيدون الذين يستطيعون تحقيق الثورة»[4].

إن الرفاهية التي تحققت بعد الحرب العالمية الثانية خلقت ارتياحاً نسبياً عاماً في طبقات العمال، لكنها خلقت الاغتراب بين المثقفين. «إن مفهوم الاغتراب في عصرنا يرتبط بفكرة

(1) Hofstadter, Richard: Anti - intellectualism in American Life, Alfred Knopf, 1963, p. 393.
(2) Feuer, L.: op.cit. pp. 87 - 86.
(3) Billington, J.: op.cit. p. 274.
(4) Pfeiffer, Jules, In Schwartz, D.: op.cit. p. 84.

الإنسان المحروم من المبادرة الخاصة، ومن الشخصية أكثر مما يرتبط بالفقر، لأن هذا الإنسان أصبح فريسة تحكم آليات بيروقراطية أو تجارية لا مخرج منها، تفرض عليه الغفلية (Anonymet)، كما تفرض عليه حركية ليس مسؤولاً عنها. إنه يعني أن الإنسان أصبح مسحوقاً بالبنى الاجتماعية»[1]. إن شغف المثقف المعاصر في الغرب بمفهوم الاغتراب لا يرتبط إلا قليلاً بنماذج الاغتراب التي تقترن بالبروليتاريا، والجماهير، والطبقة، والاستثمار.. إن الشعور الذي كان يغذي رسالته من هذه المصادر زال تقريباً فيما يسمى «بمجتمع الرفاهية» الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأخيرة. وتمزُّق التحالف السابق مع العمال، تركه، على الأقل لمدة ما، بدون ذلك الشعور بالمساندة الذي كان ينتج عن اقتران عمله بقوة اجتماعية كبيرة، ويعطي معنى لجهوده. «إن عبارات كالتالية: «حياة دون معنى»، «العجز»، غياب القيم المعيارية» التي تستخدم في وصف أبعاد الاغتراب تتميز بتطبيق خاص على تجربة المثقف المعاصر، فالأولى تمثل فقدان قصد اجتماعي، والثانية تعكس وصف المثقف لذاته: ليس لدينا طبقة اجتماعية نعمل معها، والثالثة تدل على زوال الأخلاقية الاشتراكية والاعتراف بأن كل شيء أصبح قضية وصولية مهنية»[2]. بعض المفكرين رأوا أن اغتراب المثقفين كان أساسياً اغتراباً سياسياً يعود إلى بُعدهم، أو إبعادهم، عن ممارسة السلطة السياسية. «إن كبح إرادتهم في ممارسة السلطة كان أعمق مصدر لا واعٍ لاغتراب المثقفين، وهو اغتراب تحالف مع حوافز الغيرية ونكران الذات فيهم.. كتب وبحوث عديدة كُتبت في تفسير الاغتراب، ولكن الواقعة البسيطة كانت حاجة المثقفين إلى عبارة غامضة تصف حالة القلق التي يعانونها لأنهم لم يهتموا أبداً بتحليل عناصره في ذاتهم، إنهم كانوا، كنخبة، في حالة اغتراب لأنهم شعروا بأن من حقهم أن يحكموا، وبأن يحلوا محل نخبة رجال الأعمال والنخبة القانونية والنخبة العسكرية، وحتى النخبة المختارة ديمقراطياً، إن عمل التاريخ بدا كرفض لمؤهلاتهم»[3].

الدراسات التي ظهرت حول الاغتراب كشفت أيضاً أن هذه الظاهرة تمتد إلى الطبقات العليا أكثر بكثير مما نجده بين طبقات العمال. «أفراد الطبقة العليا والطبقة المتوسطة. العليا يتجهون على الأرجح إلى التعبير عن اغترابهم بسلوك إصلاحي نشيط، أو حتى ثوري، لأنهم يملكون الموارد والحصانة السيكولوجية والاقتصادية النسبية التي تساعد على اتخاذ هذا السلوك، ولأنهم من ناحية أخرى، تمثلوا بشكل عام قيم واجب المواطن ومشاركته مما يجعل العمل السياسي خياراً ملائماً. من ناحية أخرى، إن ظاهرة عدم المشاركة السياسية، أو المقاومة الساكنة، أو الانسحاب من الحياة السياسية، تشكل الرد الكلاسيكي على الاغتراب والظلم من قبل الفقراء، الضعفاء، الأقل تعليماً. الناس يميلون عادة إلى تحمل الشرور طالما أنه من الممكن تحملها.. من الطبيعي القول إن البعض يكونون أكثر استعداداً لصنع هذا من آخرين، ولكن الواقع يدل بوضوح أن الفقراء كانوا دائماً يتعرضون لشرور أكبر يتحملونها، وأنهم لا يملكون الموارد المادية والنفسية لتصحيح الشرور التي لا يمكن تحملها.. إن شعور الفرد بدرجة حصانته

(1) Garaudy, R.: Peut - on être Communiste Aujourd'hui? Editions Grasset, 1968, p. 234.
(2) Feuer, Lewis: Marx and the intellectuals, Anchor Books, 1969, pp. 96 - 97.
(3) Ibid, p. 2.

يمثل أحد العناصر الأساسية التي تساعد في تفسير الاتجاهات السياسية الأساسية التي يتخذها. فالناس الذين يشعرون بأن مركزهم الاقتصادي الاجتماعي قوي ومستقر إلى درجة تحصنهم ضد انعكاسات تنتج عن الصراع السياسي يكونون عادة أكثر استعداداً لتبني مواقف أو اتجاهات سياسية أكثر نشاطاً»[1].

العمال ينشغلون بشكل خاص بالقضايا الحسية التي ترتبط بالعمل والسيطرة على أجهزته، ولا يهتمون بالجانب الأكثر تجريداً في عجز العامل، أو مشكلة معرفة من يملك وسائل الإنتاج، وبالتالي يمارس سلطته عليهم. إن الماركسية ترى في ملكية وسائل الإنتاج الخاصة السمة الأساسية للرأسمالية، والتي يترتب عليها، كنتيجة حتمية، اغتراب العامل العام تجاه المجتمع. ولكن هذا الاغتراب لم يحدث. العمال اكتفوا بالمطالبة باستقرار الوظيفة والمعاشات العادلة. إن اغتراب العامل قد يتأثر، في الواقع، بشكل لا واعٍ يكون العمال لا يملكون وسائل الإنتاج، وهذا قد يترجم ذاته بشعور بالعجز[2]. إن ماركس وجد أن البروليتاري هو، في الواقع، فريسة لأكبر درجة من الاغتراب ولهذا فهو يتجنب العمل ويجد ملجأ له في إشباع الحاجات الحيوانية. إن تفوقه على البورجوازي يتمثل بشعوره بغربته. إن هو رفض تاريخياً اغترابه فذلك يرجع دائماً إلى مبادرة المفكرين البورجوازيين الأقل اغتراباً، الذين يدلونه على الطريق إلى التحرر. ولكن ما حدث هو، أولاً، أن أكبر أشكال الاغتراب وأكثرها عمقاً وحدة كانت ميزة هؤلاء المفكرين، وثانياً، أن المثقفين هم الذين كانوا طليعة العمل الثوري وأداته الأولى، وأن العمال خسروا حتى الاستعداد للسير في طريق التحرر الذي توقعه ماركس لهم. ما حدث كان على العكس، إن «انفصال البروليتاريا» الذي أشار إليه ماركس لم يتحقق، ولكن انفصال «الإنتليجنسيا» هو الذي تحقق.

هذا الانفصال حدث كتعبير سياسي عن الاغتراب وليس عن الاستثمار، كتعبير عن المفهوم الذي انتقلت إليه وتركزت عليه كتابات ماركس وأنجلز بعد طور أول، الطور الطوباوي أو المثالي الذي تكلما فيه عن الاغتراب. في ذلك الطور، طور ما يمكن تسميته «بالاشتراكية المثالية» كان ماركس كما أشار بعض المفكرين يتطلع إلى المثقفين، وليس إلى العمال، كحملة للتجديد الاشتراكي الكبير، ولكن عندما بدأ ماركس وأنجلز بالنظر إلى العمال كطبقة تاريخية نقلا التوكيد إلى الاستثمار بدلاً من الاغتراب، وجعلا مبدأ الصراع الطبقي المبدأ الرئيسي في نظريتهما الاجتماعية السياسية. الماركسيون ابتدأوا بالرجوع إلى مفهوم الاغتراب، وبشكل متزايد، ابتداء من الثلاثينات. اليسار الجديد كان ينطلق من هذا المفهوم، وظهر في مجتمع «الرفاهية» حيث أصبح العمال جماعات مصلحية يقبلون النظام القائم ويشكلون بنقاباتهم وقياداتهم جزءاً منه.

الإنتليجنسيا التي تعبر عن اغترابها كجزء من جماعة منظمة تكون أكثر تطرفاً، أكثر ثورية من مثقفين يعبرون عن اغترابهم خارج جماعة من هذا النوع، وذلك بسبب دور الجماعة القوي للارتباط والتفاعل، لهذا كانت الإنتليجنسيا تنتهي عادة بالانتماء إلى حزب ثوري ينقلها من

(1) Schwartz, D.: op.cit. pp. 157 - 159.
(2) Israel, Joachim: L'aliénation de Marx à la sociologie contemporaine, editions anthropos, 1972, p. 356.

الاغتراب إلى الثورة. الاغتراب يتقدم انشغال الإنتليجنسيا بالحزب، وهو التزام يتزايد في مجرى الصراعات السياسية المتزايدة شدة. النتيجة التي تترتب على هذا الالتزام وصراعاته المتراكمة هي أنه يصبح من الصعب على أفراد هذه الإنتليجنسيا بأن ترجع ثانية إلى مهن أو حياة عادية، ولهذا فإن مستقبلها يرتبط بشكل متزايد بالصراع ضد الواقع القائم. إن أحد أدوار الحزب الرئيسية يقوم في خلق التماسك القوي الذي يجعل من الممكن للإنتليجنسيا أن تتغلب على القلق الذي تثيره مجابهتها الحادة والخطيرة مع السلطات القائمة، وعزلتها عن أشكال الحياة العادية.

كل وضع اجتماعي يستند إلى نسيج من المعاني والتصورات الأيديولوجية التي تشارك فيها بشكل عام القوى والعناصر الاجتماعية التي يتشكل منها. من الواضح، طبعاً، أنه عندما تستند هذه المعاني والتصورات على تقليد مستقر وموافقة جماعية، يصبح المثقف عاجزاً عن الدعوة إلى معانٍ وتصورات أخرى من النوع الذي يمكن أن يجد صدى أو استجابة مهمة. إنه يستطيع على الأكثر تحقيق اغتراب شخصي هامشي فقط. هذا الاغتراب الهامشي قد يدل بأن المعاني والتصورات المشتركة ليست كلية القدرة في فرض ذاتها، ولكنه لا يفرز الإنتليجنسيا التي يعني وجودها درجة مهمة نسبياً من الاستجابة للمعاني والتصورات الجديدة التي تدعو إليها. في وضع كهذا يحاول المثقف المغترب هجرة وضعه وتوجيه التزامه الثوري إلى وضع آخر يجد فيه هوية يحتاج إليها هذا الاغتراب. هذا ما حدث ابتداء من الخمسينات لقطاعات مغتربة من المثقفين في الغرب، الذين اتجهت مشاعرهم وأفكارهم إلى ثورات العالم الثالث تجد فيها أداة في التعبير عن ذاتها(1).

لهذا كان ظهور الإنتليجنسيا كقوة تاريخية يعني أوضاعاً ثورية كالتي مرت فيها أوروبا من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين، والتي أخذت تمر فيها بلدان العالم الثالث بشكل خاص بعد الحرب العالمية الأخيرة.

المعرفة العقلانية الحديثة ابتدأت منذ ذلك القرن بتهديم قواعد التقاليد والعادات والمعتقدات الغيبية، وبخلق فراغ رهيب في أنفس المثقفين الذين لم يستطيعوا «المصالحة» بين تصوراتهم العقلانية وبين هذه الأخيرة. وعددهم كان يتزايد مع الوقت. كانوا يفتشون باستمرار عن بديل يعالج هذا الفراغ ويقدم إجابات جاهزة على تساؤلاتهم المريرة. الإنتليجنسيا كانت توفر، بالمذاهب والنظريات الثورية التي كانت تصوغها، هذا البديل. الاغتراب يعني أساسياً خسارة «وحدة» الشخصية كنتيجة لتحولات اجتماعية أيديولوجية تاريخية، لهذا لم يكن من الغريب

(1) إن البحث عن الهوية أو الرجولة عن طريق حرب العصابات كان موضوعيا متكررا في أوساط المثقفين بين الحربين العالميتين. تحول لورانس أوف أرابيا الى معبود المثقفين الانكليز الشباب يوفر مثلا واضحا. هنا نجد رجل كتب يندمج بعرب الصحراء، يهاجم خطوط مواصلات العدو، يحيا حياة بدائية في الخيمة وعلى ظهر الجمل، يعترف بوحدة رفاق السلاح، ويكتب البحث الحاسم حول حرب العصابات للإنسكلوبيديا البريطانية. ما كان يمثله لورانس، بتصوره الصوفي والكفاحي، لحرب العصابات بالنسبة لشباب الطبقات الوسطى المغترب في العشرينات والثلاثينيات، تحول الى شي غيفارا، مناضل حرب العصابات في كوبا وبوليفيا، بالنسبة الى شباب الستينات. ان لورانس لم يكن قادراً على تكييف ذاته مع المجتمع العادي الممل وكان عليه ان يعيش في عبادة للموت. شي غيفارا لم يكن قادراً هو الآخر على مساوقة التركيب البيروقراطي للمجتمع الاشتراكي في كوبا، وكان عليه ان يتطلع الى جبال بوليفيا في تلمس للموت.
Feuer, L.: op.cit. pp. 222 - 223.

بأن يكون مفهوم «الاغتراب» المفهوم الأكثر انتشاراً واستمرارية بين المفاهيم الفكرية الحديثة ـ البعض يقول المفاهيم الميتافيزيقية . لأنه يعني بالضبط خسارة هوية كهذه ومحاولات مستمرة في خلقها من جديد في مذاهب وأنظمة جديدة. لهذا كانت رغبة المثقف المغترب الأساسية تتجه أولاً إلى أيديولوجية، وإلى فلسفة حياة جديدة، توحد «بينه وبين التاريخ»، وتعطي معنى لوضعه الإنساني، وثانياً، إلى حركة، أو بالأحرى إلى حزب يوفر له الانتماء الجماعي العضوي و«الحرارة» الإنسانية التي يولدها هذا الانتماء وخصوصاً كأداة وسيطة مع الجماهير.

إن سمة المثقف المغترب الأساسية هي الخوف الرهيب من عزلته النفسية الأخلاقية، من التفكير لذاته ولوحده، أي من الفكر العقيم الذي يدور في عالم خاص دون تفاعل مع الواقع الموضوعي ويجعل من الممكن له التأثير في هذا الواقع، هذا إن لم نقل إعادة تكوينه بشكل جديد. الحركة الثورية، وخصوصاً عندما ينظمها ويقودها حزب ثوري يعبر عن فلسفة حياة جديدة، توفر له المخرج من تلك العزلة، من ذلك العقم أو العجز الذي يشعر به، وتلبي حاجته إلى الاندماج ثانية مع الشعب والتاريخ. الإنتليجنسيا كانت تجد دورها الأساسي في توفير هذا المخرج لهذا النوع من المثقفين المغتربين.

«إن أكبر العباقرة الروس، حتى عندما كانوا في قمة حياتهم الروحية وقواهم الإبداعية، كانوا كما يكتب دوستويفسكي، «غير قادرين على تحمل هذه القمم العالية وحرية الفكر الكبيرة، إنهم كانوا خائفين من العزلة، وقذفوا بأنفسهم إلى تحت، في الأمكنة المسطحة من حياة الشعب، وهم يأملون من ذلك بلوغ حقيقة أعلى»[1].

في كلامه عن مثقف الإنتليجنسيا، يكتب سالومون، أحد مفكري الإنتليجنسيا الألمانية، بأن الذين خسروا جذورهم تماماً أو كل تعاطف مع زمانهم، هم الذين يعتقدون بأنهم اكتشفوا طريقة ما في وضع نهاية للفوضى في التاريخ كله ـ طريقة تشكل، في الواقع، انعكاساً ضخماً لشخصياتهم ذاتها في الصعيد الاجتماعي. هنا يكفي القول إن رجلاً كهذا أو فوضوياً فقط مثل أوغست كونت، كان يستطيع بناء المشروع الفكري الأكثر كليانية وتنظيماً في تاريخ الغرب حتى ذلك الوقت[2].

مشكلة المثقفين في مراحل انتقالية كهذه ليست فقط مشكلة تطلعات مهنية مخذولة وحركية اجتماعية مسدودة في إطار نظام قديم عاجز عن استيعابهم، بل هي أيضاً وبشكل خاص شعور بابتعاد باطني عن تراث ثقافي، مما لا يجعل العالم فقط من حولهم بل كينونتهم ذاتها في فراغ، كينونة باردة دون حياة. هذا القلق النفسي يجد أساساً اجتماعياً له في وضع عالمي حديث يدمر في كل مكان التقاليد الممتدة الجذور والمؤسسات التي تعبر عنها. انهيار المعتقدات التي كانت تضفي الشرعية والوحدة على هذه التقاليد والمؤسسات تركت البنى الاجتماعية التي كانت تضفي عليها الشرعية والوحدة دون معنى. الصراع الثوري بغية تجديد هذه البنى وما يقترن بها

(1) Dostoevesky, Feodor: The Diary of A Writer Vol. II, Scribener's Sons, 1949, pp. 959 - 964, 989 - 990.

(2) Salomon, Albert: The Messianic Bohemians & Huszar, George editor: The Intellectuals, The Free press, 1960, p. 24.

من معتقدات وقيم وسيطرة سياسية يخلق الأوضاع الموضوعية التي تدفع المثقفين، أو بالأحرى قطاعات كبيرة منهم إلى تحرير أنفسهم ليس فقط من الولاءات والانتماءات التقليدية، بل مما قد يترتب على عملهم كمثقفين من «فردية»، «أنانية» أو ذبذبة. هذا يعني ولادة هؤلاء المثقفين كإنتليجنسيا. القوى التاريخية الجديدة التي تفرض هذه المراحل الانتقالية وما يترتب عليها من تحديث تولّد مطامح وتوقعات شديدة تستقطب الناس إلى السياسة لأنها لا تجد تحقيقاً لها في البنى والمؤسسات التقليدية[1]. هذا التناقض يعني عدم الاستقرار السياسي والعنف الثوري، وهذا يعني بدوره الإنتليجنسيا التي تستمر في دورها إلى أن تنتهي أساسياً عملية التحديث، فيتحول التحديث (Modernization) إلى حداثة (Modernity)، وهو تحول يعني ظهور «بيروقراطية» حاكمة تحل محل الإنتليجنسيا المناضلة.

(1) «انهيار المؤسسات التقليدية يقود الى التفسخ السيكولوجي والفراغ المعياري (Anomie)، ولكن هذه الأوضاع نفسها تخلق أيضا الحاجة الى هوية وولاءات جديدة يمكن ان تتخذ كنموذج لها جماعة جديدة كانت موجودة بشكل ضمني او بشكل فعلي، وظهرت في مجرى عملية التحديث»*. هذه الجماعة هي الانتليجنسيا.

* Huntington, s: political order in changing societies, yale university press, 1970, p. 37.

عقدة هاملت

إن هاملت، أكثر أبطال شكسبير فكراً وتفكيراً، يكتئب ويطيل التفكير أمام مختلف المشاكل التي تواجهه - ما عدا مشكلة الله وخلاص روحه الخالدة، ولكنه لا يتجه أبداً إلى المسيح، ولا يبحث أبداً عن التعزية أو الطمأنينة التي تنتج عن الإيمان. إنه يذكر في إبلاله ألوهية توجه غاياتنا ولكن دون تسمية هذه الألوهية أو تحديد الغايات، ثم يذهب إلى موته دون أن يعبر عن مخاوف أو آمال مسيحية.. هذه الشكوكية التي تميز هاملت لم تكن تعبيراً عن «الكفر». فوراء تراجيديا شكسبير يكمن الإيمان القروسطي بنظام طبيعي، اجتماعي، وسياسي شامل. هذا النظام كان لا يزال يتميز، بالنسبة لشكسبير، بمعنى أخلاقي ما، هذا إن لم يكن إلهياً. إنه في ظاهره نظام سري، ليس عقلانياً أو عادلاً، يفرز الخير والشر. الشر الإنساني كان انتهاكاً لهذا النظام، وشكسبير كان منشغلاً جداً به. إنه شر كان يُشجب باستمرار عبر عصر النهضة، وإليه كان يرجع ألم هاملت وشكوكيته، ولكن هاملت كان لا يستطيع الوقوف عند الخيبة من هذا العالم لأنه لا يزال عالماً ينطوي على إمكانات ممتازة، إنه كان يمثل، كأكثر أبطال شكسبير فردية، وتعقيداً، وتفكيراً وشكوكية، الوعي الذاتي الكامل في النهضة. إنه إنسان مونتانيه، ولكنه أكثر عاطفية.

المثقف أو بالأحرى مثقف الإنتليجنسيا يقاسي أحياناً كثيرة من هذه العقدة التي أسميناها بعقدة هاملت، إنه يشعر غالباً بأن الفكر أضعفه وجرده من القدرة على الإرادة الفعالة أو العمل كنتيجة للتساؤلات والشكوكية، وعلامات الاستفهام التي يثيرها هذا الفكر باستمرار. لهذا فهو يحاول استرجاع إرادته وقدرته على العمل عن طريق الالتزام بقضية ثورية، الالتزام الذي يدخل به آنذاك صفوف الإنتليجنسيا. كثيرون من المثقفين الذين يعانون تناقضات من هذا النوع يجدون مخرجاً من الضغوط والتوترات التي تترتب عليها بالانسحاب من الحياة السياسية إلى عالم اللامبالاة، ولكن كثيرين أيضاً يجدون هذا المخرج في التزام قوي لا يلجأ إليه عادة، على الأقل بالقوة نفسها، الذين لا يواجهون هذه الضغوط والتوترات أو الحاجة إلى التغلب عليها.

عندما انفصل جول شيفاليه عن أونفانتين، خليفة سان سيمون في قيادة الحركة السان سيمونية في القرن التاسع عشر، كتب: «إنني لا أستطيع، فيما يتعلق بالنظريات الأخلاقية

الجديدة ومشاكل المذهب التي تفصل بيني وبين الأب أونفانتين، أن أفسر موقفي بوضوح بعد، وذلك لأنني أشك.. إنني أشك حتى في سان سيمون. إنني أشك في الذين يسيرون في خطاه. إنني بكلمة أشك في كل شيء. إنني أصبحت فيلسوفاً من جديد.. إنني أجد نفسي مرة أخرى وحيداً في العالم». الإنتليجنسيا لا تقف عند هذا الشك، بل تتجاوزه، أو بالأحرى تعالجه بالالتزام.

كل عصر، كل مرحلة تاريخية تميل إلى التميز بخيارات مهمة خاصة بها تواجه المثقف. ولكن الخيار المتناقض الذي يواجه هذا المثقف في المراحل الثورية وجد على الأرجح أحسن تعبير عنه في عنوان بحث لتورجينيف كان «هاملت ودون كيخوته»، كتبه عند ولادة الإنتليجنسيا الروسية في القرن التاسع عشر. إن هاملت، في رفضه، موقفه السلبي، شكه الهدام، والعقل الذي يرتد على ذاته، كان يمثل هاملت أو القطب الانتحاري في شخصية المثقف، بينما كان دون كيخوته يمثل . في إخلاصه غير المتشكك بمثال يلتزم به، في استعداده للنضال في سبيل المظلومين، ومقاومة جميع الأنظمة في سبيل ذلك . عنصر الإنقاذ والخلاص، والرجوع إلى الشعب. المثقف الروسي كان، مثل خلفائه فيما بعد، يتأرجح بين هذين الميلين الأساسيين. إن إنسان الإنتليجنسيا الروسية كان، نتيجة رفض الشعب له في تلك المرحلة الثورية الأولى، يجد غالباً في العمل الإرهابي نوعاً من التركيب أو الحل، لأنه كان يستطيع به الهجوم على مؤسسة اجتماعية أو سياسية بطريقة شخصية، ويقذف ضدها كل مشاعر التمرد والثورة فيه، والتي كانت تهدده هو نفسه. دون كيخوته أصبح بالتالي إرهابياً . عندما فشلت تجربته في الإرهاب كانت مشاعره ترتد ضده. في عمله الأخير هاملت كان يهدم ذاته، ولكن تورجينيف كان يعتقد أن عدم وجود الـ «دون كيخوته» يعني أن كتاب التاريخ يكون مقفلاً[1].

هنا يمكن الإضافة أن هذا العمل الإرهابي الذي أشار إليه تورجينيف كنهاية الطريق، كما قد يوحي بحثه، تحول بعد ذلك إلى عمل ثوري عندما أصبح الوضع الاجتماعي التاريخي منفتحاً أو مختمراً له، وأن قصة الخيار الذي طرحه كانت غير كاملة لأنها أغفلت ظهور هذا الوضع الذي يقود عاجلاً أو آجلاً إلى وضعية ثورية تسمح آنذاك لإنسان الإنتليجنسيا بتجاوز ذاته وإعادة صياغتها في نظام جديد يخلقه، وأن ليس عليه بالتالي أن يرتد إلى «هاملت» ويدمر نفسه، أو أن يستمر كـ «دون كيخوته» أو دون فاعلية. فهو يستطيع أن ينتقل من «هاملت» أو «دون كيخوته» إلى العمل الثوري الذي يغير وجه التاريخ.

---

(1) Yarmolinsky, A.: Turgeneve, The Man, His Art, and His Age, Collier Books, 1961, pp. 173 - 174.

الإنتليجنسيا الدنيا

إننا لا نستطيع أن ندرك تماماً دور وطبيعة الإنتليجنسيا دون أن ندرك طبيعة ودور القطاعات الدنيا فيها، التي تشكل قسماً كبيراً، أو بالأحرى القسم الأكبر منها. إن تجارب التاريخ الفكرية الثورية بشكل خاص، وتاريخ الفكر بشكل عام، تكشف أن الفكر الثوري الخلاق. كل فكر خلاق. كان دائماً محدوداً على عدد قليل، وقليل جداً نسبياً. الذين يطمحون إلى هذا النوع من الفكر فيعجزون، والذين لا يستطيعون الإسهام فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، يفرزون هذه القطاعات الدنيا التي لا تعرف حدودها الفكرية أو تعترف بقصورها الفكري، لا تُقدر أو تعرف كيف تقدر في كثير من الأحيان الفكر الكبير عند ظهوره، وتحاول التعويض عن هذا النقص الفكري فيها بالمواقف الديماغوجية والمزايدات الشعائرية، والضغوط النفسية والسياسية على الآخرين، ومنهم العدد المحدود الذي يمثل الفكر الجدي أو الخلاق في الإنتليجنسيا.

الانتباه إلى هذه الظاهرة ليس جديداً بل رافق، في الواقع، ظهور الإنتليجنسيا الحديثة، والمفكرون الذين أشاروا إليها قبل أن تصبح بارزة كما هي حالياً أو كما أصبحت في القرن العشرين، كانوا كثيرين. في بداية القرن العشرين مثلاً، كتب ماكيندر، أحد المفكرين البريطانيين « ..إن أنصاف. المثقفين يكونون في وضع ينفتحون فيه لجميع المؤثرات، والعالم حالياً يتشكل أساسياً منهم. هؤلاء يكونون قادرين على إدراك بعض الأفكار، ولكنهم لم يحققوا القدرة على امتحانها أو التحقق منها وتجميد أحكامهم أثناء ذلك»[1]. في أواسط القرن التاسع عشر كتب أحد المفكرين الكبار، «ليس هناك من شيء أكيد بالنسبة للمؤرخ النبيه أكثر من كون الأكثرية الكبرى، حتى بين الذين يفكرون كثيراً حول أفكارهم، تصل إلى استنتاجاتهم عن طريق سياق يختلف تماماً عن التفكير العقلاني. هؤلاء قد يكونون دون وعي لذلك، ولكن التصورات القديمة تهيمن عليهم، وفي الأكثرية الساحقة من الحالات نجد أن ذوي المذاهب المختلفة يخلصون من بحوثهم بالآراء التي تعلموها سابقاً. إنهم يحكمون، دون وعي على جميع المسائل بقياس عقلي يتفرع من تربيتهم، ويتعاطفون مع الوقائع أو الأدلة التي يواجهونها بالقدر الذي تدعم به

(1) Finley, M.: Democratie antique et democratie modernes, payot, 1972, pp. 63 - 64.

استنتاجاتهم المسبقة. هكذا يقنعون أنفسهم بسرعة أن الحجج التي تساند آراءهم الوراثية منطقية بشكل لا يقاوم، وأن تلك التي تتناقض معها سخيفة.. إن عدد الذين يملكون أساساً عقلياً لنقدهم هو، على الأرجح، ضئيل إلى أبعد الحدود، وذلك لأن المؤثرات غير الشرعية لا تحدد فقط قناعات الذين لا يفحصون آراءهم بل تولّد تحيزاً يهيمن على تفكير الذين يقومون بذلك. ولكن من السخافة الواضحة الاستنتاج من هذا بأن العقل لا يمارس دوراً في تكوين الآراء، ففي الصراع بين العقل والمشاعر الذي يقود إلى الحقيقة نجد، كما في الصراع بين الإرادة والرغبات الذي يقود إلى الفضيلة، أن كل جهد يُتوج بقدر من النجاح، وأن هناك تدرجات لا تحصى من التقدم؛ إن كل ما نستطيع استنتاجه هو أن عملية التفكير هي أصعب بكثير مما يُفترض عادة»[1].

وقبل ذلك كتب دي توكفيل بأن «ما يبدو شاذاً بشكل خاص هو أنه رغم استمرارنا على التمسك بتقاليد تتفرع من الكتب، فإننا خسرنا تماماً حبنا السابق للأدب. إنني في مجرى عملي الرسمي العام كنت أكتشف، بشكل خاص مدهش، الواقعة التالية وهي أن الذين يكررون بأمانة بعض العيوب الرئيسية في النموذج الأدبي في الجيل السابق كانوا يقرؤون نادراً، هذا إن قرأوا، كتبنا في القرن الثامن عشر، أو بالأحرى أي كتب كانت»[2].

على الرغم من أن الحركة الشيوعية كانت تتشكل في قياداتها وأحزابها - وخصوصاً في أطوارها الأولى - من الإنتليجنسيا، فإنها كانت داعية لوجود هذه القطاعات الدنيا فيها، بما يميزها من سلبيات وما يمكن أن يترتب عليها من مخاطر. إن لينين، مثلاً، كان يعبر عن كراهية واضحة للثورية اللفظية حتى عندما كان يجد أن عليه القيام بكثير من التنازلات في المرحلة التي تقدمت مباشرة أكتوبر، ومن ثم أثناء «شيوعية الحرب». إن ممارسة السلطة عززت لديه هذه الكراهية التي كان يحملها دائماً لصانعي الخطابات، الأيديولوجيين لكن بدون كفاءة، وكان يقارن بلذة ساخرة وكبيرة، وفرح خبيث عجزهم العملي، وفشلهم المتكرر، وحماقاتهم، مع النتائج التي كان يحققها التجار المحنكون، والصناعيون (الأكثر ثقافة والأكثر أهلية، والأكثر موهبة)[3].

إن ماو تسي تونغ لم يعبر عن كراهية مماثلة ولكنه انتقد بشدة مجموعات من المثقفين بسبب ميول تميز ما أشرنا إليه هنا كإنتليجنسيا - دنيا. إنه يكتب، مثلاً، بأن أنصاف المثقفين «يكونون عادة بعيدين ليس فقط عن المعرفة الناضجة الغنية، بل تكون أفكارهم انعكاساً لـ «الذاتانية»، والتشيع والقولبية (Stereotiypes)، أو التكرير المتواصل، الشبه ميكانيكي لآراء مقبولة عن شخص أو قضية». أفكار كهذه تخدم، في رأي ماو تسي تونغ، الطبقات الحاكمة وليس البروليتاريا. «الإدانة الأولى للفكر القولبي هي أنه يملأ الصفحات دون نهاية بالألفاظ الفارغة. أما الإدانة الثانية فهي أنه فكر يعتمد واعياً على إرهاب الآخرين بمزاعمه الفارغة وبما يحمله من سموم هي أسوأ ما يمكن.. إدانة أخرى هي أنه فكر غير مسؤول ويؤذي الشعب حيث يظهر.. وإدانة أخيرة هي أنه يسمم الحزب كله ويعرض الثورة نفسها للخطر». ثم يشير محذراً إلى ما يمكن اعتباره كالسمة الأولى للإنتليجنسيا - الدنيا: «كثيرون من رفاقنا يميلون إلى الغطرسة في

(1) Lecky, W. E.H.: Rise and Influence of Rationalisme, G. Braziller, 1955, pp. XV - XVI.
(2) Huszar, G.: op.cit. p. 18.
(3) Martinet, I, op.cit. p: 43.

علاقاتهم مع غير الحزبيين، وينظرون إليهم بازدراء.. بعد قراءة بعض الكتب الماركسية، يصبح هؤلاء الرفاق أكثر عجرفة بدلاً من أن يصبحوا أكثر تواضعاً، ويتجاهلون باستمرار الآخرين كأفراد غير صالحين، وذلك دون أن يدركوا بأن معرفتهم هي، في الواقع، معرفة فجة...»[1]، ولكن ماو تسي تونغ يكتب في مكان آخر - بعد أن ينبه إلى دور المثقفين الطليعي - «ولكن المثقفين يميلون غالباً بأن يكونوا ذاتيين، وفرديين، غير عمليين في تفكيرهم، مترددين في العمل إلى أن يقذفوا بأنفسهم قلباً وروحاً في صراعات الجماهير الثورية...»[2].

كثيرون من المفكرين الماركسيين أشاروا إلى هذه الفردية وما يترتب عليها من ذبذبة. إن هنري دي مان، مثلاً، يكتب: «لا شك في ذهني أن الأكثرية الكبيرة من المفكرين لا تزال هي أيضاً بعيدة عن النضج الذي تفترضه الاشتراكية. قليلون جداً هم المفكرون القادرون بمبادرة خاصة أن يحولوا حافزهم الخاص للعمل إلى حافز اجتماعي بناء. هذا التطور السيكولوجي يتطلب تطوراً أكثر من متوسط أو معتدل للشعور الاجتماعي، أي للقدرة على إدراك القدر الفردي كجزء لا يتجزأ من قدر الكومينوته ككل»[3].

في «خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء» يقبل لينين هذا التحليل ويكتب «ليس هناك من يتجاسر بأن ينكر أن ما يميز، من ناحية عامة، المثقفين كشريحة خاصة في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة، هو بالضبط الفردية وعدم قدرتهم على التنظيم (راجع مثلاً مقالات كوتسكي المعروفة حول المثقفين) هذا ما يميز هذه الشريحة.. عن البروليتاريا، ويفسر أيضاً خمول وعدم استقرار القطاع الفكري، وهو ما شعرت به غالباً البروليتاريا. هذه الخاصة التي تميز المثقفين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأوضاع حياتهم العادية، بأوضاع دخلهم التي تقترب من أوضاع البورجوازية الصغيرة (العمل الفردي أو في جماعات صغيرة، إلخ)».

إن درجة من الريبة بالمثقفين سادت تاريخ الحركة الشيوعية من البداية. «الإنتليجنسيا، تبعاً لكوتسكي ولينين، تميل إلى الفردية، ونقص في النظام. إن هجوم زينوفياف الحاد على الأساتذة الجامعيين في مؤتمر الأممية الشيوعية الخامس كان الأول في سلسلة مناسبات مماثلة في تاريخ الأحزاب الشيوعية.

إن قادة الأحزاب الشيوعية المثقفين هم الذين أعلنوا غالباً وبشكل «مازوشي» الأطروحة القائلة بتناقض بين الإنتليجنسيا «الشريفة» والإنتليجنسيا «غير الشريفة» على الرغم بأنهم لم يقولوا بتمييز مماثل بالنسبة للعمال والفلاحين»[4].

في روسيا كان يوجد، في الواقع، مثل يقول «إن عضو الإنتليجنسيا يعرف كل شيء ولكنه غير قادر على صنع أي شيء»[5].

(1) Selected works of Mao Tse - Toung, Vol. III, Foreign Language press, peking, 1969, pp. 48 - 68.
(2) Ibid: Vol. II, 1965, p. 322.
(3) De Man, H.: op.cit. p. 208.
(4) Stoyanovic, S.: Beteen Ideals and Reality, Oxford University press, 1973, p. 185.
(5) Ulam Adam: Stalin, The Man and His Era, Viking press, 1973, p. 317.

هذا النقد الذي يتجه بشكل خاص إلى فردية، وذبذبة، وعدم نضج القطاعات التي أسميناها بالإنتليجنسيا ـ الدنيا، اتخذ عند بعض المفكرين أشكالاً حادة جداً، إن أحد هؤلاء يكتب «إن منجزات الإنتليجنسيا في النصف قرن الأخير كانت تتميز، من ناحية عامة، بالجبن، والانتهازية، والكذب، واللامسؤولية، وبالبعد عن أيّ جرأة فكرية وأي تكريس ذاتي أو استقامة أو مسؤولية. الشذوذ المشرف كان يقتصر على عدد قليل. لا شك أن من النادر للعمل الفكري أن يقود إلى الجرأة الفريدة: إن الكهنة وعلماء اللاهوت في القرون الوسطى كانوا لا يتميزون، هم أيضاً، بهذه الجرأة، ولكن الفرق في القرن العشرين هو أن الناس كانوا قد تعلموا بأن يتوقعوا أشياء كثيرة من المثقفين الذين خيبوا ثقتهم فيما بعد. ففي روسيا في عهد ستالين، وألمانيا في عهد هتلر، وإيطاليا في عهد موسوليني، وفرنسا في وقت هزيمتها، إلخ.. كانت الإنتليجنسيا غير قادرة، وغير راغبة بأن تقدم نموذجاً للمقاومة الأخلاقية، هذا إن لم نقل القيادة الأخلاقية، للشعب. كانت هناك بعض الاستثناءات ولكنها لم تكن كلها شريفة. عندما يكون وجودهم مهدداً بالاستبداد يعلن بعض المثقفين مقاومتهم، ولكن من مكان لا تناله قبضة المستبد. وعندما يكتشفون أن مقاومتهم لاستبداد منهار أصبحت أمينة وشعبية كانوا يبرزون في طليعة هذه المقاومة، وفي بعض الأحيان بجرأة تستحق الثناء. ولكن يجب أن لا نتجاهل عنصر الانتهازية حتى في هذه المواقف الملهمة الموقتة كما نرى، مثلاً، في الإنتليجنسيا الهنغارية عام 1956، أو التشيكية والسلوفيكية عام 1968» (1) .

وجيرار شاليان، المفكر الفرنسي اليساري، يكتب من جهته، «إن دور المثقفين الأساسي وهو دور نقدي، لا يتحقق إلا في شكل محدود، ففي أكثر الأحيان يمارس المثقفون في العالم الثالث دور مساحي جزمات! في البلدان الغربية حيث حريتهم في التعبير كبيرة جداً واللامسؤولية تامة تقريباً تسود غالباً المفاخرات والصَرْعات على التحليل النقدي. في كثير من الأحيان يتحول أيضاً المثقفون إلى أدوات غير مشروطة للسلطات والأيديولوجيات، وللمساعدة ـ بقصد حسن غالباً ـ على تغذية الخداع والتبسيطات والتشيع»(2).

وهارولد لاسكي، المفكر الاشتراكي البريطاني، كتب: «إن فشل المثقفين الإيطاليين.. هو الذي سمح لموسوليني أن يختلس طريقه إلى السلطة. وفشل المثقفين الألمان هو الذي سمح لهتلر بإقامة امبراطوريته القبيحة، وفشل المثقفين الفرنسيين بعد عام 1919 هو الذي خلق الأوضاع التي أدت إلى سقوط فرنسا عام 1940» (3). هنا تجدر الإشارة أنه لم تظهر أيّ حركة للطلاب ـ الذين يمثلون أهم مجموعة أو عنصر في الإنتليجنسيا الدنيا ـ لمقاومة النازية والفاشستية في العشرينات والثلاثينات. إن الطلاب كانوا مستعدين للاندفاع بالأفواج إلى صفوفهما، واستسلامهم كان استسلاماً إرادياً لم يقترن بأيّ جيوب مقاومة كالتي ميزت هزيمة طبقة العمال(4).

(1) Lukacs, john: The passing of the modern Age, Harper Torchbook, 1970, pp. 117 - 118.

(2) Chaliand, Gerard: Mythes Révolutionnaires Du Tiers Monde, 1976, p. 243.

(3) Laski Harold: Faith, Reason and civilizaion London 1944, p. 133.

(4) هناك نموذج آخر من النقد يجب الإشارة اليه وهو الذي عبر عنه ماركسيون سابقون. في مجموعة شهيرة من المقالات حول الانتليجنسيا الروسية نشرت عام 1909، وكانت الاولى من نوعها، نجد ان الكتّاب ومعظمهم من الماركسيين

المثقفون وجدوا في كثير من الأحيان، «مثلهم مثل مدرسي البلاغة والسوفسطائيين في العالم اليوناني والروماني، أن عيشهم يرتبط بقدر كبير بقدرتهم على العمل كمستشارين لذوي السلطة وذلك على حساب استقامتهم إلى حد كبير. مثقف واحد نجا من ذلك - إرازموس - والفضل يعود إلى استعداد الناشر لدعمه مالياً»[1].

إن ديمقريطس قال مرة «إنني أفضل إثباتاً واحداً على عرش فارس» ولكن قليلون جداً نسبياً هم المثقفون الذين التزموا بأمانة فكرية كهذه للأفكار التي يلتزمون بها.



هذه بعض الأمثلة العابرة على النقد الذي كان يوجه عادة إلى الإنتليجنسيا منذ ظهورها الحديث. هنا يجب التنبيه أن هذا النقد كان، رغم حدته الكبيرة في كثير من الأحيان، يستثني عدداً قليلاً من انتقاداته، مما يعني أن أصحابه يميزون ضمناً على الأقل بين عنصرين أساسيين في تكوين الإنتليجنسيا، العنصر الذي حددناه كإنتليجنسيا - دنيا ويمثل أكثرية أفرادها الساحقة، والعنصر الذي يشير إلى وجود عدد محدود من المفكرين المسؤولين، الجديين، من ذوي الفكر الخلاق، والذين يدفعون ضريبة هذا الخلق الفكري جهداً فكرياً مركزاً ومتواصلاً يجند جميع طاقاتهم الفكرية، والعقلية والنفسية. أشكال هذا النقد التي أشرنا إليها تعبر عن الجانب السلبي الذي يميز الإنتليجنسيا - الدنيا ولكنها تهمل جانباً آخر هو الجانب الإيجابي الذي يفسر دورها في التجارب الثورية الحديثة. إن السلبيات التي كان يشير إليها هذا النقد تتجاهل هذا الدور وأسبابه، ولا ترى أنه رغم سلبيتها تساهم فيه وتجعل دور الإنتليجنسيا ككل ممكناً. هذا يعني أن هذا النقد يحتاج إلى نقد - مضاد في إيضاح هذا الدور.

ما يجب التنبيه إليه أولاً هو أن الفكر الكبير الذي يميز عدداً قليلاً جداً من أفراد الإنتليجنسيا، والذي يشكل ما يمكن اعتباره كإنتلجنسيا - عليا، يحتاج عند وجوده إلى من ينقله الى الناس بشكل عام، وإلى الجمهور الثوري بشكل خاص. ما يميزه من صعوبة وتعقيد يتفرعان من طبيعته ذاتها كفكر مُبدع كبير يحتاج إلى هذه الأداة التي تختصره، تبسطه، وتجعله ممكن الإدراك والاستيعاب[2]. الإنتليجنسيا الدنيا تقوم بهذا الدور. الفرد العادي (والمثقف العادي أيضاً) لا يستطيع متابعة التجريدات أو النظريات التي تقدمها الإنتليجنسيا العليا، ولكنه يستطيع إدراك الهوية العامة أو الأفكار الأساسية التي تعبر عنها إن قُدمت له بشكل مبسط. على الرغم

= السابقين (من امثال ب.ب. ستروف ن. بارديايف، س.ن. بولخاكوف، الخ) الذين انتقلوا في بداية القرن الى مواقع مثالية ودينية، انتقدوا الإنتليجنسيا الروسية بسبب ما يميزها، في رايهم، من نقص في الضمير المدني، من عدمية، ومن سطحية ولا اخلاقية، إن سولجنتسين يصف حاليا الإنتليجنسيا الروسية كالشريحة الأكثر جدارة بالاحتقار، محدودة الأفق، دون قيم روحية، غارقة في مشاغل الرفاهية البورجوازية الصغيرة. إن سولجنتسين يشعر بعداء خاص تجاه الإنتليجنسيا الموسكوية التي تتذلل امام السلطة، وهو طبعاً لا يربط بها أي أمل بنهضة جديدة في روسيا. هذا النقد كان ينتهي عادة الى الثورة - المضادة.

Samizdat, Vingtièmesiécle, une opposition socialiste en union soviètique aujourd,hui, Maspero, 1976, pp. 147, 49 - 50.

(1) **Huszar, G.: op.cit. p. 19.**

(2) في كتاب «الايديولوجية الانقلابية، شرحت ذلك بشكل مسهب وبينت ان الكفر الذي يرافق التحولات الثورية الكبرى كان ينتقل من طور «الفلسفة الاجتماعية، الى طور «الشعارات والرموز». وهو انتقال كان يعني تبسيطاً متزايد الأبعاد.

من أن الفلاسفة والعلماء الذين تتشكل منهم الإنتليجنسيا ـ العليا لا يمكن أن يُعتبروا مسؤولين عن طرق استخدام تعاليمهم، وعن الطرق التي يُترجمون أو يُفسرون بها، وعن المعنى الذي يُكشف عنه في أفكارهم، فإن تعاليمهم كانت، مع ذلك، هي التي تخلق مناخاً فكرياً جديداً عندما تنتقل إلى الناس على يد آلاف من المفكرين الصغار الذين لا يتميزون بأي قدر صحيح من التفكير الفلسفي أو العلمي الدقيق.

هذا الدور يعتمد أيضاً على توافر «مراكز» تستطيع أن تنشر مفاهيم وطروحات الإنتليجنسيا ـ العليا وتتمثل عادة بجماعات تغازل النشاط الفكري دون أن تكون هي جزءاً من الإنتليجنسيا، وأهمها الصحافيون والمدرسون. إن تربية هؤلاء تؤهلهم لاستلام إنتاج هذه الإنتليجنسيا، ومراكزهم وأعمالهم تهيئهم لنشره في المجتمع. لهذا فإن دورهم يمكن أن يكون أهم من دور الإنتليجنسيا نفسها وذلك بسبب كثافة عددهم. إنهم يستطيعون، كأداة نقل وتفسير، خلق رأي عام جديد في إسقاط النظام القديم.

هذا الدور، دور الأداة في نقل إنتاج الإنتليجنسيا ـ العليا هو الذي يفسر كثيراً من الظواهر الفكرية التي ترافق التجارب الثورية والتحولات السياسية الكبيرة، وكانت تثير خيبة ونقد المؤرخين والمفكرين الجديين، وذلك بسبب السطحية أو اللاعقلانية التي تميزها رغم الهيمنة التي تمارسها. ولكن ما يتجاهله هؤلاء عادة في خيبتهم هو أن آليات هذا الدور هي التي تفرض تقدم هذا النوع من الفكر، وذلك لأنه فكر يعبر عن وضعية ثورية تعني تحرر جماهير الناس وتطلعها إلى مفاهيم جديدة تحدد حركتها، وهي مفاهيم يجب أن تكون بسيطة ومبسطة إن أريد لها النجاح. ضرورة مفاهيم كهذه هي التي تفرض دور الإنتليجنسيا ـ الدنيا وتدفع إليه. إن أحد المؤرخين كتب، مثلاً، في مجرى تعليق حول ظواهر من هذا النوع، «إن لوديغ جاهن مارس نفوذاً هائلاً في المانيا أثناء القرن التاسع عشر، وخصوصاً في أوساط الشباب الألماني. ولكن جاهن كان مفكراً تافهاً من حيث القيمة الفكرية. ما يفسر مكانته تلك هي المستوى الفكري المنخفض بين هؤلاء، فهذا المستوى كان يجب أن يكون منخفضاً جداً كي يمكن لشخص كجاهن أن يكون خليفة فخته بين هذا الشباب». إن مؤرخاً قومياً كبيراً كـ«تريتشكه» لاحظ في كتابه «التاريخ الألماني» أنه «كي يكون بإمكان أبناء شعب مستتير إجلال بربري ثرثار كمعلم لهم يعني، في الواقع، مرضاً إجتماعياً». ولكن الكاتب يضيف مستدركاً، كما يبدو، « .. تحت ضغط أوضاع خاصة يمكن لفرازيولوجيا دون عقل كأفكار جاهن أن تمارس نفوذاً على قطاعات كبيرة من الأمة وتفرض عليها اتجاهاً معيناً»(1).

ما يفسر أيضاً هذا الدور، دور الإنتليجنسيا ـ الدنيا، هو أن كثيرين من المثقفين العاديين ينضمون إلى الحركة الثورية مع تقدمها وقرب انتصارها. هؤلاء يعبرون عادة عن أكثر أشكال التزمت والتعصب للثورة، أو بالأحرى، عن ولاء منغلق لا ينفتح للحوار العقلاني، لأنهم في كثير من

---

(1) Rocker Rudolf: Nationalism and culture, covici fried, 1937, 221.

في دراسة قيد الاعداد «الفكر الوحدوي والتخلف العربي» سأقدم بعض الأمثلة على هذه الظاهرة، واخلص الى القول بأن التخلف العربي هو الذي يفسرها.

الأحيان يأتون إلى هذه الحركة أو لليسار الذي استطاع التعبير عنها بعد مقاومة له أو لا مبالاة به. فبقدر ما تكون المقاومة أو اللامبالاة قوية بقدر ما يشعر هؤلاء بأن عليهم التدليل على صدقهم، وعلى قسوتهم تجاه أنفسهم، وتجاه الآخرين بشكل خاص. إن سيكولوجيا القديس أوغسطين هي، في أشكال مختلفة. سيكولوجيا جميع المهتدين. دراسات كثيرة أشارت إلى ذلك. في دراسة قيمة، يخلص أريك هوفر، مثلاً، إلى القول بأن الثورات تُهيىء من قبل مفكرين نقلوا ولاءهم وهجروا النظام القائم، بمتعصبين يعملون باسم هذه الأفكار، وأخيراً بقادة عمليين. إنه يجد أن رجالات الفكر يكونون مفكرين موهوبين خلاقين ولكن غير ملائمين لعمل الثورة. أما القادة العمليون، فيجد أنهم يريدون، ككل العمليين في التاريخ، تنفيذ مقاصد الحكومة العملية. العنصر المهم والمميز في قيادة الحركات الثورية، كما يجده هو «المتعصب» الذي لم ينجح في فرض وجوده كمفكر أو فنان[1]، كل الحركات الثورية تجذب إليها قسماً كبيراً من الإنتليجنسيا الدنيا، «.. الشريحة المكونة من رجال يمارسون أعمالاً غير مستقرة، وذوي معرفة محدودة، ويجدون في الانقلابات الإجتماعية فرصة كبيرة في توكيد ذاتهم، إنهم يقدمون للحزب المنتصر قسماً من مناضليه الأكثر جسارة، وأكثرية من محققيه وبوليسه»[2].

هذا التعصب قد يكون سيئاً في كثير من النتائج التي تتفرع منه، ولكن عند التنبيه إلى ذلك يجب أن ننبه أيضاً إلى نتائج أخرى تترتب عليه، ومن النوع الذي تحتاجه الثورة للانتصار. إن الإنتليجنسيا قد تتردد، وقد تكون مذبذبة، ولكن عندما يتوفر لها تصور إيديولوجي جديد تعطيه ولاءها، أو فلسفة حياة جديدة ترتبط بها، فإنها تتحرر من هذا التردد، وتتجاوز هذه الذبذبة.

الانتماء لتصورات كهذه يقود عادة إلى التعصب والعنف[3]، ولكنه يشكل في الوقت نفسه الأداة التي يمكن بها الخروج من التردد والذبذبة اللذين يحولان دون تركيز الطاقات الإنسانية على قصد بعيد المدى، وهو ما ترتبط به حياة الثورة نفسها. هنا يجب التنبيه أيضاً بأن هذه السمة، سمة التردد والذبذبة، هي سمة إنسانية عامة، وتشكل ضريبة يدفعها الإنسان لما يميزه كإنسان، أي العقل، «إن التفكير نفسه سر قوة الإنسان، قد يبدو كضعف وذلك لأنه مصدر التردد، في حين أن ردود فعل الحيوان تكون فورية ولا تخطىء عندما تكون حقاً غريزية.. الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي تكون أعماله متقلبة، والذي يتردد، ويتلمس طريقه، ويضع خططه وهو يأمل النجاح ويخاف الفشل.. الإنسان وحده، بين جميع المخلوقات التي تحيا في مجتمعات، يستطيع الخروج عن الخط الإجتماعي بسبب مشاغل أنانية عندما يكون الخير الإجتماعي في خطر. في جميع المجتمعات الأخرى، ترتبط مصالح الفرد بشكل حتمي بالمصلحة العامة وتخضع لها. هذا الضعف المزدوج هو الثمن الذي يدفعه الإنسان للذكاء»[4].

كثير من المفكرين والمؤرخين وقفوا بدهشة أمام دعم الفاشستية الإيطالية، مثلاً، من قبل

---

(1) Hoffer, Eric: The True Believer, harper, 1951.

(2) Martinet, G.: op.cit. p. 43.

(3) راجع كتاب «الايديولوجية الانقلابية» قسم «المضمون الكلي في الايديولوجية الانقلابية»، وقسم «المضمون الديني في الايديولوجية الانقلابية».

(4) Bergson, Henri: The Two sources of Morality and Religion, Doubleday Anchor Books, 1935, pp. 182, 204.

مفكرين كبار، ليس فقط كـ«جيوفاني جينتيله»، بل أيضاً من قبل آخرين ذوي شهرة عالمية من أمثال باريتو، موسكا، مارينيني، مالابارت، بيراندالو، إلخ.. كما وقفوا بدهشة أكبر أمام دعم النازية من قبل عدد ضخم من كبار المفكرين في طليعتهم أسماء من أمثال فارنر سومبارت، كارل شميدث، وحتى هايدغار، إلخ.. هؤلاء كانوا يتساءلون كيف يمكن لمفكرين كهؤلاء دعم مذاهب لا عقلانية كهذه المذاهب!.. إنهم في هذا التساؤل كانوا يتجاهلون أن ما يريده الإنسان أولاً من دعم أو انتماء كهذا ليس إرضاء العقل وتحقيقه، بل تحقيق حاجات نفسية وأخلاقية في طليعتها الحاجة إلى التغلب على الاغتراب الذاتي، الحاجة إلى إعطاء معنى عام للتاريخ ولحياتهم ذاتها، الحاجة إلى الانتماء إلى حركة تصنع التاريخ وتعطي معنى لوجودهم الفكري ذاته، الحاجة إلى الخلاص من «عبء الحرية»(1) وعلامات الاستفهام الدائمة، إلخ.



لقد رأينا أن الذين ينتقدون بشدة الإنتليجنسيا كانوا يستثنون عادة جماعة قليلة محدودة جداً نسبياً من هذا النقد لأن «السلبيات» التي يرون أنها تميز جمهور الإنتليجنسيا لا تنطبق عليها، هذه الجماعة تشكل ما أشرنا إليه كالإنتليجنسيا ـ العليا التي تتميز بالقدرة الفكرية الخلاقة، تمارس الجهد الفكري الجدي المتواصل المركز الذي يتطلبه هذا الخلق، تجد سعادتها في الحياة الفكرية المتقشفة، شبه الصوفية، وفي الالتزام العميق بالمعاني والتصورات التي تعبر عنها أو تخلص إليها، والتي تخدم القضية الثورية التي ترتبط بها. الكثيرون من المثقفين الذين يطمحون إلى هذا الدور فيفشلون يشكلون بروليتاريا فكرية أو قطاعات من الإنتليجنسيا ـ الدنيا. هذه الأخيرة لا تعيش للأفكار أو تخلقها كما تصنع عادة الإنتليجنسيا ـ العليا التي تشكل الأفكار بالنسبة لها بهجة كبيرة. إنها تستخدم فقط أفكاراً معينة لأجل أهداف عملية، وخدمات فكرية. مثقف الإنتليجنسيا ـ العليا إنسان يجد دنياه الخاصة في دنيا الأفكار العامة، والتصورات الفكرية الجامعة. «بعض الناس يشعرون غريزياً أن عالمهم هو عالم السلطة: إنهم يحبون صنع الأشياء وتغييرها، وإعطاء الأوامر ومشاهدة نتائج عملهم، بعض الناس يشعرون أيضاً أن عالمهم هو عالم الطبيعة، وآخرون يشعرون غريزياً أن عالمهم هو عالم الصور: إنهم يستطيعون رسم اللوحات.. الاستجابة للون، للشكل، والحركة، وقسم آخر يشعر غريزيا أن عالمه هو عالم الآلات، فيصنعها، ويستخدمها، ويصلحها في وقت الفراغ.. كل هذه الجماعات تعيش، بطريقة أو أخرى، في عالم مادي تدركه مباشرة. إن عالم المثقف ـ عالم الأفكار العامة ـ هو عالم مجرد تماماً. ولكن المثقف يستجيب للأفكار بالحدة الحية نفسها التي يستجيب بها مُحب الطبيعة لانفجار الألوان عند غروب الشمس، أو الفنان لإحدى لوحات غويا (Goya)، أو العقل الآلي لآلة إلكترونية، إنه يشعر سعيداً مع الأفكار، يجب أن يفكر حولها، كما يحب الحديث حولها، والاهتمام بها، واللعب بها، وتحليلها وتركيبها من جديد، والعيش لها، والموت لها. «ليس من شيء يؤثر في» كما كتب هازليت «أكثر من فكرة مجردة». إنه كان يتكلم كمثقف حقيقي»(2).

(1) راجع حول هذه الناحية: Fromm, Erich: Escape from freedom, Holt, Rinehart and winston, 1941

(2) Schlesinger, Arthur, Jr.: The crisis of confidence, Houghton Mifflin 1969, pp. 57 - 58.

المفكر الكبير، إنسان الإنتليجنسيا ـ العليا، لا يحب فقط الأفكار ويعيش لها بل يحبها ويعيش لها لأنها تعبر عن قضية كبيرة يؤمن بها، لأنها أداة ضرورية في تجديد الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه، لأنها إسهامه الخاص في هذا التجديد، إن محبته لعالم الأفكار تدفعه باستمرار إلى الجهد الفكري الجدي المستمر الذي يرمي إلى إضفاء أكبر درجة ممكنة من العقلانية عليها، ولكنه يدرك في الوقت نفسه أن هذه الأفكار لا تكون أبداً كاملة، ولهذا فإنه لا يتوقف أبداً عن طرح التساؤلات وعلامات الاستفهام، ويكون دائماً منفتحاً لتصحيحها وللحوار العقلاني حول الموضوعات التي تدور عليها. إن ويليام غودين، المفكر الفوضوي الكبير، كتب في نهاية القرن الثامن عشر، «الرجل الحكيم لا يرضى بأي شيء، ويرى أنه من غير المحتمل وجود أي مؤسسة أو نظام لا يمكن للبحث أن يجد فيهما نقصاً ما. الرجل الحكيم لا يكون أبداً راضياً عن منجزاته أو حتى عن مبادئه وآرائه، وهو يجد باستمرار أخطاء فيها.. وليس هناك من نهاية لتساؤلاته وتعديلاته»[1]. ما يقوله غودين حول الرجل الحكيم ينطبق بقدر كبير على إنسان الإنتليجنسيا ـ العليا. إنه قد يكون مبالغاً، ولكن مما لا شك فيه أنه على حق في الإشارة بأن ليس هناك من نهاية لتساؤلاته وتعديلاته.

إنسان الإنتليجنسيا ـ العليا يتميز عادة بإنتاج فكري جدي أو كبير، ولهذا يمكن القول إنه يحقق اصالة ثورية لا تميز المفكر الصغير، أو إنسان الإنتليجنسيا ـ الدنيا، وذلك لأن الثقافة الكبيرة والكتابات الخلاقة توفر له الشهرة، وتفرض اسمه واستمراريته التاريخية، وبالتالي فإنه لا يحتاج إلى انتهازية أو وصولية سياسية في التدليل على وجوده[2]. هذا يضفي عليه، من ناحية أخرى، مستوىً أخلاقياً أعلى عادة من مستوى المثقف العادي أو إنسان الإنتليجنسيا ـ الدنيا. «إن فكراً مثقفاً جيداً يقترن عادة بالحصافة، والاعتدال، والعدالة، ومن ناحية عامة بجميع الفضائل المهمة في تعاملنا أو علاقاتنا مع الآخرين»[3]. كل هذا يتطلب درجة معينة من الوعي أو الإدراك، ولكن هذا لا يعني أن المعرفة تكون كافية لذلك. إنها قد تشكل شرطاً ضرورياً لأخلاقية عالية ولكنه شرط غير كاف لأن العقد النفسية والمشاعر غير المنضبطة، والمصالح المختلفة، قد تطغى على العقل، وتشلّ إدراكه، وتلغي أي دور أخلاقي فعال في توجيه السلوك. «إن شعور التعاطف مع الآخرين لا يرافق بالضرورة الذكاء، والدليل على ذلك أمثلة لا تقع تحت حصر، من المستبدين الأذكياء، والمهنيين الماهرين (لكن دون قلب)، وملوك المال القساة، والعلماء اللامعين (لكن بشعور مشوه من المسؤولية الأخلاقية). وعند قراءة سيرة المفكرين الكبار، يتولد لدينا انطباع بأنهم كانوا أحسن أخلاقياً من الناس العاديين، وهو شيء لا يمكن قوله حول الرجال المشهورين بشكل عام»[4].

إن سوروكين، الفيلسوف الاجتماعي الكبير، يكتب «إن قِيس النمو الفكري بتقدم واتساع

---

(1) Shatz Marshal, op. cit. p. 19.

(2) المؤرخ موري كتب: «الحكيم او القديس لا يجد له مكاناً في السياسة. انه يكون كرجل في عرين للحيوانات المفترسة». Murray, Gillbert: Five stages of Greek Religion, Doubleday Anchor Books, 1951, p. 79.

(3) Pateman, Carol: participation and democratic theory, Cambridge University press, 1970, p. 31.

(4) Andreski, S.: op.cit. p. 186.

التعليم وأدواته، وبازدياد الاكتشافات العلمية والاختراعات التقنية فإننا نجد أن الغيرية لا ترافق هذا التقدم، لأن الظواهر المضادة للغيرية تقترن به، فالحروب الأهلية والدولية، والجريمة، والعنف، والاستثمار، إلخ.. لم تقلّ بل، على العكس، كانت تزداد.. هذا يعني إما أن الفكر الواعي عاجز، وإما أنه ليس العنصر الذي يرتبط إيجابياً بالظواهر الغيرية وبأشكالها السامية بشكل خاص، وإما أنه ليس قوياً بدرجة كافية»(1).



إن عدد المثقفين يتزايد بشكل هندسي مع تقدم المجتمع الصناعي، ومع انتشار حركة التحديث في بلدان العالم الثالث، وهذا يعني أن الحركات الثورية تزداد اعتماداً على دور الإنتليجنسيا ـ الدنيا ـ إن عدد «أنصاف ـ المثقفين» من الذين لا يتميزون بمعرفة عالية يتضاعف باستمرار، ولكن هؤلاء يشعرون، في عبارة شيللي، بأنهم مؤهلون بأن يكونوا مشرعين للإنسانية بكاملها(2). منظر هذه الإنتليجنسيا المتكاثرة هو الذي دفع، على الأرجح، جورج سوريل عام 1898 إلى التعبير عن ازدراء شديد للمثقفين. لقد كتب «المثقفون ليسوا، كما يقال غالباً، رجالاً يفكرون: إنهم رجال يمارسون مهنة التفكير ويتسلمون معاشات أرستقراطية بسبب نُبل هذه المهنة»(3). لينين كان بين العدد القليل الذي عبر أولاً عن هذا النوع من النقد، «فهاجم الكثيرين من أفراد الإنتليجنسيا بسبب مزاعمهم الأدبية والنظرية، أي كأنصاف ـ مثقفين»(4). إنه «شعر بخطر هؤلاء ولكنه لم يكن قادراً على تجنبه»(5).

ما قاله أرسطو حول الشباب ينطبق، في الواقع، على هذه الإنتليجنسيا ـ الدنيا. «إنهم يحملون مفاهيم عالية لأن الحياة لم تقهرهم بعد، أو لأنهم لم يتعلموا بعد حدودها الضرورية. إن استعدادهم المتفائل يدفعهم، بالإضافة إلى ذلك، إلى التفكير بأنهم قادرون على الأشياء الكبيرة.. إنهم يفكرون بتصورات مثالية أخلاقية بدلاً من تصورات اجتماعية واقعية.. الشعور الأخلاقي ينظم حياتهم أكثر من التفكير.. إنهم يبالغون في معرفتهم وقدراتهم. إنهم دوغماتيون، ويفكرون أنهم يعرفون كل شيء، وهم دائماً على ثقة من ذلك. لهذا يبالغون، في الواقع، بكل شيء»(6). إن يوجين يونيسكو كتب مرة، «الخطأ ليس خطأه إن عجز عن التفكير، إنه مثقف»(7).

إن أحد الأسباب الأولى(8) التي تفسر هذا العجز الفكري بين القطاعات الكبيرة التي

---

(1) Sorokin, pitrim: The ways and power of Love, Henry Regney co. 1967, pp. 140 - 141.
(2) Feuer, L.: op.cit. pp. 226 - 227.
(3) Sorel, Georges: Matèriaux d'une thèorie du proletariat, rivière, 1929.

هنا يخلط سوريل بين المثقفين الذين يشكلون الانتليجنسيا ـ اي القطاع الذي يمارس النقد لمجتمعه وزمانه ويقاوم النظام القائم، وبين القطاع الأخر الذي يستخدم ثقافته كمهنة أو يعيش من الكلمة المكتوبة والشفهية. هذا الخلط يحدث، مع الأسف، في أكثر التعليقات والبحوث، كما يبدو، حول الإنتليجنسيا في معناها السياسي والإيديولوجي التاريخي الذي انطلقنا منه في هذه الدراسة.

(4) ulam, A.: op.cit. p. 103.
(5) Martinet, G.: op.cit. p. 44.
(6) Aristotle: Rhetoric, Tr. R. Roberts, Universe Books, 1953, pp, 123 - 124.
(7) Urban, G.R. editor: Eurocommunism, Universe Books, 1978, p. 219.

(8) سنعود الى هذا الموضوع (موضوع الخلق الفكري) في الكتاب الثاني من هذه الدراسة.

تتشكل منها الإنتليجنسيا. الدنيا هو أن انتشار التعليم لا يعني في ذاته معرفة أو ثقافة ناضجة وعليا. معرفة أو ثقافة كهذه ترتبط أولاً بجهد فكري كبير مركز لا ينقطع، ويستمر استمرار حياة المثقف. لهذا يمكن للمتعلم أن ينال أعلى الشهادات الجامعية ويبقى رغم ذلك «أمياً فكرياً» إن لم يمارس هذا الجهد ويجعله مسألة يومية. «إن انتشار التعليم لا يقترن دائماً بالثقافة. إن الجماهير كانت تزداد خبرة مع الوقت، ولكن الأنوار كانت تزداد انخفاضاً. فالأفكار المقتضبة والمبسطة هي أكثر نجاحاً من الأفكار الأخرى. الإنسان المثقف يجد أن عدد معاصريه يقل مع الوقت»[(1)].

إن مونتانيه كتب منذ قرون «هناك جهل أبجدي يتقدم التعليم، ولكن هناك أيضاً نوع آخر من الجهل الذي يمكن تسميته بالجهل الدكتوري، أي جهل يخلقه التعليم ويحل محل الجهل الأبجدي الذي تم تدميره»[(2)].

كتب أحد الناس مرة إلى برتراند راسّل يسأله عن تحديده «للمثقف» (Intellectual)، فأجاب راسّل بصراحة: إنني لا أسمي نفسي أبداً مثقفاً ولم يتجاسر أحد أبداً على تسميتي مثقفاً في حضوري. إنني أعتقد أنه من الممكن تحديد المثقف كشخص يزعم بأنه يملك من الفكر أكثر مما لديه، وأرجو أن لا ينطبق هذا التحديد عليّ[(3)].

إن المناخ الفكري الذي يسود باستمرار الحضارة الحديثة أصبح غير مشجع على المعرفة أو الثقافة الناضجة العالية. «إن أكثر مجلات الإنتليجنسيا نجاحاً كانت بازدياد تقلل من نشر النثر أو الشعر، أو مقتطفات من كتب. إنها كانت تنشر مراجعات كتب، وفي النهاية مراجعات للمراجعات. في بداية الستينات كانت حتى أكثر الكتب نجاحاً وشهرة محض مراجعات لكتب أخرى، أو لتفاسير أخرى. أو تفاسير لتفاسير. في الولايات المتحدة تجاهل معظم المراجعين المحررين، والناشرين القراءة تماماً.. إننا نجد كثيراً من المفكرين الذين يشيرون، هنا وهناك، إلى كتب مشهورة غير ممكنة القراءة، ليس لأنها صعبة، بل لأنها لا تُقرأ، أو إلى مفكرين يراجعون كتباً ويعلنون عن ضرورتها دون قراءتها»[(4)].

إن دور الذين ينشرون المعرفة، الذين يبسطونها ويعلمونها، زاد جداً في العصر الحديث، وعددهم أصبح مئات المرات، هذا إن لم نقل آلاف المرات، أكبر من عدد الذين ينتجون حقاً هذه

---

(1) Grenier, J.: op.cit. p. 45.

(2) (Montaigne. Essais, Vol. I). إنني شخصيا اكتشفت عن طريق التجربة الخاصة اولا كطالب ان التفاهة الفكرية قد تكون اهم ميزة للمدرسين الجامعيين.. اي في مجموعة تمثل او يُفترض فيها ان تمثل مستوى عالٍ بين المثقفين. هذه القناعة ازدادت قوة وموضوعية اثناء تجربتي معهم كمدرس جامعي. ليس هناك على الارجح بين المجموعات المهنية من مجموعة أخرى فشلت في تمثيل المقاييس المهنية التي تقترن بها أكثر من فشل هؤلاء في تمثيل المعرفة العقلانية او الثقافة الخلاقة الناضجة التي يُفترض فيهم تمثيلها.

(3) Huszar, G.: op.cit. p. 309.

(4) Lukacs, J.: op.cit. pp. 120 - 121.

إن مارشال ماكلوهن قدم في بداية الستينات نظرية أحدثت صدى كبيراً تقول ان الحضارة الحديثة أخذت حالياً تحقق استبدالا تدريجيا للطبع او للكلمة المطبوعة بالصور، وان وسائل الاتصال (Mass Media) التي تستخدمها أخذت تحدث تغيرات في الملاحظة، الادراك الحسي، الفكر، الحساسية، وحتى «الكومينوتة»، نتج عن كون الكتب لم تعد أدوات المعلومات الأساسية. راجع بشكل خاص:

Mcluhan,Marshall: Understanding Media, A Signet book, 1964.

المعـرفة. ولكن الذين يفشلون في تحقيق المكانة الفكرية العليا التي يرغبون بها أو التي يرون أنهم يستحقونها ينقمون، في كثير من الأحيان، على العدد القليل الذي حقق تلك المعرفة أو هذه المكانة. إن إحدى ميزات الفكر الكبير هي القدرة على رؤية الفكر الكبير والاعتراف بوجوده.

هذا فيما يتعلق بالنقص الذي تنطوي عليه هذه الإنتليجنسيا ـ الدنيا عند مقارنتها بالإنتليجنسيا ـ العليا. ولكن مرة أخرى، يجب أن لا يقود هذا النقد، كما أشرنا سابقاً، إلى تجاهل الجانب الآخر، الجانب الإيجابي الذي يمثل الوجه الآخر. فمن هذه السلبيات نفسها تتفرع قدرتها على الإيمان الصلب بالمقاصد الثورية، وعلى الجسارة الكبيرة في خدمتها، وعلى الاستعداد للانضباط في تنظيم ثوري تتطلبه الحركة الثورية في توكيد ذاتها وشق طريقها إلى السلطة، والعمل على تحقيق تلك المقاصد. هذا الجانب يخدم العمل الثوري ويساعده على تجاوز ذاته والاحتفاظ بنشاطه وحيويته. هذه الإنتليجنسيا ـ الدنيا التي تشكل الأكثرية الساحقة من الإنتليجنسيا ككل تشكل قوة دفع مستمر للحركة الثورية، لأن أفرادها يحاولون في أكثر الأحيان، وإن بشكل لا واعٍ، التعويض عن ذلك النقص الذي أشرنا إليه في المعرفة، وفي فشلهم كمفكرين، وذلك بالتركيز على النضال العملي والنجاح فيه. إنها قد تجر الإنتليجنسيا ككل، والعمل الثوري نفسه، في مزالق ومهاو خطيرة يمكن أن تجهض نجاحه، ولكنها تشكل، من ناحية أخرى، أداة ضرورية لهذا العمل.

عقدة الشعور بالظلم

إن التفاوت الاجتماعي السياسي الذي تقاسيه الإنتليجنسيا في «النظام القديم» يدفعها إلى التمرد عليه كظلم ومهانة. فهي ترى أنها تملك الثقافة أو المعرفة الجديدة ولكن بدون ما يترتب على ذلك من احترام وتقدير، أو ما يجب أن يرافقه من دخل، سلطة سياسية، ومكانة اجتماعية. هذا التناقض بين الثقافة التي تملكها وبين تمتعها المحدود الضيق بالنفوذ والدخل كان يولد فيها تمرداً يدفعها إلى مقاومة النظام القائم.

هذه المقاومة كانت أحد الأسباب الرئيسية التي كانت تدفع الإنتليجنسيا إلى الانشغال بالسلطة والتركيز على الاستيلاء عليها بغية استخدامها كأداة في إقامة نظام جديد يحقق «العدالة» أو - كما يقول كثير من المفكرين - رغبتها في السلطة، الرغبة المتأصلة فيها كإنتليجنسيا، والتي كانت تدفعها إلى احتكار هذه السلطة وممارستها بشكل أوتوقراطي. التجاهل الذي كان مصير الكثيرين من المثقفين كان يدفعهم، في الواقع، إلى المبالغة النرجسية على قيمتهم، وعلى أهمية السلطة كأداة في معالجة هذا التجاهل.

إن مسألة هذه الرغبة في السلطة طرحت كموضوع خاص أو كمشكلة في النزاع الفكري الثوري التاريخي بين ماركس وباكونين، فالأخير اتهم برنامج ماركس بأنه يعني «حكومة من العلماء - تشكل النموذج الأكثر إثارة للحزن، والكراهية، والاحتقار في العالم - وتمثل رغم مظهرها الديمقراطي دكتاتورية حقيقية». إن ماركس اقتصر فقط، عند قراءة ذلك، على كتابة ملاحظة هامشية إلى جانب كلمات باكونين: «يا للحلم!..» وترديد وجهة نظره العامة بأن السيطرة الطبقية ستستمر فقط طالما أن الأساس الاقتصادي للطبقات لم يدمر[1]. «المثاليون من كل نوع، الميتافيزيقيون، والوضعيون، ودعاة هيمنة العلم على الحياة، والمذهبيون الثوريون - يدافعون جميعاً بحجج مختلفة لكن بحماس متماثل، عن فكرة الدولة وسلطة الدولة التي يرون فيها، وبشكل منطقي من وجهة نظرهم الخلاص الوحيد للمجتمع.. وذلك لأنهم يتخذون كأساس المبدأ الذي نعتبره خاطئاً تماماً وهو أن الفكر يتقدم على الحياة، إن النظرية المجردة تتقدم على

(1) Feuer, L.: Marx and the intellectuals, pp. 54 - 55.

الممارسة الاجتماعية، وبأن علم الاجتماع يجب أن يكون بالتالي المنطلق للثورة الاجتماعية والبناء الاجتماعي الجديد. من هذا يخلصون بالضرورة إلى القول: «بما أن الفكر والنظرية والعلم كلها، على الأقل حتى الآن، ملك عدد قليل من الناس، فإن هذه القلة يجب أن تكون موجهة للحياة الاجتماعية وقائدة لجميع الحركات الشعبية وليس أداة لها..»[1] هذا ليس صحيحاً، ولا شك، لأن الذين يشير إليهم لا يقولون «كلهم» هذا القول. إنه يعبر في ذلك عن فكره غير الجدلي لأنه يعمم الفكر الميتافيزيقي على جميع الذين يدافعون عن فكرة الدولة، أي جميع المفكرين والثوريين ما عدا الفوضويين.

إن باكونين يكتب، وهو يقارن بين ماركس وبرودون، «بأن من الممكن لماركس أن يرتفع نظرياً إلى مذهب حول الحرية يكون أكثر عقلانية مما يستطيعه الأخير، ولكن غريزة الحرية تنقصه لأنه استبدادي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه»[2]. إن باكونين لم يكن الوحيد الذي كان يهاجم برامج وأساليب ماركس الأوتوقراطية. برودون، الفوضوي الكبير، نبه هو الآخر إلى «طبيعة» هذه الأساليب والبرامج وكتب مرة لماركس بأن الحركة الثورية لا تعني استبدال دين «بدين» آخر[3].

إن جان ماكهايسكي الماركسي البولندي، الذي ابتدأت كتاباته تظهر مع مطلع هذا القرن، كان من الأوائل الذين نبهوا بشكل منظم إلى كون الاشتراكية تشكل أداة في يد الإنتليجنسيا التي تستخدمها في تحويل ذاتها إلى طبقة حاكمة جديدة. في هذه الكتابات نرى ماكهايسكي يُخضع، من هذه الزاوية، أولاً الاشتراكية الديمقراطية الألمانية إلى نقد قوي في ضوء الماركسية الثورية. ولكنه بعد ذلك نراه يوجه نقده الثوري ضد الماركسيين الروس، ثم ضد الماركسية، وأخيراً ضد ماركس نفسه وضد الاشتراكية بشكل عام. إنه يخلص من هذه الكتابات إلى النتيجة التالية وهي أن الاشتراكية ليست سوى أيديولوجية المثقفين الذين يستخدمون المركز المحوري الذي يشغلونه في المجتمع الرأسمالي - وإدارة الإنتاج وتوجيه الاقتصاد - واحتكارهم للمعرفة بغية إقامة أنفسهم كطبقة حاكمة جديدة. هذه الطبقة الجديدة من «رأسمالي المعرفة» تجد نفسها محدودة في أهدافها بالإطار الضيق للرأسمالية التقليدية، ولهذا فهي تتجه إلى استخدام قضية العمال كي تخدم مصالحها الخاصة.

إن الفائدة الخاصة التي تميز إنتاج ماكهايسكي هي في توكيده «بأن الاشتراكية هي الأيديولوجية التي تمثل مصالح طبقة جديدة صاعدة وحاكمة: (طبقة رأسماليي المعرفة)»[4].

إن الاشتراكية تشكل في نظريته «نظاماً اجتماعياً يقوم على استثمار العمال من قبل المثقفين المهنيين.. ظهور هذه الطبقة تعكس ظاهرة اجتماعية اقتصادية ترتبط بالتطور الصناعي الذي يدفع إلى ولادة ونمو شريحة جديدة من العمال ذوي المؤهلات والكفاءة. مثل

---

(1) Bakunin, Michael: Statism and Anarchy, cited by Shatz, M. op.cit. p. 159.

(2) Bakunin, M.: oeuvres, II, stock plus, Paris, 1980, p. 20.

(3) قادة نقابات العمال الانكليزية الذين كانوا مندوبين الى «اتحاد العمال الدولي» كانوا من الرجال المتعودين على المناقشة، التشاور، والإجراءات الديمقراطية، وقد وجدوا ان ماركس كان يضيق صدراً بالمناقشة، ويؤكد على ضرورة الارتباط او الانضباط بالتقليد الايديولوجي. وينفرد في اتخاذ قرارات تتجاهل السياق الديمقراطي.

(4) Makhaiski, Jan: Le socialisme des intellectuals, Editions du seuil, 1979, pp. 7 - 8, 50.

التقنيين، المهندسين، العلماء، الكوادر الإدارية. الذين، بانضمامهم إلى المثقفين البارزين، مثل المحامين، الصحافيين، الأساتذة الجامعيين، ومهن كتابة أخرى. يسودون ويديرون دائماً بشكل واسع الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ولكن بدون بلوغهم وسائل السلطة التي لا تزال في يد الأوليغاركية الصناعية، والمالية، والعسكرية، ومالكي الأرض. مركز هذه الطبقة الجديدة هو مركز قلق وهش. فعلى الرغم من أنها تساهم في الاستثمار الرأسمالي وتفيد منه، فإنها تبقى تحت رحمة اعتباطية البلوتوقراطية أو سلطة الأثرياء، لهذا فهي تميل إلى التقرب من العمال والدفاع عن قضيتهم»[1].

«ليس للمثقفين» كما يكتب سوريل، «سوى نزعة واحدة: استثمار السياسة. إن هيمنة المثقفين على حركة العمال تقود مباشرة إلى اشتراكية الدولة»[2]. فكي ندرك تماماً التحول الذي حدث في الفكر الاشتراكي يجب «أن نحلل بنية الدولة الحديثة. هذه الدولة هي جهاز من المثقفين، يتميز بامتيازات معينة ويملك الوسائل السياسية في الدفاع عن ذاته ضد هجمات توجهها إليه جماعات أخرى من المثقفين المتلهفين إلى امتلاك مكاسب الوظائف العامة. الأحزاب تتشكل لأجل الاستيلاء على هذه الوظائف، وهي تماثل الدولة. إننا نستطيع هنا إيضاح الأطروحة التي أشار إليها ماركس في «البيان الشيوعي» وهي أن كل الحركات الاجتماعية كانت حتى الآن، كما كتب، تتحقق عن طريق أقليات أو لمصلحة أقليات، إننا نقول بأن جميع أزماتنا السياسية تعود إلى استبدال مثقفين بمثقفين آخرين، ونتيجتها كانت دائماً استمرار الدولة وفي بعض الأحيان تقويتها، وذلك بزيادة عدد المهتمين بها»[3].

إن ماكهايسكي أشار إلى قول لاغاردال، القائد النقابي الثوري، الذي كتب عام 1901 بأن «العمل للعمال والسلطة للمثقفين»، وذلك في معرض نقده العام لطبقة المثقفين التي ترى أن ثقافتها العليا تجعلها مستقلة عن الصراعات الاجتماعية، قادرة على التعبير عن المصلحة العامة، ولتشكل بعد ذلك أرستقراطية فكرية[4].

ولكن رغم هجوم باكونين وبرودون وماكهايسكي... إلخ. على ماركس وبرامجه وأساليبه، يجب التنبيه «بأن ماركس وأنجلز كانا عبر حياتهما حساسين للبواعث الأوتوقراطية بين المثقفين الاشتراكيين الذين وصفاهم بعبارات ساخرة ودقيقة. إن لاسال، ومفكري عام 1848، والطلاب الاشتراكيين الألمان عام 1879، والمفكرين الفابيين الإنكليز، كانوا كلهم، تبعاً لماركس وأنجلز، يحاولون إقامة أنفسهم كدكتاتوريين ومدراء على العمال. إن غاية لاسال، كما قال ماركس هي أن يكون «دكتاتور العمال المقبل»[5].

إن لاسال تبجح، في الواقع، أمام بيسمارك بأن «طبقة العمال تميل غريزياً إلى الدكتاتورية. وفاخر بسلطته الدكتاتورية الخاصة كرئيس لاتحادهم وكممثل لقيادة العلماء. بعد ستة عشر عاماً

(1) Ibid: pp. 13 - 14.
(2) Debray, R.: op.cit. p. 199.
(3) Sorel, Georges: La decomposition du Marxisme, 1910, pp. 53 - 54.
(4) Makhaiski, J.: op.cit. p. 54.
(5) Feuer, L.: op.cit. pp. 54 - 55.

من ذلك، أي عام 1879، كتب ماركس وأنجلز بتشاؤم أن «العناصر المتعلمة، خريجي الجامعات، يؤمنون كلهم بأن طبقة العمال عاجزة في ذاتها عن تحقيق تحررها الذاتي، وبأنها يجب أن تتحرر من فوق»[1]. الحركة الماركسية كانت، في الواقع، تكشف عن هذه الظاهرة، فحيثما سيطر المثقفون عليها ونظموها في حزب سياسي كانت الأوتوقراطية تتخذ أشكالاً واضحة وبارزة جداً. إن الحزب الماركسي الروسي (حزب العمل الاجتماعي الديمقراطي) الذي وجدت فيه سياسة لينين الأوتوقراطية تربة خصبة لها كان أساساً حزب مثقفين. «إن الماركسية الصحيحة لم تشوه فقط عن طريق الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، بل عُدلت بقدر كبير عن طريق لينين. هذا الأخير وسع كثيراً بعض السمات اليعقوبية والسلطوية التي كانت تظهر في بعض الأحيان في كتابات ماركس وأنجلز. لقد أدخل إليها مركزية متطرفة ومفهوماً ضيقاً ومتشيعاً حول الحزب، وخصوصاً حول ممارسة الثوريين المهنيين كقادة للجماهير. إننا لا نجد كثيراً من هذه المفاهيم في كتابات ماركس حيث تتخذ، في الواقع، طابعاً جنينياً وضمنياً»[2].

مبدأ الحزب اللينيني يقترن «بمبدأ الديمقراطية من فوق»، أو الديمقراطية المركزة. في الممارسة يتجمع أعضاء النخبة الثقافية وينظمون أنفسهم في الحزب الشيوعي الذي يُفترض فيه أن يمثل الإرادة العامة للمجتمع في شكل منظم. بما أن كل التطور الاجتماعي يمكن أن يُحدد مقدماً باستخدام صحيح للمنهج الجدلي، فإن الإرادة العامة لا يمكن أبداً أن تكون خاطئة، والحزب لا يمكن أبداً أن يكون منقسماً. هكذا يكون الحزب رمزاً للموضوعية العلمية في الدولة السوفياتية. بما أن الحزب يتشكل أساسياً من المثقفين، فإن هذا المفهوم يعني سيطرة هؤلاء وسيادتهم غير المحدودة أو بالأحرى سيطرة وسيادة النخبة التي تمثلهم في الكوادر القيادية. «فالحزب هو، في الواقع، مجموعة من الناس، وراء جميع السفسطة الفكرية حول التحديد الموضوعي للسياسة، والموقع الواضح بالنسبة للسلطة هو أن مجموعة صغيرة جداً - أو حتى رجلاً واحداً - تجد نفسها في مركز تصنع فيه ما تشاء بجمهور الشعب»[3].

إن لينين رأى أن طبقة العمال تتميز بطاقات كبيرة ولكنها غير قادرة على تجاوز الوعي النقابي دون وجود حزب ثوري. إن وظيفة الحزب تكون بالتالي تحويل الطاقات العادية لطبقة العمال إلى اتجاهات ثورية. إن روزا لوكسمبورغ شاركت لينين في مقاومة الانحرافية، ولكنها رأت أن مشروعه التنظيمي سيقود إلى نتائج تتعارض مع ما يرغب به. فالمركزية تزيد من سلطة «المثقفين البورجوازيين» لأنه لا يزال على طبقة العمال أن تتعلم من التجربة. لقد كتبت، «ليس هناك من شيء يسلم حركة عمالية فتية لعطش المثقفين إلى السلطة بسهولة أكبر من جعلها سجينة مركزية بيروقراطية تحط من قدر العامل بتحويله إلى أداة طيعة «للجنة». من ناحية أخرى ليس هناك من شيء يحمي حركة عمالية من إنتليجنسيا طموحة كالعمل الثوري المستقل لطبقة

---

(1) (Ibid, p. 55)، راجع أيضاً:
Marx, K., Engels, F.: Selected Correspondence, Moscow, 1953, pp. 388 - 394, 530, 537.
Engels, F.: Germany, Revolution and Counter - Revolution, New york 1933, p. 103.
(2) Guerin, D.: L'anarchisme, Gallimard, 1976, p. 195.
(3) Ward, Barbara: Faith and Freedom, Doubleday image Books, 1958, pp. 196 - 197.

العمـال، كزيادة في شعورها بالمسؤولية السياسيـة»[1]. بدلاً من هذا الاعتماد على المثقفين، أعلنت روزا لوكسمبورغ بأن من حق طبقة العمال «أن تصنع أخطاءها الخاصة». إن لينين ذهب في الواقع، بعيداً في خطه المناقض لخط لوكسمبورغ، وكوتسكي نفسه، لم يقتصر على الدعوة إلى حزب ثوري من المثقفين ينظم طاقات العمال ويدفعها في اتجاه ثوري، بل دعا أيضاً المثقفين بأن يكونوا حملة أو كوادر البيروقراطية. إن كلمة «البيروقراطية» لم تكن مخيفة بالنسبة له، وقد رحب بها وتبناها وأعلن في شبابه أنه كان أول من يحللها كظاهرة أو كمفهوم عام. «البيروقراطية ضد الديمقراطية» هي كما كتب «نفس الشيء كالمركزية ضد الاستقلال المحلي». إنها المبدأ التنظيمي للديمقراطيين الاجتماعيين باعتبارهم المعارضين للمبدأ التنظيمي عند الديمقراطيين الاجتماعيين الانتهازيين»[2].

هذه الملاحظات حول اتجاه الإنتليجنسيا إلى السلطة وانشغالها بها، والتركيز على الاستيلاء عليها لا تعني، كما درج كثير من المفكرين على القول، أنها كانت تستخدم وتستغل العمال أو الشعب في خدمة مصالحها، وأن الاشتراكية والتصورات الأيديولوجية الجديدة التي تدعو إليها كانت مجرد غطاء أيديولوجي لمطامعها الشخصية. هذا حكم قاس وغير موضوعي، وخصوصاً بالنسبة للأجيال الأولى التي تتشكل منها الإنتليجنسيا. إنه غير موضوعي لأنه يجعل من سيادة الإنتليجنسيا عملاً ينتج عن تخطيط سابق يرمي إلى هذه النتيجة. إن الأجيال الثورية الأولى، سواء في فرنسا، روسيا، الصين، إلخ.. كانت أساساً أجيالاً تتميز بدرجة عليا من النقاء الثوري، تحركها دوافع ثورية حقيقية، وتتطلع حقاً إلى خلق مجتمع جديد تزول فيه كل أشكال الاستبداد: التحكم السياسي، والاستغلال، وتتحقق فيه تماماً حرية الإنسان وكرامته. ما حدث من نتائج لا تنسجم مع هذه التصورات والمقاصد الأولى لم يكن نتيجة تخطيط واعٍ كما يوحي هذا النقد، بل نتيجة فرضت نفسها وترتبت على قوى موضوعية مستقلة أساسياً عن الإرادة الثورية الأولى.

هذا الكلام على ميل المثقفين إلى ممارسة سلطة دكتاتورية وكأن الميل يمثل «ميلاً غريزياً»، يعكس «انتهازية سياسية» أو يتفرع من «طبيعة» المثقفين ذاتها، هو دون شك كلام غير موضوعي، إنه ميل يجد تفسيره بشكل أحسن وأكثر علمية كتعبير عن الاتجاه الثوري الذي يعبرون عنه، فالثورة تعني الدكتاتورية، على الأقل في طورها الأول، طور ممارسة ذاتها وإقامة مؤسساتها وأجهزتها أي نظامها الجديد إلى أن يستقر هذا النظام. بما أن المثقفين يستطيعون في أوضاع العصر الحديث وخصوصاً في القرن العشرين، بلوغ السلطة فقط في مراحل ثورية، فإن الثورة أخذت تلعب، كما لاحظ مالرو في «الوضع الإنساني»، «الدور الذي كانت تلعبه مرة الحياة الأبدية» «وتعني تحقيق خلاص الذين يصنعونها».

تناقض الوعي الثوري الذي تحمله الإنتليجنسيا مع النظام القديم يدفع هذه الأخيرة إلى التركيز على السلطة كأداة في حل هذا التناقض وتجاوزه. هذا التناقض بين الوعي أو التصورات

---

(1) Friedland, M.: op.cit. p. 90.

(2) راجع كتابه «خطوة الى الامام، خطوتان الى الوراء».

الأيديولوجية الجديدة التي تعكسه وتعبر عنه، وبين تخلف الواقع الموضوعي عن مجاراته هو الذي يفسر أساسياً «رغبة» الإنتليجنسيا في السلطة. ازدياد درجة هذا التناقض يزيد حدة الوعي، وهذه الحدة تزيد في دورها حدة التركيز على السلطة التي تسخر لحله. القول، مثلاً، بأن «المذهب الاشتراكي تقدم بقدر ما حركة العمال في الأرض الروسية»، وهو قول يقول به الماركسيون أنفسهم، لا يقتصر على «الأرض الروسية»، بل يشكل ظاهرة عامة. ما يصدق على «هذا المذهب» يصدق بدرجة مماثلة أو أكبر على المذاهب الثورية الأخرى. ما أشار إليه بعض المؤرخين وهو أن النِحل (Sects) السياسية تظهر «لأن المثقفين لا يتحملون اختلافات في السياسة» ولهذا «فإن تاريخ هذه النِحل هو تاريخ تزمت وأوتوقراطية المثقفين»[1] هو قول ميتافيزيقي اعتباطي وليس قولاً موضوعياً علمياً لأنه يُخرج هذه الظاهرة من الأوضاع الاجتماعية السياسية التي ترافقها وتنتج في الواقع عنها، وفي طليعتها هذا التناقض الذي ننبه إليه.

يجب علاوة على ذلك، أن نذكر بأن السلطة الثورية التي تعبر عنها الإنتليجنسيا هي سلطة غير مستقرة وبدون شرعية ثابتة، وهي تحتاج إلى بعض الوقت كي تحقق ذلك. مراجعة تجارب التاريخ الثورية وتحولاته وأزماته السياسية، تدل بوضوح أن أحد الشروط الأساسية للديمقراطية السياسية كان استقرار وانسجام وفاعلية وشرعية المجموعة (أو الطبقة) الحاكمة. ولكن بما أن العمل الثوري يعني انتقال السلطة من مجموعة حاكمة سقطت إلى مجموعة جديدة، فإن طبيعة هذه المرحلة الانتقالية نفسها تفرض على الإنتليجنسيا الانشغال بالسلطة والتركيز عليها.

الحديث عن انشغال الإنتليجنسيا بالسلطة وكأنه يعبر عن «غريزة» أو «مطامع شخصية» يتجاهل، من ناحية أخرى، أن هذه الظاهرة لا تقتصر عليها بل تمثل ظاهرة تاريخية عامة مشتركة بين جميع الطبقات والجماعات، وتنتج نهائياً عن «الوضع الإنساني. التاريخي» نفسه. إنها ظاهرة تمتد إلى الحركات العلمية نفسها. إن علم التحليل النفسي الفرويدي، مثلاً، كان في كلمات أريك فروم، أحد كبار هذا العلم، حركة ذات تنظيم عالمي تتشكل تبعاً لخطوط مراتبية دقيقة، قواعد شديدة حول الانتماء إليها وتنقاد لمدة طويلة نسبياً للجنة سرية تتكون من فرويد وستة أعضاء آخرين، وتكشف في بعض المناسبات، وفي بعض ممثليها، عن تزمت يوجد عادة فقط في البيروقراطيات السياسية والدينية. «إن حركة التحليل النفسي التي ولدت من الرغبة في تحرير الإنسان من اللاعقلانيات المختلفة كان يجب أن تتميز بتحقيق ودي في الاختلافات وشعور بالقصد الواحد، ولكنها كانت تتركز باستمرار حول صورة - أب»[2].

المثقفون من ناحية عامة - وليس الإنتليجنسيا فقط «يمثلون - كأيّ جماعة أخرى - طبقة متناقضة. بعض مصالحها وخصوصاً مصلحتها في ثقافة الحوار النقدي تجعلها ميالة إلى الحرية، ولكن مصالحها الأخرى، كبورجوازية ثقافية، تجعلها نخبة مهتمة باحتكار دخل وامتيازات معينة. المسألة هي مسألة تبادل تُضحى فيه بعض المصالح في سبيل مصالح أخرى. المثقفون يحاولون كغيرهم أن يوازنوا بين السلطة وبين الخير. إنهم يريدون سلطة معادلة لما يعتبرونه

---

(1) Feuer, L.: op.cit. p. 63.
(2) Ibid, p. 62.

قيمتهم الخاصة، وهم يتميزون برأي عالٍ جداً حول قيمتهم. ممارسة السلطة وتوسيع السلطة يمثلان إذن أهمية كبرى لبعضهم، وهذا أحد جوانب المركب الأفلاطوني، ولكنه لا يقتصر في بنيته الأساسية على الطبقة الجديدة (أي طبقة المثقفين)»[1].

إننا نجد حالياً نظريتين حول الدور المناسب للمثقفين بشكل عام، وهو دور مارس أثراً كبيراً على اليسار الجديد. النظرية الأولى تتمثل في التصور الذي يقدمه ماركوزه، أحد المفكرين الأساسيين لهذا اليسار، والقائل بأن هناك أفكاراً صحيحة وأفكاراً خاطئة، وبأنه من السهل التمييز بين هذين النوعين، وبأن من واجب المثقف أن يفرض الأفكار الأولى ويقمع الثانية. هذا المفهوم يشكل في رفضه الصريح للحرية الفكرية، جزءاً من نقاش عام حول العنف ودوره وليس حول الحياة الفكرية. إن ماركوزه يقدم بعض المقاييس العامة لهذا التمييز فيقول بأن ما لا يقود إلى مجتمع حر وعقلاني، وما يعثر ويشوه إمكانات خلقه يجب أن يكون ممنوعاً، وهو لا يستثني القمع في ذلك، لأن هناك قمعاً اجتماعياً وسياسياً يستطيع دعم التقدم الإنساني الذي يقود إلى ديمقراطية حقيقية، وإلى حرية حقيقية. إنه يضع نهائياً ثقته في ما يسميه الدكتاتورية الديمقراطية التثقيفية التي يمارسها رجال أحرار. النظرية الثانية تستثني العنف والقمع وتقترن ضمناً على الأقل بوثيقة حقوق الإنسان. ما يجب التنبيه إليه هو أنه ليس من الضروري الفصل بينهما، أو بالأحرى لا يصح هذا الفصل وخصوصاً عندما نتكلم عن الإنتليجنسيا. فالإنتليجنسيا تمثل بشكل خاص النظرية الثانية أثناء كفاحها ضد النظام القديم، وهي عند استلام السلطة تعبر عن الأولى وتمارسها وذلك للأسباب التي أشرنا إليها. ولكن هذه الممارسة تبرر ذاتها بالقيم والتصورات الأيديولوجية التي تريد تحقيقها لأنها ضرورية لهذه الأخيرة، أي لقيم تقترن عادة بالنظرية الثانية.

الإنتليجنسيا كانت باستمرار فخورة ومعتزة بدورها الثقافي الطليعي، وترى أن ثقافتها العليا تمثل أهم منجزات الإنسان الحضاري، وأكبر إسهام في سعادته. هذا الاعتزاز كان يزداد بسرعة مع حركة التحديث وقيام المجتمع الصناعي العلمي الجديد، وذلك بسبب الدور الضخم الذي تمارسه المعرفة الحديثة. «الطبقة الجديدة (أو المثقفون) تعتقد أن العالم يجب أن يحكم من قِبل الذين يملكون تفوق الكفاءة والحكمة والعلم، أي أفرادها. المركب الأفلاطوني، حلم الفيلسوف - الملك، الذي بدأت به الحضارة الغربية يمثل أعمق خيال ترغب هذه الطبقة في تحقيقه. إنها طبقة ترى أن الذين يستخدمونها عاجزون حتى عن اتخاذ الخطوات الأولى في إدراك أبسط جوانب اختصاصاتها التقنية، وأن السياسيين الذين يحكمونها هم في عبارة أدمون ويلسن، من النوع الذي ينفرد بقدرته على الفساد والجهل والعجز في آن واحد»[2].

---

(1) Gouldner, A.: op.cit. p. 81.
(2) Gouldner, A.: op.cit. p. 65.

الطريق المسدود أمام تقدم المثقفين

الطريق المسدود أمام تقدم المثقفين كانت أحد أسباب ظهور الإنتليجنسيا، وتشكل أحد العوامل الأساسية في تكوينها، فالاغتراب الذي كان يشعر به عدد كبير من هؤلاء في مواجهة هذا الطريق التي كانت تحول دون حركتهم التصاعدية كان يساعد في تحويلهم إلى إنتليجنسيا. إن ظهور المثقفين كقوة ثورية، أي كإنتليجنسيا، يعود جزئياً إلى كون مهنهم وأعمالهم تكشف في البداية، أو في طور معين، عن تقدم إلى الأمام وعن تحرك إلى أعلى. ولكنها لا تلبث أن تتحسر فتخسر هذا الصعود في مرحلة لاحقة.

الثورة الفرنسية، أولى الثورات الكبرى في العصر الحديث تقدم لنا النموذج الكلاسيكي الأول عن النتائج الثورية التي تترتب على وجود طريق مسدود من هذا النوع. فالنظام القديم، الذي كان يعامل المفكرين كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة، وينظر إليهم دون اكتراث، حوّل أكثرهم إلى إنتليجنسيا متكاملة الهوية كانت أول إنتليجنسيا من هذا النوع ظهرت في العصر الحديث.

هنا تجدر الإشارة إلى ظاهرة مهمة في المرحلة التي تقدمت الثورة الفرنسية مباشرة كان ألكسي دو توكفيل أول من أشار إليها في القرن الماضي، في دراساته الكلاسيكية حول هذه الثورة. إن ظهور الإنتليجنسيا السياسية الأولى كان يعود بقدر كبير إلى إجهاض حركة تصاعدية كان يتمتع بها المفكرون آنذاك.. فأعمالهم ومهنهم كشفت في البداية عن توافر إمكانات التقدم التصاعدي، ولكن هذا التقدم واجه فيما بعد سدوداً أرستقراطية حالت دون استمراره. فالأرستقراطية حاولت استرجاع وتوكيد امتيازات كانت قد أهملتها سابقاً وتركتها تتقلص، وهذا أساء جداً إلى المفكرين. انحسار هذا التقدم، وليس الطريق المسدود في ذاته، مارس كما يبدو أثراً أكبر في تحويل المفكرين إلى إنتليجنسيا، كما أن توفر هذا التقدم ثم انحساره زاد من حدة التناقض والتوتر بين المفكرين والنظام، وأوحى إليهم بأن التقدم ممكن، وأن اعتباطية النظام هي التي تحول دونه، فبرزت في صفوفهم الإنتليجنسيا التي سحقت النظام، والتي رأى كثير من المؤرخين أن أفكارها هي التي صنعت الثورة الفرنسية وكانت مسؤولة عنها. هذه الظاهرة كانت تعيد ذاتها في الثورات الأخرى.

الثورة الحديثة الكبرى الثانية أو الثورة الروسية أعادت القصة نفسها، «فالنظام القديم» أعاد تجاه المفكرين المواقف نفسها التي مارسها «النظام القديم» في فرنسا نحوهم، ولكن هذه المرة كانت ردة الإنتليجنسيا التي برزت بينهم أكثر جذرية من سابقتها.

الثورة الأميركية التي تقدمت تاريخياً على الثورتين السابقتين تدل هي الأخرى على الظاهرة نفسها، إن السيادة البريطانية على المستعمرات الأميركية كانت تحول دون وصول المثقفين إلى أعلى المناصب، أو حتى إلى العمل السياسي على صعيد المستعمرات بشكل عام. لهذا كان من الممكن لقادة هذه المستعمرات التطلع فقط إلى مقاعد المجالس النيابية المحلية السفلى. وبما أن هذه المجالس كانت مركز سلطتهم، فإنهم عملوا على تحقيق أعلى درجة ممكنة من الاستقلال الذاتي لها. ولكن بعد مرور قرن من اللامبالاة السياسية بهذا التطور السياسي، أخذ التاج البريطاني يعمل على الحد من هذا الاستقلال، ولكن بما أن التقدم السياسي فوق هذه المجالس كان مفقوداً، فإن كثيراً من قادتها لم يجدوا أي مبرر للتنازل عما أخذوه سابقاً من منافسيهم في المناصب العليا، ولهذا تحولوا إلى أعداء للموظفين الكبار وللتاج الذي عينهم فيها، وأعلنوا أن ما تصنعه بريطانيا بهذه المجالس يشكل فقط مقدمة لما سيحدث لحريات جميع الأميركيين. هذا التناقض حفز على الثورة.

هذه الطريق المسدودة تحفز على الثورة وتساعد في تكوين الإنتليجنسيا، إحدى أدواتها الأساسية، لأنها تساهم في خلق تناقض أساسي بين المثقفين والنظام القائم، وتشكل عاملاً أساسياً في تحقيق استقلالهم، وذلك لأنها تخرجهم من هذا النظام وتدفعهم إلى خارجه، وبالتالي تخلق شرطاً أساسياً لنقده من هذا الموقع الخارجي، وإلى اكتشاف قوى جديدة نامية في داخله يمكن اعتمادها في تجاوزه.

إننا نشاهد حالياً في بلدان العالم الثالث ظاهرة مماثلة لما حدث في الثورة الروسية، الثورة الفرنسية، والثورة الأميركية، التي أشرنا إليها. ففي مرحلة أولى نرى أن الدول الاستعمارية تقيم مدارس لتدريب مجموعة من سكان المستعمرات وذلك في سد حاجتها إلى الطاقة البشرية في إدارة هذه الأخيرة. ولكن عدد هذه المجموعة لم يلبث أن زاد عن إمكانات المهن أو التوظيف الموجودة، وبذلك ظهرت شريحة مدربة لكن بدون طريق مفتوحة إلى توظيف خبرتها في عمل أو منصب.

لقد قاد هذا إلى مرحلة أخرى أو ثانية، وهي مرحلة الحركات القومية التي تدعو إلى التحرر من الاستعمار وإلغاء وجوده. لهذا لا يمكن، عند تقويم هذه الحركات، تجاهل هذا العامل، عامل الطريق المسدودة أمام المثقفين، في تحليل الأوضاع والأسباب التي دفعت إليها، فهذه الحركات القومية ضد الدول الاستعمارية تشكل، فيما تشكله، صراعاً يبغي تفريغ المناصب والوظائف المتوافرة من «السادة» الأجانب، وتحويلها إلى المثقفين الوطنيين، وذلك عن طريق الاستيلاء على السلطة وإقامة دولة مستقلة خاصة. إن خلق هذه الدولة بأجهزتها الإدارية المختلفة يشكل وسيلة ليس فقط في التعبير عن إرادة قومية مستقلة، وعن ثقافة شريحة أو

طبقة جديدة، بل في فتح الطريق المسدودة أمام توظيف إمكانات المثقفين العاطلين عن العمل، وتوكيد كرامتهم ضد الوجود الاستعماري الذي يهدد هذه الكرامة.

في مرحلة ثالثة، مرحلة الاشتراكية كأيديولوجية حركات التحرر، يمكن القول أيضاً إن هذه الاشتراكية نفسها تجد أحد أسبابها في الرغبة بتوسيع هذه الطريق المسدودة أمام المثقفين، وجعلها قادرة على استيعاب أكبر قدر ممكن منهم. فالاشتراكية يمكن أن تحدد بأنها الإزالة النهائية للحدود والموانع التي تقف أمام هذه الطريق، ففي تأميم وسائل الإنتاج والملكية تدمر الاشتراكية سلطة الطبقات الملاكة القديمة من إقطاعية وبورجوازية، وبذلك تنقل هذه الوسائل إلى سيادة الدولة الجديدة، وتوسع بالتالي الصعيد الذي يمكن فيه للمثقفين، أو «رأسماليي المعرفة الجديدة»، توظيف ثقافتهم وخبراتهم. بما أن سيادة وسائل الإنتاج من قبل الدولة تشكل بالضبط آلية تعمل لمصلحة الشريحة أو الطبقة الجديدة المكونة من المثقفين، نجد أن قطاعات كبيرة من هؤلاء تدعم هذه السيادة، فهذه السيادة وليس دمقرطة وسائل الإنتاج هي التي تشكل أحد أسباب انتصارهم لها. الاشتراكية تمثل إذن، فيما تمثله، أداة توسيع الطريق التي يمكن لها تأمين توظيف إمكانات أو خبرات المثقفين. إن السمة الحاسمة للاشتراكية هي إلغاء الطبقات القديمة وملكيتها لوسائل الإنتاج، وإحدى نتائجها المحتومة، سواء كان معترفاً بها أو غير مقصودة، هي تمهيد الطريق أمام المثقفين أو بالأحرى فتح الطريق تماماً أمام خبراتهم وإمكاناتهم غير الموظفة.

إن فارنر سومبارت، مثلاً، درس في أوائل هذا القرن خلفية المنظرين الاشتراكيين فوجد أن جميع هؤلاء تقريباً كانوا من الذين فشلوا في طموحاتهم المهنية. قد يكون سومبارت قد بالغ في هذه النتيجة أو في المعنى الذي يعطيه لها، ولكن لا شك أن الكثير من الأجيال الاشتراكية الأولى هم رجالٌ من الطبقة الوسطى لم يتمكنوا، لسبب أو آخر، من تحقيق الأهداف التي كانوا يتطلعون إليها في شبابهم. بما أن الحركة الاشتراكية كانت أكثر الحركات جذرية في نقض المجتمع القائم فإنها أصبحت الوعاء الطبيعي لأفراد هذه الطبقة «المنبوذين» أو «المهملين».

النقطة هنا هي أن الاشتراكية تعني امتداد دور الدولة ونطاقها، وبالتالي امتداد الفرص المتوفرة للمثقفين واتساعها. إن تطور الاشتراكية نفسه يصبح في الواقع، من هذه الزاوية مناسبة في توسيع الدولة كي يمكنها استيعاب هؤلاء.

هذا النوع من الطرق المسدودة أمام تقدم المثقفين لا يقتصر على بلدان العالم الثالث، بل يمتد أيضاً إلى العالم «الأول» - أو الغربي والعالم «الثاني» - أو الشيوعي في أوروبا الشرقية. إن ظهور تخمة في عدد حملة الشهادات الجامعية العليا وغيرهم من ذوي الاختصاص في غربي أوروبا والولايات المتحدة يشكل ظاهرة مماثلة.

في الاتحاد السوفياتي تجد، مثلاً، أن الروس يمارسون في بعض الجمهوريات الأثنية الأخرى دوراً كبيراً لا يتناسب مع عددهم، وهذا يمكن أن يقود إلى توترات تنمو وتكشف عن ذاتها مع ازدياد عدد المثقفين والأخصائيين في هذه الجمهوريات الذين يجدون عند تخرجهم أن وجود الروس والأوكرانيين يعترض تقدمهم المهني.

إن السد الأساسي أمام المثقفين في العالم الثالث، السد الذي يحوّل قطاعات كبيرة منهم إلى الإنتليجنسيا، كان يتمثل ولا يزال في وجود القوى الإمبريالية في شكلها القديم والجديد، وفي الأنظمة الرجعية والمحافظة التي تحتكر فيها طبقات محدودة السلطة والثروة. لكن في العالم «الأول»، العالم الرأسمالي، نجد أن طبقة الملكية الحالية هي التي تضع الحدود على تقدم المثقفين «فالمستعمرون الداخليون المحليون» الذين يشكلون الطبقة القديمة هم الذين يمثلون السد الأخير ضد تقدم «الطبقة» الجديدة، وعلى الرغم من وجود عوامل واعتبارات عديدة تدفعهم إلى تحسين أوضاعهم في الحياة، فإن «الطبقة» الجديدة من البرجوازية الثقافية تجد نفسها محدودة فيما يمكن لها أن تتطلع إلى تحقيقه. في النظام الرأسمالي تجد نفسها محدودة بالملكية، وفي النظام الاشتراكي بالحزب وشروط البراءة أو الشهادة الأيديولوجية، أي بأن يكون المثقف «أحمر». إن الواقع العام للمثقفين الذين يريدون الاشتراكية هو إزالة بورجوازية الملكية، أي الطبقة القديمة التي تشكل الحاجز المباشر لتقدمهم المستمر. على أي حال، فالانضمام إلى الحزب أسهل جداً من الانضمام إلى البورجوازية. لهذا يمكن القول إن وجود أشكال مختلفة من الطريق المسدودة أمام حركة المثقفين وتقدمهم يكشف عن احتمال قوي بتعميق اغتراب «الطبقة» الجديدة في المستقبل وبتقوية وحدتها الداخلية ضد الطبقة القديمة، وتحويلها إلى أداة ثورية.

إن اتساع نطاق الطريق المسدودة الذي ينتج عن ازدياد مستمر في عدد المثقفين أصبح واضحاً في الغرب - أوروبا الغربية والولايات المتحدة - ابتداء من أواخر الستينات. إننا نشاهد مرحلة تكشف أن هذا العدد أخذ يزداد عن الطلب، وبالتالي تظهر بطالة أعلى في وسط هذه «الطبقة» الجديدة، وضغوط متزايدة عليها بقبول أعمال لا ترغب فيها، مما يعني استياء متزايداً بين الذين يعملون. إن الحركية المتصاعدة السابقة لهذه الطبقة التي كانت تنفتح لها إمكانات متزايدة ونامية من الأربعينات إلى الستينات ابتدأت بالتقلص في أواخر الستينات. فالمثقفون الذين كانوا يشعرون بدرجة من الارتياح في أعمالهم وتجاه مستقبلهم المهني قد يرون سريعاً أن توقعاتهم المكبوتة أخذت تفرز درجة أعلى من الاغتراب، الاغتراب الذي يمكن أن يعدهم نفسياً إلى عمل ثوري، وإلى التحول إلى إنتليجنسيا.

هذه التخمة المتزايدة في الطاقة البشرية المثقفة تماثل أساسياً من حيث البنية تلك التي برزت في البلدان المستعمرة حيث كانت مصدراً كلاسيكياً لظهور حركات الاستقلال الوطني المضادة للإمبريالية، وخصوصاً لقيادات هذه الحركات، والتي لا تزال حالياً في بلدان العالم الثالث مصدراً للحركات الثورية. إنها تماثل أيضاً، وإن كان بقدر أقل، التخمة الثقافية التي أشرنا إليها كأحد العوامل الأساسية في تمهيد الطريق أمام الثورة الفرنسية، الثورة الروسية، وإلى حد ما الثورة الأميركية. هذه الزيادة النامية للمثقفين امتدت حالياً إلى البلدان الصناعية حيث أصبحت أحد المصادر المهمة للراديكالية السياسية، وحتى للعنف المسلح بين الشباب المثقف. فبينما يجد القادة الأكثر نشاطاً بين هؤلاء حوافز نشاطهم في اعتبارات أيديولوجية، فإن أتباعهم هم غالباً من الشباب المتعلم الذي لا يجد عملاً. هناك ما يدعو إذن إلى الاعتقاد بأن هذه العناصر البنيوية ستقود إلى نتائجها العادية في الولايات المتحدة، واليابان، وفرنسا، وإيطاليا، والبلدان الصناعية الأخرى.

في عام 1973 مثلاً تنبأت «لجنة كارنغي للتعليم العالي» في أميركا بأن كمية الطاقة البشرية المتعلمة ستزيد عن الطلب، وأن الذين يعملون سيجدون أن الأعمال المتوافرة غير مرضية. لقد وجدت مثلاً، وذلك تبعاً لدراسة «مكتب الإحصاءات العمالية»، أن نصف الذين يكونون في سن جامعية يكونون قد ذهبوا إلى الجامعات، على الأقل لمدة ما، وأن نصف هؤلاء قد يجدون أنفسهم يعملون في أعمال لا تحتاج إلى مستوى التعليم الذي حصلوا عليه، وأقل متعة مما يتوقعون. ثمة إشارات أيضاً إلى أن هناك تقريباً 30% من الذين حصلوا على أربع سنوات من الدراسة الجامعية بين الذكور يعملون آنذاك في أعمال عمالية أو إدارية، أو في مخازن تجارية، وبأن استمرار هذا الاتجاه قد يعني الانتباه «إلى أزمة سياسية.. كما هي الحال في سيلان، أو الهند أو مصر».

في عدد الشتاء، 1975، من مجلة «المنظر المهني» الأميركية يشير عالم اقتصادي في «مكتب الإحصاءات العمالية» بأن عدد الأعمال المتوافرة لحملة الدكتوراه بين عام 1972 وعام 1985، سيكون حوالى 187000، في حين عدد هؤلاء سوف لا يقل عن 580000 شخص. إن استمر هذا الاتجاه سيكون عدد الذين ينالون الدكتوراه عام 1985 أكثر من ضعف عدد الأعمال المتوافرة لهم. والوضع سيكون سيئاً بشكل خاص في العلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون.

إن ضغوط سوق العمل على «الطبقة» المثقفة الجديدة ستزداد حدة على الأقل في المستقبل القريب، وإذا استمر الحال على هذه الوتيرة، فإن القطاع التقني الذي كان مميزاً حتى الآن سيشعر بهذه الضغوط المتزايدة. إن النتيجة لظهور هذه الموانع في طريق هذه الطبقة المثقفة يمكن أن تكون ظهور وحدة متزايدة بين أفرادها، وحدة متعددة الأشكال، أو حتى وحدة تتخذ شكلاً راديكالياً متزايداً يتجه ضد الطبقة القديمة. وفرة الطاقة البشرية المتعلمة المتزايدة إن قادت إلى اغتراب متزايد ووحدة بين «الطبقة» الجديدة، فإن ذلك لن يكون المرة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا في الغرب. لقد حدث شيء مماثل أثناء الأزمة الاقتصادية الكبيرة في الثلاثينات، في إنكلترا، والولايات المتحدة، وفرنسا، وخصوصاً في ألمانيا حيث دفعت الأزمة قطاعاً كبيراً من المثقفين إلى الانضمام إلى الحركة النازية. هنا يكمن خطر تحول كهذا، فالتجربة النازية والفاشستية في الثلاثينات تدل بأنه لا يمكن بالتالي تزكية الافتراض الاعتباطي بأن اغتراب المثقفين سيقود بالضرورة إلى اليسار، والتماسك مع طبقة العمال القديمة»[1].

هنا تجدر الإشارة إلى جانب آخر قد يحد أو يلغي بقدر كبير هذه النتائج الثورية التي يمكن أن تترتب على اتساع هذه الطريق المسدودة أمام حركة المثقفين. فهناك، كما أشار عدد من الباحثين، احتمال بأن المكانة التي تقترن بالتعليم الجامعي تتغير مع نسبة المتعلمين إلى حجم السكان. إن عدداً قليلاً نسبياً من ذوي الدراسات العليا يشجع على الاحتفاظ، أو حتى تقوية قيم نخبوية بين خريجي الجامعات. ولكن إن كان عدد الذين يتابعون الدراسات الجامعية كثيراً نسبياً، فإن الضغوط تكون في جهة معاكسة، أي ضد هذه القيم. ففي كثير من بلدان أميركا اللاتينية، مثلاً، يصبح الطلاب الجامعيون بشكل آلي تقريباً «جزءاً من النخبة». كون الطالب

(1) راجع حول هذه الظاهرة: Gouldner, A.: op.cit. pp. 60 - 71.

الجامعي ابن وزير أو عامل يكون دون أهمية كبيرة. إن تسجيله في الجامعة في ذاته يجعل منه «واحداً من الألفين» ذوي الامتيازات الكبيرة في البلاد، ولكن في الولايات المتحدة، مثلاً، حيث يوجد نظام تعليمي شعبي عام، فإن قليلين من خريجي الجامعات يتوقعون بلوغ مكانة اجتماعية عليا. كثيرون منهم يحصلون على وظائف أو أعمال منخفضة المستوى، وعدد آخر يجد أن عليه أن يعمل في أعمال يدوية، وبدون قدر كبير من التذمر. أما عندما يدخل عدد قليل الجامعات، كما نجد في بريطانيا، مثلاً، فإن الخريجين الذين لا يحققون مكانة مماثلة لمعظم الخريجين الآخرين، يشعرون بهذا التذمر، إن «الجماعة ـ المرجع» لهم، كما يُقال في علم الاجتماع، تكون جماعة أكثر نجاحاً، وهذا يولد فيهم قدراً من الاستياء من الوضع الاجتماعي السياسي العام، أو النظام القائم[1].

المدرسون الجامعيون أيضاً يجدون أنفسهم، كالطلاب، في منافسة متزايدة مع الوقت، في وضع يتميز بتقويم دائم لمكانتهم في مؤسسات المرتبية الاجتماعية، سواء على الصعيد الوطني العام أو الصعيد المحلي. إن بعض هؤلاء فقط ينجحون في تحقيق اعتراف عام بهم، ولهذا فإن الأكثرية تجد نفسها في وضع يثير استياءها. ومع انخفاض قيمة الدور التعليمي كمصدر للمكافآت المالية والمكانة الاجتماعية، فإن كثيرين من الذين يخسرون في المنافسة القائمة بين جيلهم، أو من الذين يرون، عندما ينجحون، أن جيلاً جديداً صاعداً ابتدأ يحصل على المكانة التي كانت لهم سابقاً، يعانون خيبة وقلقاً عميقين. الجامعات والمعاهد التي أخذت تزداد منافسة فيما بينها في الحصول على علماء معروفين، تشجع مشاعر كهذه بين الجامعيين القدماء والشباب وذلك بمكافآت مثيرة لأنها تحدث غالباً بشكل علني وتتركز على الذين يتميزون بقيمة عليا في هذه المنافسة حول الوجاهة الجامعية. مشاعر كهذه تعزز ميول المدرسين الجامعيين في كراهية الإدارة الجامعية بالإضافة إلى كراهية تتجه إلى القيم والمؤسسات السائدة في المجتمع بشكل عام. وهذا يعدّهم نفسياً لمعارضة النظام الاجتماعي السياسي نفسه. لهذا فإن كثيراً من الأساتذة الجامعيين يجدون تعزية في تمرد الطلاب على القوى التي يعتبرونها مسؤولة عما يشعرون به من قلق أو دونية في مكانتهم[2].

إن ثورة الطلاب في الجامعات الغربية وخصوصاً في الولايات المتحدة تقدم لنا مثلاً واضحاً عن هذا الاتجاه الذي يعمل على تثوير المثقفين، فالطلاب المتمردون كانوا ينتمون إلى «الطبقة» المثقفة الجديدة، ولكن هذا لا يعني توكيد أصولهم البورجوازية التقليدية. جميع الدراسات التي ظهرت حول هذه الثورة الجامعية تكشف أن معدل دخل عائلة الطلاب المتمردين كان أعلى من الدخل المقابل لعائلات الطلاب غير المتمردين. ولكن مصدر هذا الدخل المتباين كان مصدراً خاصاً يتفرع من أعمال ذات طبيعة فكرية أو مهنية. إن أبناء العمال والشرائح السفلى من العمال الإداريين، وكذلك أيضاً أبناء المدراء وذوي الأعمال الصناعية كانوا ممثلين بشكل ضعيف في حركة الطلاب المتمردين.

---

(1) Lipset, M.S.: Revolution and Counter - Revolution Anchor Books, 1970, p. 136.
(2) Anderson, C.H. ed.: Sociological Essays and Ressarch, The Dorsey press, 1970, pp. 247 - 248.

الطلاب المتمردون كانوا غالباً أبناء جيل سابق من «طبقة» المثقفين الجديدة، جيل كان يتشكل في أكثر الأحيان من ليبراليين، ومهنيين مدنيين يعملون في مدن كبيرة ويربون أولادهم بشكل يوحي إليهم بالاستقلال في الفكر والتشكيك في السلطة التقليدية. الطلاب المتمردون كانوا بكلمة أخرى يتعلمون المبادىء الأولى للفكر النقدي من آبائهم وأمهاتهم قبل دخولهم الجامعة بفترة طويلة. إن أهمية الفكر النقدي في تلقيح الطلاب المتمردين بالاغتراب، وخصوصاً عندما يرون الطريق مسدودة أمام حركتهم، تجد دعماً إضافياً في كون التمرد بلغ أعلى درجاته بين طلاب العلوم الإنسانية والاجتماعية أو العلوم النظرية التي تشكل قلاع هذا الفكر الجامعية.

القمع الفكري

الضغوط السياسية التي تقمع حرية الفكر، أو تحد كثيراً منها وتتدخل فيها، كانت أحد العوامل الأساسية في ظهور الإنتليجنسيا وتثويرها.

الثورة الفرنسية تقدم لنا أيضاً النموذج الكلاسيكي الأول عن النتائج الثورية التي تترتب على ضغوط من هذا النوع.

الرقابة كانت شديدة والعقاب لكتابة أشياء أو طبع كتب غير مسموح بها كان صارماً: الإعدام بموجب قرار صدر عام 1775. هذه الرقابة كانت عاملاً قوياً في اغتراب المفكرين الذين كانوا يشعرون بمرارة قوية وغيظ حاد باعتباطية المراقبين وعداء النظام الذي يمثلونه. ولكن اغتراب هؤلاء من المجتمع الذي يعيشون فيه كان يتفرع أيضاً من ميولهم كمفكرين وليس من القيود الخارجية فقط.. إن «الفلاسفة» كانوا يشعرون أنهم يشكلون طبقة خاصة ومميزة. عندما يكون الفرد مفكراً حقاً، فإنه يمارس في اعتقادهم عملاً اجتماعياً نتيجة لهذا الالتزام الفكري نفسه. إن دالمبار، أحد كبار «الفلاسفة» قال مرة، «سعداء هم رجال الفكر حيث أدركوا أخيراً بأن أحسن الطرق في تحقيق الاحترام لأنفسهم هو العيش متحدين ومنغلقين مع بعضهم، لأنهم بهذا الاتحاد يتمكنون من إعطاء الآخرين دونما صعوبة القانون في جميع قضايا الذوق والفلسفة»[1].

المراقبة قامت، في الواقع، «بدورها في إحداث ذلك الطلاق بين المثقف وبين الفرضيات السائدة التي كانت تعتمدها الطبقات المهنية، وهو طلاق دفع التاريخ الحديث، بل إن الصراع مع المراقبين أعطى الكتاب وعياً جماعياً وراية يتجمعون حولها»[2].

في إنكلترا أو فرنسا في القرن الثامن عشر، كان الصراع لأجل حرية الصحافة، وديمقراطية الكلمة وضمانات الملكية الفكرية، إلخ.. جزءاً من حركة تدفع الفكر إلى اعتبار ذاته كالضمير المرهف للمجتمع الجديد. والكاتب كان يفرض ذاته مرة في ظل الفردية البورجوازية، ومرة في طليعتها، ولكنه كان يذهب إلى أبعد من ذلك، ويدافع بقلمه عن الطبقات المحرومة أكثر

---

(1) Burns, James: Leadership, Harper and Row 1978, p. 147.
(2) Coser, L,: op. cit. p. 89.

من غيرها. على أي حال، فإن دوره كان نقدياً، وسعادته كانت ترتبط باستقلاله تجاه السلطة. إن الفردية البورجوازية الأساسية كانت تغذي فرديته، ولهذا لم يستطع أبداً المفكرون في أوروبا أن يشكلوا حقاً طبقة»[1].

إن التوترات التي رافقت بداية المجتمع البورجوازي بين المثقفين والبورجوازية كانت عادة مجمدة بسبب معارضتهم الواحدة «للنظام القديم» الذي كان يمارس ضدهم سياسة قمع واحدة تحد من حركتهم في متابعة مصالحهم. وجود العدو المشترك دفعهم إلى العمل كجبهة واحدة. العقلانية الفرنسية أو عصر التنوير هو الذي أعطى لهذه المصالح المشتركة العقلنة والشمول. الرقابة القمعية كانت تشكل ضغطاً قوياً يحث المثقفين على التحول إلى صوت عام للملكية البورجوازية. إن شمولية الصراع ضد «النظام القديم» كانت تعود جزئياً إلى مقاومة القمع الفكري الذي كان يمارسه، وتتجه ضد الحدود التي كان يضعها على حرية المفكرين في النشر وتحقيق دخل من كتاباتهم.

الثورة البورجوازية قامت عادة في تحالف بين القطاعات المالكة والقطاعات الفكرية في الطبقة الوسطى - البورجوازية والمفكرين. إنها كانت تجد أساسها بالتالي في وضع مرحلي جداً كانت تخضع فيه الملكية الفكرية وأشكال الملكية الأخرى لقمع مشترك يوحد بينها. هذا التحالف التاريخي انفصم سريعاً عندما استلم قسم الملكية الاقتصادية السلطة في الدولة والاقتصاد، وبذلك وسع من سيادته على القسم المثقف في الطبقة الوسطى. القوة الاقتصادية ابتدأت إثر ذلك بالحلول محل رقابة الدولة كسبب لعداء المفكرين، إن ازدراء هؤلاء لغير المثقفين يعبر عن الانتقال من رقابة الدولة إلى «رقابة» السوق التجاري.

في الثورة الروسية نجد تحالفاً بين المثقفين من ناحية، والعمال والفلاحين من ناحية أخرى، وهو تحالف يعود إلى قمع مشترك يمارسه النظام القديم ضدهم. هنا نرى أيضاً أن نجاح الثورة أدى إلى انفصام بين الصراع الفكري الذي مارس السلطة من ناحية، وبين الفلاحين أولاً، ثم قطاع من المثقفين الذين بقوا خارج السلطة.

إن أداة التعبير الذاتي والتأثير في الآخرين ميزة يتمتع بها المثقفون وتكمن في وسائل النشر، ولهذا كان من الضروري تأمين حرية استخدامها. إن الإنتليجنسيا، على عكس الطبقة البورجوازية، لا تشتري القبول لمصالحها، بل تعمل على الإقناع بها. من ناحية أخرى، لا تملك وسائل العنف المتوافرة للسياسيين، ولا تستطيع أن تفرض غاياتها، كما يفعل الآخرون، باستخدام هذه الوسائل، لهذا فإن المثقفين ينالون ما يريدون عن طريق الكتابة التي يحاولون بها الإقناع وتقديم الدليل العلمي والحجة العقلانية.

لهذا فإن مصالح المثقفين المادية والسياسية ترتبط بتأمين استخدام وسائل النشر بحرية، وبسيادة للحريات التي تؤكد وتصون حقهم في الكتابة والنشر. إن تعطيل هذه الحقوق يشكل عائقاً أساسياً لجهود المثقفين في تحقيق ما يرغبون فيه من تقدم. بما أن صعودهم

(1) Naville, Pierre: la révolution et les Intellectuels, Gallimard, 1975, pp. 160-161.

وتقدمهم يرتبطان بقدر كبير بتوفر حرية الكتابة والنشر، فإن مقاومتهم للقمع الفكري كانت تشكل أحد الصراعات الأساسية التي كانت تحفزهم على الثورة.

في نظام مستقر، متعدد الأحزاب، ومنفتح للحريات، يتمتع المثقفون بحرية تامة في التعبير عن أفكارهم، وهي مزية لا يترددون في ممارستها، ولكن بما أنهم لا يشغلون في وضع كهذا أي موقع استراتيجي يمكنهم بأن يهددوا بالانطلاق منه النظام السياسي الاجتماعي، فإن هيجانهم يكون لفظياً صرفاً. ولكن عندما يكون النظام استبدادياً، أوتوقراطياً، أو غير مستقر، يصبح المثقفون الجماعة الوحيدة التي يمكن لها تبني مشاريع وبرامج معارضة للنظام، ويفرزون من وسطهم الإنتليجنسيا التي تتكلم ثورياً بلسان جميع القوى الاجتماعية المسحوقة، أو الممنوعة عن التعبير عن ذاتها في الصعيد السياسي.

هذا التمرد العام على القمع الفكري الذي أشرنا إليه كان يحدث، كما هو واضح ضمنياً على الأقل في الملاحظات السابقة، وفي أوضاع تاريخية انتقالية، أي أوضاع تكشف عن انهيار يصيب «النظام القديم» نتيجة ظهور قوى اجتماعية واتجاهات تاريخية جديدة يعجز النظام عن استيعابها. الإنتليجنسيا كانت تعبّر عن هذه الاتجاهات وتثقف القوى الجديدة بأشكال الوعي التي تحتاج إليها في توكيد ذاتها. هذا يعني أن حرية الفكر الذي يمارس ذاته رغم الضغوط والقيود التي تحاول أن تشل نشاطه، لا تكون نتيجة رغبة صرفة، بل تحتاج إلى أوضاع من هذا النوع في ظهورها، وفي ممارسة دورها التاريخي الفعال كما تمثله الإنتليجنسيا.

مناقشة وتحليل الأوضاع التي يمكن فيها تجميد الفكر ونشاطه الحر أو الأوضاع التي يمكن لها الدفع إلى تحريره والكشف عن طاقاته موضوع يخرج عن نطاق هذه الدراسة، وهو يحتاج إن أردنا معالجته بشكل منظم (systematic) إلى دراسة خاصة مستقلة.

ولكن من الممكن الإشارة إلى ذلك بالقول بأن الجمود الفكري وكبح أو قمع النشاط الفكري الحر يحدث:

1 . في وضع يسوده جمود وثبات المعتقدات العامة التي تعطي النظام الاجتماعي السياسي هويته.

2 . في مجتمع تقليدي يحدد فيه التقليد المفاهيم والتصورات العامة التي يعبر فيها الوعي عن ذاته. التقليدية التي تميز مجتمعات كهذه تجرد الفكر ليس فقط من النشاط الفكري الحر، بل من القدرة على الإبداع والخلق، لهذا أشار بعض المفكرين بأن مراحل الانهيار الذي يصيب الحضارات والأنظمة الاجتماعية السياسية هي أجمل المراحل التاريخية وذلك لأنها توفر للعقل الحرية المرحة وغير المقيدة، التي تعمل دون حدود وقيود.

3 . المجتمعات العسكرية التي تعطي الفاعلية في الحرب أولوية على كل شيء. هذه الفاعلية تتطلب شجاعة لا تفكر، ونظاماً قاسياً وولاء تاماً. إن البوشيدو (Bushido)، شريعة «الساموراي» اليابانيين تضمنت المبدأ التالي: «لا تفكر: التفكير يصنع جبناء». هذه العسكرية تتناقض، في أشكالها المختلفة، القديمة والحديثة، مع الخلق الفكري الذي يفترض استقلال الفكر وموقفاً نقدياً لوجهات النظر المقبولة والسائدة. لهذا ليس من الغريب أن

تكون المجتمعات التي كانت تتجه ثقافتها نحو الحرب تقدم إسهامات ضئيلة للعلم والفلسفة والفنون. إن أسبارطة، مثلاً، التي كانت تدور حياتها كلها حول التدريب العسكري، لم تقدم شيئاً. إنها حرمت في الواقع، الفلسفة والفن كيما تحول دون «تلويث» ممكن للروح العسكرية. مجتمعات عسكرية أخرى كالمجتمع الروماني، المغولي، والتركي كانت غير منتجة أيضاً في الفكر والأدب والفن، روما أنتجت ما أنتجته من فكر كبير في دور انحطاطها. التراث الثقافي الذي تركته اليونان القديمة كان كله من نتاج المدن التجارية، ومن نتاج مرحلة انحسر فيها التقليد ووحدة المجتمع الصلبة التي كانت تعبر عن وحدة هذا التقليد. في ألمانيا كان الفكر والأدب والفن من نتاج البورجوازية غير العسكرية وليس من نتاج الأرستقراطية العسكرية، وأكثرية إنتاجها لم تكن في بروسيا بل في الإمارات الأخرى الأقل عسكرية.

4 - أوضاع تسودها أزمات داخلية كبيرة ومخاطر خارجية. أوضاع كهذه تدفع، كما تدل التجربة التاريخية، إلى الحد من حرية الفكر وتقليصها أو حتى إلغائها تماماً، وذلك لأنها تتطلب تركيز الجهود على مواجهة الأزمات والمخاطر التي تتخذ آنذاك أولوية على كل شيء آخر.

5 - الأوضاع التي تبرز فيها سلطة ثورية جديدة تسود الدولة وتعمل على إقامة مجتمع أو نظام جديد، تلجم الفكر المستقل لأنها تقدم الالتزام للتصورات والمفاهيم الجديدة على الحرية الفكرية غير المقيدة. إنها مراحل تنتج الفكر الكبير في بدايتها وفي مجرى تبلورها ونضالها نحو الاستيلاء على السلطة، وليس بعد الانتصار وممارسة السلطة. هذا القمع لحرية الفكر يستمر إلى أن يستقر النظام الثوري الجديد ويقيم المؤسسات الجديدة التي تحقق في الواقع المفاهيم والتصورات الجديدة. هذا القمع يفرض ذاته لأن الثورة تعني بالضبط إلغاء المؤسسات والتصورات القديمة التي تنظم وتوجه وعي المجتمع وسلوكه، وبالتالي فراغاً يفرض على السلطة الثورية ذاتها أن تملأه إلى أن تقوم وتستقر مؤسسات وتصورات جديدة تحل محل التي تم إلغاؤها. عندئذ يخسر القمع أرضيته وتبريره.

6 - أوضاع تدفع بطبيعتها أو جدليتها ذاتها إلى خمود الفكر: نمط في الحياة يغذي الخمول وترف جلف أو غير مثقف وعزلة المفكرين التي تبلد أثر ودور وجهات نظرهم على الرأي العام. وهو أمر يفترض أن تكون الجماهير راضية عن نمط حياتها وأن لا تكون ذليلة، وأن تكون أسباب التسلية متوافرة لها، وأن تكون مكانة المفكرين أنفسهم منخفضة.

وأخيراً تجدر الإشارة بأن المجتمع الصناعي الحديث يعني في ذاته توسيع نطاق الفكر المستقل، حرية المثقفين، وتقليص قدرة السلطة على ممارسة القمع الفكري بشكل جامع كما كان يحدث سابقاً، وذلك لأنه يعني تعقيداً مطرداً، ونمواً سريعاً في أعداد وأهمية ونفوذ المثقفين، الذين لا يستطيعون العمل بفاعلية بدون حرية فكرية. في مجتمع صناعي حديث متقدم لا تستطيع السلطة، بكلمة أخرى، تصفية عشرات أو مئات الألوف أو حتى الملايين من المثقفين والخبراء. لهذا يمكن القول إن حركة التاريخ في المرحلة الحالية تعني تقليص القمع الفكري وتوسيع نطاق الحرية الفكرية. ولكن من ناحية أخرى، يمكن القول أيضاً إن نمو هذا المجتمع يعني نمواً للقيود المالية والاقتصادية التي تحد وتضبط حرية الفكر والبحث. فهذه الحرية يمكن أن تنكمش مع ارتفاع سعر الأدوات والوسائل الضرورية للبحث العلمي. إن فيزيائياً

ذرياً اختبارياً، مثلاً، لا يستطيع القيام بأي بحث لا ترى السلطات أنه ذو قيمة. إنه على نقيض غاليليو أو أينشتاين، لا يستطيع أن يختلف جذرياً مع رأي زملائه الأعلى مرتبة، أو مع السلطات السياسية، لأن أدوات وأوضاع البحث العلمي تحتاج إلى أموال طائلة تتوفر فقط عن طريق الدولة والمؤسسات العلمية الضخمة. إن البحث الاجتماعي نفسه محكوم عليه عندما يكون من النوع الواسع النطاق، أن يتحول إلى التوافق في العمل مع إرادة السلطات السياسية والعلمية، وذلك للاسباب نفسها. إنه يجد التمويل الذي يحتاجه فقط عندما يعمل مع هذه الإرادة، أو عندما يكون عادياً إلى درجة تجعله مقبولاً من الإداريين المسؤولين عن هذا التمويل، ثم إن حرية نشر الأفكار تصبح أقل حرية مع ارتفاع التكاليف، وذلك لأن الهيمنة عليها تنتقل من منتجي الأفكار إلى مدراء دور النشر الكبيرة، وملاكي الثروة. من هذه الناحية، يمكن القول إن التحولات التي حدثت في مركز ووضع المثقفين في المجتمع الحديث يمكن أن توصف باختصار على أنها وسعت مجال الفرص في دخول صفوفهم، ولكن هذا التوسع يكون من النوع الذي ترافقه أيضاً إمكانات كبيرة في التضييق على حريتهم.

البطالة

البطالة التي يتعرض لها المثقفون أو التي يمكن أن تهددهم تحفزهم على التحول إلى إنتليجنسيا. الأجيال الأولى من المثقفين الذين أفرزتهم حركة التحديث في أطوارها الأولى. كما نجد في تاريخ الثورات الحديثة. كانت تتعرض بشكل خاص لهذه البطالة. والذين كانوا فريسة لها، أو يشعرون بخطرها بشكل مباشر كانوا يشكلون «بوهيميا» خارج النظام القائم توفر للإنتليجنسيا مصدراً دائماً لتثويرها وتوسيع صفوفها. المثقفون الذين لا يجدون عملاً، أو يمارسون أعمالاً لا تتناسب مع كفاءاتهم، أو بعيدة عن اختصاصهم كانوا باستمرار يشكلون أهم قوى الإنتليجنسيا، قوة من أهم القوى التي يمكن للثورة اعتمادها في تدمير النظام القائم.

من ناحية عامة، يمكن القول إنه «بقدر ما يرتفع مستوى التعليم بين العاطلين عن العمل.. بقدر ما يصبح السلوك السياسي الذي يترتب على ذلك متطرفاً. الخريجون الجامعيون المغتربون يهيئون الثورات. إن خريجي المدارس الثانوية والتقنية المغتربين يقومون بانقلابات عسكرية. والذين يغادرون الدراسة في المدارس الابتدائية ينهمكون بشكل أكثر في الاضطرابات السياسية ولكن في أشكالها الأقل معنى»[1].

هذه الظاهرة الثورية التي تترتب على البطالة في أوساط المثقفين أخذت تبرز في المجتمعات الرأسمالية الغربية المتقدمة كما نجد، مثلاً، في الجمعيات الإرهابية التي تعود بقدر كبير إليها. ولكن هذه الدفعات من الإنتليجنسيا الثورية كانت على الأقل وحتى الآن محدودة العدد والأثر في هذه المجتمعات، إذ كان من الممكن لهذه الأخيرة امتصاصها بسبب نموها الاقتصادي الذي يعني فائضاً يمكن استخدامه لهذا الغرض. خريج الجامعات العاطل عن العمل أو الذي يعمل في أعمال لا تتناسب مع «كفاءته» أصبح ظاهرة مألوفة في الغرب وشمالي أميركا، ظاهرة تنطوي على احتمالات ثورية بالنسبة للمستقبل. إن أحد الأسباب الأولى لثورة السود مثلاً، أو اتساع درجة نضالهم في الستينات والخمسينات كان يتفرع من ارتفاع مستوى التعليم ولكن دون تحسين مادي في المقابل.

---

(1) Huntington, S, : Political order in a changing society, Yale University Press, 1968, p. 48.

إن اغتراباً سياسياً كبيراً يمكن أن يظهر على نطاق واسع بين المثقفين الأميركيين أنفسهم، وليس في أوروبا الغربية فقط وذلك كلما أخذ وعيهم النقدي لوقائع الاقتصاد السياسي يقترن بخسارة مفاجئة للمكانة الاجتماعية والطمأنينة الاقتصادية. اتساع الاتحادات النقابية بين المدرسين الجامعيين قد يكون المظهر الأول لهذا التحول.

كتب توكفيل في الثلاثينات من القرن الماضي متعجباً من قبول الأميركيين الإجماعي لمنافع التعليم العام، ثم أضاف: «إن ما يزعجنا أكثر من أي شيء آخر في أوروبا هو أن الذين يولدون في مرتبة اجتماعية سفلى، ثم يحصلون على علم يولد فيهم الرغبة في الخروج منها، لا يجدون الوسائل متوافرة لهذا الخروج. في أميركا لا يوجد أي شعور بهذا الجانب المزعج للتعليم لأنه يقدم دائماً الوسيلة الطبيعية للفرد في إثراء نفسه، ولا يخلق أي اضطراب اجتماعي»[1]. ثم يضيف، إن الخوف من هذا الاضطراب غير موجود، وذلك لأن الموارد الطبيعية المتوافرة لا تزال أكثر بكثير من قدرة الناس على استنزافها، ولذلك ليس هناك من طاقة أخلاقية أو نشاط فكري لا يجد مخرجاً له. هذا الوضع تغير حالياً «فالاضطراب» الذي يترتب على عدم وجود الوسائل الكافية والمرضية في استخدام المثقفين أو الإفادة منهم أصبح احتمالاً قائماً.

«الطبقة» المثقفة في الأزمنة الحديثة تجد نفسها في وضع غير حصين، وضع معرض للعطب من ناحية اقتصادية ليس فقط في بلدان العالم الثالث، بل في الغرب أيضاً. إن «الجيش الصناعي الاحتياطي» الذي تكلم عنه ماركس كان أقل تحريكاً للثورة من «الجيش الثقافي الاحتياطي»، فالثاني كان أكثر نقمة، وتمرداً وقدرة في التعبير عن ذاته، وأقل استسلاماً للأوضاع والأنظمة القائمة. إن إنكلترا مثلاً، كانت تنتج ابتداء من الثمانينات في القرن الماضي فائضاً من المثقفين لم يكن بإمكان الاقتصاد استيعابه.

إن وليام كلارك، أحد مفكري الحركة النقابية، وصف «البروليتاريا الثقافية» في أحد البحوث النقابية الأولى، كما يلي:

«منذ خمسين سنة كان بالإمكان تجميع الكتاب الصحافيين في غرفة واحدة من الحجم المتوسط، ولكن عددهم الآن يبلغ العشرة آلاف، كل من يحمل ريشة، وحبراً وورقاً، وقادر بأي شكل على إعداد «مقال»، يعمل كصحافي. إننا نرى رأساً أنه من المستحيل على جميع هؤلاء أن يحققوا دخلاً يعيشون منه. إنهم لا يحققون ذلك، ولا يستطيعونه، ولكن في حين أن العامل الذي لم يعرف أبداً الرفاه، وكان والده أيضاً لا يعرفه، يستطيع تحمل درجة رهيبة من الفقر دون أن يصبح يائساً، فإن الشاب الكريم الأصل لا يستطيع هذا. النتيجة هي أن التذمر الأكثر حدة وخطراً يأتي من الطبقات المتعلمة التي تقود الجماهير الاشتراكية في جميع أوروبا»[2].

حيثما كان المثقف يعيش في نظام اقتصادي اجتماعي يحرمه كنتيجة لعمل بنيته ذاتها من أسباب العيش والمكانة الاجتماعية، فإنه يرد على ذلك بنقد ثوري. إن الاشتراكية الثورية ظهرت

---

(1) ذكرها: Reeves, Richard: American Journey, Simon and Schuster, 1982, pp.:

(2) Clarke, W.: "The Fabian Society", in G. Bernard Shaw, ed. Fabian Essays in Socialism, 1911.

وامتدت كرد على ذلك. «البروليتاريا الثقافية» دللت تاريخياً بأنها أكثر ثورية، كما يبدو، من جميع الجماعات الأخرى.

هذا لا يعني أبداً أن النقمة الاقتصادية هي التي كانت تحول المثقفين إلى إنتليجنسيا، أو أنها كافية في تفسير ظهور الأخيرة. فقد كان من السهل، مثلاً، استيعاب الآلاف القليلة من الإنتليجنسيا الروسية في أواسط القرن التاسع عشر في جهاز الدولة البيروقراطي المتزايد النمو باستمرار، أو في المهن الحرة التي كان نطاقها ينمو بازدياد. بالإضافة إلى هذه النقمة الاقتصادية التي أشرنا إليها، كانت هناك تصورات أيديولوجية تلهم الإنتليجنسيا، تطلعات غيرية تحفزها، شعور بالذنب حول وضع الشعب المسحوق بالاستثمار والاستبداد، رغبة بالتضحية بالذات نفسها لأجل الشعب وتحريره، وشوق إلى التعبير الحر عن فردية هذه الذات وطموحاتها. إن الإنتليجنسيا الروسية كانت طبقة من الطلاب المطرودين والصحافيين الخاضعين للرقابة والمثقفين المغتربين، الذين اندفعوا بائسين إلى العمل الثوري.

إن «إنتاج» حملة الشهادات الجامعية في البلدان النامية امتداداً من روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وانتهاء في الهند، المكسيك، أو نيجيريا، حالياً، كان يتجاوز كثيراً قدرة «السوق» على استيعابهم وتوظيفهم.

كان هذا من أهم عوامل الثورة في هذه البلدان. «إن غياب خريجين جامعيين عاطلين عن العمل في بريطانيا والولايات المتحدة كان أحد الأسباب الأساسية في حصانة البلدين النسبية ضد الماركسية، ولكنهما لحقا الآن بالبلدان النامية»(1).

عندما كان يواجه كثيرون من المثقفين في الولايات المتحدة صعوبات جمة في الحصول على عيشهم، كما نجد في الثلاثينات مثلاً، فإن العداء للنظام الاجتماعي كان واسع الانتشار بينهم.

إن هيمنة الأيديولوجية المحافظة المحدثة جاءت مع الرفاه وتوفر العمل تماماً بين المثقفين في أواخر الخمسينات وبداية الستينات. «إن اضطهادهم الشديد (حتى في عهد ماكارثي) كان عاجزاً عن اقتلاع الميول الثورية من أوساطهم»(2).

في مجتمع صناعي متقدم حيث يكون العمل متوفراً كما حدث في الخمسينات والستينات وبداية السبعينات في ألمانيا، وبريطانيا، وفرنسا، إلخ.. يمكن لمثقف بدون مال، مُنع بسبب ثوريته من العمل في الدولة ومؤسساتها أو الصحف، أن يتجنب الفقر والحرمان لأنه يستطيع أن يجد عملاً يدوياً ما. وبما أن ساعات العمل قصيرة نسبياً، فإنه يستطيع متابعة مشاغله الفكرية ودراساته إن كان يتميز بإرادة قوية. ولكن في البلدان الفقيرة، كما يحدث في كثير من بلدان العالم الثالث، حيث تكون البطالة عالية، وحيث يعمل العمال ساعات طويلة لقاء أجور ضئيلة، وحيث تقتصر المعاشات «العالية» على الموظفين المدنيين والأكاديميين، فإن المثقف الثوري أو

(1) Andreski, S.: Prospects of a Revolution in U.S.A. Harper, Colophon Books, 1974, p. 49.
(2) Andreski, S.: The Uses of Comparative Sociology, the University of California Press 1969, p. 205.

المتمرد الذي لا يملك ثروة خاصة يواجه خيارين: إما التقيد بالسياسة الرسمية الذي تترتب عليه مكافأة جيدة، وإما البؤس إن هو عارض وقاوم.

المفهوم الليبرالي الكلاسيكي كان يطابق بين التعليم والتقدم، أو فرص العمل، ويعتبرهما شيئاً واحداً. ولكن التجارب تكشف بوضوح عن تمايزهما، لأن التعليم الجامعي العالي لا يقود بالضرورة إلى هذه الفرص أو العمل. إن المدخل للشعور الثوري بين شباب العالم الثالث ليس الحاجة إلى التعليم، بل غياب الفرص التي تتبع التعليم. الهمّ الكبير هو ماذا يمكن عمله بعد الحصول على هذه الدراسات الجامعية العليا!.

في البلدان التي دخلت مرحلة التحديث دون أن تخلق مجتمعاً حديثاً، يواجه المثقفون مأزقاً تاريخياً لأن حركة التحديث تنتج أفواجاً متتابعة، ولكن بدون أن تخلق المجتمع الذي يمكن أن يستوعبهم ويوظف إمكاناتهم. المثقفون يجدون أنفسهم بدون الأعمال والوظائف والمسؤوليات المهنية التي تعود إليهم في المجتمعات الصناعية المتقدمة، وأن ليس من مخرج أمامهم سوى توكيد ذاتهم ثورياً ضد المجتمع أو النظام الذي ينكرهم أو يخنقهم، فيقطعون العلاقة به باعتماد أيديولوجية ثورية واللجوء إلى العمل أو العنف الثوري الذي يترتب عليها، وبذلك يرفضون الطرق الإصلاحية التي يرجع إليها المثقفون عادة في المجتمعات الصناعية المتقدمة. «هكذا تولد ظاهرة الإنتليجنسيا الثورية، أي جماعة حرة من المثقفين، جاهزة للعمل الثوري بسبب استثنائها من الأعمال والمراكز والوظائف المتوفرة للمثقف الحديث، وذلك بسبب غياب البنية الاجتماعية الاقتصادية المتطابقة مع ذلك. عندما تبرز ظاهرة الإنتليجنسيا المتلازمة مع أزمة المجتمع ما قبل - الصناعي، فإن هذا المجتمع يكون في طريقه إلى الثورة»[1].

البطالة الثقافية في بلدان العالم الثالث تقود إلى نتائج اجتماعية وسياسية ذات أهمية كبيرة، لأن المثقف غير الغربي متسيس إلى درجة غير معروفة في الغرب، ولأن وجودها يساهم بشكل أساسي في خلق الإنتليجنسيا الثورية. النمو المستمر في حجم «البروليتاريا الثقافية» العاطلة عن العمل يشكل، خصوصاً في البلدان التي تحررت حديثاً من السيادة الاستعمارية، خطراً حقيقياً على استقرار الأنظمة السياسية. بعض هذه البلدان كان يملك نظام تعليم عالٍ لمدة طويلة نسبياً، ولكن دون توسيع سريع لإدارتها الحكومية. أما في بلدان أخرى، كالهند ومصر، مثلاً، نجد أنه على الرغم من الاتساع السريع لفرص توظيف المثقفين في الحكومة، يكون هناك اتساع أكبر في عدد خريجي الجامعات. ولكن الصعوبة ليست، في الواقع، بطالة المثقفين، أولاً، بل التوظيف غير الكافي، أو السيىء. معظم خريجي الجامعات يجدون، عاجلاً أم آجلاً، مناصب من نوع ما، ولكن هذه الوظائف ليست وظائف تتطابق مع توقعاتهم، فمراتبهم غير كافية، وغير مرضية من حيث المكانة الاجتماعية، ومن حيث مدتها أو استقرارها. لهذا فإن الذين يشغلونها يكونون في حالة من القلق المستمر.

الواقعة التي لا شك فيها هي أن أكثرية بلدان العالم الثالث الساحقة، هذا إن لم نقل

(1) Hemery, D. Intellectuels et Intelligentsias, Belkhir, J., ed : L'Intellectuel, L'Intelligentsia et les manueles, editions onthropos 1983, pp. 27-28.

جميعها تقريباً، تُخرّج من جامعاتها أكثر مما تستطيع توظيفه في وظائف مناسبة لهم، لهذا فإن هجرة المثقفين أو الفائض من الخريجين توفر نوعاً من صمام الأمان ضد الثورة لأنها تخفف ضغط الخريجين الجامعيين والمثقفين في البحث عن وظائف وأعمال غير موجودة.

الأجيال الثورية الأولى في التجارب الثورية الحديثة كانت تتشكل من الذين نبذوا النظام القائم وطبقتهم وشكلوا «بوهيمياً» أو إنتليجنسياً خارجهما. هذه الإنتليجنسيا كانت تجد أحد مصادر تكوينها الأساسية في مثقفين لا يجدون عملاً أو يمارسون أعمالاً لا تنسجم مع إمكاناتهم أو كفاءاتهم. بما أن الجامعات العربية تُخرّج كل عام أفواجاً جديدة لا تستطيع «المجتمعات» والأنظمة العربية استيعابها وتوظيفها في أعمال ملائمة، وبما أن عملية التحديث نفسها ستخلق مع الوقت مجتمعاً معقداً يحد من دور العسكريين، فإن هذا يعني أن المستقبل يزيد باستمرار من أهمية الإنتليجنسيا، وأن من يكسبها وينظمها هو الذي يكسب هذا المستقبل.

الفراغ

الفراغ الضروري للدراسة والبحث والكتابة يتوفر، بشكل ما، للكثيرين من المثقفين الذين تتشكل الإنتليجنسيا من صفوفهم، لهذا كانت تتشكل أساسياً، إن لم نقل استثنائياً، من أفراد البورجوازية الذين ينشغلون بالقضايا الفكرية أو المسائل السياسية التي تحتاج إلى نظريات تحددها وتوجهها من حيث الوعي والممارسة، والسبب هو أن مثقف الإنتليجنسيا يملك ما ينقص العامل والفلاح وهو الوقت الذي تتطلبه الثقافة السياسية، وكذا الحرية المادية التي توفر له العمل السياسي، والانتقال من مكان إلى آخر، وهي أمور لا يمكن بدونها ممارسة العمل السياسي الثوري بشكل صحيح وفعال. المثقفون البورجوازيون لا يزالون يوفرون بالأساس هذه الإنتليجنسيا.

لينين كان من بين الأوائل الذين نبهوا إلى ذلك في نظريته القائلة بأن البروليتاريا عاجزة في ذاتها عن تجاوز النقابية والوعي الإصلاحي، وأن الوعي الثوري يجب أن يأتيها من الخارج، عن طريق مثقفين من البورجوازية، لأن الفراغ الذي يتطلبه بناء وعي كهذا يتوفر لهؤلاء وليس للعمال. لهذا نراه يدعو الحزب إلى تحمل المسؤولية المالية في توفير هذا الوقت للعمال الذين يدللون على إمكانات فكرية خلاّقة. إن العامل الثوري يجب، كي يمكن له إعداد نفسه تماماً لعمله، أن يصبح أيضاً ثورياً محترفاً. ولهذا فإن العامل الذي يبرهن عن نبوغ ممكن يجب أن لا يعمل في المصنع، ويجب على الحزب أن يوفر عيشه.

لينين أخذ ابتداء من عام 1900 ـ أي قبل الانشقاق الكبير بين البولشفيك والمنشفيك في مؤتمر لندن عام 1903 ـ يطالب بتنظيم سياسي يتشكل من ثوريين محترفين، أي ثوريين يكرسون للثورة ليس فقط أمسياتهم بل حياتهم كلها. ولكي يتمكن الثوري من ذلك يجب أن يكون قادراً على تفريغ وقته كله، أي يجب أن لا يكون بحاجة إلى العمل، أو يقتصر على الأكثر على عمل يأخذ فقط جزءاً من وقته وليس وقته كله.

هذا المبدأ لم يكن حديثاً تماماً، بل نجده، في الواقع، في اليونان القديمة حيث كانت الواجبات السياسية تُعتبر صعبة ومستهلكة للوقت إلى درجة كان لا يُسمح للمشتغلين بها بأن

يقوموا بأي عمل متعب. فالراعي، مثلاً، كان مؤهلاً للمواطنة ولكن الفلاح لم يكن مؤهلاً لها. الرسام مؤهل أيضاً، أما النحات فليس مؤهلاً. مقياس التمييز بين الطرفين كان يعود إلى تطبيق درجة الجهد والتعب في العمل. إن الفلاسفة، وخصوصاً أرسطو، ذهبوا إلى أبعد من ذلك ورأوا أن وقت الفراغ يفرض، كمثال لهم، أشياء أخرى لا يفرضها الفراغ الذي يحتاج إليه المواطن العادي، هذا الفراغ لم يكن يعني آنذاك فقط التحرر من العمل العادي والذي كان، على أي حال، أمراً بديهياً، بل وقتاً حراً للعمل السياسي ومشاغل الدولة أيضاً.

إن الفلسفة تبدأ مع الفراغ الذي يسمح بالتأمل والتفرغ للتفكير. التأمل يصبح ممكناً كترف، كما كتب أرسطو في «الميتافيزيق»، عندما يتم إشباع الحاجات العضوية. ولكن هذه الحاجات العضوية تشكل عادة مشاغل يومية للعامل والفلاح، وبالتالي لا تترك لهما ما يتطلبه العمل الفكري من وقت وجهد، «المفكر كائن يفيد من امتياز كبير: إنه يمتلك الفراغ الذي يحتاج إليه في تثقيف ذاته. إنه فراغ يعني بقسوة وجود أناس آخرين يشتغلون له»(1).

المثقفون يتسلمون عادة، في بطالتهم وأعمالهم الجزئية، دعماً مادياً كافياً من عائلاتهم التي تكون في كثير من الأحيان عائلات ميسورة وغنية. هذا يوفر لهم ليس الفراغ فقط، بل درجة معينة من الطمأنينة المادية التي يمكن استخدامها في العمل السياسي أو الفكري. الحرية المادية وحدها تعطي الإنسان الفراغ الذي يشكل شرط المعرفة والاستقلال الفكري. الفراغ، كما كتب هوبز هو «أم الفلسفة»، إن معرفة المفكر تأتي من الفراغ. وأرسطو كتب قبله بزمان طويل، «يجب على المواطنين النفور من الحياة العمالية أو التجارية «لأن حياة كهذه هي بدون نبل وتتناقض مع الفضيلة». يجب أن لا يكونوا حتى مزارعين إن أرادوا أن يكونوا مواطنين، لأنهم يحتاجون إلى فراغ من الوقت في تنمية الفضيلة وممارسة الواجبات العامة»(2). لهذا كانت «الأقليات» أو الكوادر القيادية للأحزاب والحركات الثورية - كما أشار، في الواقع، كثيرون - تتشكل أساسياً، إن لم نقل استثنائياً، من أفراد البورجوازية الذين يهتمون بعالم الأفكار وينشغلون بالدراسة، ومعالجة القضايا النظرية، وتوجيه السياسة العملية أو الممارسة الثورية. السبب لذلك هو أن الثوري من أصل بورجوازي هو الذي يملك ما ينقص العامل تماماً: الوقت ووسائل الثقافة السياسية، والاستقلال المادي الذي يؤمن له متابعة الدراسة والبحث، والانتقال من مكان إلى آخر، وهي أمور لا يمكن بدونها ممارسة نشاط ثوري أو أي نشاط سياسي بالمعنى الحقيقي(3).

«المفكر»، كما يكتب ديبريه، «هو أغنى إنسان في العالم لأنه يكرس نفسه كلياً للفراغ المولع

---

(1) Baechlesr J. : op. cit. pp. 192-193.

(2) Aristote : Politique, Livre VII, chap. VIII

(3) إن برتراند راسل يكتب: "في الماضي كانت توجد طبقة صغيرة تتمتع بالفراغ وطبقة كبيرة من الذين يشتغلون. الطبقة الأولى تمتعت بامتيازات بدون أساس في العدالة الإجتماعية. هذا جعلها بالضرورة ظالمة، وحد من عطفها ودفعها إلى خلق نظريات تبرر بها امتيازاتها. هذه الوقائع اضعفت كثيراً ميزتها أو تفوقها، ولكن رغم هذا النقص فإنها كانت مسؤولة تقريباً عن كل ما نسميه حضارة. إنها شجعت الفنون واخترعت العلوم. إنها كتبت الكتب، أبدعت الفلسفة، وهذبت العلاقات الاجتماعية. حتى تحرير المظلومين كان عادة ينطلق من فوق. بدون هذه الطبقة ما كان بإمكان الإنسانية أن تخرج أبداً من البربرية.

Russell, B: In praise of idealisim on Fromm, E: Socialist Humanism, Anchor books, 1966, p. 257.

بالدراسة، ولأن الثروة الحقيقية لأمة ما تقاس، كما تقاس بالنسبة للفرد، بالوقت الذي تملكه لأجل «النمو التام لإمكاناتها الخلاّقة». حول هذه الناحية.. اتفق المسيحيون والوثنيون «اليونان وروما».. وحددوا العمل النزيه بدون مقابل وكأنه العمل الوحيد اللائق بالإنسان الحر.. أما فيما يتعلق بالناحية الأخرى، الناحية الاقتصادية، فإن التقاليد الريكاردية (نسبة إلى ريكاردو) والتقاليد الماركسية تلتقي هنا أيضاً، «فالأمة تكون حقاً غنية عندما يعمل أبناؤها ست ساعات بدلاً من اثنتي عشرة ساعة، الثروة لا تعني الحصول على وقت متزايد للعمل، بل على الوقت الحر لكل فرد وللمجتمع ككل خارج الوقت الذي يُستخدم في الإنتاج المباشرة». الخلاصة.. المفكر هو الترف وقد تحول إلى إنسان يتسهلك بدون أن ينتج، بعبارة أخرى: إنه يستهلك وقت الآخرين.. وقتاً حراً، وقتاً مسروقاً ولا يمكن تغيير ذلك»[1].

الفوضويون أنفسهم نبهوا إلى هذه الناحية واعترفوا بها، إن باكونين، مثلاً، يكتب «الشعب المُثقل بعمله اليومي، المحروم من الفراغ، ومن الاتصال الفكري، والقراءة، بكلمة مختصرة، من جميع الوسائل التي تطور الفكر بين الناس، يقبل من ناحية عامة التقاليد الدينية دون نقد أو تمييز.. هناك أيضاً سبب آخر يفسر ويبرر بشكل ما معتقدات الشعب الحمقاء، وهو الوضع البائس الذي يجد نفسه فيه، والذي يتحكم فيه بشكل حتمي نتيجة النظام الاقتصادي..»[2]. ثم يضيف في مكان آخر، «الشعب لا يملك الفراغ أو التعليم الضروري للانشغال بالحكم. البورجوازية التي تملك تتمتع بالامتياز الاستثنائي، ليس قانونياً بل واقعياً، في ممارسة ذلك. لهذا فإن المساواة السياسية، في سويسرا أو في أي مكان آخر، وهم خطر، وأكذوبة.. إن القسم الأكبر من القضايا والقوانين، ومنها ما هو مهم، وذو علاقة مباشرة بسعادة الشعب، وبمصالحه المادية، يُمارس بشكل مستقل عن الشعب، دون أن يلاحظ الشعب ذلك، أو يهتم أو ينشغل به. إنهم يعرضونه للخطر، يكذبون عليه، ويحققون الخراب له في بعض الأحيان، ولكن دون أن يعي ذلك. إنه غير متعود على دراسة كل هذا، ولا يملك الوقت له، ولهذا فهو يترك منتخبيه يصنعون ما يريدون، مما يعني طبيعياً أنهم يخدمون مصالح طبقتهم وعالمهم الخاص..»[3].

كل نظرية سياسية كانت نتيجة الفراغ، الفراغ الذي لا يتوفر للجماهير، أو للعامل أو الفلاح. ماركس والماركسية، مثلاً، كانا من نتاج إنتليجنسيا تعيش بين الكتب ومعها، تحب المتاحف، وتمارس الجهد الفكري الكبير، تقضي الكثير من وقتها في المكتبات، إلخ.. هذا يعني أنهما كانا من نتاج طبقة يتوفر لها الفراغ.

لهذا نجد في تاريخ الفكر أن الخلق الفكري الكبير كان نتيجة جهد فكري طويل. إن ماركس كتب مرة لابنته لورا وذلك عام 1868، «إنني آلة محكوم عليها بأن تفترس الكتب». كان يقضي، في الواقع، حياته في قراءة الكتب، وكان يعرف غوته معرفة جيدة، قرأ أسكيلوس في الأصل اليوناني، وحمل احتراماً لا يعرف الحدود لشكسبير، وكان يطالع روايتين أو ثلاثة في الوقت

(1) Debray, R.: op. cit. p. 231.
(2) Bakounine, M.: God and the State in Shatz, M.: op. cit. p. 133.
(3) Bakounine, Michael: Oeuvres, vol. II, Stock + Plus, Paris, 1980, pp. 108, 111.

نفسه. إنه قضى، من ناحية أخرى، أربعين عاماً تقريباً في إعداد كتاب «رأس المال». داروين قضى عشرين عاماً في إعداد كتاب «أصل الأنواع». إدوارجيبون قضى ربع قرن في إعداد كتاب «انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية». ويل دورانت وزوجته احتاجا إلى خمسين عاماً في إعداد «قصة الحضارة»، وهكذا دواليك!.



هذه هي المقومات أو الأسباب الأساسية التي تفسر دور الإنتليجنسيا الثوري الطليعي والأساسي في تجارب التاريخ الثورية الحديثة، القصد لم يكن استنزاف جميع العناصر التي تساهم مباشرة أو غير مباشرة في تكوين الإنتلجينسيا، بل إبراز أهمها في تفسير الدور التاريخي الأساسي الذي تقوم به في صنع التاريخ.

- 3 -

من البروليتاريا.. إلى الإنتليجنسيا

لقد دللنا في الفصول السابقة حول مقومات الإنتليجنسيا على دورها الطليعي والأساسي والأسباب التي تفسر هذا الدور في تجارب التاريخ الثورية. هذا الدور كان يفرض ذاته على النظريات والحركات التي كانت تنطلق من حيث المبدأ من موقع مناقض، أي موقع يؤكد أولوية الجماهير أو العمال، لا كطبقة اجتماعية ثورية، بل كطبقة مستقلة وقادرة بأن تفرز بذاتها قياداتها، وبأن تحقق وعيها الثوري كنتيجة تترتب على أوضاعها الخاصة. ولكن هذه الحركات كانت تكشف عن طريق التجربة ركود العمال الثوري وترى أن تصحيح هذا الركود وتجاوزه يدفعان نحو الاعتماد على قيادات وكوادر تتشكل أساسياً من الإنتليجنسيا، فتعترف بذلك وتدعو إليه. لهذا نجد فيها تناقضاً واضحاً حول الموضوع، يدل على انتقال «عفوي» تقريباً، انتقال من البروليتاريا إلى الإنتليجنسيا كأداة طليعية أو أساسية للثورة. رجوع هذه الحركات عن موقعها أو منطلقها الأول والاعتراف بدور الإنتليجنسيا المهم في صنع الثورة يقدم دليلاً إضافياً قوياً على ضرورة هذا الدور، وذلك بالضبط لأن الاعتراف به كان من قبل حركات كانت تنطلق من موقع آخر. إننا سنرجع، في التمثيل على ذلك، إلى التجربة الماركسية والتجربة الفوضوية، لأن الماركسية والفوضوية أكدتا أكثر من أي حركة ثورية أخرى على دور طبقة العمال الثوري من الزاوية التي أشرنا إليها.

التجربة الماركسية

ماركس كتب في مناسبات عديدة بأن «تحرير الطبقة العاملة يجب أن يكون من عمل العمال أنفسهم». البيان الشيوعي أعلن أن البروليتاريا هي «الطبقة الثورية الوحيدة». إن إنتاج ماركس لا ينطوي على أيّ اعتبارات خاصة للمثقفين، ومنطقه العام يستثني ذلك. ليس لهم بكلمة بسيطة أي مكان في نظريته. إن الإشارة التبجيلية الوحيدة التي نجدها في كتابات ماركس كانت في «البيان الشيوعي» وهي تقول: «كما أن جزءاً من الأرستقراطية انتقل سابقاً إلى البورجوازية، كذلك سينتقل جزء من البورجوازية إلى البروليتاريا، وخصوصاً الأيديولوجيين البورجوازيين الذين ارتفعوا إلى الوعي النظري لحركة التاريخ العامة»[1].

ماركس كان أول من قال باستمرار إن الثورة الاجتماعية ستكون ليس فقط لأجل العمال، بل ستكون من صنع البروليتاريا نفسها، فالمثقف الذي يريد أن يجد معنى، يجب أن يجده عبر طبقة العمال[2].

«الماركسية أكدت بأن الاشتراكية ستكون من عمل العمال فقط، وإلا فلن تكون»[3]. أكد لينين في مقالة «القدر التاريخي لتعاليم ماركس» التي كتبها عام 1913، أن «الشيء الأساسي في تعاليم كارل ماركس هو إبراز دور البروليتاريا التاريخي كمؤسس للمجتمع الاشتراكي».

المفكرون الذين أشاروا إلى هذا المنطلق الأساسي في نظرية ماركس، من ماركسيين وغير ماركسيين، كثيرون جداً. لكن التجربة كشفت بوضوح عن خطأ هذا المنطلق، ودللت أنه من الخطأ أيضاً منح البروليتاريا، أو أيّ طبقة أخرى، طبيعة ثورية ثابتة وخاصة بها، كما صنع ماركس، بالنسبة للبروليتاريا. «إن الميزة الثورية التي يعزوها ماركس للطبقة العاملة لا تقوم على أي تحليل حسي، بل تقوم على فرضية فلسفية هيجيلية ترى أن الصيرورة تشتق مصدرها من

(1) Debray, R. : op. cit. pp. 169-170.
(2) Billington, J. : op. cit. p. 269.
(3) Deutscher, Isaac: Ironies of History, Essays on Contemporany Communism Oxford University Press, 1966, pp. 105,111

نفي الإثبات.(négation d'une affirmation). الطبقة العاملة تُدرك كالطبقة - النقيض لأن هذا يشكل الطريق الوحيدة للتفكير في التحول الجذري الذي يفترضه هذا البناء الفكري»(1).

إن ماركس، كما كتب ديبريه، «لم يفكر في الوساطة والمتوسطون الذين أنكرهم رجعوا بقوة. إن نظريته حول التاريخ لم يدمج فيها الذين دمجوا هذه النظرية في التاريخ: المثقفون، وهؤلاء انتقموا انتقاماً جيداً»(2).

إن سجل المائة عام التي مضت منذ وفاة ماركس لا يدعم المبدأ الماركسي القائل بأن البروليتاريا ستستولي على السلطة وستحقق ثورتها. إنه يدل على العكس بأن طبقة العمال لا تملك الإرادة أو القوة على ذلك، ولا على تثوير المجتمع. إنها، بعكس نظرية ماركس (أو الفوضوية)، ليست طبقة ثورية، موقفها الاقتصادي الاجتماعي كان ولا يزال إصلاحياً وليس ثورياً. فهي ترغب في منجزات اقتصادية، وفي مستوى عيش أحسن، إلخ.. داخل النظام القائم. إنها قد تناضل من أجل الديمقراطية السياسية كما حدث، مثلاً، في ألمانيا عام 1920، وفي النمسا عام 1934، ونضالها يمكن أن يكون ثورياً كما حدث في روسيا القيصرية، ولكن هدفها لم يكن ثورياً ينشغل ببرنامج ثوري يرمي إلى إلغاء النظام القائم وخلق مجتمع جديد. إن دعم برنامج كهذا في المجتمع الصناعي لا يأتي من البروليتاريا ككل، بل من مثقفي الطبقة الوسطى وطلابها، من العاطلين عن العمل، ومن عمال صناعات كاسدة. النظام الرأسمالي «فرض شرعيته» على العمال لأن هؤلاء كانوا ينشغلون أولاً وأخيراً بمقاصد اقتصادية اجتماعية مباشرة ومحدودة تعبر عن ذاتها في أحسن الحالات بسياسة إصلاحية، وليس بفكرة نظام أو مجتمع جديد كما كانت تتوقع منهم الماركسية.

البحث عن القوة المحركة للتاريخ أو القوة التي تعبر عن حركة التاريخ وتوجهها كان يمثل جانباً أساسياً في التفكير الثوري. إن ماركس وجد أن البروليتاريا هي التي تمثل هذه القوة، وأنها ستمارس دوراً ثورياً مستمراً ومتزايداً مع تقدم المجتمع الرأسمالي وتكامله. ولكن التجربة التاريخية كانت تدل بشكل متزايد على خطأ هذا المفهوم.

«كانت النظرية الماركسية تقول»، كما كتب دوبريه: «بأن كل شيء سيتم من تحت، بين العمال المتحدين، بدون أيديولوجية وبدون قادة، وبدون كوادر - وبكلمة مختصرة، بدون سياسة وسياسيين، ولكن كل شيء يتم من فوق وسياسياً، من المراتبية والنظام، وبمبادرة وتحت رعاية قادة محترفين (Professionnels). النظرية كانت تقول بأن كل شيء سيتم في الحركة، بشكل عفوي ومائع، بيد أن هذا خلق في العصر الحديث التنظيمات المدنية الأكثر تصلباً، والأقل قابلية للفرق، والمستعدة للتضحية بأيّ حركة اجتماعية غير منضبطة على مذبح الآلة الحزبية المقدسة. «البيان الشيوعي كان يقدم نفسه كنقيض للإنجيل، ولكنه فرض نفسه على المناضلين الأكثر تحرراً في القرن الماضي (كالإنجيل الجديد)، (كما كان يصفه أليمان)».

---

(1) Baechler, J.: Ls Phenomènes Revolutionnaires, Presses Universitaires de France, 1970, p. 147.

(2) Debray, R. : op. cit. p. 192.

العلم يتيم من حيث التحديد، فهو بدون أب معترف به، لكن ليس هناك منذ قرن من فرع واحد في «الاشتراكية العلمية» لم يحدد ذاته باسم قائده، جيديون، بروسيون، كونسكيون، لينينيون، ماويون، كاسترويون، إلخ.. النظرية تقول بأنه لا يمكن للمثقفين أن يمارسوا سوى دور ثانوي وعرضي في تنظيم الطبقة، لأنهم بورجوازيون وغرباء عن حركة العمال، ولكن في كل مرة وفي كل بلد، وفي كل عهد، كان يوجد مثقف أو مثقفون بورجوازيون عديدون يحركون ويجسدون النظرية في حركة العمال: في فرنسا جول جيد، لافارغ، فايان، جوريه، في روسيا، بليخانوف، لينين، في ألمانيا، كوتسكي، بيرنشتين، في إيطاليا، تواراتي، لابريولا، في إسبانيا، بابلو إغليزياس، إلخ[1].

في الصين وآسيا، في كوبا وأميركا اللاتينية، في أنغولا وأفريقيا، وفي روسيا إلى حد كبير، اعتمدت الثورة التي تقودها الإنتليجنسيا على الفلاحين لا على البروليتاريا وأقامت قواعدها في الريف لا في المناطق المدينية، وكانت كوادرها تتشكل من المثقفين لا من العمال.

نموذج الثورة الماركسية لم يتحقق أبداً لأن المفهوم نفسه كان غير موضوعي. إن نمو قوى الإنتاج أو نضج الطبقة العاملة لا يمهد الطريق، كما دلت التجربة التاريخية الحديثة، لإسقاط الرأسمالية عن طريق البروليتاريا أو الجماهير العاملة الواعية لرسالتها. فالثورات «البروليتارية» كانت تحدث، عندما تحدث، باسم البروليتاريا وليس بالبروليتاريا، وتقود إلى سلطة ثورية لا تمارسها البروليتاريا، بل نخبة أو «طبقة» من المثقفين، (كما يقول المفكر الماركسي دجيلاس). إنها رغم التحولات الجذرية الشاملة التي كانت تحدثها تعني ككل الثورات الأخرى، الاستبدال العنيف لنخبة حاكمة بنخبة أخرى تتشكل أساسياً من المثقفين المنظمين. إنها لم تحقق، بكلمة أخرى، ميزتها الخاصة التي أرادتها النظرية الماركسية لها، وهي أن تكون نهاية «لما قبل - التاريخ».

الماركسية رأت أن البروليتاريا تتميز بقوى وطاقات ثورية كثيفة، ولهذا فإن المشكلة التي واجهتها باستمرار كانت: لماذا فشل العمال في تحقيق هذه الطاقات والقوى، والتعبير عنها في خدمة مقاصدهم السياسية؟ لقد مهد هذا السؤال الطريق أمام سلسلة طويلة من التفاسير الماركسية تلتقي كلها بالاعتراف ضمناً أو صراحة، بأن طبقة العمال عاجزة أو كانت عاجزة عن صياغة حركتها، أو ترجمة وجودها، في وعي ثوري.

إن «انتقام المثقفين» الذي أشار إليه دوبريه عبر عن ذاته عبر مفكرين ماركسيين أو مناصرين للماركسية أعلنوا بأنفسهم عن إفلاس أو عجز البروليتاريا الثوري. فمن لينين وكوتسكي وبيرنشتين، إلى المدرسة الألتوسيرية، والمدرسة الفرانكفورتية، إلى لوكاش وغرامشي، ودوبريه وغيفارا، إلخ.. والأصوات التي تعبر عن هذا العجز تتزايد مع الوقت.

كارل كوتسكي، مؤسس الأممية الثانية، ومفكر الاشتراكية الألمانية الأول في بداية القرن العشرين كتب: «هل يكون الوعي الاشتراكي النتيجة الضرورية والمباشرة لصراع الطبقات البروليتارية؟.. هذا خطأ تام. حامل العلم ليس البروليتاريا، بل المثقفون البورجوازيون. ففي

(1) Debray, R.: op. cit. p. 189.

دماغ بعض أفراد هذه الطبقة (أي البورجوازية) وُلدت في الواقع الاشتراكية الحديثة.. الوعي الاشتراكي هو، إذن، عنصر مستورد من الخارج». إن كوتسكي مارس نفوذاً دائماً على لينين عندما حدد في أحد كتبه الحركة الاشتراكية الديمقراطية كوحدة النظرية الاشتراكية مع حركة العمال. لقد ميز بشكل واضح بين اتجاهين يتحدان في الأحزاب الماركسية، نضال البروليتاريا والوعي الذي يتفرع من النظرية الاشتراكية التي صاغها مفكرون من البورجوازية. لينين قبل بوضوح هذا التمييز وحدد مهمة الحرب كتلقيح أو تثقيف لحركة العمال العفوية بالفكر الاشتراكي.

هذا الفكر يشكل الوعي الثوري الذي نبه إليه لينين كقوة دافعة، هذا إن لم يكن القوة الأهم في التاريخ. إن لينين يذكر في «ما العمل؟» مقطعاً مهماً من كتابات كوتسكي يقول فيه «لا يمكن أن يكون هناك أي حديث عن أيديولوجية مستقلة تصوغها جماهير العمال أنفسهم في مجرى حركتهم.. هناك الكثير من الحديث حول العفوية، ولكن التطور العفوي لحركة طبقة العمال يقودها إلى الخضوع للأيديولوجية البورجوازية». لكن إن كان صحيحاً أن العمال يتجهون، فيما لو تركوا وحدهم، إلى الأيديولوجية البورجوازية وليس البورليتارية رغم صراعهم المباشر مع العدو الطبقي، فهذا يعني أن طبقة العمال عاجزة عن التحول إلى طبقة ثورية كما صورتها النظرية الماركسية، وأن هذا العجز يجب أن يعود إلى أوضاعها الموضوعية، الأوضاع التي تتفاعل معها.

لينين قبل بدون تحفظ، كما يبدو، نظرية كوتسكي بأن المثقفين يشكلون شريحة اجتماعية متميزة وليس طبقة، ولكن على عكس كوتسكي الذي كان يرتاب في المثقفين وينصح الديمقراطيين الاجتماعيين (الاشتراكيين) الألمان بإبقائهم في مركز ثانوي، فإن لينين دعاهم إلى تحويل أنفسهم نفسياً، وإلى التحرر من الفردية الليبرالية، والاستعداد لممارسة الدكتاتورية الثورية عند استلام السلطة. هنا نجد، في الواقع، أهم انقطاع بين الماركسية التقليدية وبين لينين الذي اتخذ دور الداعية إلى سيادة الإنتليجنسيا كقيادة وكوادر لحركة الجماهير. في «ما العمل؟» أعلن لينين بأن النظرية الاشتراكية نمت من النظريات الفلسفية والتاريخية والاقتصادية التي صاغها مثقفون من الطبقة الحاكمة، وبأن أداة العلم ليست البروليتاريا بل الإنتليجنسيا البورجوازية. فبدون الفلسفة الألمانية لم يكن من الممكن ظهور الاشتراكية العلمية إلى الوجود.

يحتج لينين ولا شك أن برنامج «ما العمل؟» كان ماركسياً تقليدياً أو كلاسيكياً، ولكن فكرة حزب منظم، منضبط ومركز للسلطة، يدفع عجلة التاريخ في اتجاه غير مستعد له بعد، اتجاه كان يجب أن ينتج عن مجراه ذاته كما توقع ماركس، كل ذلك كان يشكل نقيض النظرية الماركسية الأساسية. تلك كانت أيضاً فكرة لينين، وإن بقدر أقل، فكرة تقول بحقن وعي البروليتاريا بإرادة الثورة. هذا المفهوم اللينيني كان، في الواقع، استمراراً لتقليد كوتسكي الذي يقول بعجز الجماهير عن الارتفاع بذاتها فوق وخارج الوسائل التي تزيد بها دخلها.

الفكر الاشتراكي يشكل أداة الوعي الثوري الذي نبه إليه لينين كقوة دافعة، هذا إن لم نقل القوة الأهم، للتاريخ. هذا التوكيد على المعرفة، الأفكار أو الوعي ودوره الأساسي، يشكل إحدى السمات الأولى، إن لم نقل السمة الأهم، التي تميز اللينينية. البروليتارية عاجزة في ذاتها عن

إفراز هذا الوعي، ولهذا أكد لينين على ضرورة تثقيفها بهذا الوعي من الخارج، وعن طريق الإنتليجنسيا المنظمة في حزب ثوري. لهذا نرى لينين، كما نبه إلى ذلك بعض المؤرخين، يستخدم عبارة «الوعي الثوري» أو «الوعي» وذلك على نقيض ماركس الذي كان يستخدم عبارة «الوعي الطبقي»، لأنه لم يكن يرى أبداً أن البروليتاريا قادرة في ذاتها على تحقيق هذا الوعي. فهي إن تُركت بدون هذا العمل التثقيفي من الخارج والذي تقوم به هذه الإنتليجنسيا المنظمة، فسوف تفرز فقط «الوعي النقابي»، وليس الوعي الثوري.. في «ما العمل؟» يحدد لينين تصوره للوعي الاشتراكي الصحيح ويكتب بأن هذا الوعي «يمكن أن يأتيهم (أي العمال) من الخارج، ويمكن أن يظهر فقط على أساس معرفة علمية عميقة».

لينين استنتج أن الانتقال من مجتمع إلى آخر لا يكون آلياً، وبأنه من الممكن تعجيل حركة الواقع إلى حد أعلى بفضل مجموعة محدودة تتشكل، في عبارة شي غيفارا، من بعض المحفزين (Catalyseurs). بكلمة أخرى، إن كانت تُوجد طليعة للبروليتاريا قادرة على أن تقدم إلى الأمام مطالب البروليتاريا الأساسية، حيث ترى بوضوح أين يجب الاتجاه تاريخياً فتحاول الاستيلاء على السلطة بغية إقامة مجتمع جديد، عندئذ يصبح من الممكن التقدم وحرق المراحل. لقد استنتج أيضاً بأنه من الممكن للمجتمع الاشتراكي النمو في بلد واحد منعزل(1).

أنجيليكا بالابانوف، وكانت من رفاق لينين، كتبت بأن «قصد لينين الوحيد كان تحويل كلماته إلى مذهب للمستمعين إليه، وإلى دليل لفكرهم وعملهم.. إن سماته المميزة كخطيب كانت تتفرع من طريقته في التعامل مع حركة العمال. بالنسبة إليه، كان على هذه الحركة أن تنقاد لنخبة، ولم تكن هناك أيّ حاجة بأن تُدرك الشرائح السفلى لماذا فكرت أو عملت بطريقة أو أخرى»(2).

لينين كان مقتنعاً من منظور تاريخي عام بأن الجماهير لا تستطيع أن تكون منفتحة بشكل دائم على الوعي الذي يعبر عن مهمتها التاريخية، وبأن هذا يتطلب الأداة العملية التي تعبر عن هذا الوعي بالشكل الدائم، أي الحزب. إن ظهور أزمة ثورية، كأزمة 1905 في روسيا، يحرك هذا الوعي موقتاً، ولهذا فإن مثل هذه الأزمات لا تدلل على عدم فائدة الحزب كما يحدده لينين، بل على العكس، على الحاجة الملحة إلى بنائه لأن 1905 تكشف عن نمو ضخم للإمكانات الموضوعية لصراع البروليتاريا ولكن دون أن يكون من الممكن لوعيها مع الأسف أن يتكيف بشكل دائم معها(3).

لينين نبه، في الواقع، إلى أنه لم يكن هناك في البداية أي ارتباط أو حاجة إلى الارتباط بين الأفكار الاشتراكية وحركة العمال. فالأفكار جاءت أولاً، وعندئذ أدرك ماركس وأنجلز بأن البروليتاريا هي التي تستطيع تحقيقها في الواقع عن طريق الثورة. «كل ما كان على الاشتراكيين صنعه هو الكشف عن القوة الاجتماعية التي تهتم، بين القوى الاجتماعية المختلفة، بتحقيق

---

(1) Gueverra, Che: Oeuvres, Vol. III, Maspero, 1977, p. 145.

(2) ذكرها:
Mazlich, Bruce: The Revolutionary Ascetic, Basic Books, 1976, p. 134.

(3) Brossat, A,: op. cit. p. 124

الاشتراكية، ومن ثم تثقيفها بالوعي بمصالحها ومهمتها التاريخية. هذه القوة هي البروليتاريا»[1].
في «ما العمل؟» ينبه لينين ليس فقط بأن الإنتليجنسيا البورجوازية هي التي تنتج الأفكار الاشتراكية، بل إن وعيها الاشتراكي ينتج عن جدلية الأفكار وذلك لأنها تحقق هذا الوعي بدفع تراث الفكر الليبرالي إلى نتائجه المنطقية. المثقفون الاشتراكيون كما أشار لينين، كانوا أعضاء في البورجوازية أو الإقطاعية ولكنهم خسروا جذورهم في طبقتهم وخرجوا منها عن طريق المعرفة. الأفكار كانت تعمل في رؤوسهم وتحوّل وعيهم إلى النقد الاجتماعي.

هذه الفكرة القائلة بأن طبقة العمال عاجزة في ذاتها عن الوعي الطبقي أو الثوري لم تصدر أولاً عن لينين، بل، كما أشرنا، عن كارل كوتسكي. ولكن قبل كوتسكي قال بها، في الواقع، بعض الاشتراكيين الألمان، وعلى رأسهم أدوار بيرنشتين، من الذين لاحظوا هذه الظاهرة في حركة العمال في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. الفرق بين لينين وبين بيرنشتين، مثلاً، هو أن الأخير عبر عن رضاه حول زوال التطلعات الثورية في صفوف العمال في حين أن لينين تذمر من ذلك وحاول مقاومته.

اشتراكيون آخرون في القرن التاسع عشر، من أمثال برونو باور، قائد «الهيجليين الشباب»، سخروا من الجماهير كعنصر مقاوم دائماً للفكر، أي للمثقفين، وآخرون أكدوا على دور المثقفين كنخبة. اسم فرديناند لاسال، قائد أول حزب اشتراكي جماهيري في أوروبا كان، في الواقع، رمزاً للنخبوية الفكرية بسبب دفاعه عن مهمة المثقفين التي تدعوهم إلى قيادة حركة العمال والسيطرة عليها.

مفهوم الحزب الثوري الذي ينظم الإنتليجنسيا كأداة للثورة، والذي قال به كثيرون من المفكرين الثوريين ابتداءً من لينين (وقبله كوتسكي) يعني حلاً لمشكلة الوعي الثوري في طبقة العمال، على الأقل عند موافقة هؤلاء عليه كأداة تعبير عن إرادتهم. المقياس الحقيقي للوعي يصبح درجة ولاء وانتماء الفرد للحزب واستعداده للإصغاء إليه وإطاعته لأن إرادة الحزب تكون تجسيداً لإرادته. الوعي الطبقي الذي يبقى خارج الحزب أو معارضاً له يعني آنذاك تناقضاً ذاتياً لأن معارضة إرادة الحزب تكون بالتالي معارضة البروليتاريا لذاتها ورفضها لجوهرها نفسه، فالحزب الذي يخضع في تنظيمه «لدزينة من الرجال الحكماء»، ويحتاج كي يقوم بدوره إلى «خضوع تام لإرادة واحدة» هو الذي يمثل هذا الوعي[2].

بما أن هذا الحزب يقوم بدور التعبير عن الوعي الطبقي الثوري ويمارس دور الحارس لهذا الوعي، يصبح الاحتفاظ بنقاء هذا الوعي وعدم إفساده من قبل العمال أنفسهم أحد واجباته الأولى. إن لينين حذر، في الواقع، بأن على الحزب أن لا ينزل أبداً إلى مستوى الجماهير العاملة.

إن تروتسكي نفسه، الذي حذر سابقاً من مفهوم الحزب اللينيني، رجع عن ذلك ونبه فيما

(1) Meyer, Alfred: Leninism, Praeger, 1962, p. 32.
(2) Lenin, V.I. : Selected Works, Moscow, Foreign Languages Publisting House, 1950, vol. L. pp. 343, 333. vol. Ll, p. 482.

بعد بأن الحزب الطليعي يجب أن يعكس «ريبة القيادة المنظمة في الأعضاء» أنفسهم. هذه «الريبة المنظمة» كانت ضرورية في تحقيق واجبات الحزب التثقيفية تجاه الجماهير العاملة[1].

جورج لوكاش لم يتردد هو الآخر بالقول بأن قيام الحزب بواجباته «يفرض عليه في بعض الأحيان تبني موقف معارض لموقف الجماهير. فعلى الحزب أن يدلها على الطريق حتى وإن كان ذلك يعني رفض رغباتها المباشرة». أما هذه الجماهير فهي بطيئة عادة في إدراكها أو تقديرها لعمل الحزب، ولهذا فهي «تحتاج غالباً إلى تجارب مريرة عديدة قبل أن تتمكن من إدراك صحة نظرة الحزب»[2]. إن لوكاش تجاوز، في الواقع، مفهوم لينين حول الحزب الطليعي كعامل حاسم في عملية الانتقال الاشتراكي، وقال بأن الحزب نفسه وليس البروليتاريا هو التجسيد التاريخي والفعال للوعي الطبقي[3]. بما أن الحزب يتكون أساساً من الإنتليجنسيا، يمكن القول بأن هذه الأخيرة وليس البروليتاريا هي التجسيد التاريخي والفعال للوعي الثوري. بما أن النتائج التي تترتب على نظرية خاطئة تدمر سريعاً الحزب، كما يكتب لوكاش، فإن وجود الحزب نفسه يعني في ذاته دليلاً حسياً على عصمته[4].

في هذا المفهوم اللينيني حول الحزب نجد، في الواقع، أن الاحتكاك المباشر مع الجماهير يعرض الحزب لأشد الأمراض السياسية فتكاً وتهلكة، الإصلاحية، هذا على الرغم من أن هذا الاحتكاك يكون أمراً مرغوباً من حيث المبدأ. لهذا فإن ضرورات المرحلة الانتقالية تفرض، كما يبدو، على الحزب أن يحافظ على مسافة ما بينه وبين الجماهير العاملة إن هو أراد أن يتجنب مصير الاشتراكية الديمقراطية.

هذا المفهوم يتعارض مع مفهوم هذه الاشتراكية الديمقراطية. فعلى نقيض هذه الأخيرة التي تنطلق من تطلعات الجماهير وبالتالي تحول الفرد العادي إلى النموذج السياسي الأعلى، فإن ذلك المفهوم يواجه رغبات الجماهير بشكل حسابي ينطلق من نظرة خاصة حول هذه الرغبات وكيفية تحقيقها.

هذا المفهوم اللينيني لا يشجع، وذلك بديهي، على موقف منفتح معتدل ورحب من قيادة الحزب - أو «الدزينة من الرجال الحكماء» المسؤولين عن هذه القيادة - موقف يتعلم فيه هذا الأخير من الجماهير أو يتجاوب معها. الرغبة التي يعلن عنها الماركسيون في تشجيع التفاعل بين الحزب والبروليتاريا «يُهمل» بالتالي كما يبدو خوف لينين العميق من عدوى الجرثومة الإصلاحية البورجوازية التي كانت محاربتها القصد الأول من وراء التنظيم الثوري.



ليس هناك بين قادة الشيوعية العالمية من أكد أكثر، أو حتى مثل ماو تسي تونغ، على قدسية الجماهير وإرادتها. إن أطروحته هي أن المظلومين هم الأذكياء ومن ذكائهم تولد أسلحة التحرير. الجماهير هي التي تشكل الأبطال الحقيقيين والقادة يجب أن يتعلموا منها، لهذا أشار

(1) Deutscher, I.: The Prophet Armed, Oxford University Press, 1954, p. 76.
(2) Lukas George: History and class consciousness, Merlin Press, p. 327.
(3) Ibid, pp. 42, 305, 327, 329.
(4) Ibid, p. 327.

البعض بأن هذه الأطروحة ليست أطروحة ماركسية - لينينة، بل هي أطروحة جديدة إلى حد كبير. ولكن ماو تسي تونغ كان «مضطراً» في مجرى التجربة الثورية أن يؤكد على دور الإنتليجنسيا القيادي والأساسي، فهو يكتب، مثلاً:

«بالإضافة إلى وعينا السياسي الخاص، وعي طليعة البروليتاريا السياسي، هناك أيضاً مسألة الوعي السياسي لجماهير الشعب. عندما لا يكون الشعب قد حقق بعد وعيه السياسي، يصبح من الممكن له تماماً بأن يخسر مكاسبه الثورية لحساب آخرين. حدث هذا في الماضي.. إن يقظة الشعب السياسية ليست سهلة، إنها تتطلب الكثير من الجهد الصادق من جانبنا كي نحرر عقوله من الأفكار المغلوطة. يجب أن نكنس الأفكار المتخلفة من عقول الشعب الصيني، تماماً كما نكنس غرفنا. الغبار لا يختفي من ذاته دون تكنيس، يجب أن نقوم بدعاية وتعليم واسعين بين الجماهير كي يمكن لها أن تدرك الوضع والاتجاه الحقيقيين في الصين»(1).

ماو تسي تونغ يعترف بدور المثقفين الطليعي الأساسي ولكن بشرط العمل مع الفلاحين والعمال، ثم ينتقد الذين لا يرون هذا الدور ويتحيزون ضد المثقفين، سواء في الجيش أو في مؤسسات الحزب، «فبدون مشاركة المثقفين يكون النصر في الثورة مستحيلاً». ثم يضيف، «في الصين انتشرت الماركسية وكانت مقبولة بشكل واسع بين المثقفين والطلاب الشباب. إن القوى الثورية لا تستطيع أن تُنظم بنجاح، والعمل الثوري لا يمكن أن يحقق بنجاح، دون مشاركة المثقفين الثوريين.. إن جمهور المثقفين الثوريين يستطيع القيام بدور طليعي، وبأن يكون الرابطة مع الجماهير»(2).

إن هزيمة العدو لا يمكن أن تتم بدون مشاركة جيش المثقفين، «في نضالنا لأجل تحرير الشعب الصيني توجد عدة جبهات، منها جبهة القلم وجبهة البندقية، الجبهة الثقافية والجبهة العسكرية، كي نهزم العدو، يجب الاعتماد أولاً على الجيش والبنادق، ولكن هذا الجيش وحده ليس كافياً. يجب أن يكون لدينا أيضاً جيش ثقافي، لأن هذا الجيش ضروري جداً لتوحيد صفوفنا وهزيمة العدو»(3).

أما السلاح الأساسي لهذه الجيوش فهو النظرية الماركسية، النظرية التي كانت من عمل الإنتليجنسيا، «إن حزبنا، كما يعرف كل واحد، لم يعرف في الأعوام الثمانية والعشرين الماضية السلام، بل الصعوبات القاسية، لأنه كان علينا أن نقاتل الأعداء في الخارج وفي الداخل، داخل الحزب وخارجه. إننا نشكر ماركس وأنجلز ولينين وستالين الذين أعطونا السلاح. هذا السلاح لم يكن بندقية رشاشة، بل الماركسية - اللينينية»(4).

الظاهرة نفسها تطالعنا في الكاستروية. إن أحد الجوانب الأكثر جاذبية في الكاستروية هو، في الواقع، تجاسرها على التوكيد بأن الثورة في البلدان النامية، والحركات الثورية في البلدان

(1) Mao Tse-Toung: Selected Works, vol. IV, Foreign Languages Press, Peking 1961. p. 19.
(2) Ibid, vol. II, pp. 301, 245, 238, 373-374, 322.
(3) Ibid, vol. III, P. 69.
(4) Ibid, vol. IV, p. 412.

الغربية، كانت أولاً من صنع المثقفين، والجماهير التي تثق بهم وليس من صنع حركة العمال[1].

إن دعوة شي غيفارا إلى المثقفين بأن يتقدموا الصفوف في حرب العصابات لقيت صدى جيداً بين المناضلين الطلاب، «إن قادة حرب العصابات»، كما كتب غيفارا، «ليسوا من الذين تقوست ظهورهم فوق الحقول يوماً بعد يوم. إنهم رجال يدركون ضرورة التغيير في المعاملة الاجتماعية للفلاحين، دون أن يكونوا قد قاسوا هم أنفسهم هذه المعاملة المريرة في أشخاصهم»[2].

إن قراءة الماركسية ـ المحدثة تعطي زخماً جديداً للأطروحة الكوتسكية التي تبناها لينين والقائلة **بعجز الجماهير عن الارتفاع بوعيها الخاص فوق وخارج الوسائل التي يمكن أن تزيد بها** دخلها. قراءة كهذه تدل، في الواقع، أن هذه الماركسية أصبحت تمثل، في توكيدها على هذه الأطروحة، انقطاعاً جذرياً بينها وبين الماركسية التقليدية، بله، تناقضاً جذرياً معها.

التدليل على هذه الأطروحة التي تميز بشكل خاص هذه الماركسية ـ المحدثة يوفر، في الواقع، مادة لمجلد ضخم، ولكن بعض الأمثلة تكفي هنا في إبراز ذلك والتمثيل له.

بالنسبة إلى ألتوسير، مثلاً، «لا يمكن إدراك التاريخ وصنعه.. إلا بتوسط العلماء، الجماهير تصنع التاريخ بدون شك، لكن ليس أي نوع كان من الجماهير، بل تلك التي نثقفها وننظمها، إنها تصنع التاريخ بشرط إدراكه، وينبغي ألاّ تفصل عنه بسماكة الأيديولوجية البورجوازية، حيث تكون مستعدة دائماً، حمقاء كما هي، لتصديق تلك الأيديولوجية إن لم نكن هناك نعلمها التمييز بين الأطروحات الجيدة والأطروحات السيئة. خارج الحزب ليس من خلاص أبداً للجماهير وخارج الفلسفة ليس من خلاص أبداً للحزب»[3].

ما يُسمى حالياً «بالشيوعية ـ الأوروبية» والتي تهيمن على الأحزاب الشيوعية الغربية تدل بوضوح بأن تلك الأطروحة التي تنكر إمكانات الجماهير الثورية أو قدرتها على التحول إلى قوة ثورية، وتحقيق وعي ثوري، بدون مساعدة أو قيادة خارجية تتمثل في الإنتليجنسيا، أن تلك الأطروحة لا تقتصر على مفكرين ماركسيين بل أصبحت قاعدة لعمل تلك الأحزاب نفسها، «إن استراتيجية ما يُسمى حالياً «بالشيوعية ـ الأوروبية» تجد موقفها الأساسي» كما يكتب المفكر الماركسي، ارنست ماندال، «في رفض إمكانات طبقة العمال الثورية»[4].

ما يسمى بمدرسة فرانكفورت الماركسية ترى لأسباب مختلفة أن طبقة العمال الصناعية أصبحت ساكنة ومحافظة. وبالانطلاق من ذلك صاغ مفكروها نظريات تشاؤمية حول إمكانية تغيير اجتماعي ينتج عن الطموحات الديمقراطية لهذه الطبقة، فأصبح بعضهم ليبراليين إصلاحيين بينما أخذ آخرون بالبحث عن أداة أخرى للتغيير الاجتماعي. بعض هؤلاء، كهربرت ماركوزه، رفضوا في الواقع طبقة العمال ليس فقط كطبقة ثورية، بل حتى كأداة تقدمية للتغيير الاجتماعي لأنهم رأوا أنها أصبحت طبقة محافظة.

---

(1) Martinet, J.: op. cit. p. 229.
(2) Geuverra, Che Guerrilla Warfare, N. York, 1961, pp.45, 49, 126.
(3) Rancière, Jacques : La leçon d'Althusser, Gallimard, 1974, p. 134.
(4) Mandel, Ernest : Critique de l'eurocommunisme, Maspero, 1978, p. 161.

اليسار الجديد عبر عن تشاؤم عميق، هو الآخر، حول إمكانية تعبئة الجماهير الشعبية، ورأى أن الطبقة العاملة أصبحت تمثل ثقلاً مناقضاً للفقراء، وطبقة باعت نفسها للمجتمع الاستهلاكي وأصبحت رجعية وعنصرية.

باران، وسويزي، وهما من أكبر مفكري الماركسية الكلاسيكية في أميركا، اعترفا في كتابهما «الرأسمالية الاحتكارية» بزوال الطبقة العاملة كقوة ثورية في المجتمع الأميركي، وبالتالي بفشل ما اعتبره ماركس وأنجلز كالقوة المحركة للتحول الاجتماعي في مجتمع طبقي. إنهما أسقطا، في الواقع، كل سياسة طبقية عمالية في إطار النظام الحالي لأنهما لا يجدان أيّ جماعة تتميز بالقدرة والإرادة على القيام بثورة اشتراكية ناجحة[1].

المتكلم الأول باسم المثقفين المغتربين، وباسم الماركسية المحدثة في أميركا كان ميلز، إنه حث بوضوح الماركسيين على ضرورة التخلص مما أسماه «ميتافيزيقهم العمالي»، لقد كان مقتنعاً بأهمية الماركسية في دراسة مشاكل العصر الحالي، ولكنه خلص إلى القول بأن الإنتليجنسيا الثورية وليس الطبقة العاملة، هي أداة الاشتراكية التاريخية الحقيقية، وحاول أن يجعل المفهوم الماركسي مفهوماً عصرياً، وذلك بتطويره في وجهة نظره الجدلية التي كانت تميزه. فهو يكتب، مثلاً، «ما لا أستطيع إدراكه تماماً حول بعض الكتاب اليساريين الجدد هو تمسكهم الشديد «بطبقة العمال» في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة كالأداة التاريخية، أو حتى كالأداة الأكثر أهمية، وذلك في وجه الدليل التاريخي الكبير الذي يقف الآن ضد هذا التوقع. ميتافيزيقا عمالية كهذه تُشكل، كما أعتقد، تراثاً من الماركسية الفيكتورية التي أصبحت الآن غير واقعية»[2].

وفي مكان آخر، يكتب «من الذي نفد صبره؟ من الذي أصبح مشمئزاً مما أسماه ماركس «كل هذا الوسخ القديم؟»». من الذي يعمل ويفكر بطرق ثورية؟.. في جميع أنحاء العالم - في المعسكر الاشتراكي وخارجه، وفي الوسط - الجواب واحد، إنها الإنتليجنسيا الشابة.

من الذي أخذ يكسر طوق اللامبالاة في المنطقة السوفياتية؟.. إنهم الطلاب والكتاب والمدرسون الشباب، إنها الإنتليجنسيا الشابة في بولندا، وهنغاريا، وروسيا أيضاً، هذه ظاهرة لا تخسر قيمتها لأن هذه الإنتليجنسيا لم تنتصر، أو لأنها تشمل نماذج اجتماعية وأخلاقية أخرى.

لهذا يجب أن ندرس هذه الأجيال الجديدة من المثقفين في العالم كأدوات حية واقعية للتحول التاريخي. لننس الماركسية الفكتورية، اللهم إلا عندما نحتاج إليها، ولنقرأ لينين من جديد «انتبه» - وروزا لوكسمبورغ أيضاً.. ولكن هذا يمثل نوعاً من اليقظة الأخلاقية المفاجئة. أليس كذلك؟.. صحيح.. يجب الآن أن نتعلم من ممارسة هؤلاء المثقفين الشباب وأن نحقق معهم أشكال عمل جديدة[3].

إن غرامشي كرّس قدراً كبيراً من التحليل لمؤسسات غير اقتصادية، وخصوصاً التي تؤدي دوراً فكرياً، كالتعليم والدولة. إن إسهامه الأساسي كان نقده للحتمية الميكانيكية وتوكيده على

---

(1) Clecak, p. : op. cit. pp. 1220123.
(2) C. Wright Mills: "On the New Left", Studies on the Left, N. 1. 1961.
(3) C. Wright, Mills: " Letter to the New Left", New Left Review,N.5,1960

أهمية الدور الذي يمارسه المثقفون في مساعدة طبقات العمال على بلوغ منظور اشتراكي. المثقفون لا يعملون طبعاً في فراغ اجتماعي، ولكن غرامشي أراد نجاة المفهوم اللينيني حول الثوري المحترف كفاعل سياسي يصنع التاريخ، نجاته من الماركسيين الحتميين. إن لينين وجد أن المثقفين يمارسون، كما رأينا، الدور الأساسي في نقل الوعي لطبقة العمال. وغرامشي أعطى الدور نفسه للإنتليجنسيا، كمسؤولة رئيسية عن صياغة مفاهيم التحول الاجتماعي السياسي. إنه رأى، بسبب اعتقاده بأهمية القيادة للثورة، أن الحزب يتميز بدور أساسي في خلق بديل عن الهيمنة الرأسمالية[1].

غرامشي ميز في العشرينات بين المثقفين التقليديين، المثقفين البورجوازيين، والمثقفين «العضويين» للبروليتاريا. ولكن الطبقة العاملة الروسية كانت حديثة وضعيفة إلى درجة كان من الصعب معها الكلام على «مثقفيها». هؤلاء المثقفون هم الذين حاولوا بأن يجعلوها واعية لدورها التاريخي، وليس العكس. الصراع الأساسي الأول كان صراع الإنتليجنسيا ذات الثقافة الغربية ضد شريحة الموظفين القيصريين (المثقفون العضويون للنظام) وضد الوسط الشعبي أيضاً. إن قسماً كبيراً من هذه الإنتليجنسيا، التي برزت أساسياً من الطبقات الوسطى وكانت تنتمي غالباً إلى أقليات قومية، انضم إلى الماركسية. ولكن القوة التي شعر هذا القسم بأنه ينتمي إليها «عضوياً» لم تكن أولاً البروليتاريا الروسية، بل الاشتراكية الأممية، وبالدرجة الأولى الديمقراطية الاجتماعية الألمانية. إن غرامشي كان مصدراً أساسياً لكثير من المنظرين لطبقة العمال الجديدة، والذين رجعوا إلى الأعمال التي تركها عند وفاته عام 1936.

إن قسماً كبيراً من تحليل جورج لوكاش (الذي يعتبره البعض أكبر مفكر ماركسي في القرن العشرين) كان موجهاً ضد الاعتقاد المُريح بكفاءة البروليتاريا على استيعاب الأيديولوجية الاشتراكية. إن مفهومه حول «التلكؤ التاريخي» (Historical lag) بين الأوضاع الموضوعية للأزمة الرأسمالية وبين الأوضاع الذاتية للوعي الطبقي كان يشكل صياغة مبكرة (في أوائل القرن العشرين) لأطروحة تنوعت أشكالها فيما بعد، مع استمرار النظام الرأسمالي رغم التوقعات الماركسية المتعاقبة لموته. إن لوكاش نبه بحق بأن هذا المفهوم، مفهوم التلكؤ التاريخي أو الأيديولوجي كان غريباً تماماً عن تصور كوتسكي التقليدي الذي رأى مطابقة طبيعية بين مستوى قوى الإنتاج ومضمون المعتقدات السياسية. كل قول بعلاقة محددة ودقيقة أو نهائية بين الصعيد المادي والصعيد الأيديولوجي أصبح بعد ذلك لاغياً. فالصعيدان يتبعان إيقاعات خاصة ومنفصلة نسبياً، وينتج عنها التناقض أكثر من الانسجام. الصعيد الأيديولوجي هو صعيد الوعي، وبالتالي صعيد الإنتليجنسيا وهذا يضفي على دورها أهمية خاصة ورئيسية في صنع الثورة.

ديبريه ينكر دور طبقة العمال الثوري ويؤكد على دور الإنتليجنسيا. فهو يرفض المفاهيم التي تقول بها عادة الأحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية حول دور الطبقات في الثورة، إنه يرى أن الفلاحين يتميزون من حيث المبدأ بالسكون ولكن من الممكن تحولهم إلى قوة ثورية، أما

(1) Friedland, W., etal: op. cit. p. 60.

البورجوازية الوطنية، فليس لها من دور في الثورة، وطبقة العمال أصبحت فاسدة نتيجة الحياة المدينية وهي لا تقوم بدور في الثورة، أو في أحسن الحالات بدور بسيط. العنصر القيادي يتشكل من المثقفين والطلاب.

ديبريه لا يثق بالعمال ويحذر بأن المدينة «برجزت البروليتاريين»، إنه يشير «إلى الفلاحين الأميين.. الذين اختنقوا نتيجة قرون من «السلام الاجتماعي» في ظل النظام الإقطاعي.. هؤلاء لا يمكن أن يستيقظوا أو أن يحققوا وعياً سياسياً عن طريق الفكر والتأمل، والقراءة». استثناء العمال والفلاحين والبورجوازية الوطنية يعني أن القوة الباقية التي يمكن لها أن تصنع الثورة هي الإنتليجنسيا.

ديبريه يكتب «إن السخرية التاريخية أرادت بالضبط تعيين هذا الدور الطليعي للمثقفين والطلاب الثوريين الذين كان عليهم أن يفجروا أو بالأحرى أن يبدأوا بتفجير أعلى أشكال الصراع الطبقي»[1]. إن «الطلاب والمثقفين هم الذين يبدأون الثورة وبذلك يحفزون على الثورة الفلاحين الأميين العاجزين بأنفسهم عن الإدراك السياسي، ويعملون على إيقاظهم من سباتهم عن طريق المثل الذي يقدمونه لهم في كفاحهم المسلح»[2].

فانون لا يعبر مباشرة عن أفكار كهذه ولكن تحاليله وآماله بأن يتجه المناضلون من المدن الأفريقية إلى الريف كي ينظموا الثورة يعني ضمناً بأن مثقفين من هذه المدن هم الذين يمارسون الدور القيادي الأساسي. إن كتابات فانون قد توحي لأول وهلة بفكرة مختلفة، خصوصاً لأنه يكرس قسماً كبيراً من جهده في نقد عيوب المثقفين. لهذا وصف بعض المعلقين فانون بأنه جورج سوريل فصيح العبارة، لأن الموقف المعادي للمثقفين كان يمثل جانباً خاصاً من وجهة نظر سوريل. ولكن إن نحن أخذنا كتابات فانون ككل، يصبح من الواضح أنه يتوقع أن يظهر عدد بين المثقفين، الذين يصف معظمهم كمخادعين، من الذين يستطيعون توفير قيادة الثورة، خصوصاً عندما نذكر أنه كان يحتقر العمال، ويرى أن الطبقة العاملة فاسدة[3].

موقف ديبريه وفانون يلتقي مع موقف ماركوزه، فالثلاثة كانوا ينبهون إلى الجوانب السلبية - من زاوية ثورية - في الحياة المدينية الحديثة، ويتذمرون من المنافع المادية والاستهلاكية التي خربت الطبقة العاملة في المدينة التي أصبحت مصدراً للفساد والتفسخ. ماركوزه كان يرى، في الواقع، أن ظهور المجتمع الاستهلاكي لا يحوّل العامل فقط إلى محافظ مناصر للنظام الرأسمالي، بل ينزع عنه الأصالة الإنسانية نفسها.



الاعتراف بأن طبقة العمال ليست طبقة ثورية وتحتاج في ذلك إلى دور الإنتليجنسيا القيادي - هذا إن أمكن لها التحول إلى طبقة من هذا النوع - لا يقتصر على مفكرين ماركسيين غربيين بل يمتد إلى آخرين كثيرين في أوروبا الشرقية.

---

(1) Debray, Regis: Revolution in the Revolution N. York, 1967, pp. 77, 21.

(2) Woddis, Jacques: New theories of revolution, International Publishers, 1972, pp. 185-86, 199.

(3) Ibid: p. 397.

الفيلسوف البولندي كولاكوسكي، مثلاً، يكتب: «الطبقة العاملة كانت قادرة ـ وذلك ظاهرة طبيعية ـ بأن تمارس عفوياً الحرب الاقتصادية دون تعاون الأوساط المتعلمة، ولكن لم يكن من الممكن أبداً تنظيم حركة شيوعية دون مشاركة جماعات تنتمي إلى الإنتليجنسيا البورجوازية، جماعات قادرة على تقويم إمكانات البروليتاريا المستقبلية وتبني دوراً في الحياة منسجماً مع اتجاهها التاريخي.. إن نظرية الاشتراكية العلمية لم تكن ممكنة كنتيجة آلية للصراع الطبقي، كنتاج «للغريزة الطبقية»، أو كخلق للعمال أنفسهم، إنها كانت تتطلب تضلعاً في جميع أشكال المعرفة الموجودة حول المجتمع، وهو أمر يمكن تحقيقه فقط بعد دراسة متخصصة طويلة.

لهذا كان من الضروري، كما كتب لينين، جلب الأيديولوجية الاشتراكية إلى حركة طبقة العمال من الخارج، لأن هذه الطبقة غير قادرة بذاتها على خلقها. لهذا أيضاً ليس من قبيل الصدفة أن يكون أهم قادة البروليتاريا ـ ماركس، أنجلز، لينين ـ مثقفين من حيث التعليم والأصل وطبيعة العمل. لم يكن من الممكن لأحدهم أن يلعب دوره السياسي دون تدريب ثقافي متعدد الوجوه جعله قادراً بأن يحلل الحياة الاجتماعية المعاصرة، اقتصادياً وسياسياً، وبأن يُدرك احتمالات تحولاتها المستقبلية».

هذا الدور القيادي الأساسي الذي تمارسه الإنتليجنسيا لم يكن ضرورياً فقط في خلق الاشتراكية العلمية والحركة الشيوعية نفسها، بل يستمر ضرورياً لمستقبلهما نفسه. «المعرفة النظرية حول المجتمع تستمر كشرط للصراع الناجح للحركة الشيوعية، كي لا تصاب هذه الحركة بالركود، حيث من الضروري تغذيتها بمنجزات نظرية متقدمة يخلقها ويسهر عليها مثقفون شيوعيون. دور المثقفين في الحركة الشيوعية هو بالتالي، وكما كان، أكبر بكثير مما هو عليه في أحزاب العمال التي تنشغل بشكل استثنائي تقريباً بمكاسب اقتصادية مباشرة، أحزاب خالية من أهداف بعيدة المدى في صراع البروليتاريا من أجل السلطة، وخالية من مشاريع لتنظيم الحياة الاقتصادية في هذا الإطار. من ناحية أخرى، إن حركة تضع لنفسها أهدافاً سياسية وتحاول أن تكسر قبضة البورجوازية على زمام الدولة، وأن تبني من جديد وبشكل تام جميع مستويات الحياة الإنسانية، لا تستطيع الاستغناء عن نظرية تخضع باستمرار للنقد، والتحديث وإعادة النظر. هكذا فقط تستطيع النظرية البقاء على صعيد يتطابق مع الوضع الحالي، والتحولات الاجتماعية الجارية في العالم. المثقفون الذين يخلقون الأسس النظرية للعمل السياسي ليسوا، إذن، مساعدين فقط في حركة العمال، بل شرطٌ لا يمكن الاستغناء عنه لوجوده ذاته»[1].

رودولف باهر، المفكر الماركسي في الحزب الشيوعي في ألمانيا الديمقراطية الشرقية، أعلن عن تشاؤمه بإمكانات طبقة العمال الثورية وعن ضرورة توفر عامل خارجي في تحريك عملية الثورة، يتمثل في تمرد المثقفين. هذا التشاؤم لا يقتصر على العمال في أوروبا الشرقية بل يشمل أيضاً طبقات العمال في أوروبا الغربية. هذا يتطلب في رأيه إعادة نظر في النظرية الماركسية فيما يتعلق بالدور الرئيسي الذي يُفترض بطبقة العمال القيام به في إسقاط الرأسمالية واستبدالها بالاشتراكية. إنه يكتب بأن «جميع المناقشات الماركسية منذ عام 1914

(1) Kolakowski, Leszek: Toward a Marxist Humanism, Grove press, 1969, pp. 159-160.

تنتهي بالاستنتاج بأن المصالح التي يعبر عنها العمال ليست، في الواقع، مصالحهم الحقيقية». فالمصالح التي يعبرون عنها واقعياً أو حقيقياً لا تتجاوز «أفق التحسين البورجوازي الصغير لقدرهم.. طبقة العمال هي إذن طبقة إصلاحية بشكل طبيعي (أي نقابية) ولا تستطيع أن تكون حاملة لمشروع اشتراكي حقيقي». هذا المشروع «ينتج فقط عن جبهة تاريخية يقوم فيها المثقفون، التقنيون، والكوادر، بدور أكثر دينامية من دور العمال»[1].

والمفكر اليوغسلافي ميليزا فليفيش يكتب: «إن حوافر الحركات الثورية ليست حالياً العمال، بل المثقفون. فمن بين القادة الفوضويين نجد أصحاب الملايين، لأن الذين يتألمون من الاستعباد الفكري أخذوا يتمردون بشكل متزايد.. إننا نلاحظ في مجرى السنين الأخيرة تعدد حركات المثقفين التي تحل محل اتجاهات جماهير العمال الثورية التي أكدت ذاتها أثناء المرحلة الأولى لظهور الرأسمالية.. هذه الحركات تشكل مؤشرات رائدة لظاهرة ثورية جديدة تضع في الواجهة الأمامية النشاط والخلق الفكري بدلاً من الإنتاج العادي.. إن الأوساط العلمية والفكرية تشكل الدماغ الخصب للتطور الاجتماعي، وهو تطور يستحيل بدونها»[2].

هذه الأمثلة الماركسية المتنوعة التي رجعنا بها أساسياً إلى ماركسيين وبعض الذين يناصرون الماركسية تدل بوضوح أن الماركسية بعد ماركس، وخصوصاً الماركسية ـ المحدثة، تعترف أن طبقة العمال ليست طبقة ثورية، أو أنها أصبحت غير ثورية، أنها تحتاج إلى قيادة الإنتليجنسيا ودورها الثوري الأساسي والطليعي، وأن هذه الأخيرة أصبحت، في الواقع، تُعتبر من قبل الكثيرين من هؤلاء كالأداة الأساسية التي يجب الاعتماد عليها في صنع الثورة.

إننا، في الواقع، نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك والتنبيه بأن من الممكن القول إن هذا الاتجاه يجد جذوره الأولى في بعض كتابات أو أقوال ماركس وأنجلز نفسها.

بالنسبة لأنجلز «عندما تكون المسألة مسألة تغيير تام للنظام الاجتماعي، فإن الجماهير نفسها يجب أن تكون جزءاً من ذلك، يجب أن تكون قد أدركت أهمية المشكلة، أهمية ما تريده، جسداً وروحاً. إن تاريخ الخمسين سنة الماضية علمتنا ذلك، ولكن كي يمكن للجماهير أن تدرك ما يجب عمله، من الضروري القيام بعمل طويل، وهذا العمل هو بالضبط ما نمارسه الآن بنجاح حيث أخذ يدفع العدو إلى اليأس.. ضرورة هذا العمل الطويل.. تشكل واجب الحزب»[3]. هذا يعني، بكلمة أخرى، توكيداً على مسؤولية الإنتليجنسيا في تثقيف الجماهير بالوعي الثوري، والاعتراف بدورها الثوري الطليعي والأساسي. في سلسلة من المقالات التي نشرها عام 1843، نراه يؤكد بأن ظهور حركة شيوعية ألمانية لن يتحقق على يد طبقة العمال «الصغيرة نسبياً» بل بين الطبقات المتعلمة[4].

---

(1) Mandel, E.: of cit. pp. 141, 160-161.

إن ماندل يصف، في الواقع، كتاب باهر (La Solution de Rechange) بأنه الإنتاج النظري الأهم في أوروبا الشرقية منذ صدور كتاب تروتسكي "خيانة الثورة".

(2) Milisavlyvic, Ratko: Environment, Ideologie, et science, Editions Anthropos, 1978, pp. 237, 253.

(3) Colletti, Lucio: From Rousseau to Lenin, Monthly Review Press, 1974, p. 46.

(4) Billington, J.: op. cit. p. 265.

وفي «الاشتراكية الطوباوية والعلمية» يكتب أنجلز أيضاً بأن الرسالة التاريخية للبروليتاريا الحديثة هي تحقيق عمل التحرر العالمي الشامل. إن إدراك الأوضاع التاريخية، وبالتالي طبيعة هذا العمل نفسه، ومنح الطبقة البروليتارية التي تخضع للقمع حالياً معرفة تامة لأوضاع ومعنى هذا العمل الكبير المدعوة إلى تحقيقه، هو واجب التعبير النظري عن الحركة البروليتارية في الاشتراكية العلمية.

هذا يعني مرة أخرى أن هذا «الواجب» الذي يتكلم عنه أنجلز يشكل مهمة الإنتليجنسيا، لأن الاشتراكية العلمية كانت من صنعها، وكذلك الأمر بالنسبة لشرحها وتطبيقها وتعميمها، كلها أمور تقوم بها الإنتليجنسيا.

لكن رسائله مع ماركس تكشف عن جانب آخر تجاهله عادة المؤرخون، وهو درجة عليا من الازدراء للعمال، ازدراء يثير، في الواقع، الدهشة لأنه يصدر عن مفكر (أو بالأحرى مفكرين) ارتبطت نظريتهما بالبروليتاريا التي رأت فيها تحقيقاً لأهم وأنبل رسالة تاريخية. في هذه الرسائل نراه يشير إليهم، مثلاً، «كهؤلاء الأفراد المضحكين»[1]، أو «كهؤلاء الحمير»[2]، أو «هؤلاء العمال الحمقى الذين يؤمنون بأي شيء»[3]، إن «ذكاءهم محدود، وأخلاقهم سيئة، وخمولهم وحسدهم التافه يثيران الاشمئزاز»[4].

بما أن هذه الرسائل المتبادلة بين ماركس وأنجلز لا تكشف عن أي احتجاج من قبل الأول على هذا الازدراء الذي عبر عنه أنجلز، فذلك يعني موافقته عليه. ثم إن ماركس وأنجلز كانا يعبران في مجالس خاصة عن هذا الازدراء ويتكلمان عن «العمال الحمقى»، «الحمير» «غوغاء الشيوعية الحمراء»، «الرعاع»، «الغوغاء»، و«الشعب الذي لا يتميز بأيّ أهمية أبداً»[5].

إن لايبنخت، تلميذ ماركس وأحد أتباعه الكبار والأوفياء له كتب «إن ماركس كان، في تحرره من كل وهم، لا يضفي أيّ قيمة على تصفيق الجماهير التي كانت بالنسبة له غوغاء دون عقل، ذات أفكار ومشاعر تغذيها بها الطبقة الحاكمة»[6].

من المعروف أيضاً أن ماركس كان يرى أن من حق الفلسفة «أن تقود البروليتاريا». إن الفلسفة لم تكن كافية في ذاتها، والبروليتاريا التي تمثل «السلاح المادي للفلسفة» كانت ضرورية لذلك، هذا يعني قيادة أداة الفلسفة: الإنتليجنسيا.

هذه النظرة المتعالية التي تعبر عن «احتقار» للجماهير، أو على الأقل توحي بذلك، تقترن بنظرة أخرى - قد تعود إليها - وهي إيمان ماركس وأنجلز بعنصر الوراثة. فالناس يتميزون بكفاءات وميول خاصة، فطرية وطبيعية، وهي كفاءات وميول متباينة ومختلفة بينهم. فالناس لا

---

(1) Friedrich Engels: Letter to Marx, September 18, 1846.
(2) Ibid, January 14, 1848.
(3) Ibid, September 18, 1846.
(4) Ibid, January 14, 1848.
(5) Schwartzschild, Leopold: Karl Marx, The Red Prussian, Grosset and Dunlop, 1947. pp. 227, 323.
(6) Liebknecht, Wilhelm: Karl Marx, 1901, reprint ed Greewood press, 1968, p. 82.

يولدون متساوين، لأنهم يتميزون «بفروق في الدماغ وفي الكفاءات العقلية»، وبعضهم يولد «بكفاءة على القيادة» أو الإبداع الفكري، الكنيسة الكاثوليكية، مثلاً، كانت تتشكل في القرون الوسطى «من أحسن الأدمغة في الشعب بصرف النظر عن الطبقة، الولادة، أو الثروة».

لايبنخت يقول لنا إن ماركس «كان يؤمن بالفرينولوجيا (Phrenology)، ولهذا كان يلقي نظرة فاحصة على رؤوس المعجبين به قبل إعطائهم ثقته»(1).

ماركس يبدو أيضاً كمؤمن بالفروق العرقية، فهو يتكلم عن «الخصوصيات العرقية»، و«الخصائص العرقية الموروثة»، ثم إنه لم يكن بريئاً، كما توحي بذلك بعض ملاحظاته، من التزمت العنصري، هذا واضح في بعض آرائه حول الأقليات القومية في البلقان وحول فرديناند لاسال، أو حول المكسيكيين «كآخر الناس»، إلخ.

إن أنجلز كان أكثر صراحة في هذا الموضوع، فهو ينكر على سكان بوهيميا، وكرواشيا، مثلاً، الحق في الانضمام إلى الحركة البان - سلافية للتحرر من السيادة الألمانية، لأن التاريخ يجعل من الضروري امتصاص هذه الشعوب الضعيفة من قبل «عرق أكثر حيوية»، كالألمان الذين يتميزون «بالقوة العضوية والعقلية والقدرة على إخضاع وامتصاص الشعوب المجاورة في أوروبا الشرقية»، وعلى نشر الحضارة الغربية فيها. لهذا كان «قدر هذه الأمم البائدة، الطبيعي والمحتوم» هو الخضوع للامتصاص بدلاً من مقاومة هذا الاتجاه التاريخي»(2).

أقوال كهذه يمكن على الأقل أن توحي - إن لم نقل تعبر صراحة - باعتقاد بالفروق العقلية والنفسية الوراثية كأساس لما نجده من فروق فكرية واجتماعية بين الناس.

ولكن هنا يجب التنبيه أن هذه النظرة الماركسية المتعالية التي تعبر عن «الاحتقار» للجماهير تتناقض جذرياً مع أفكار ماركسية عديدة أخرى، أو مع النظرية الماركسية ككل، في بنيتها أو طابعها العام، فكيف نفسر هذا التناقض؟

من ناحية عامة، يمكن القول إن هذا التناقض يلازم كل نظرية اجتماعية سياسية عامة تحاول أن تشمل حركة المجتمع والتاريخ ككل، وذلك بسبب التعقيد والديناميكية اللذين يلازمان هذه الحركة. هنا يمكن القول أيضاً إن لكل نظرية فعالة من هذا النوع طابعاً أو اتجاهاً عاماً يضفي عليها هوية خاصة، وإن وجود تناقض كهذا لا يلغي عادة وجود هذه الهوية، الهوية التي تقيس، في الواقع، قيمة النظرية وتحدد دورها. الماركسية، كنظرية حول حركة التاريخ والمجتمع

---

(1) (Ibid, p. 52) الفرينولوجيا تعني فراسة الدماغ أو دراسة بنية الجمجمة بوصفها مظهراً دالاً على الشخصية والملكات العقلية.

(2) هذا النوع من الأقوال هنا وهناك في بعض كتابات ماركس وانجلز، راجع:

Marx, K.: Capital, vol. l.
Marx, K.: of Philosofhy
Marx, K.: German lleology.
Marx, K.: The Jwish Question.
Engels, F.: Revolution and Counter-Rervolution.
Engels, F.: Socialism, Utopian and Scientific.
Marx, Engels: Selected Correspondence.

ككل، تخضع إذن لقانون عام، والتناقض الذي أشرنا إليه يكون بالتالي طبيعياً طالما لا يلغي هويتها العامة.

من ناحية أخرى، يمكن القول، أولاً، أن ماركس كتب جزءاً من كتبه، كفيلسوف، وجزءاً آخر كباحث اجتماعي، وجزءاً ثالثاً كباحث اقتصادي، وجزءاً آخر كمؤرخ.. وثانياً، إنه أعد هذه الكتب في مراحل، وأوضاع، ومن زوايا مختلفة. هذا كله يفرز تناقضات أو يعرض لتناقضات لا يمكن تجنبها أو يصعب تجنبها، والتناقض الذي أشرنا إليه قد يكون بالتالي جزءاً من تناقضات كهذه.

ولكن من ناحية ثالثة وأهم، يمكن القول بتجاوز هذا التناقض، والتدليل أنه غير موجود، فهناك ما يبدو ظاهرياً وكأنه تناقض حيث لا يوجد، في الواقع، تناقض. ما نعنيه بذلك هو أن ماركس وأنجلز انطلقا من مفهوم أساسي يقول بنوع من «الحتمية التاريخية» يدفع نحو الاشتراكية، فالجدلية الاجتماعية التاريخية نفسها توجه، مستعينة بالبروليتاريا ومعتمدة عليها، نحو هذه الاشتراكية. هذه الحركة تفرض، بكلمة أخرى، على هذه البروليتاريا دوراً معيناً ينتج عن التفاعل الجدلي للقوى والتناقضات التي تعمل عبرها.

ماركس يكتب، مثلاً، في «العائلة المقدسة»، ما يلي: «إننا لا نهتم بما يعتبره ذاك، أو هذا البروليتاري، أو حتى البروليتاريا ككل، قصداً لها. ما يهمنا هو ما تكون البروليتاريا مرغمة على صنعه تاريخياً. إن أهدافها وعملها التاريخي أمور معينة لها بشكل نهائي». من هذه الزاوية يزول التناقض، لأنه يصبح من الممكن القول بعجز البروليتاريا وذلك بأقوال تعبر عن «الاحتقار» لها أو على الأقل توحي به. ثم القول في الوقت نفسه بالرسالة التاريخية المهمة والنبيلة التي ترتبط بها، لأن هذه الرسالة تصبح آنذاك نتيجة جدلية اجتماعية تاريخية وليس نتيجة مقومات ذاتية.

التجربة الفوضوية

الفوضوية كانت تؤكد هي الأخرى، وبشكل بارز وحاسم على دور الجماهير الأساسي والطليعي. إن توكيدها كان، في الواقع، أكثر شدة ووضوحاً من توكيد الماركسية. وكانت تتميز عن هذه الأخيرة بشكل خاص، بكونها حذرت من دور المثقفين الذين «يريدون» بأن يكوّنوا طبقة حاكمة جديدة فوق العمال، أو الذين سيتحولون بسبب أوضاعهم الخاصة إلى طبقة كهذه. ولكن رغم ذلك، فإننا نرى بأن الفوضوية كانت تجابه وتعيش التناقض نفسه الذي واجهته وعاشته الماركسية.

الفوضوية كانت دائماً تنطوي على خط عريض مضاد للنشاط الفكري، لا يثق بالبنى الفكرية الدقيقة، ويمجد الحياة ويقدمها على الفكر. إن ريبة الفوضويين بالمثقفين والنشاط الفكري وجدت صوتها الأعلى في الاتهامات التي وجهها باكونين إلى الماركسيين، ولكنها وجدت أيضاً، تعبيراً عنها في فوضويين آخرين، كشتارنر وبرودون، وبعد مضي قرن، في نقد كوهن. بانديت للشيوعيين.

إن محاولة فرض نظام على الواقع عن طريق الوعي العقلاني، واحتواءه في داخل نظرية مجردة، يجرد، بالنسبة للفوضويين، الحياة من تنوعها وفرديتها[1].

إن تولان، الفوضوي البرودوني، عبر عن هذا الاتجاه العام عندما كتب «إننا لا نحقد على أحد، ولكن في الأوضاع الحالية من المفروض علينا أن نعتبر كأعداء جميع أفراد الطبقات المميزة، سواء أكانوا من الرأسماليين أو من حملة الشهادات الجامعية». هذه الكراهية للمثقفين كانت غالباً تعبر عن ذاتها بين الفوضويين. أحد الشعارات الشائعة بينهم كان «إننا لا نريد أيادي بيضاء، بل أيادي خشنة فقط».

ولكن باكونين هو الذي عبر بحسم عن هذا الرفض للمثقفين وحذر من سيطرتهم. إنه يكتب: «طالما أن عالم المجردات العلمية.. يشكل منطقة خاصة يمثلها بشكل خاص العلماء..

(1) Shatz, M. ed: The Essential Works of Anarchism, Bantam Books, 171, pp. XII-XIII.

فإن هذا العالم المثالي يهدد بأن يحل محل الله بالنسبة للعالم الحقيقي، وبأن يحتفظ لممثليه المرخص لهم بمركز الكهنة. لهذا كان من الضروري القضاء على التنظيم الاجتماعي الخاص بالعلماء.. كي يمكن للجماهير بأن لا تكون رعايا يقودها كهنة ذوو امتيازات، وبأن تمارس هي نفسها مسؤولية توجيه أقدارها.

ولكن هل من الضروري أن تترك الجماهير خاضعة لحكومة رجال العلم إلى أن تبلغ هي نفسها هذه الدرجة من العلم؟.. كلا، ولا شك، فمن الأحسن لها الاستغناء تماماً عن العلم من أن تسمح لنفسها بأن تكون محكومة من قبل العلماء. إن أول نتيجة تترتب على حكم هؤلاء الرجال تكون جعل العلم متعذراً على الشعب. إن حكومة كهذه تكون بالضرورة أرستقراطية، لأن المؤسسات العلمية الموجودة هي أساسياً مؤسسات أرستقراطية».

ثم يضيف «العالم يميل بطبيعته ذاتها إلى شتى أشكال الفساد الفكري والأخلاقي، ونقيصته الأساسية هي تمجيده للمعرفة، ولفكره الخاص، وازدراؤه لجميع الجهلة. دعه يحكم فيصبح لا يطاق، وإلى درجة أسوأ من جميع المستبدين، وذلك لأن الكبرياء العلمي بغيض، مهين وأكثر قمعية من أي نوع آخر. أي قدر هو هذا القدر الإنساني الذي يجعل منا عبيداً للمتحذلقين!.. إعطاء العلماء حرية العمل يجعلهم يطبقون على الإنسانية ولمنفعة العلم نفس الاختبارات التي يقومون بها حالياً على الأرانب، والقطط، والكلاب.. ويل للإنسانية إن أصبح الفكر المصدر أو الدليل الوحيد للحياة، وإن وجهت العلوم أو المعرفة حكم المجتمع. إن الحياة تصبح جافة، والمجتمع الإنساني يتحول إلى مكان للنفايات، وقطيع من العبيد، إن حكم الحياة بالعلم يقود إلى نتيجة واحدة وهي ذهول الإنسانية كلها»[1].

إن أهم التناقضات البعيدة المدى بين الماركسية والفوضوية تتفرع من مفاهيمها المختلفة حول العلاقة بين الإنسان والطبيعة. فالطبيعة في الماركسية يجب على الإنسان أن يسودها، ويؤكد نفسه عليها، يستثمرها ويستخدمها لمقاصده الخاصة.. من هذه الناحية تتماثل الماركسية والليبرالية.. ولكن الفوضوية تنظر إلى هذه العلاقة بين الإنسان والطبيعة كعلاقة انسجام وليس تناقض[2]. لهذا لم يكن من الغريب أن تقول الماركسية، وخصوصاً الماركسية - اللينينة، بتنظيم سياسي طليعي يقود الجماهير إلى الثورة، ومنها إلى دكتاتورية ثورية تسود الواقع وتغيره تمهيداً للطريق إلى مجتمع متحرر من الضوابط الخارجية وفي طليعتها الدولة، بينما الفوضوية كانت ترى أن الثورة هي من عمل الجماهير المباشر، لا تحتاج إلى تنظيم كهذا، وتؤدي أو يجب أن تؤدي مباشرة إلى ذلك المجتمع دون اللجوء إلى هذه الدكتاتورية، إلى الدولة التي تزول مباشرة عند حدوث الثورة.

لهذا كتب باكونين عن الثوريين الاجتماعيين الآخرين بأن «هؤلاء بورجوازيون من قمة رأسهم إلى إخمص قدمهم، ميتافيزيقيون لا يمكن إصلاحهم في أساليبهم، عاداتهم، وطريقة حياتهم، حتى عندما يسمون أنفسهم وضعيين ويتوهمون أنهم ماديون، فالحياة لا تزال تندفع، بالنسبة لهم،

(1) Bakunin, Michael: God and the state in Shatz, M., op. cit. pp. 152-153, 156-157.
(2) Shatz, M.: op. cit. pp. XVI-XVIII.

من الفكر وتعني تحقيق فكرة مسبقة. إنهم لا يدركون أن الفكر يفيض، على العكس من الحياة، وأن تغيير الفكر يفترض تغيير الحياة أولاً»، ثم يضيف بأن «المثال الجديد يجب أن يبرز من أعماق الحياة الشعبية نفسها وهو بالضرورة نتاج تطلعاتها، وآلامها، وتمردها، وصراعها.. إذا لم يَنْمُ هذا المثال من داخل حياة الشعب، لا يستطيع أحد أن يعطيه له. من ناحية عامة، يجب التنبيه أن ليس من أمة، أو فرد أو مجتمع يمكن أن يُعطي أي شيء لا يكون موجوداً في داخله، ليس فقط في حالة جنينية، بل حالة نامية إلى درجة ما. إن لم تكن الفكرة موجودة في الفرد كغريزة حية، لا يمكن تفسيرها له، أو (ما هو أهم) غرسها فيه»[1].

بالنسبة للفوضويين «إن عبارات الاشتراكي العلمي، والاشتراكية العلمية التي تعود دون انقطاع في كتابات اللاساليين والماركسيين، تبرهن في ذاتها بأن الدولة الشعبية التي تقول بها هي دولة مزورة ولا يمكن أن تكون سوى حكومة استبدادية على الجماهير البروليتارية، تنهض بها أرستقراطية جديدة ومحدودة جداً من العلماء الحقيقيين أو المزيفين. بما أن الشعب ليس عالماً، فإنه يكون متحرراً تماماً من المشاغل الحكومية ومندمجاً كلياً في ما يشبه المحكومين»[2].

الاشتراكية التي كان يفترض فيها أن تكون حركة عمالية وجماهيرية تدل بوضوح على دور هؤلاء «العلماء» الأساسي في صنع التاريخ الحديث، كثيرون هم المفكرون الاشتراكيون الذين نبهوا إلى هذا الدور وإلى تناقضه الجذري مع المنطلقات والمقاصد الاشتراكية.

إن باكونين كان، كما يبدو، أول من نبه إلى هذه النتيجة عندما حذر منذ أكثر من قرن بأن دكتاتورية البروليتاريا ستكون دكتاتورية المثقفين على البروليتاريا. الدراسات التي ظهرت فيما بعد كانت تؤكد باستمرار هذه النتيجة.

ولكن رغم توكيدها الصريح الحاسم التام - الذي لا يعرف درجة الغموض التي ميزت الماركسية حول الموضوع - على إرادة الجماهير، وأولويتها، وعلى العلاقة المباشرة بين حركة الجماهير والثورة، وعلى اقتران هذه الثورة بهذه الحركة دون وساطة أو وسيط، وعلى الرفض التام للدولة ولأيّ سلطة لا تصدر مباشرة عن الجماهير، فإن الفوضوية كانت مضطرة عفوياً وتلقائياً على الاعتراف الضمني أو الصريح بدور الإنتليجنسيا الضروري والطليعي.

إن الأفكار التي تحتاجها الثورة، كل ثورة، لم تكن أبداً، بالنسبة لباكونين، من صنع الجماهير، بل من صنع أفراد قلائل يتميزون بقدرتهم الفكرية الخلّاقة. «لا شك أن الأفكار التي هيّجت في كل عصر الجماهير، كانت تبرز مسبقاً في دماغ مفكر ما. الأولوية لم تكن أبداً للجماهير فيما يتعلق بالأفكار، الآراء، والمعتقدات والأخطاء، إنها ترجع في كل ما يتعلق بالفكر إلى الفرد. هذا واقع لا يمكن تغييره حالياً»[3].

في تفسير هذه الظاهرة، أي أولوية المفكرين، أو الإنتليجنسيا، في إنتاج الأفكار التي كانت تصنع الثورات، يكتب باكونين «إن أعماله - أي الشعب - لا تتحدد بقصد معين يتجاوز به ذاته، بل

(1) Bakunin, M.: op. cit. pp. 171, 167.
(2) Guerin, Daniel: Ni Dieu Ni Maître, Maspero, vol. II, 1979, p. 13.
(3) Guerin, D. : op. cit. vol. I, p. 138.

بأوضاعه، الأوضاع التي تحيط به عند العمل. إنه، في تعوده على الطاعة في إطار العائلة، وهي طاعة نشأ عليها، يستمر على الطاعة وعلى الانحناء مع الهواء في المجتمع». بما أن أعمال الشعب عاجزة عن الارتباط بمقاصد عامة بعيدة المدى يتجاوز بها ذاته، فإن هذه الأعمال تكشف أنه «ليس مذهبياً أو فلسفياً. إنه لا يجد الفراغ الذي يسمح له بالانشغال بعدة قضايا في وقت واحد، وهو غير متعود على ذلك. عندما يهتم بقضية، فإنه ينسى القضايا الأخرى، لهذا كان من واجبنا أن نطرح أمامه القضية الأساسية التي يرتبط بها تحرره أكثر من أيّ قضية أخرى»(1).

الجماهير عاجزة، من ناحية أخرى، عن مجابهة التحكم الأيديولوجي البورجوازي فيها، التحكم الذي يثقفها بالخضوع لسلطة البورجوازية، وذلك يطمس الأسباب التي تدعوها إلى معاداة هذه الأخيرة. باكونين كان بين الأوائل الذين نبهوا إلى هذه الظاهرة. لقد كتب عام 1870 «..إن البورجوازية في فرنسا، وفي جميع بلدان أوروبا الغربية الأخرى، تشكل جسماً ضخماً، غزير العدد، أكبر بكثير مما نظن، وهي تمد جذورها حتى في البروليتاريا حيث أفسدت بشكل عام الشرائح العليا. في ألمانيا، رغم الجهود التي تقوم بها الصحف الاشتراكية في إثارة الشعور والوعي في البروليتاريا حول العداء الضروري بينها وبين البورجوازية، فإن العمال، وكذلك الفلاحين سقطوا جزئياً في شراك البورجوازية التي تلفهم من جميع الجوانب بحضارتها، وتتغلغل بروحها إلى جماهيرهم». إن باكونين لا يعفي الاشتراكيين من هذه البرجزة، بل يكتب «والكتاب الاشتراكيون أنفسهم، الذين يُرعدون ضد البورجوازية، أصبحوا بورجوازيين من الرأس حتى القدم، أصبحوا دعاة ورسل السياسة البورجوازية، مدافعين في أكثر الأحيان، بدون معرفة أو إرادة منهم، عن مصالح البورجوازية ضد البروليتاريا»(2).

طريق تحول باكونين الثوري كانت طريقاً فكرية، لقد «كان، كجميع الإنتليجنسيا الروسية من جيله، يعاني من تأثير هيجل ويستجيب له بكل العنف الذي يميز طبيعته الحماسية، فعن طريق دراسة هيجل ارتفع كما كتب هو نفسه، ولكن دون أن يسقط أبداً من جديد»(3).

باكونين كان يؤمن، في الواقع، طيلة حياته بدور الإنتليجنسيا القيادي وأهمية دورها الطليعي الأساسي، إنه، كما يكتب المؤرخ الفوضوي، دانيال غيرين «كان، قبل الاهتداء إلى الفوضوية، يمسك بخيوط المؤامرات والجمعيات السرية، ومطلعاً على الفكرة القائلة - وهي فكرة بلانكية النموذج - بأن العمل النخبوي أو عمل الأقلية يجب أن يتقدم على يقظة الجماهير الكبيرة. في الأممية العمالية، حيث تشكلت أخيراً حركة بروليتارية ضخمة، كانت المشكلة تُطرح بشكل آخر. ولكن باكونين استمر، بعد أن أصبح فوضوياً، مقتنعاً بضرورة طليعة واعية. فكي يتم انتصار الثورة على الرجعية في وسط الفوضى الشعبية التي تشكل حياة الثورة نفسها وطاقتها كلها، كان من الضروري لوحدة الفكر والعمل الثوريين أن تجد جهازاً لها. إن مجموعة صغيرة من

(1) Bakunin, M. in Shatz, M. : op. cit. pp. 174-175.

(2) Bakunin, M.: Oeuvres. II, op. cit. p. 233.

(3) (E. H. Carr: Michel Bakunin, Condon, 1937, p. 62) هنا تجدر الإشارة انه عندما يكتب المؤرخ كار بأن الطريق التي يصفها باكونين لتحوله الثوري، كانت طريق "جميع الإنتليجنسيا الروسية من جيله"، فهذا يشير بأن التحول الذي صنع هذه الأخيرة كان ايضاً تحولاً فكرياً.

الأفراد الملهمين بالفكرة نفسها، الذين يتجهون إلى الهدف نفسه، تستطيع ممارسة أثر طبيعي على الجماهير. عشرة، أو عشرون، أو ثلاثون رجلاً إن كانوا متفاهمين جداً، ومنظمين جيداً فيما بينهم، من الذين يعرفون أين يذهبون وماذا يريدون، يستطيعون بسهولة أن يجروا مائة، أو مائتين أو ثلاثمائة أو أكثر، ما يجب علينا تكوينه هو مجالس أركان حرب من قادة الحركة الشعبية، مجالس تكون منظمة جداً، وملهمة جداً»[1].

أما الوسائل التي نادى بها باكونين، فإنها تماثل جداً ما درجت اللغة السياسية الحديثة على تسميته بـ«النواتية». يجب كما يكتب «إعداد الأفراد الأكثر ذكاء، والأكثر نفوذاً في كل مكان كي يمكن لهذا التنظيم أن يتطابق بأكبر درجة ممكنة مع مبادئنا. إن سرّ نفوذنا كله هو هنا». الفوضويون يجب أن يكونوا «قادة غير منظورين» في وسط العاصفة الشعبية. يجب عليهم توجيهها لا بسلطة ظاهرة ولكن «بدكتاتورية بدون لقب، ودون قانون رسمي، تكون بالأحرى قوية بشكل لا تحتاج فيه إلى أي مظهر من مظاهر السلطة». إن باكونين لا يجهل أن لغته (دكتاتورية، قادة، طليعة، إلخ..) تختلف قليلاً عن لغة خصوم الفوضوية، ولهذا يرد مسبقاً «على كل من يزعم أن عملاً منظماً كهذا يشكل أيضاً اعتداء على حرية الجماهير، محاولة لخلق سلطة أوتوقراطية جديدة»، قائلاً: «كلا! فالطليعة الواعية يجب أن لا تكون ولية نعمة للشعب، أو قائداً دكتاتورياً له، بل قابلة تساعد على تحرره الذاتي فقط. كل ما تستطيع صنعه هو أن تنشر بين الجماهير أفكاراً تتطابق مع غرائزها، دون أي شيء يتجاوز ذلك.. والسلطات الثورية يجب أن لا تفرض الثورة على الجماهير، بل تثيرها في حجرها، وألاَّ تخضعها إلى أي تنظيم كان، بل تحيي تنظيمها المستقل من تحت إلى فوق»[2].

باكونين رأى أن التناقض بين العفوية المتحررة وبين ضرورة التدخل من قبل طلائع واعية لا يجد حقاً حلاً له إلا عندما يتمم انصهار العلم بالطبقة العاملة حيث تصبح الجماهير، واعية تماماً، دون حاجة إلى «قادة» بل فقط إلى «أدوات تنفيذية لعملها الواعي». وبعد أن أشار إلى أن البروليتاريا لا تزال تحتاج إلى التنظيم والعلم، يخلص باكونين إلى الاستنتاج بأن «الحركة الأممية» (L'internationale) لا تستطيع أن تصبح أداة التحرير «إلا عندما تُدخل العلم، والفلسفة، وسياسة الاشتراكية إلى الوعي الفكري لكل عضو من أعضائها»[3]. ولكن تحقيق هذا يعني. إن كان من الممكن تحقيقه!. مستقبلاً بعيداً جداً، وهذا يعني بدوره الاستمرار في الاعتماد على الإنتليجنسيا كقوة قيادية وطليعية توجه وتضبط حركة الجماهير، فالجماهير تبقى بحاجة أساسية إلى هذا الدور الذي تمارسه الإنتليجنسيا إلى أن يتحقق هذا التطور التاريخي.

هذه الملاحظات تدل بوضوح على أن باكونين الذي كان، مع برودون، أكبر قادة الفوضوية، «كان يؤمن» كما يكتب مؤرخ للحركة الفوضوية، «بالعمل المباشر، وبفاعلية قلّة ثورية كقدوة في إشعال ثورة الجماهير العفوية»[4].

---

(1) Guerin, D.: L'anarchisme, Gallimard 1976, pp. 41-42.
(2) Ibid, pp. 42-43.
(3) Ibid, p. 43.
(4) Joll, James: The Anarchists, Harvard University Press, 1980, p. 263.

هذه الملاحظات تدل أيضاً أنه عند مواجهة ضرورات وأحكام الممارسة الثورية نفسها وجد باكونين نفسه مضطراً إلى الاعتراف بضرورة دكتاتورية ثورية تمارسها الإنتليجنسيا وتدعو إليها، «باكونين لم يخلق أيّ فلسفة منظمة حول الثورة أو الاشتراكية، وهذا أمر معروف ليس من الضروري الإشارة إليه. إن اشتراكيته كانت أساسياً من الأحشاء: ثورة ضد أي نوع من الاستبداد والظلم، ورفض أيّ مسكنات أو حلول نصفية. كان يؤمن في أحد الأوقات بالبان - سلافية أو الفكرة القائلة باتحاد ديمقراطي من جميع الأمم السلافية، ولكن كل فلسفة كبيرة في زمانه نجحت، لمدة، في إثارة اهتمامه أو كسب ولائه، غير أنه كان دائماً يؤمن، من حيث السياسة العملية، بضرورة دكتاتورية ثورية، وإن كان، من حيث السياسة النظرية، فوضوياً»(1).



هذا التناقض الذي كشفنا عنه في نظرية باكونين بين جانب يقول بالرجوع إلى البروليتاريا والعمل بإرادتها، وآخر يقول بضرورة دكتاتورية ثورية تمارسها، في الواقع، الإنتليجنسيا، هذا التناقض يتخذ شكلاً أكثر حدة في نظرية برودون الذي لم يكن فقط قائداً فوضوياً كبيراً بل أكبر مفكر فوضوي.

إن برودون كان يرى أن اتحادات العمال ليست ضمانة كافية لآرائهم الثورية. فمن الممكن أن يخضع العمال للأساطير المحافظة، وأن يدعموا، مثلاً، سلطة قوية تقدم ذاتها في قناع ديماغوجي. ليس من الممكن فقط أن تقع طبقات العمال فريسة مخططات البورجوازية، ولكنها تنطوي في ذاتها أيضاً على تقليد شعبي من الجمود يجب عليها التخلص منه. فمن الممكن أن تكشف في تاريخها الحديث، كما يكتب برودون، ما أسماه غريزة شعبية مكونة من الطاعة، ومن الثقة الساذجة بالسلطة الأوتوقراطية، والتي تتناقض مباشرة مع المقاصد الثورية، وتتطابق موضوعياً مع السياسة البورجوازية. «..إن طبقات العمال تستطيع تحقيق هذا المشروع (أي التحويل الجذري للعلاقات الاجتماعية) وقادرة على اتخاذ المبادرة.. ولكن إدراك هذا المشروع يعني أنه يجب على طبقات العمال إحداث تحول عملي وأيديولوجي في ذاتها كي تصل إلى التحرر الاجتماعي»(2).

لهذا فإن عمل برودون لم يتجه فقط ضد القوى المحافظة، ضد ميول الحكومة الاستبدادية، بل ضد بعض الميول اللاثورية لطبقات العمال. إنه أعلن ذاته، في الوقت نفسه، كتعبير عن الفكر العمالي، الناطق بلسان الشعب، ونبه بأن هدف «صحيفة الشعب» التي كان ينشرها هو خلق وحدة العمال التي لم توجد بعد.

الجماهير تكون مستعدة للثورة فقط عندما ترى أن جميع الطرق مسدودة أمامها، وعندما «لا ترى أمامها شيئاً سوى الاتجاه نحو الفقر والفساد. لهذا لم تحدث ثورة في القرن السابع عشر - في فرنسا - على الرغم من أن الشعور بتردي الأوضاع كان واضحاً.. والفقر كان مخيفاً..

---

(1) Ulam, Adam: Ideologies and illusios. Harvard University Press, 1976, p. 12.
(2) Ansart, Pierre: Sociologie de Proudhon,. Presses, Universitaires de France, 1967, pp. 207, 91.

بين أسباب هذا الاستسلام نجد أن الشعب كان يذكر حالة سابقة أسوأ منها، وأنه لم يقتنع بأن ذلك الفقر كان أكثر من نتيجة عرضية لسبب عابر. لم تكن هناك أيضاً أيّ ثورة في عهد لويس الخامس عشر خارج دنيا المفكرين. إن فساد المبادىء الذي كشف عنه الفلاسفة بقي محجوباً عن الجماهير التي يعجز منطقها دائماً عن التمييز بين فكرة وواقعة.. إن التجربة الجماهيرية في ظل لويس الخامس عشر كانت عاجزة عن إدراك النقد الفلسفي الذي كان قائماً.. إن لويس السادس عشر وجد أيضاً ترحيباً كبيراً من قبل الشعب، بينما تورغو، المصلح العنيد، لم يجد أي تعاطف منه. إن مساندة الرأي العام كانت بعيدة عن هذا الرجل العظيم. في عام 1776 يمكن القول إن الشعب خان رجلاً فاضلاً»[1].

برودون كان يمارس غالباً ضد الطبقات العاملة النقد الحاد نفسه الذي يوجهه إلى الطبقات البورجوازية. إننا لا نجد عنده ذلك التعاطف الطيب الذي كان يعبر عنه كثير من المفكرين في القرن التاسع عشر تجاه البؤس الشعبي. إننا نجد، على العكس، قسوة في اللهجة والأحكام غير متوقعة من مفكر اشتراكي. ابتداء من عام 1848 كان يؤكد - ما كان سيكرره حتى آخر كتاب له - بأن الشعب يحمل في ذاته حقيقة، عقلاً، ورسالة ثورية. ولكنه كان ينبه في الوقت نفسه بأن الشعب لا يعرف ذاته، ولا يصل إلى وعي فكرته، ولا إلى وعي مصالحه الحقيقية، وبأنه يلتزم بمذاهب ذات جوهر بورجوازي في واقعها، ويستخدم وسائل سياسية مضادة لحاجاته. الشعب يملك أيضاً معرفة صحيحة حول الاقتصاد السياسي، وهو من زاوية معينة، الوحيد الذي يملك هذه المعرفة، ولكن يجب الكشف له عنها وتثقيفه بها. إن الشعب لا يشكل بالضرورة وبشكل مستمر قوة تحرير، كما لا يكون من حيث الجوهر مخلصاً في الأزمان الحديثة. إن كان عليه أن يقوم بذلك في أحد الأيام وجب أن يحدث إيضاح للأفكار ينتج عن الصراع ويتحقق بممارسة يساهم فيها المنظر الثوري[2]. هذا يعني، بكلمة أخرى، أن الجماهير تتميز فقط بإمكانات ثورية وأن الإنتليجنسيا هي التي تكشف عن هذه الإمكانات، تقودها وتحققها.

عندما كان برودون يؤكد على استقلال الجماهير وتحررها لم يكن يعني أن الجماهير أصبحت متحررة، بل إن عليها أن تتحرر وذلك بتحول ذاتي تجربه على ذاتها. لهذا كان القصد من عمله تنظيم العمال ومساعدتهم في التغلب على عزلتهم، وذلك بتلقيحهم بالوعي، بالوسائل الضرورية لهذا التحول. البروليتاري يجب أن يصنع تحرره بتنظيم خاص به، يجب أن يحرر ذاته، ولكن هذا يعني أنه لا يزال عليه أن يصنع ذلك وأن النجاح بالتالي ليس مضموناً.

برودون كتب عام 1860، في الجزء الثالث من كتابه «حول العدالة في الثورة والكنيسة: ميادين جديدة لفلسفة عملية» الصفحات الأكثر عنفاً ويأساً حول إمكانات البروليتاريا الثورية. إنه يذكر بغضب دعم الطبقات الشعبية لنابليون الثالث وينتقد بعنف الجمود البروليتاري وينبه إلى العثرات النفسية والثقافية التي تقف دون تحرر مستقل[3].

---

(1) Pierre-Joseph Proudhon : The idea of Revolution in the Nineteenth Century, in Shartz, M.: op. cit. pp. 84-85.
(2) Ansart, P.: op. cit. pp. 87-88
(3) Ibid, pp. 93,95.

أما الأسباب الأساسية التي يذكرها برودون في تفسير هذا «العجز» الثوري في الجماهير فهي، أولاً، الجمود الذي ينتج عن غياب درجة كافية أو حد أدنى من الوعي لأوضاعها وإمكاناتها. غياب هذا الوعي يجعلها من ناحية أخرى فريسة سهلة «للأساطير المحافظة» و«المخططات البورجوازية».

من ناحية ثانية، إن البروليتاري «يحلم بسلطة بسيطة وموحدة لا يقف أمامها شيء، وهو يحتقر الضمانات المعقدة التي تُعطى للأفراد والتجمعات. إنه يزدري الفيدرالية، يحلم بالمركزية، والوحدة، والشيوعية. لهذا فإن الشعب لم يقاوم نابليون الثالث الذي جسد هذه «الوحدة الوهمية»». من ناحية ثالثة، إن نظام الأجور الذي شبهه برودون بنظام القنانة أو الرق يجرد العمال من كل استقلال مادي وأخلاقي، ولهذا يجب، كما يقول: «الكشف في هذا الخضوع عن أسباب الجمود السياسي الذي كان يعبر عنه العمال منذ مدة طويلة»[1].

كي يمكن لطبقة اجتماعية أن تحقق الكفاءة السياسية وتحوّل ذاتها إلى فاعل للعمل الاجتماعي السياسي يجب أن تتوفر لها، كما يشير برودون، ثلاثة شروط:

1 - يجب أولاً على الطبقة أن تحقق وعياً لذاتها، ولموقفها، ولدورها، ولوظيفتها، وبالتالي لمطالبها.

2 - يجب عليها، ثانياً، بأن تؤكد فكرتها، أي أنه يجب عليها أن تقدم تعبيراً وتصوراً عن «قانون كينونتها».

3 - وأخيراً يجب أن تحقق ممارسة تنسجم مع نظريتها.

وكي يمكن للبروليتاريا، وللجماهير أن تحقق هذا، فإنها تحتاج إلى دور الإنتليجنسيا القيادي والطليعي. الملاحظات العابرة التي أشرنا بها إلى بعض أفكار برودون حول الموضوع تدل بوضوح على هذه العلاقة بين الجماهير والإنتليجنسيا. فبعد تمجيده المثالي، الأول لعفوية الجماهير، أصبح برودون مقتنعاً بجمودها، يشكو مما يميزها من تعصب، وانحياز حكومي، وغريزة احترام للسلطة، وعقدة نقص، وهي ميزات كانت تعثر الاندفاع الشعبي. لهذا وجد برودون «أنه كان من الضروري بالتالي» كما كتب غيرين «إيقاظ عمل الشعب الجماعي. إن استعباد الجماهير يمكن أن يستمر بشكل غير محدود إن لم يتوفر لها تنوير من الخارج. ثم نراه يعترف - أي برودون - أن الأفكار التي كانت تُثير الجماهير في كل العصور كانت تظهر سابقاً في عقل بعض المفكرين.. فالأولوية لم تكن أبداً للجماهير. المثال هو أن تنقل الأقليات الواعية علمها، العلم الثوري، إلى الشعب»[2].



أعلام الفوضوية الآخرون وصلوا أيضاً، من زواياهم الخاصة، إلى النتيجة العملية التي وصل إليها باكونين وبرودون، من اعتراف بدور الإنتليجنسيا الطليعي والقيادي، وضرورته في الكشف

(1) Ibid, pp. 93,89.
(2) Guerin, D.: L'anarchisme, op. cit. pp. 40-41.

عن إمكانات الجماهير وتوجيهها وجهة ثورية. بعض الأمثلة كافية في التدليل على ذلك.

الأمير بيتر كروبتكين الذي حلّ محل باكونين، بعد وفاته، «كرمز» للحركة الفوضوية رجع، في الأربعينات من عمره، «إلى الاعتقاد بأن الثورة تُخدم على أحسن وجه بالكلمة المطبوعة، وبأن نشرة سرية واحدة تكون أكثر قيمة بكثير من قنبلة الإرهابي وخنجره»(1).

أما غولدمن، الفوضوية المعروفة، فإنها كتبت مرة حول نيتشه، «إن نيتشه لم يكن منظراً اجتماعياً، بل شاعراً ومبدعاً. إن أرستقراطيته لم تكن أرستقراطية ولادة أو محفظة، بل أرستقراطية روح أو عقل، وجميع الفوضويين الحقيقيين كانوا أرستقراطيين»(2).

ومالاتستا، الفوضوي الإيطالي، يقول بأن الثورة الاجتماعية يمكن أن تكون من صنع الجماهير فقط، ولكنه يضيف بأن كل ثورة تقترن بالضرورة بأعمال تفرض طبيعتها ذاتها وبشكل ما أن تكون من صنع عدد قليل من الجزء الأكثر صلابة والأكثر ثقافة في البروليتاريا المتحركة(3). هذا على الرغم من المبدأ الفوضوي الأساسي القائل بأن «تحرير العمال يجب أن يكون من صنع العمال أنفسهم».

مالاتستا يرى ضرورة وجود سلطة أخلاقية عليا ترتبط بها الجماهير. إنه يكتب « .سمة هذه السلطة الأخلاقية الصرفة تتفرع من التجربة، والذكاء، والمواهب التي ليس بيننا من لا يحترمها رغم أننا من الفوضويين»(4).

إن مذهب جورج سوريل ينطلق كله تقريباً «من الافتراض بأن المثقفين يخدعون الجماهير، ويفسدونها بأفكار خاطئة وعاطفية رخيصة، فيجعلونها تعتقد بأن الأشياء غير الممكنة تكون ممكنة، وذلك كي يتمكنوا من قيادتها من أنفها. المثقفون يفرضون على العالم انتظامية غير موجودة في الواقع». لكنه يكتب، من ناحية أخرى «إن كان يجب تغيير المجتمع وجب أن تكون هناك نخبة جديدة تحوله، وذلك لأن نخبات الماضي التقليدية خسرت منذ مدة طويلة دورها»(5).

لهذا كان التثقيف الذاتي المستمر ضرورةً يدعو إليها الفوضوي كي يمكن بناء الوعي الذي تحتاجه الثورة. في ديسمبر، عام 1884، أوقفت السلطات الألمانية الفوضوي أوغست رايتسدورف وحكمت عليه بالإعدام لأنه كان يخطط لاغتيال القيصر وبعض الأمراء. ولقد كتب عشية إعدامه رسالة إلى أخيه الصغير جاء فيها:

«انظر دائماً إلى الحياة من الجانب الجدي، وكأنها اعطيت لك كي تُستخدم في خدمة الإنسانية، وفي تحقيق واجبات مقدسة. شارك بأقل قدر ممكن في الملذات الحمقاء التي لا

---

(1) Joll, J.: op. cit. p. 131.

(2) Ibid, p. 153.

(3) Guerin, D.: Ni Dieu Ni Maître, vol. III, p. 34.

(4) Ibid, p. 40.

(5) (Joll, J.: of cit, pp. 190-191)، هنا تجدر الإشارة بأن سوريل يتجاهل في هذا القول الجانب الآخر لهذه "الأفكار الخاطئة والعاطفية الرخيصة" وهو ان المثقفين قد يكونون مضطرين إلى استخدامها لأن الجماهير تفرضها بسبب مستوى الوعي المنخفض الذي يميزها. هذا في الواقع ما يعترف به ضمناً على الأقل في الشطر الثاني "... وذلك كي يمكنهم قيادتها من انفها". فكي يمكنهم ذلك وجب على تلك الأفكار أن تكون منسجمة مع الاستعدادات الفكرية والنفسية للجماهير. فلا تُفرض عليها من الخارج.

تزال تشغل مع الأسف العمال الفقراء، وبدلاً من ذلك ثقف عقلك في كل الاتجاهات كي لا يكون أي شيء غريباً عنك»[1]. عندما سيق إلى الإعدام في اليوم التالي كانت آخر عبارة له: «لتسقط البربرية، ولتعش الفوضوية».

هنا يجب الانتباه بشكل خاص إلى عبارة «الملذات الحمقاء التي تشغل العمال» عن الثورة. هناك، في الواقع، اعتراف عام في أوساط الفوضويين بأن أحد الأسباب الأولى التي تفسر جمود الجماهير هو هذا الانشغال بالملذات والمقاصد اليومية والعابرة عن الثورة، الثورة التي تفرض وعياً يمتد إلى مستقبل بعيد تتركز عليه جهود الثوريين، وعياً يفترض التضحية بهذه المشاغل المباشرة في خدمة مقاصد بعيدة المدى. بعض قطاعات من الفوضويين كانت، في الواقع، تخاف جداً « ..خطر الذوبان في حركة بروليتارية جماهيرية لأن حركة كهذه تنشغل بشكل استثنائي تقريباً بمطالب مباشرة»[2].

هناك، في الواقع، اعتراف فوضوي عام وضمني على الأقل، بأن حركات العمال والجماهير تتركز على مشاغل أو مطالب من هذا النوع اليومي. الفوضوي الفرنسي بوجيه، مثلاً، يكتب «بأن العمل النقابي يتميز بقصد مزدوج. فهو يجب أن يعمل بعزم لا يعرف الملل على تحسين الأوضاع الحالية للطبقة العاملة. ولكن العمال يجب أن لا يدعوا هذه الفكرة تستبد بهم فينشغلوا بها عن التغيير الأساسي الذي يتمثل في التحرير التام، أي إلغاء الرأسمالية، وعن العمل على جعل ذلك ممكناً وقريب الوقوع. ولكن العمل النقابي يهدف حالياً، على العكس، الى تحقيق تحسينات جزئية، وتدريجية لا يمكن أن تشكل قصداً له، ويمكن اعتبارها فقط كوسيلة في المطالبة بقدر أكبر وانتزاع تحسينات جديدة من الرأسمالية»[3].

الحركة الفوضوية كانت ترى، بكلمة مختصرة، وفي كلمات الفوضوي فولين «أن دور النخبات، كما يراه الفوضويون، هو مساعدة الجماهير، وتنويرها، وتثقيفها، وإعطاؤها الإرشادات الضرورية، ودفعها تجاه تلك أو هذه المبادرة، وتوفير القدرة التي تدلها وتساندها في عملها، لا قيادتها حكومياً»[4].

ولكن بما أن هذه «النخبات» تتشكل من مثقفين، فذلك يعني بعبارة أخرى أن الجماهير تحتاج، في المنظور الفوضوي نفسه، إلى إنتليجنسيا تقودها لأنها مسؤولة عن ممارسة دور تحتاج إليه الجماهير، دور ضروري وأساسي في الكشف عن إمكاناتها وتحريكها نحو الثورة التي تخدم مصالحها نفسها. الفوضوية ترى، إذن، من ناحية عامة، أن الجماهير عاجزة في ذاتها عن صنع الثورة، وأنها تحتاج في ذلك إلى قيادة الإنتليجنسيا. هذا المنظور أو الموقف كان يتسرب، بأحد أشكاله، إلى جميع المتكلمين باسم الفوضوية.

الفوضويون يعترفون، من ناحية أخرى، بضرورة «وجود تنظيم حزبي تشرف عليه «نخبة» - أو إنتليجنسيا - لأن الثورة التي لا يضبطها تنظيم ونخبة من هذا النوع تفشل. ولكنهم يسرعون

(1) Ibid, p. 122.
(2) Geurin, D.: Ni Dieu Ni Maître, Vol. III, p. 66
(3) Ibid, p. 92.
(4) Ibid, p. 144.

مضيفين بأن هذه القيادات والتنظيمات الثورية يجب أن تعطي المثل وتكون قدوة، فتعمل على توحيد وتعاون وتنظيم الإرادات الصحيحة والمبادرات والكفاءات والميول ولكن بدون السيطرة عليها، وإخضاعها أو قمعها. إنها يجب، بكلمة أخرى، أن تساهم في العمل الثوري كمعاون وليس كدكتاتور»[1]. هذا المفهوم يتجاهل أن ممارسة السلطة تحدث في «وضعية» معينة تتميز بجدلية خاصة تفرض، فيما تفرضه، نفسية وتطلعات جديدة تفرض عليها ممارسة السيطرة، وحتى القمع والدكتاتورية إن كانت السلطة سلطة ثورية كالتي يتكلم عنها الفوضويون.

هذه الملاحظات تدل بوضوح أن الفوضوية بقيت، كالماركسية، سجينة تناقض أساسي عجزت عن حله، تناقض بين القول بإرادة وعفوية وأولوية الجماهير، وبين القول بضرورة تدخل أقلية، نخبة، أو إنتليجنسيا توجه وتقود هذه الجماهير. إنه «تناقض مزق»، كما يكتب غيرين «الثورة الروسية بين سلطة السوفيات العفوية، وبين مطالبة الحزب البولشيفي بالدور القيادي، تناقض عبر عن ذاته في الثورة الإسبانية حيث تأرجح الفوضويون بين قطبين: قطب حركة الجماهير وقطب النخبة الفوضوية الواعية.. فبعد توكيداته الكريمة المتفائلة، يجد الفوضوي نفسه، مثله مثل أخيه - العدو الماركسي، يتشاجر مع تناقض خطير. إن عفوية الجماهير أساسية وأولية، ولكنها غير كافية، فكي يمكن لها أن تبلغ الوعي، تحتاج إلى مساعدة أقلية من الثوريين القادرين على التفكير حول الثورة. هذه المساعدة ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها»[2].

(1) Ibid, pp. 142-143.
(2) Guérin, D.: L'anarchisme, pp. 41, 43.

خلاصة عامة

هنا التقليد «النخبوي» يمثل، في الواقع، أرضية مشتركة بين جميع الحركات الثورية الحديثة، وعنصراً من أهم العناصر المشتركة بينها.

إن عبارة الطليعة (Avant-garde) جاءت اولاً من سان سيمون في بداية القرن التاسع عشر، وكانت تعني نخبة صغيرة تقود جماهير لامبالية نحو عالم جديد في المستقبل[1]. قبل سان سيمون، كان بابوف أول من استخدم فكرة الثورة الاجتماعية بالاعتماد على نخبة نضالية صغيرة. هذا المفهوم وجد صوتاً قوياً وتنظيمياً في أوغست بلانكي، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفي أول محاولة ثورية قام بها عام 1839.

هنيري دي سان سيمون كان يدعو في تصوره الإيديولوجي إلى «نخبة» من المفكرين تحوّل، لا السياسة فقط، بل الثقافة والمجتمع الإنساني ككل. هذا المعنى بقي ملازماً لها.

هناك طوران في ولادة تقليد الثورة الإجتماعية في القرن التاسع عشر، أو الانتقال من المؤامرات الجمهورية في بداية العشرينات إلى الشيوعية الماركسية في نهاية الأربعينات. فقد جاء أولاً تكامل فكرة الدكتاتورية الثورية التي قال بها بيونوراتي، خليفة بابوف، في العقد الأخير من عمره، من 1828 إلى 1837. في هذه المرحلة ارتبط مثال بابوف - المثال الذي تمّ إحياؤه آنذاك حول المساواة - بالصراع الطبقي البروليتاري عن طريق بعض اتباع بيونوراتي، وفي طليعتهم أوغست بلانكي الذي كان خليفته كمنظم رئيسي ورمز «للمؤامرة» الثورية.

«الشعب» في كتابات بيونوراتي «كان عاجزاً عن تجديد ذاته بذاته، وعن تعيين الذين يجب عليهم قيادة هذا التجديد. لهذا كان الحل بالنسبة إليه دكتاتورية ثورية تتشكل من نخبة فكرية ثورية، وتحقق الدور التالي:

1 - توجيه قوة الأمة كلها ضد الأعداء الداخليين والخارجيين.

2 - خلق وإقامة الأجهزة والمؤسسات التي توجه الشعب تدريجياً إلى ممارسة سيادته الحقيقية.

---

(1) R. R. Palmer: The world of the French Revolution, Harper and Row, 1967, p. 257.

3 ـ إعداد الدستور الشعبي الذي يكمل الثورة ويمثل نهايتها»[1].

أما بلانكي، فقد صاغ ليس فقط نظرية للثورة الاجتماعية تقوم على الصراع الثوري، بل صاغ أيضاً العقلانية لقيادة تتشكل من نخبة من المفكرين.

إن تاريخ الحركات الثورية أو السياسية الحديثة يدل على جانب آخر مهم جداً. عند مراجعة هذه الحركات نجد أيضاً تقليداً آخر يخترقها، تقليداً موضوعياً يعلن عن ذلك التقليد النخبوي، يبرهن عليه، ويمثل مصدراً وقاعدة له. فهذه الحركات تكشف تاريخياً عن الظاهرة أو القانون التالي: إن ثوريتها كانت تتقلص وتضعف مع ازدياد حجمها الجماهيري.

ليس هناك من مثل عن حزب جماهيري ثوري. التجربة الثورية الحديثة تدل بوضوح أنه بقدر ما يكون حجم الحزب كبيراً، بقدر ما تزيد، من حيث التحديد نفسه، تعبئة أعداد كثيرة من الشعب في صفوفه. بما أن المقاصد المباشرة تهيمن بين الأكثرية الساحقة من الناس، فإن توسيع القواعد الشعبية للحركة الثورية يعني أن التوسيع يتم بتعبئة جماعة إجتماعية ساكنة بشكل بارز في ميولها السياسية، «إن الشعب يتكيف عادة ككل مع الوضع الذي يحيط به، وبدون ذلك لا يمكن لأي نظام اجتماعي أن يعمل. إن حزباً جماهيرياً يكون إذن وبالضرورة حزباً إصلاحياً في أحسن الحالات. إنه يقبل النظام ولكن مع الرغبة في تعديله تدريجياً في وجهة تلائمه»[2].

تروتسكي نفسه أشار إلى هذه الواقعة واعترف بها، إنه يقول: «الأحزاب الاشتراكية الأوروبية، وخصوصاً أكبرها، الديمقراطية الاجتماعية الألمانية، كانت تزداد محافظة بالقدر نفسه الذي كانت تتبنى به الجماهير الاشتراكية، خصوصاً عندما كانت هذه الجماهير أكثر تنظيماً وانضباطاً. لهذا فإن الديمقراطية ـ الإجتماعية، التي تشمل تجربة البروليتاريا السياسية، كانت تتحول بالتالي في فترة معينة إلى حاجز مباشر ضد الصراع المكشوف بين العمال وبين الرجعية البورجوازية»[3].

القوة المتزايدة كمياً للطبقة العاملة العالمية تدل على ذاتها في نموها من 30 مليوناً في بداية القرن العشرين إلى 540 مليوناً في عام 1969. في الوقت نفسه كان امتداد تنظيمها واضحاً في عضوية نقابات العمال التي كانت 9 ملايين عام 1910، و64 مليوناً عام 1945، و230 مليوناً عام 1970[4]. بيد أن الحركة الاشتراكية كانت تخسر ثوريتها وتزداد محافظة مع ازدياد هذا النمو الكمي لطبقة العمال المنظمة.

إن أول تنظيم جماهيري تمتع بقواعد شعبية ضخمة وتبنى الماركسية كمذهب له هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، أكبر حزب سياسي في المانيا القيصرية، والأداة الرئيسية في

---

(1) هنا تجدر الإشارة أيضاً أن بيونوراتي حذر، من ناحية أخرى، "من الانزلاق في مناقشات مجردة. فليس هناك، بالنسبة للثوريين، من اعداء اكبر من العلماء المزعومين. اناس كهؤلاء يكونون متحجرين بالأنانية، ويجسدون الأرستقراطية".. Bilington J.: of cit. pp. 173, 174, 177.

(2) Baechler, J.: Les phénomènes Révolutionnaires, pp. 145-146.

(3) Brossat, A.: op. cit. p. 193.

(4) Woodis, J.: op. cit. p. 20.

نقل التعاليم الماركسية إلى العالم في المرحلة التي تقدمت الحرب العالمية الأولى، ولكن المؤرخين الماركسيين. اللينينيين بقوا أمناء لأحكام لينين القاسية حول الاشتراكيين الديمقراطيين الالمان الذين خانوا الثورة وعجزوا عن ممارسة سياسة ثورية. عجز هؤلاء كان مُحيراً ومُربكاً حتى لليسار غير اللينيني الذي أدهشه فشل هؤلاء في استلام السلطة في المانيا القيصرية، أو حتى في القيام بمحاولة جدية في منع دخول المانيا في الحرب العالمية الأولى.

إن أحد الأسباب الأولى الرئيسية التي تفسر ثورية الحزب البولشفي عند مقارنته مع الأحزاب الاشتراكية الغربية هو تكوينه الذي كان يتشكل أساسياً من المثقفين، من الانتليجنسيا، وهو تكوين يعود إلى مفهوم لينين نفسه حول هذا التكوين وطبيعته ودوره. لينين أشار إلى ذلك عندما كتب في مناظرة مع روزا لوكسمبورغ، «المثقفون يشكلون في حزبنا نسبة مئوية أكثر بكثير من الأحزاب الأوروبية الغربية»[(1)].

الاعتراف بهذه الظاهرة، أي تقلص ثورية الأحزاب الاشتراكية وتحولها إلى أحزاب محافظة أو إصلاحية مع اتساع قواعدها الجماهيرية المنظمة، لم يقتصر على ماركسيين غربيين بل امتد إلى بعض المفكرين الاشتراكين في العالم الثالث الذين نبهوا إليها.

إننا نشير كمثل على ذلك إلى سجاهرير، قائد الحزب الاشتراكي الاندونيسي، ذي الشهرة العالمية، والذي كان رئيس وزراء مرتين في حكومات النظام الثوري الأولى. لقد رأى أن الواجب الأول هو بناء حزب اشتراكي نخبوي من الكوادر المدربة. هؤلاء الأفراد المثقفون شكلياً وسياسياً بثقافة عالية، المسلحون بإدراك اشتراكي - علمي لقوانين التطور الاجتماعي، يكونون بالتالي قادرين على تحديد الوقت الذي تصبح فيه الثورة ممكنة. هذا يعني حتمياً ضرورة هيمنة المثقفين في حزب كهذا، كما يعني بأن لا مكان في هذا الحزب للأميين والفلاحين الجاهلين الذين لا يربطهم شيء بالإنتليجنسيا. ولكن ما هو أهم من ذلك هو أن هذه الحتمية الوضعية[(2)] تميل إلى منع هذه القيادة السياسية عن العمل لأن قوى الإنتاج في المجتمع الآسيوي لم تنمُ إلى درجة تصبح فيها الثورة الإجتماعية ممكنة. لهذا كان من الضروري الانتظار إلى أن يتحقق هذا النمو، ولكن أثناء ذلك استطاع القوميون الأكثر «طوباوية» والأقل «علمية» القفز إلى العمل.. إنهم فرضوا واسطة إنسانية على الواقع وصنعوا الثورة[(3)].

ولكن كيف نفسر هذه الظاهرة، ظاهرة تقلص ثورية الأحزاب الاشتراكية مع اتساع قواعدها الجماهيرية المنظمة؟

إننا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً وهو انشغال الجماهير بمقاصد يومية، يمكن الإشارة أيضاً إلى ثلاثة عوامل رئيسية تنتج عن قيام المجتمع الصناعي الذي كان هذا التقلص يرافقه ويزداد مع تقدمه:

---

(1) V.I. Lenin: Collected Works, Vol. 7. Moscow, 1961, p. 479.

(2) سجاهرير يشير هنا إلى المفهوم الاقتصادي التطوري في الماركسية الذي يقول بضرورة المرور بالطور البورجوازي. الراسمالي قبل إقامة الاشتراكية.

(3) Worsely Peter: The Third World, Widen feld and Nicolson, 1967, p. 104.

أولاً، إن التصنيع المتقدم يفرز قوى اجتماعية ومهنية جديدة عديدة جداً ويزيد بذلك من تعقيد البنية الاقتصادية الاجتماعية السياسية. هذا التعقيد يشكل، مع نموه، عنصراً مُقلصاً لهذه الثورية لأنه يحيط القضايا والتناقضات التي تواجه الجماهير، بدرجة عليا من الغموض والبلبلة مما يضعف كثيراً من قدرتها على تركيز قواها وإمكاناتها على مقاصد محدودة واضحة.

ثانياً، إن المجتمع الصناعي المتقدم يعني قدرة أكبر على تحقيق أو إرضاء درجة أكبر من مقاصد الجماهير اليومية المباشرة، وهذا يعني إضعاف الحوافز التي تحركها عادة على الثورة.

ثالثاً، المجتمع الصناعي ـ أو حركة التصنيع المتقدمة ـ يعني ازدياداً كمياً متواصلاً، على الأقل في الأطوار الأولى، لطبقة العمال، وهذا يقود بطبيعته إلى ازدياد حجم الأحزاب التي تمثلها ـ ولكن عندما يكون حجم الحزب كبيراً، فإنه يجمع اتجاهات وأجنحة مختلفة تتضارب آراؤها إلى درجة تشل عمل القيادة بمطالب وضرورات متناقضة. هنا نجد عنصراً إبداعياً آخر في الاستراتيجية الثورية التي رسمها لينين ـ وخصوصاً في «ما العمل؟» ـ وهو الإدراك القوي لهذه الواقعة وما يترتب عليها من نتائج تفرض، فيما تفرضه، على التنظيم الثوري أن يكون محدود العدد، فالحزب الثوري لا يستطيع أن يكون كبير الحجم ويجب أن يقتصر على أقلية ضئيلة نسبياً تتكون من الثوريين المحترفين إن كانت غايته الاستيلاء على السلطة بعمل ثوري. حزب الاشتراكيين الثوريين الذي كان الحزب الروسي الأكثر أهمية عام 1917 لم يدرك هذه الواقعة، وكان حجمه أحد الأسباب الأولى التي تفسر عجزه عن إقامة نظام مستقر، واختيار استراتيجية أو سياسة واضحة وفعالة، وخصوصاً في مقاومة استراتيجية الحزب البولشفي في الاستيلاء على السلطة.

هذا يفسر لماذا «لا يصنع» الشعب أبداً الثورة، كما تدل على ذلك بوضوح تجارب التاريخ الثورية الحديثة، لماذا يساهم فقط في صنعها، لماذا لا يتسلم بذاته السلطة أبداً بل يساعد الإنتليجنسيا على استلامها، إما مباشرة، في مشاركته بالثورة وإما بطريق غير مباشرة، بحياده تجاهها. هذا يعني أن النقطة الأساسية التي يجب أن يتجه إليها التحليل الإجتماعي التاريخي الثوري هي هذه الإنتليجنسيا وعلاقتها الجدلية مع الجماهير.

هنا يجب التنبيه الواضح أن هذا لا يعني أبداً أن أولوية الإنتليجنسيا النسبية تعني إهمال دور الجماهير، إذ ليس هناك من ثورة دون دعم مباشر أو غير مباشر من قبل الجماهير. فالإنتليجنسيا تظهر وتكون قادرة على ممارسة دورها الطليعي كأداة للثورة فقط عندما تكون الجماهير قد أصبحت منفتحة للثورة. الإنتليجنسيا التي تستطيع أن تؤكد ذاتها وتفرض دورها هي التي يمكنها إقناع هذه الجماهير بأنها وحدها التي تستطيع، على نقيض الإنتليجنسيات الأخرى، تحقيق مطالبها.

هذه العوامل الثلاثة التي أشرنا إليها تعني بالتالي أن ما يقوله البعض، ابتداءً من الفوضويين، وانتهاءً بغيرهم، من أمثال تروتسكي أو دجيلاس، بأن الإنتليجنسيا تتطلع إلى حماية مصالحها وليس مصالح العمال في الحركات الاشتراكية التي تقودها ـ أن هذا القول خاطىء،

وذلك لأن دور الإنتليجنسيا يعبر عن قوى موضوعية[1] وليس عن «مؤامرة» أو تدبير واعٍ مسبق، ويجب عليه، كي يستطيع توكيد ذاته، أن يعمل مع قوى التاريخ الجديدة، ويكون قادراً على كسب ولاء الجماهير أو على الأقل تحييدها.

لهذا لم يكن من الغريب أن ينظر كثير من المفكرين، حتى في القرن التاسع عشر - أي قبل تبلور الظاهرة تماماً في القرن العشرين - إلى الإيديولوجيات كأديان جديدة، وإلى المثقفين أو الإنتليجنسيا «ككهنوت جديد».

إن بيلينغتون يكتب في دراسته التاريخية القيمة للحركات الثورية في القرن التاسع عشر: «المثقفون الذين تطلعوا قبل الثورة الفرنسية إلى مستبدين مستنيرين في تغيير المجتمع أخذوا الآن يتطلعون إلى مصدر خلاص جديد: الإيديولوجية. هذا البديل الحديث للدين وُلد - كقوة وكعبارة - في المعارضة السياسية - الفكرية لنابليون، وبلغ نضجه في أواسط القرن التاسع عشر عندما تكرست صحة وشرعية تقليد الثورة الإجتماعية»[2].

ولكن بما أن الإيديولوجية الثورية تقترن دائماً بإنتليجنسيا تعبر عنها يمكن القول إن هذا التطلع «إلى مصدر خلاص جديد» كان يتجه إلى إنتليجنسيا أو إنتليجنسيات جديدة.

---

(1) هذا يصبح واضحاً كل الوضوح عندما نضيف هنا العوامل التي ذكرناها في مقومات الإنتليجنسيا التي تكلمنا عليها في القسم الثاني.

(2) Billington, J.: op. cit. p. 225.

-4-

وضعية العمال

الوضعية الاقتصادية المحدودة

لقد شرحنا فيما تقدم مقومات الإنتليجنسيا أو العناصر التي تفسر دورها الثوري الطليعي والأساسي في تجارب التاريخ الحديثة. ثم أشرنا أيضاً بأن طبقة العمال كانت عاجزة من ناحية عامة عن التحول إلى طبقة ثورية كما كانت تتوقع بعض النظريات الثورية، وأن هذا العجز كان واضحاً حتى عندما كانت تتوفر لها قيادات وكوادر ثورية كما نجد، مثلاً، بوضوح في الغرب. كي يتكامل البحث يجب علينا أيضاً أن نحلل الأسباب التي تفسر هذا العجز، فكما أن الإنتليجنسيا تجد في وضعيتها الخاصة التي تتفاعل معها الأسباب التي تفسر دورها، تجد طبقة العمال كذلك في وضعية خاصة بها الأسباب التي تفسر عجزها. هذا يعني أن هذا العجز يعود، بكلمة أخرى إلى أوضاع إقتصادية وإجتماعية وثقافية تحيط بها وتتفاعل معها. فما هي هذه الأوضاع؟

في فصل سابق ذكرنا أن الناس بشكل عام ينشغلون أساسياً بمقاصد آنية، يومية، ومجزأة، هنا سنكشف بأن مقاصد العمال الأساسية هي مقاصد إقتصادية مباشرة، وأن هذه المقاصد وما يترتب عليها من نتائج تفسر عجزهم الثوري.

العالم الذاتي النفسي الذي يعيش فيه وينشغل به العامل، وعالم الواقع الموضوعي الذي يتفاعل معه يومياً، يتميز بمقاصد إقتصادية وإجتماعية محدودة وضيقة. هذا العالم يعني بالنسبة له انشغالاً ضرورياً بمشاكله الشخصية اليومية إلى درجة لا تترك له أي وقت، وطاقة أو مصلحة واضحة في أي مقصد ثوري أو سياسي بعيد المدى. العامل لا يرى أي معنى للاهتمام بالمسرح السياسي اهتماماً جدياً لأن همومه الخاصة ملحة جداً تفرض عليه التفكير من زاوية الخطوة التالية التي يجب اتخاذها في المستقبل المباشر إن هو أراد الاحتفاظ بتوازنه العقلي الجسدي، وبالتالي تحقيق فوائد مباشرة وسريعة. الانشغال بمقاصد ثورية بعيدة المدى من حيث طبيعتها ذاتها لا يشكل حلاً معقولاً لأنه لا يحقق له مكافآت ذات قيمة في سد هذه الحاجات الأساسية.

شخصية العامل تتمحور - كشخصية كل جماعة أخرى - حول الوضعية أو المشاغل الأساسية التي تشغلها، أي حول وسائل العيش. «إن فكر العامل يعكس بشكل استثنائي مشاغله

كعامل لأن وضعه كعامل يحدد كل حياته. ما الغريب إذن في إلتزامه بتصور حول العالم يتركز حول ما هو رئيس بالنسبة له؟.. إنسان الحاجة ليس فقط الذي تكون مقوماته المادية محدودة، بل هو الذي يكون أفقه الفكري منكمشاً بضيق ولائه الإقتصادي»[1].

في اللغة الإنكليزية كان عامل المصنع يُدعى غالباً «يد» وهي كلمة كانت تنطوي على نظرة فيها ازدراء له، فالعمال لم يكونوا، كما توحي الكلمة، أكثر روحية أو تعقيداً من الأعمال الرتيبة التي يقومون بها. إنهم لم يكونوا «رجالاً»، كما لم يكونوا، دون شك «قلوباً» أو «أدمغة». إنهم كانوا «أيدي».

إن آدم سميث عكس هذا الموقف عندما كتب «إن إدراك القسم الأعظم من الناس يتشكل بالضرورة بأعمالهم العادية. فالفرد الذي يقضي حياته بإنجاز بعض العمليات البسيطة.. لا تتوفر له الفرصة بأن يُجهد إدراكه.. إنه يصبح بشكل عام أحمق وجاهلاً إلى أبعد مدى ممكن للإنسان». في أواخر القرن التاسع عشر كان فريدريك تايلور، صاحب «دراسة الوقت الصناعي» أكثر قسوة. فقد كتب «إن أحد الشروط الأولى لرجل مناسب لاستخدام الحديد عند خروجه من الصهر هو أن يكون أحمق وكسولاً إلى درجة يكون فيها أكثر تشابهاً مع الفدان منه مع أي نموذج آخر».[2]

في كتاباته المختلفة ولكن بشكل خاص في كتاب «الجمهور»[3]، الذي نشره عام 1895، يعد غوستاف لوبون من الأوائل الذين عمموا نظريات كهذه كتنبؤ بحضارة المستقبل. فالعصر هو عصر الجماهير، ونقابات العمال تمثل عاملاً أساسياً في ظهور الإنسان الجماهيري الذي كان هداماً، بربرياً، ساذجاً، وعاطفياً بسيطاً يعمل بوحي المشاعر والشعارات البسيطة والصور الحسية، وعاجزاً عن توجيه سلوكه بمفاهيم عقلانية أو حجج منطقية. في عام 1930 نشر الفيلسوف الاسباني، أورتيغا، كتابه «تمرد الجماهير»[4]، الذي رأى في ظهورها وهيمنتها انحطاطاً حضارياً.

ظهور حركات العمال كان في ضوء نظريات كهذه ظاهرة انحطاط إجتماعي، ومؤشراً بسيادة مقبلة لناس غير مؤهلين. أحكام كهذه كانت تعبر عادة عن المدافعين عن نظام قائم أو تقليدي معين، وبالتالي كانت أحكاماً «مصلحية».

إن ماركس نفسه وصف، في الواقع، العمل بالإجرة كحالة مرضية وكتب «لا شك أن العمل يُنتج الأعاجيب لذوي الثروة، ولكنه ينتج الحرمان للعمال.. إنه يُنتج الذكاء ولكنه بالنسبة للعامل ينتج الحماقة والبلاهة»[5]. ولكن ماركس استطاع أن يرى طبيعة هذا الوضع «الجدلية». إن طبقة العمال كانت بالنسبة إليه تشكل تناقضاً ديناميكياً. فالعمال كانوا، من جهة، يعانون مظالم

(1) Burdeau, Georges: L Etat, Editions du Seuil, 1970, p. 157.
(2) Harrington, Michael: The Accidental Century, Macmillan Co., 1965, pp. 113-114.
(3) Le Bon, Gustave: The Crowd, the Viking Press, 1960.
(4) José Ortega y Gasset: The Revolt of the Masses, w.w. Norton, 1960.
(5) ذكرها:
schneider, Michael: Neuroses and Civilization, Seabury Press, 1975, pp. 170-171.

المجتمع الرأسمالي المركزة في أكثر أشكالها اللاإنسانية، وكان ينكر عليهم حتى «مظهر الإنسانية». الآخرون لم يذهبوا إلى أبعد من هذا. ولكن هذه المحنة القاهرة ترغم العمال، من جهة أخرى، على الثورة وتحولهم إلى أداة تاريخية في إلغاء هذه اللاإنسانية نفسها، إلغاء التاريخ نفسه كما عرفناه. إن قيمهم هي قيم الإنسانية. هكذا صاغ ماركس سلسلة من التفكير الجدلي حول هذه الظاهرة. فالرأسمالية، أغنى نظام عرفه العالم، خلقت نوعاً جديداً من الفقر الصناعي. هذا البؤس يصبح، في شكله العمالي الطبقي الخاص، القوة المحركة لأجل السعادة الإنسانية. البروليتاري الذي يتناقض وعيه بالأوضاع التي تحيط به يصبح الإنسان الشامل (Universal). إنه، كممثل متكامل للاغتراب في المجتمع الحالي، يكون مجرداً من كل شيء، ويصبح أداة التاريخ العام، ومقدور عليه أن يحقق قصده.

ولكن هذه الرسالة للبروليتاريا تُدرك فقط في ضوء فلسفة، وفي اكتشافها لمعنى التاريخ، تستطيع ويجب أن تكشف عن هذا المعنى للبروليتاريا.

وبرودون لم يكن أقل قسوة على العمال. لقد كتب «إن قلب البروليتاري مثل قلب الغني: إنه بالوعة من الانغماس الثرثار في الشهوات الحسية، مصدر قذارة ورياء.. إن أكبر عثرة يجب على المساواة التغلب عليها ليست الكبرياء الارستقراطي للأغنياء، بل بالأحرى، أنانية الفقراء غير المنضبطة»[1]. ولكن برودون آمن بإمكانات العمال الثورية وبقدرتهم على إقامة مجتمع جديد تسوده الحرية، وإن لم يكن كجزء من نظرية تاريخية جامعة كالماركسية.

ما كان يستدعي هذه النقمة على العمال هي وضعيتهم التي تدفعهم إلى الانشغال بمقاصد محدودة وأشياء تشكل جزءاً من حياتهم اليومية. فالمقاصد والأشياء التي تقترن بهذه الحياة، بهذه التجربة اليومية، هي التي تكون بالنسبة لهم أشياء حقيقية.

حركات ونقابات العمال لم تكن أبداً مضطرة إلى البحث عن قضاياها على طريقة الإنتليجنسيا أو بنفس الدرجة والشكل. النقابة تدعو، مثلاً، إلى الإضراب لأن العمال يريدون أجوراً أعلى، وأوضاع عمل أحسن، وساعات عمل أقل، وإجراءات وقائية وضمانات إجتماعية أحسن، إلخ.. لهذا يمكن القول إن النقابة تشكل تنظيماً عقلانياً من حيث إن مقاصدها الواعية تقوم على شكاوى مفهومة تماماً وعلى طموحات واضحة المرمى. العامل يشارك في إنتاج نوع جديد من الثروة الاقتصادية، وصراعه ضد الصناعي أو الرأسمالي يدور حول حق العمال وقدرتهم في تنظيم أنفسهم جماعياً كي يمكن له عن طريق هذا التنظيم أن يطالب بحصة عادلة من الإنتاج الذي يشارك في صنعه، وأن يكون له صوتٌ في كيفية توزيعه بين أصحاب المصانع، والعمال والمستهلكين. عندما يوافق أصحاب العمل أو تُفرض عليهم الموافقة على هذه المطالب، أي حق العمال في تنظيم جماعي يمثلهم، فإن الجانب الآخر (أي فوائد وحقوق معينة تتعلق بالأجور وأوضاع العمل، إلخ) يجد طريقه إلى حل ما عن طريق المساومة والمقايضة التي تعتمد الإضراب من قبل العمال، والإغلاق التعجيزي من قبل أصحاب العمل.

(1) Proudhon, Pierre-Joseph: Système des Contradictions Economiques ou Philosophie de la misère, Vol. I. Paris, 1923, pp. 356, 372.

من هذه الناحية يمكن القول إن وضعيتهم أو «وجودهم يحدد وعيهم»، وفي هذا المعنى تكون مادية ماركس التاريخية أحسن إطار نظري، على الأرجح، في تفسير حركة العمال. ولكن صراع الإنتليجنسيا يتفرع من مصادر متعددة وفي بعض الأحيان غير واعية، من مفاهيم فلسفية وتصورات.إيديولوجية تتجاوز الأوضاع المادية، وقلما تكون ذات دوافع اقتصادية، أو إقتصادية صرفة. إن كان العمال يحاولون تحسين أوضاع عملهم ومعيشتهم بأسرع وقت ممكن، فإن الإنتليجنسيا تضحي، في الواقع، بمصالحها الإقتصادية في خدمة رؤية حول الحياة والتاريخ تحرر الجماهير وترفع أكثر الناس ضعةً إلى صعيد أعلى وأنبل. إن كانت المادية التاريخية تمثل الإيديولوجية أو النظرية الأكثر واقعية وملائمة لطبقة العمال، فإن المثالية التاريخية هي إيديولوجية الإنتليجنسيا، وإن كان «الاستثمار» المفهوم أو الحافز الأساسي في تحديد صراع العمال، فإن «الاغتراب» هو الذي يحدد صراع الإنتليجنسيا.

كول، مفكر الاشتراكية النقابية (Guild Socialism) الأول، كتب بأن «الجواب الذي يعطيه أكثر الناس على السؤال التالي: «ما هو الشر الأساسي في المجتمع الحديث؟» هو جواب خاطىء لأنهم يجيبون بأنه الفقر في حين يجب عليهم الإجابة بأنه العبودية. الملايين الذين نالوا حق الانتخاب، والذين أُعطيت لهم شكلياً وسائل الحكم الذاتي، دُربوا، في الواقع، على الخنوع الذليل، وهذا التدريب كان يتحقق عادة في مجرى أعمالهم اليومية»(1). ثم يضيف في مكان آخر، بأن «النظام الصناعي.. هو بقدر كبير المفتاح للغز الديمقراطية السياسية. لماذا نجد أن الملايين الذين يُفترض فيهم اسمياً أن يكونوا القوة أو السلطة العليا، يكشفون، في الواقع، أنهم عاجزون، بدون قوة أو سلطة؟.. السبب يعود أساسياً إلى أوضاع حياتهم التي لا تعودهم أو تهيئهم للسلطة أو المسؤولية. إن نظاماً يقوم على الخنوع في الصناعة يعكس ذاته في خنوع سياسي»(2).

هذا يعني أن الحل هو إعطاء العمال حق المشاركة في إدارة المصنع. هذه المشاركة تحررهم من «العبودية» التي يخضعون لها في المصنع، العبودية التي تشكل أساس عبوديتهم السياسية، مما يعني بالتالي أن هذه المشاركة تُعيد لهم السلطة العليا التي يُفترض بهم ممارستها. بالنسبة لكول، «الفرد يكون قادراً على حكم ذاته فقط عندما يحكم ذاته في المصنع. عندما تُنظم الصناعة على أساس المشاركة فقط، يمكن لهذا التدريب على الخضوع أن يُحوّل إلى تدريب على الديمقراطية، وأن يتعود الفرد على الإجراءات والأساليب الديمقراطية، وأن يبني الهوية الديمقراطية لنظام فعال من الديمقراطية الواسعة الأبعاد»(3).

ولكن التجارب المتوافرة لنا في هذا الموضوع تدل بوضوح أن العمال يستمرون على الانشغال بمقاصدهم الإقتصادية، ويركزون اهتمامهم عليها، ويهملون ممارسة هذه الديمقراطية المشاركة. الدراسات التي ظهرت حول عملية التسيير الذاتي في يوغسلافيا، مثلاً، دلت على أن

(1) Cole, G. D. H.: Self-Governement in Industry, G. Bells Sons, London, 1919, p. 34.
(2) Cole, G. D. H.: Labor in the Commonealth, Headly Bros, London, 1918. p. 35.
(3) Cole, G. D. H. Guild Socialism Restated, Leonard Parsons, London, 1920. p. 45.

الجمعية العامة التي يُفترض فيها ممارسة السلطة النهائية في المصانع لا تنشغل بمشاكل الإدارة والجوانب التقنية، بل بمشكلة المعاشات وأوضاع العمل. هذه اللامبالاة بممارسة هذه الديمقراطية المشاركة واضحة في عدد العمال القليل من الذين يشاركون في الجمعية العامة والتي هي حوالى 25٪. لهذا كان «من الوهم إذن التفكير بأن العامل الجماعي يدير المؤسسة». من ناحية أخرى كانت السلطات الإدارية للمعامل تُدرك بأن مجالس العمال تهتم أولاً بمعاشات العمال، ثم بتحسين أوضاع عملهم، ولهذا فهي تعد حلولها في ضوء هذه المصالح»[1].

في تعليقه على فشل تجربة التسيير الذاتي في يوغسلافيا والجزائر، يكتب غيرين بأن أكثرية العمال لم تكن ناضجة لعملية التسيير الذاتي. فهي تحتاج إلى التعليم والمعرفة التقنية، ولم تتحرر من عقلية كسب الأجور القديمة وهي على استعداد تام بأن تضع سلطتها في يد ممثليها. هذا يجعل من الممكن لأقلية صغيرة بأن تمارس السلطة الإدارية الحقيقية، وبأن تنتحل لنفسها شتى أنواع الامتيازات، وأن تعمل بالضبط كما تشاء[2].

انشغال الجماهير بهذه المقاصد الإقتصادية المباشرة كان واضحاً حتى في الثورات الكبيرة التي كانت تجد زخمها الثوري الأساسي في صورة مجتمع جديد. في الثورة الفرنسية نجد أن هذه المشاغل الإقتصادية وخصوصاً الغذائية كانت في طليعة الأسباب التي حفزت الجماهير ودفعتها إلى تفجير الثورة. ثم إن الهيجان الشعبي الكبير الذي أطاح بالجيروند وقاد إلى الدكتاتورية اليعقوبية كان يعود بقدر كبير إلى غلاء أسعار الخبز وندرة المواد الغذائية. إن روبسبيير عرف كيف يستغل نقمة الجماهير التي كانت تعود أساسياً إلى ذلك[3].

في الثورة الروسية يمكن القول إن الاتجاه العام للمطالب الشعبية كانت تحسين أوضاع العمال وليس تغييرها. مرة أخرى نجد أن فكرة العمال عن مجتمع جديد.. هي النظام القائم ولكن مع إزالة أو تصحيح سماته الأكثر كراهية[4]. إن مطالب العمال التي برزت مع نهاية النظام القيصري كانت كلها تقريباً تدور حول المعاشات وأوضاع العمل. أكثرها شعبية كانت المطالبة بعمل يومي من ثماني ساعات»[5].

كانت حركة العمال، في الواقع، وفي كل مكان تدل على أن هذه المشاغل الإقتصادية المباشرة كانت تقريباً محوراً لها. في انكلترا، مثلاً، لم يحدث أي تطور يستحق الذكر في النظرية الاشتراكية أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فالطبقة العاملة التي كانت هائجة في الثلاثينات والأربعينات فقدت اهتمامها بالاشتراكية عندما ابتدأت أوضاع العامل بالتحسن بعد إلغاء ما يُسمى بقوانين الذُرّة[6].

---

(1) Durrieu, Yves: Elite intellectuelle et pouvoir autogestionnaire, Belkher, J.: op. cit pp. 148, 152.

(2) Guerin, D. L'anarchisme, p. 22.

(3) Soboul, Albert Les Sans-Culottes parisiens en l'an II, Paris, 1958, p. 419.

(4) Ferrero, Marc The Russian Revolution of February 1917, Englewood Cliffs, 1972, pp.117-119.

(5)Moore, Barrington: Injustice, The Social Bases of Obedience and Revolt, M.E. Sharpe, 1978, p. 369.

(6) Davis, Horace: Nationalism and socialism, Modern Reader, 1973, p.107.

العمال الأميركيون «خلقوا التنظيم العالمي الأول والوحيد الذي التزم بالثورة عن طريق الإضراب العام وذلك عام 1905، أي العام نفسه الذي حقق فيه الروس أول إضراب عام ناجح. ثم إن تاريخ العمل في أميركا كان، بعد دخولها بكل قواها العصر الصناعي في السبعينات من القرن الماضي، دامياً وعنيفاً أكثر من تاريخ أيّ حركة عمال في أي مجتمع صناعي آخر. ولكن رغم ذلك يمكن القول إن العنف الصناعي في أميركا كان يتركز على قضايا إقتصادية وليس إيديولوجية»[1]. الولايات المتحدة «شاهدت على الأرجح أعنف صراع طبقي، وكان تاريخها مليئاً بالإضرابات وحتى بالمذابح التي كان يُجوع فيها العمال ويُضربون، ويُقتلون.. بعض المقاصد التي كان العمال يناضلون من أجلها كانت في خدمة مصلحتهم المباشرة والواضحة، كمعاشات أحسن وحق التنظيم. ولكن هناك أسباب أخرى ذهبت بعيداً وراء الحسابات الشخصية أو حتى الكسب الطبقي، كالحريات الديمقراطية وحق الانتخاب»[2]. ولكن الكاتب يتجاهل هنا أن هذا النضال لأجل الحريات والحقوق الديمقراطية كان، في الواقع، وسيلة في توفير مكاسب إقتصادية[3].

وحركات العمال كانت في جميع المجتمعات الغربية تعبّر عن هذا النضال في بدايتها، ولكن لأن هذه الحريات والحقوق الديمقراطية كانت ضرورية في الحصول على هذه المكاسب وتأمينها. الدليل على ذلك هو أنه بعد الحصول على هذه الحقوق والحريات وتأمين مكاسب جديدة عن طريقها، تراجعت حركات العمال عن الدفاع عنها عندما كانت تُنكر أو تمتهن في أوضاع أخرى، وأخذت تزداد رجعية مع الوقت. في الولايات المتحدة حيث عرفت حركات العمال أحد أشكال النضال الأكثر عنفاً وقسوة أصبح العمال أكبر قوة محافظة «منظمة»، ليس في أميركا وحدها بل في العالم، قوة لا تهتم بهذه الحقوق والحريات، بل، تدافع عن النظام القائم عندما كان يمتهنها. ما يُسمى بحركة أو ثورة الحقوق المدنية في الخمسينات والستينات (بشكل خاص بالنسبة للسود) وجدت فيهم قوة معادية وليس قوة مناصرة لها. والآن في أوروبا الغربية نجد أن قطاعات ضخمة من العمال تدعم باستمرار قضايا يمينية ضد هذه الحقوق والحريات، وفي طليعتها، مثلاً، العداء للأقليات والعمال الأجانب.

عند مراجعة تاريخ التجارب السياسية والثورية الحديثة نرى «أن الطبقات الفقيرة في كل مكان أكثر ليبرالية ويسارية حول القضايا الإقتصادية، حيث تدعم درجة أعلى من الخدمات الإجتماعية، أجور أعلى، ضريبة دخل تصاعدية، دعم نقابات العمال، إلخ.. ولكن عندما نحدد الليبرالية بمفاهيم غير اقتصادية، كدعم للحقوق المدينية، والنزعة العالمية، إلخ.. فإن الارتباط

---

(1) Billington, J.: op. cit. p. 433.

(2) Harrington, M.: of cit. p. 115.

(3) في الوطن العربي نجد أقرب الأمثلة، ففي الأعوام العشرة الأخيرة حدثت بعض الانتفاضات الشعبية في القاهرة، في المغرب، في تونس، وفي السودان، ولكن الحوافز المباشرة لها - حتى في السودان - كانت حوافز اقتصادية معاشية مباشرة. ولكن هذه الجماهير لم تتحرك أمام كوارث سياسية أخرى، فالسادات، مثلاً، أخرج مصر من الناصرية ومن دورها العربي، وربط بينها وبين الدور الأميركي - الصهيوني، ذهب بها إلى تل أبيب يصافح ويتفاهم مع قوى الاحتلال، والغزو الإسرائيلي للبنان داس على كرامة كل عربي ودمر البلد على رؤوس العرب جميعاً، ولكن هذه الجماهير لم تتحرك، الحقوق والحريات الديمقراطية تسحق يومياً على طول وعرض الوطن العربي، ولكن هذه الجماهير لا تتحرك. النميري كان يدوس عليها بالأقدام طيلة سنين عديدة، ولكنها لم تتحرك، وهي عندما تحركت فإن الحافز المباشر كان معاشياً.

يصبح معكوساً، فالأكثر ثراء يصبح أكثر ليبرالية، والأكثر فقراً يصبح متزمتاً»[1].

بعض الدراسات التي ظهرت حول العالم دلت، من ناحية أخرى، على الأهمية الكبيرة التي يعطيها هؤلاء للنجاح في الحياة، وهذا الميل يؤكد ذاته في الطبقة العاملة أكثر مما هو عليه في الطبقات الوسطى نفسها. قيمة هذا النجاح المادي والإقتصادي تأخذ مكانة مهمة جداً بين الطبقات المحرومة لا نجدها بين الطبقات الأخرى[2]. هذا طبيعي لأن الاعتبار الأول بالنسبة لمجتمع فقير، وكذلك أيضاً لرجل فقير، هو إشباع الحاجات الأولية واختيار الملذات المادية الأولية. لهذا كان الاعتقاد بحياة أحسن، والذي ظهر في شتى أجزاء العالم بعد انتصار الثورات الاشتراكية، يشكل حافزاً قوياً على العمل، وعنصراً فعالاً في الممارسة الإجتماعية وفي تعجيل عملية التحول الاجتماعي[3].

في دراسة حول الأحزاب الشيوعية، وخصوصاً في فرنسا وايطاليا، يشير كانتريل بأن قادة هذه الأحزاب يعترفون عادة بهذه الواقعة، أي بأن العمال ينشغلون أساسياً بتحسينات مادية لوضعهم، لا بمشاغل إيديولوجية أو سياسية صرفة.

فهؤلاء يتكلمون عن تجربة عملية يومية خاصة ويعترفون «أن المشاكل المادية اليومية الصغيرة هي التي تدفع معظم الناس للمجيء إلى سكرتير الحزب المحلي بغية حل لها.. هؤلاء القادة لا يضيعون وقتهم في الكلام على الإيديولوجية»[4].

لهذا نجد بأن ماوتسي تونغ كان يرى «أن التجزئة الاقتصادية اليومية كانت ضد الثورة. فعندما يواجه الناس نُدرة إقتصادية فإنهم يتطلعون إلى شراء السلع المرغوب بها. وبالتالي ينشغلون بوظائف وأعمال ذات دخل أحسن، وبفرص ومراكز توفر لهم معاشات أكبر يستطيعون بها الحصول على ما يحتاجونه من سلع. فعلى الرغم من دعوة الحزب إلى المساواة، فإن التجربة اليومية تدفع الناس إلى الانشغال بالحصول على كمية أكبر من هذه السلع»[5].

شي غيفارا يشير، من ناحيته، إلى «عقلية طبقة العمال المستثمرة والمسلوبة التي لا تناضل إلا في سبيل مطالب إقتصادية على صعيد الوطنية». ثم ينبه إلى «الانفصال الواضح الذي حدث (بعد أقل من ثلاث سنوات بعد نجاح الثورة) بين جماهير العمال وبين أجهزة الإنتاج»، ثم يستاءل «لماذا نرى أن مهام كبيرة وضخمة ترتبط مباشرة بالعمال، كانت تظهر دائماً كمبادرات بيروقراطية؟.. لماذا كانت المبادرات تأتي من فوق وتذهب إلى الجذور حيث كان يجب عليها، في الواقع، أن تنتج عن طبقة العمال؟»[6].

في خطاب مهم ألقاه في هافانا، يناير 1968، أمام المؤتمر الثقافي حول دور المثقفين في الثورة، يعلن كاسترو، «يجب علينا الاعتراف بصدق وصراحة أنه عندما تكون المسألة مسألة

---

(1) Seymour, M. Lipset: Political Man Doubleday, Anchor Books, 1963, p. 92.
(2) Israel, J.: op. cit. pp. 355-357.
(3) Fromm, E.: op.: cit. p. 11.
(4) cantril, Headly: The Politics of Despair, Collier Books, 1962, p. 101.
(5) Wilson, Dick, ed.: Mao Tse-Toung in the Scale of History, Cambridge University Press, 1977, p. 314.
(6) Gueverra, Che: Oeuvres Vol. III Maspero, 1977, pp. 88-89.

قضايا أساسية، كالاعتداءات والجرائم الامبريالية، فإن العمال الفكريين هم الذين دللوا على أعلى درجة نضالية»[1].

في كتاب «ما العمل؟» يكتب لينين «بأن تاريخ جميع البلدان يدل على أن الطبقة العاملة تستطيع إن اعتمدت على نفسها فقط أن تحقق وعياً نقابياً فقط، أي وعياً ينشغل بتحسينات إقتصادية لا بالثورة. إن نشاط منظمات العمال بقي في الواقع أمينا لتفسير لينين.

منذ عام 1914 انتهت الماركسية، في الواقع، إلى «الاستنتاج بأن المصالح التي يعبر عنها العمال ليست في الواقع مصالحهم الحقيقية». هذه المصالح التي يعبرون عنها واقعياً لا تتجاوز «أُفق التحسين البورجوازي. الصغير لقدرهم.. طبقة العمال هي إذن طبقة إصلاحية بشكل طبيعي» ولا تستطيع أن تكون «حاملة لمشروع اشتراكي حقيقي». هذا المشروع ينتج فقط «عن جبهة تاريخية تتشكل من المثقفين، والتقنيين، والكوادر الذين يمارسون دوراً أكثر ديناميكية من دور العمال»[2].

تنظيم العمال في مكان الإنتاج كان محور النشاط الثوري في البداية. عندما بدأت أشكال العمل الطبقي كإضرابات عفوية اكتشف الثوريون بسرعة إمكانات تنظيم وتعبئة العمال في أمكنة العمل، وشجعوا بالتالي النقابات التي رأوا فيها ليس فقط انعكاسات تنظيمية للاندفاع البروليتاري ضد الرأسمالية، بل الأشكال الأكثر ملاءمة في استمرار العمال في عملهم الطبقي.

ولكن النقابات كانت تميل، كما اتضح سريعاً، إلى تحديد أعمالها كأعمال تقتصر على تحسن الأجور، وساعات وأوضاع العمل بدلاً من مهاجمة نظام الاستثمار ككل، كانت النقابات تركز جهدها على مصالح أعضائها في مكان عمل واحد، في عملهم لمستخدم واحد، أو في حسن الحالات في صناعة واحدة. الثوريون رأوا آنذاك أن مهتهم هي تحويل النقابات إلى تنظيمات أوسع، واعتقدوا أن التناقضات المتصلة في الرأسمالية ستحول التنظيمات الطبقية التعاونية إلى منظمات صراع ثوري. ولكن الوقت كشف بسرعة أن هذا الصراع لم يكن الصراع الذي ترغب فيه هذه النقابات، وأنها كانت تبتعد عنه مع تحسن أوضاع العمال.

الثوريون تبينوا القوة التنظيمية الهائلة في النقابات، ولكنهم لاحظوا فيما بعد ميل هذه النقابات إلى فقدان الاهتمام في تحويل المجتمع والتركيز على كسب منافع اقتصادية لأفرادها. لهذا ركزوا جهودهم على كسب أعضاء لبرامج أكثر ثورية.

الفوضويون وليس لينين كانوا، في الواقع أول من أعلن عن خطر هذه النقابية على الثورة والوعي الثوري. هذا التحذير الفوضوي قاد إلى طلاق بين الحركة الفوضوية والاشتراكيين وتوج ذاته في مؤتمر الهافر، عام 1880، عندما اتجه حزب العمال في فرنسا إلى العمل الانتخابي.

هذا الموقف الفوضوي أدّى، في الواقع، إلى عزلة الفوضوية عن العمال، وواجهها بمأزق لأنه ترك عالم العمال تحت هيمنة الاشتراكيين الديمقراطيين. في المؤتمر الفوضوي الذي عُقد

---

(1) Karel, K. S.: Guerrillas in fower, 1970, p. 401.
(2) Mandel, E.: op. cit. p. 161.

عام 1907، أراد قسم من الفوضويين الانخراط في التنظيمات النقابية أو تشكيل نقابات جديدة تكون من النموذج الثوري. الفوضوي «موناته» أعلن كناطق بلسان هؤلاء بأن «النقابية تفتح أمام الفوضوية المنكفئة على ذاتها منذ مدة طويلة إمكانات وآمالاً جديدة». ولكن قطاعات فوضوية أخرى كانت تعبر عن ريبة شديدة لا يمكن كبتها في هذه النقابات التي كانت تراها مرتاحة كثيراً للعمل في المجتمع الرأسمالي وتشكل جزءاً لا يتجزأ منه، وتتقوقع في مطالبها الإقتصادية المباشرة. في ذلك المؤتمر أعلن الفوضوي مالاتيستا باسم هؤلاء «إن النقابية ليست ولا يمكن أن تكون أبداً سوى حركة قانونية ومحافظة، دون أي قصد آخر سوى تحسين أوضاع العمل». والفوضوي جان غراف أعلن أن اكتفاء النقابات في ذاتها محدود إلى درجة يجب أن يأتيها من الخارج «مفهوم ما هي عليه وما يجب أن تكون عليه، وما يجب عليها أن تصنع»[1]. التجربة التاريخية دللت على صحة موقف هؤلاء لأن النقابات التي أسسها أو دخل إليها القسم الأول تحولت سريعاً إلى نقابات عادية كسابقتها التي سيطر عليها الاشتراكيون الديمقراطيون، أي نقابات غير ثورية تنشغل بمصالح اقتصادية مباشرة.

دخول الفوضويين في العمل النقابي حوّل لمدة وجيزة، وحتى الحرب العالمية الأولى، الحركة النقابية في فرنسا والبلدان اللاتينية الأخرى، إلى حركة ثورية قوية، دعت جورج سوريل إلى اعتبار هذا الدخول الفوضوي إلى هذه النقابات كحدث من أهم أحداث تلك المرحلة، ولكن إصلاحية العمال ما لبثت أن تغلبت على هذا «التلقيح» الفوضوي، فرجعت هذه النقابات سريعاً عن تلك الثورية وأصبحت كغيرها من النقابات، أي نقابات تتمحور حركتها وجهودها على مشاغل إقتصادية وإجتماعية مباشرة غايتها تحسين أوضاع العمال.

هنري دي مان، المفكر الاشتراكي البلجيكي كتب في العشرينات، وذلك بعد تجربة شخصية في حركة العمال امتدت إلى المرحلة التي كان الفوضويون ينشغلون فيها بإمكانات النقابات التي يمكن استخدامها ثورياً، «بأن العامل يعرف القلق أكثر من غيره، إنه يفكر قليلاً في مستقبله الشخصي ولكنه ينشغل كثيراً بمستقبل أولاده الذين يريد أن يؤمن لهم الاطمئنان الذي ينقصه.. إن «عامل الماركسية المثالي»، الذي يكرس ذاته بشكل استثنائي للصراع الطبقي، وينفصل عن جميع الروابط التي تربطه إلى أشياء الوسط «الرأسمالي» يشكل.. وهماً نتج عن النظرية. الكائن الذي يخسر جذوره، ينفصل تماماً عن الحاضر ويحيا فقط لمثال في المستقبل، يمثل على الأرجح واحداً في الألف.. العامل العادي يخضع للأشياء المادية، أي يرتبط بمصنعه، وبيته الصغير، وأمتعته، وحديقته، وغليونه، وحانته، أو مقهاه»[2].

الإنتليجنسيا، كما شرحنا سابقاً، تعكس أساسياً مشاغل من نوع آخر، تطلعات ورغبات ودوافع غير مادية تحرك خيالها وشعورها وتصوراتها. إن مناضل الإنتليجنسيا «المناضل الثوري الذي يقبل بأن يحيا حياة بطولية، كما حدث غالباً في مجرى المائة عام الأخيرة، والذي يفضل السجن والتعذيب وفي بعض الأحيان الموت على التنكر لمثاله، يتحرك». كما يكتب المفكر

(1) Guerin, D.: L'Anarchisme, pp. 91-92, 94.
(2) De Man, H. : op. cit. pp. 135, 80-81.

الماركسي فوجيروليس «بقوة لا تقتصر على مصالح وحاجات طبقة العمال، أو وعي للضرورة التاريخية. إن قوته هي في إرادة تبغي تحقيق مثال أخلاقي وبناء مجتمع عادل، حر، وإنساني»[1].

بين عام 1918 وعام 1921 قامت السلطة الشيوعية الجديدة في روسيا بتصفية قطاعات الحركة الفوضوية التي عارضت دكتاتوريتها الثورية، دكتاتورية الحزب الواحد.

فيكتور سيرج، الذي كان ألمع الفوضويين الذين تحالفوا مع هذه السلطة الجديدة، وكان يُصغي إليه أكثر من غيره، نشر آنذاك كتيباً بالفرنسية[2] دافع فيه عن النظام الجديد ضد النقد الفوضوي. الأطروحة الأساسية لهذا الكتيب كانت تبرير تصفية «السوفيات» من قبل السلطة الشيوعية، وتقدم الحزب الشيوعي، أو بالأحرى نخبته القيادية، كالدماغ المفكر للطبقة العاملة. إن قادة الحزب الطليعي هم المسؤولون عن اكتشاف ما تستطيعه البروليتاريا وما يجب عليها صنعه. بدون هؤلاء لا تكون الجماهير المنظمة في «السوفيات سوى غبار إنساني ذي تطلعات متبلبلة تخترقها بعض أشعة الذكاء».

في إضرابات العمال التي شلّت المصانع الإيطالية عام 1919، وبعد ثلاثة أسابيع من احتلال هذه المصانع، توصل الجناح الإصلاحي في النقابات إلى تسوية مع أصحاب العمل فرضت على العمال الانسحاب من هذه المصانع مقابل وعود لم تتحقق في معظمها. هذا حدث رغم معارضة الجناح اليساري المكون من اشتراكيين يساريين وفوضويين. هذا الجناح اليساري أصدر آنذاك صحيفة أسبوعية كان رئيس تحريرها أنطونيو غرامشي نفسه، المفكر الماركسي المعروف، وكان اسمها «النظام الجديد». أول عدد صدر منها كان في أول مايو 1919، ونشر بياناً باسم هذا الجناح. هذا البيان لم يعبر عن عداء مطلق للنقابات التي ظل يعتبرها «العمود الفقري لجسم البروليتاريا الكبير»، ولكنه انتقد، على طريقة مالاتيستا عام 1907، انحطاطها البيروقراطي والإصلاحي الذي جعل منها جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الرأسمالي، شجب عجزها العضوي في ممارسة دور أداة الثورة البروليتارية، ودعا إلى إحلال مجالس المصانع مكان النقابات التقليدية.

هنا تجدر الإشارة أن الفوضويين في هذا الجناح كانوا يسخرون في بعض الأحيان من المبالغة في الاعتماد على هذه المجالس التي كان يدعو إليها غرامشي ورفاقه كأداة جديدة للثورة. إن شجب إصلاحية النقابات التقليدية الذي قال به هؤلاء كان صحيحاً ولا شك، ولكن الفوضويين كانوا ينبهون بأن «مجالس المصانع» التي يضعون آمالهم فيها تتعرض هي الأخرى إلى الانزلاق، في مرحلة غير ثورية، وإلى الانحطاط والتحول إلى أدوات تعاون طبقي[3].

النقابات، أداة نضال العمال، «لم تكن أبداً ثورية، والعنف لم يكن أيضاً أساسياً في ممارسات هذه النقابات التي تمت تدريجياً بين العمال الماهرين على أساس حرفي. إنها ركزت منذ البداية على قضايا مادية مباشرة، وكان من النادر تبنيها لمنظور إيديولوجي أو استراتيجي. التظاهرات

(1) Faugeyrollis, Pierre : Le Marxisme en question, Editions du Seuil, 1959, p. 113.
(2) Serge, Victor : L'an I de la Revolution Russe.
(3) Guerin, D. : op. cit. p. 129.

والإضرابات التي كانت تقوم بها، من النادر أن تتركز على أهداف سياسية»[1].

البروليتاريا ككل لم تكن، في الواقع، ثورية، إننا لا نجد في أي بلد أوروبي أو أيّ مرحلة أن جماهير العمال المنظمة تتبع القيادة الشيوعية في برامجها الثورية. الهم الأول لجماهير العمال المنظمة في النقابات هو الاحتفاظ بقوة هذه النقابات في كسب أو تأمين الضمانة للعمل، والأجور العالية، وأوضاع عمل أحسن. مقاصد كهذه كانت تختلف أساسياً عن مقاصد الأحزاب أو القيادات التي كانت ترغب في استخدام اتحادات العمال لا في تحقيق منافع إقتصادية محدودة ومباشرة في إطار الأنظمة الرأسمالية، بل في خدمة برامج ثورية. النتيجة كانت في كثير من الأحيان عداءً قوياً بين البروليتاريا المنظمة في اتحادات عمال، وبين الأحزاب التي تريد أو تزعم بالأحرى تمثيلها.

الصحافة الإيديولوجية نفسها، التي ميزت التقليد الثوري، واجهت المنافسة ليس فقط من الصحافة الشوفينية التي حولت القومية من قضية ثورية إلى قضية رجعية، بل أيضاً من صحف العمال العملية واللاسياسية بقدر كبير. إن الصحافة التي أنتجها العمال أنفسهم كانت في أغلب الأحيان غير إيديولوجية ونادراً ما تكون ثورية. هذا النوع من الصحافة ابتداء في انكلترا وأميركا حيث كان القراء من طبقة العمال منشغلين من البداية بقضايا مباشرة ومنافع مادية. هذه المنظورات شجعت المواقف الإصلاحية التي أسماها اللينيون فيما بعد بالنقابية والعمالية.. والنقطة الأساسية حول هذه الصحافة العمالية هي أنها كانت لا تهتم كثيراً بنظريات المفكرين الثوريين حول طبقة العمال»[2].



حركات العمال ونقاباتهم انشغلت بمقاصد سياسية وحتى ثورية في بدايتها عندما كان عليها توكيد وجودها. ولكن بعد تأمين المنجزات السياسية التي تفتح الطريق أمامها في تأمين مكاسب إقتصادية وتحسين وضعها الإقتصادي الإجتماعي، تراجعت عن الأولى وانشغلت بالثانية. هذه الحركات والنقابات لعبت دوراً أساسياً آنذاك، أي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في توسيع الديمقراطية السياسية. ولكن هذه الصراعات الأولى التي مارسها العمال في سبيل الحرية السياسية تحققت، مثلها مثل صراعات الطبقات الوسطى سابقاً، في سياق نضال في سبيل الحقوق الإقتصادية. أسلحة ضرورية في معركة العمال في سبيل تحسين مستوى معيشتهم، وأوضاعهم الإقتصادية والإجتماعية، وتوفير الضمانات الإجتماعية الضرورية لهم. الطبقات العليا قاومت طبعاً توسيع صعيد الديمقراطية والحريات الحقوق السياسية والمدنية، وذلك كجزء من دفاعها عن امتيازاتها الإقتصادية والإجتماعية. بعد تحقيق هذه الديمقراطية السياسية لم تنتشر فقط اللامبالاة الثورية بل اللامبالاة السياسية على كل حركات العمال ونقاباتهم.

---

(1) Billington, J. : op. cit. p. 421.
(2) Billington, J.: op. cit. pp. 335-336.

إن أقرب الأمثلة لنا كان موقف العمال من ثورة الطلاب في أواخر الستينات، وهي ثورة كان بمقدورها على الأرجح إسقاط الأنظمة الرأسمالية في فرنسا، وإيطاليا والولايات المتحدة لو لقيت استجابة ثورية منهم. هذه الثورة كشفت بوضوح أن عالم الإنتليجنسيا وعالم العمال مختلفان. فالإنتليجنسيا (الطلاب الثائرون يشكلون طبعاً جزءاً من الإنتليجنسيا) هاجمت نظام الامتحانات، المجتمع الآلي اقتصاد الآلات، انشغال الناس بمقاصد الاستهلاك. ولكن العمال كانوا يريدون عندما تعاونوا معها ساعات عمل أقل وأجوراً أعلى، إنهم لم يكونوا يرغبون في شيء أكثر من رغبتهم في السيارة، الغسالة، وآلة التليفيزيون، وهي رغبة كانت تهزأ منها تلك الإنتليجنسيا التي وجدت، بعد شهر فقط من أكبر نجاح لها عام 1968 في فرنسا، ثم في إيطاليا، بأنها غريبة ومنبوذة من البروليتاريا.

تلك التجربة دلت بوضوح أن أهداف الطلاب والعمال لم تكن واحدة. فالطلاب كانوا يتحدون أشكال السلطة، سواء كانت متمثلة في الدولة أو العائلة، هي أشكال اعتبروها مُفلسة. العمال دللوا، على العكس، أنهم لاينبذون «المجتمع الاستهلاكي» الذي يزدريه الطلاب وأن ما يريدون حقاً كان إسهاماً أكثر فاعلية فيه، فوائد أكبر منه. إنهم لم يطالبوا بإسقاط هذا المجتمع والنظام الذي يمثله، طالبوا بعضوية كاملة فيه. من ناحية أخرى، الطلاب المشاركون في الثورة كانوا من عائلات بورجوازية «90٪ من الطلاب كانوا من عائلات غير عمالية. العمال كانوا رجال عائلات، ومن جميع الأعمار.. ولكنهم لم يشعروا بظلم روحي، بل بحرمان مادي»[1].

بكلمة مختصرة، لم يكن من الممكن في فرنسا، في ربيع 1968، اتحاد صراع الإنتليجنسيا بصراع العمال. فالإنتليجنسيا لم تحقق الدور الثوري الطليعي الذي كانت تتطلع إليه لأن المجتمع كان قد ازدهر جداً وطبقات العمال كانت منظمة جداً. الإنتليجنسيا تكلمت عن «تحول كلّي» ولكن الثانية كانت مشغولة بالكلام على مكاسب إقتصادية مباشرة. التروتسكيون تمتعوا، في عبارة صحافي أميركي «بأجلى أوقات الانتصار» عندما بدا وكأن طلابهم كانوا في كل لجنة وعمل، وأن اتهاماتهم للقادة الشيوعيين بالبرجزة، بدت ثابتة، ولكن ما تجاهلوه هو أن العمال لم يشاركوا الطلاب في «اغترابهم» وفي رغبتهم بإسقاط النظام. في ذلك الوقت كانت الإنتليجنسيا الفرنسية، كما لاحظ ريمون آرون في حالة نصف ـ طوباوية، نصف عدمية، نموذج الثورة الثقافية الصينية تسرب إلى كومون السوربون، ولكن العمال كانوا غرباء عنه[2].

المشكلة التي تواجه جميع الحركات الثورية كانت كيفية التوفيق بين حالة حرب ضد النظام الرأسمالي وبين العمل على تحقيق مكاسب مباشرة ومحدودة للعمال. التجربة كانت تدل مرة بعد أخرى أن العمال كانوا يتجاهلون الأولى ويركزون على الثانية. لهذا رأى لينين أن قيادة الثورة لا يمكن أن تكون بيد البروليتاريا التي تنشغل أساسياً بتحسين وضعها الإقتصادي لا بالثورة، وتفكر بمفاهيم اقتصادية لا بمفاهيم سياسية، بل بيد جامعة منظمة محدودة تتشكل أساسياً من الإنتليجنسيا.

---

(1) Feuer, L.: Conflict of Generation, P. 283.
(2) Ibid, p. 284.

هذه اللامبالاة السياسية تزيد، كما يبدو، مع انخفاض المكانة الإجتماعية. الواقعة الأساسية التي كشفت عنها الدراسات التي اهتمت بالفاعلية السياسية هي أن «مستوياتها المختلفة ترتبط بالمكانة الإجتماعية ـ الإقتصادية. فالذين ينتمون إلى مستويات إقتصادية ـ إجتماعية منخفضة يدلون عادة على شعور منخفض حول فاعليتهم السياسية»[1].

هذه الدراسات تدل أيضاً أنه بقدر ما يرتفع المركز الذي يشغله الأفراد في البنية الإجتماعية، بقدر ما يزيد انشغالهم ومشاركتهم في السياسة، وأن التفاعل بين أفراد ينتمون إلى شرائح إجتماعية مختلفة يؤدي عادة إلى تأثر الذين يوجدون في الشرائح السفلى بآراء الموجودين في الشرائح العليا، وليس العكس[2].

نظام القيم المتأصل في جميع المجتمعات الطبقية يُضعف الفاعلية السياسية بين الطبقات السفلى. هذه الطبقات كانت تقبل عبر التاريخ، وإلى درجة كبيرة، القيم والتصورات الإيديولوجية التي تجعلها أقل قيمة من ذوي المنزلة العليا. هذا ينطبق أيضاً على المجتمعات الصناعية الحديثة. فعلى الرغم من الانتشار الواسع لمبادىء الثورة الفرنسية، على الرغم من نفوذ الماركسية والمفاهيم الاشتراكية، ومبادىء الديمقراطية والمساواة، فإن النظام الطبقي يعني في ذاته الإفتراض بأن الذين يجدون أنفسهم في المراتب الدنيا يتطلعون إلى فوق، ويرغبون بالتقدم إلى الأمام. هذا يعني أنهم يتخذون ذوي المراتب العليا كمرجع لقيمهم. هذا يعني، بدوره، أن القيم التي تسود في وضع كهذا تميل إلى تقوية الاستعدادات المحافظة، تغذية اللامبالاة السياسية وإضعاف الشعور بالفاعلية السياسية بين الطبقات السفلى. من ناحية عامة، يمكن القول إن دفع الناس إلى تغيير آرائهم أو ولائهم السياسي أصعب بكثير من دفعهم إلى التمسك بما يكون موجوداً.

هذا ينطبق طبعاً على مجتمعات مستقرة ولو نسبياً، كما نجد مثلاً في الغرب حيث يساعد في تفسير عجز البروليتاريا الثوري. ولكن في الكثير من بلدان العالم الثالث التي تمر بأزمات ثورية ومراحل انتقالية لا يصح هذا المفهوم، لأن أصحاب المنزلة الإجتماعية العليا بالخصوص تعاونوا مع القوى الاستعمارية ولا يزالون يرتبطون بالامبرياليات الأجنبية البغيضة.

جماعات وطبقات المستويات الإقتصادية الإجتماعية المنخفضة تجد، من ناحية عامة، أنها محرومة فرص المشاركة السياسية في مكان العمل. الوضع الذي يحيط بعمل أو مهنة منخفضة المكانة يفترض تقريباً وكجزء أساسي فيه، القول بأن الفرد يجد صعيداً ضئيلاً لممارسة المبادرة في عمله أو السيطرة عليه. فهو لا يمارس دوراً في صنع القرارات التي تحدد مشروع العمل وتوجهه، ويُقال له ما يجب عليه صنعه ليس فقط من ناحية عامة أساسية تتعلق بالمشروع ككل، بل من حيث التفاصيل والجزئيات اليومية التي ترافق تنفيذه. وضع كهذا يفرز مشاعر بالعجز، وهي مشاعر يعززها غياب فرص أخرى في المشاركة السياسية. وضع كهذا يعني، من ناحية أخرى، «رقابة» يومية محكمة يخضع لها الفرد في عمله، وتقلص قدرته على ممارسة

(1) Pateman, C.: op. cit. p. 48.
(2) Lipset, M. S.: Revolution and Counter-revolution, Anchor Books, 1970, p. 207.

المبادرة الذاتية. الهامش الباقي لممارسة كهذه يكون ضيقاً جداً أو غير موجود. غياب رقابة مباشرة لا يدل في ذاته على وضع تعود إليه إمكانات تعزيز الاتجاه إلى الاستقلال الذاتي أو تقوية القدرة على ممارسة المبادرات الذاتية، لأنه قد يعني فقط وضعاً يكون فيه العمل رتيباً إلى درجة تتحكم فيه آلياً في ضبط إمكانات وحركة الفرد وتوجيهها بدقة تنزع من سلوكه إمكانات المبادرة أو الاستقلال الذاتي. لهذا يجب أن نتوقع من أفراد يتعرضون لهذا النوع من الرقابة أو الروتين بأن يكونوا على الأرجح أكثر تحبيذاً للطاعة، وأقل قدرة على إعطاء قيمة للسيادة الذاتية في تربية أولادهم من الذين لا يخضعون لوضع كهذا.

«الطاعة عن طريق الروتين تعني أن انشغال الأفراد العاديين بالصراع المباشر في سبيل الوجود المادي يجعل عملهم السياسي قاصراً على أعمال إذعان توازي القبول العام بالروتين. فالروتين والإذعان يشكلان المصادر العادية للإجماع العام (Consenus) (1).

الدراسات المختلفة حول الأثر الذي تمارسه أوضاع العمل الصناعية والتقنية على اتجاهات الفرد النفسية كشفت أن المتغير الأساسي هو درجة الهيمنة التي يمارسها الفرد على عمله، ووسط هذا العمل. هذا ما قالت به النظرية الديمقراطية الكلاسيكية، من روسو، إلى جون ستيوارت ميل، والتي أشارت إلى الارتباط بين الهيمنة على وضع العمل وبين المشاركة في صنع القرارات، مما يعني بوضوح أن الفرد الذي يفُترض فيه ممارسة هيمنة كهذه يجب أن يشارك في اتخاذ القرارات التي تؤثر مباشرة في عمله الخاص. لهذا رأت نظرية «الديمقراطية المشاركة» بأن هذه المشاركة في بُنى سلطة غير حكومية ضرورية في تنمية وتعزيز الصفات السيكولوجية التي تتطلبها أو تحتاج إليها المشاركة على صعيد سياسي عام. كثير من دعاة هذه الديمقراطية رأوا، من ناحية أخرى، في الصناعة الصعيد الأهم الذي يمكن فيه تحقيق هذه المشاركة. هذا يفسر، أو بالأحرى يُفترض فيه أن يفسر كيف أن المستويات المنخفضة من الفاعلية السياسية تكون أكثر احتمالاً بين أفراد وجماعات المستويات الإقتصادية والإجتماعية المنخفضة.

ولكن الأدلة المتوافرة لنا حالياً، وقد أشرنا إلى بعضها سابقاً، توحي، كما كتبت كارول بيتمان في دراسة قيمة جداً حول الموضوع، «بأنه من التفاؤل المفرط أن نتوقع من العامل العادي أن يفيد من فرص المشاركة الجزئية العالية، وبأن الاستنتاج يجب أن يكون الاعتراف بصحة النظرية الديمقراطية المعاصرة التي تنطلق من واقعة اللامبالاة السياسية كحقيقة أساسية معطاة»(2).

هذه النظرية التي تمثل نقداً للنظرية الديمقراطية الكلاسيكية «تكشف، في الواقع، في الكثير من جوانبها، عن تماثل غريب مع الأدلة المضادة ـ للديمقراطية والتي كانت تُستخدم في القرن الماضي. النظرية الديمقراطية لم تعد مركزة على مشاركة الفرد العادي، ولا ترى أن القضية الأولى في النظام الديمقراطي هي تنمية الصفات السياسية الضرورية لها في هذا

(1) Birnbaum, Norman: Crisis in Industrial Society, London, Oxford University Press, 1969, pp. 66, 72.
(2) Pateman, C.: op. cit. pp. 82, 51-52, 56.

الفرد. إن مشاركة النخبة هي التي أصبحت الواقعة الأساسية في النظرية الديمقراطية الحديثة وليس عدم مشاركة الفرد العادي، اللامبالي، الذي ينقصه شعور بالفاعلية السياسية، ويُعتبر كالسند الأساسي للاستقرار السياسي. ولكن لم يخطر في فكر المنظرين الديمقراطيين المعاصرين، كما يبدو، أن يتساءلوا: لماذا يوجد ترابط إيجابي بين اللامبالاة ومشاعر ضعيفة بالفاعلية السياسية، من ناحية، وبين مكانة إجتماعية ـ إقتصادية منخفضة، من ناحية أخرى. لكن من المعقول أكثر القول إن المنظرين الديمقراطيين السابقين (النظرية الديمقراطية الكلاسيكية) كانوا غير واقعيين في مفهومهم حول هوية ديمقراطية، وفي زعمهم أنه من الممكن لكل فرد أن ينمو أو يتحرك في هذا الاتجاه عند توفر بعض المؤسسات المعينة»[1].

من ناحية أخرى، تجدر الإشارة بأنه «على الرغم من أن كثيراً من دعاة نظرية الديمقراطية المعاصرة يدعون إلى هوية نموذجية معينة أو مجموعة من الميول النفسية كشرط ضروري للديمقراطية ـ على الأقل بين قطاع كبير من السكان ــ فإنهم أقل وضوحاً بكثير فيما يتعلق بكيفية تنمية هذه الهوية، أو بطبيعة علاقتها بعمل الأسلوب الديمقراطي نفسه»[2].



هذه النتائج التي تترتب على حدود وضعية العمال الإقتصادية تفسر إلى حد بعيد العجز الثوري الذي كشفت عنه البروليتاريا. إن ماركس نفسه، «رسول» البروليتاريا الثورية ورسالتها التاريخية، أشار إلى ذلك في كتاب «رأس المال» حيث كتب: «إن الخوف من خسارة خبزه وخبز أولاده يقيد العامل إلى عربة الرأسمال بشكل أقوى من الرباط الذي كانت مطرقة هيفايستوس تشد به بروميثه إلى صخور القوقاس».

هارولد لاسكي، أحد أعلام الفكر الإشتراكي في بريطانيا، والذي لا يمكن أن يشك أحد في صدق دعوته الديمقراطية، كتب منذ نصف قرن تقريباً معلقاً على نتائج كهذه «إن يوم الفرد العادي انتهى. ليس هناك حالياً من نقد للديمقراطية أكثر شيوعاً من النقد الذي يؤكد على عدم كفاءته. إن العالم الذي يعيش فيه أصبح عالماً معقداً جداً.. الفرد العادي جاهل وغير مهتم بما يحدث، وبالتالي غير قادر بأن يحكم على ملاءمة الأجوبة التي تقترح حول المشاكل التي تواجهنا»[3].

التعقيد الذي يشير إليه لاسكي والذي أصبح ظاهرة بديهية في المجتمع الصناعي الحديث يمثل أحد العناصر الأساسية في وضعية العمال المحدودة التي تفسر تقلّص إمكاناتهم الثورية. إنه يفسر بقدر ما كيف أن تأمين الحاجات المادية والضمانات الإجتماعية ودرجة من الرفاه للعمال لم يؤدِ إلى تجاوزهم لمشاغلهم الإقتصادية المباشرة، وبالتالي تحفيز إمكاناتهم الثورية.

(1) Ibid, p. 104.

(2) ذكرها: Garaudy, Roger: Peut-on être Communiste Aujourd'hui? Editions Bernard Grosset, 1968, p. 9.

(3) Laski, Harold: The Limitations of the Expert, in Huszar, George, editor, The Intellectuals, the Free Press 1960, p. 167.

مع اكتفاء الحاجات المادية يتحرك الفرد عادة نحو حاجات أخرى أعلى، وينتقل من صعيد المشاغل الكمية إلى صعيد المشاغل النوعية. هذا ما درجت على قوله الفلسفة الأنتروبولوجية، ولكن تجربة العمال الحديثة تدل بوضوح أن هذا الاكتفاء غير كافٍ في ذاته بأن يدفع في هذا الاتجاه، فالعلاقة بين الاثنين ليست علاقة مباشرة. فكي يمكّن للاكتفاء المادي أن يقود إلى مشاغل نوعية جديدة فكرية، سياسية، فنية، إلخ.. وجب أن يحقق ذوو الاكتفاء المادي صعيداً جديداً من الوعي، أو بالأحرى يدخلون عالم التثقيف الفكري الذي ينقلهم إلى هذه المشاغل. بكلمة أخرى، هناك صعيد وسيط بين الإثنين، وهو صعيد يتطلب ميولاً وجهوداً فكرية خاصة. تجربة البروليتاريا ابتداءً من القرن التاسع عشر حتى اليوم تدل بوضوح أنها بعيدة عن هذه الميول والجهود، وأنها غير مستعدة ككل أن تدفع ضريبتها.

إن كان ما يمكن تسميته، مثلاً، «بالاشتراكية الكمية» أو اشتراكية المنافع الإقتصادية، تغري وتجذب ذوي الدخل المنخفض، فإن ما يمكن تسميته بالاشتراكية النوعية، أو الاشتراكية التي تعنى بتحسين أوضاع الناس الثقافية والفنية والاخلاقية، تغري وتجذب ذوي الدراسات العليا. إن المشاغل الفكرية هي التي تمثل الخط الفاصل بين الاشتراكية الأولى والاشتراكية الثانية.

في كلامه عن الوضع الأميركي يكتب أحد المفكرين المعروفين، «إن قضايا (النيو ـ ديل) كانت أساسياً تمثل الليبرالية الكمية. إن برنامجها عالج حاجات الشعب الأمريكي الضرورية ـ العمل، اللباس، ثلاث وجبات طعام يومياً، المسكن، وقدر من الضمانة للشيخوخة، وبما أن «النيو ـ ديل» أمنت الأساس المادي لحياة الكثيرين، فإن قضية الليبرالية، فيما بعد «النيو ـ ديل» أصبحت أولاً رفع مستوى «نوعية الحياة»، وليس مستوى المعيشة، وهي عبارة أدخلها أدلي ستيفنسن لأول مرة إلى السياسة عام 1956، الليبرالية النوعية حددت أصعدة جديدة للعمل ـ كالحقوق المدنية، الحريات المدنية، التعليم، أنسنة المدن، العلاقة بين الحياة والبيئة، وضع الفنون»(1).

مراجعة مواقف العمال الأميركيين ونقاباتهم تجاه هذه الليبرالية النوعية تكشف بوضوح أنهم لم يكونوا فقط بعيدين وغرباء عنها، بل معارضين لمقاصدها. أما فيما يتعلق بالبروليتاريا الأوروبية، فإننا نكتفي بالإشارة إلى شهادة اشتراكية. إن هنري دي مان يكتب في ضوء تجربته الخاصة: «إنني شعرت بأنني مهان عندما تبينت أن كل تحسين في قدرهم المادي كان يشكل بالنسبة لجمهور العمال خطوة تجاه الحالة البورجوازية الصغيرة. إن نشاطي في أعمال التثقيف العمالي كان يخضع للفكرة التي ترى أن النقص في ثقافة البروليتاريا كان يشكل أحسن نقطة انطلاق في خلق ثقافة جديدة ـ الثقافة الاشتراكية. ولكن الواقع علمني أن العدد القليل من الذين كانوا يرون أن الاشتراكية تمثل تجديداً للثقافة كانوا من الذين خرجوا من البورجوازية وتخلوا عنها»(2).

والمفكر الماركسي الفرنسي المعروف، لوسيان غولدمان، يكتب مؤكداً هذه الظاهرة، بأن

(1) Schlesinger, A.: op. cit. p. 246.
(2) De Man, H.: op. cit. p. 209.

السكون (Passivity) المتزايد بين العمال «يخلق وضعاً خطيراً للثقافة ذاتها، وخصوصاً الثقافة الإنسانية. إنه يكشف عن ذاته في إضعاف مستمر للاهتمام بأي شيء يقع خارج نطاق حاجات الفرد أو وحدته العائلية الاستهلاكية. هذا في الوقت الذي يتحسن فيه مستوى عيش الفرد باطراد، وهذا كله يسهم أساسياً في دمج العمال في المجتمع الحالي ويعترض طريقهم تجاه الاشتراكية. في وضع كهذا يجب على الاشتراكيين صياغة برنامج يوفر لهم إمكانية التأثير في وعي الأفراد على صعيد البنى الفوقية، وفي تفكيرهم السياسي، الإجتماعي والثقافي»[1].

أمام سقوط البروليتاريا الثوري أخذ بعض المفكرين الاشتراكيين يتطلعون إلى ما أسموه «بطبقة العمال الجديدة» التي يمكن أن تمارس دور تلك البروليتاريا التقليدية، الدور الذي عجزت عنه، وذلك لأنها تتميز بالمعرفة أو بمستوى ثقافي يسد النقص الذي يفسر، كما يبدو، عجز تلك البروليتاريا التقليدية.

إن طبقة المال «القديمة» كشفت عن مشكلتين أساسيتين قادتا إلى ظهور نظريات طبقة العمال الجديدة. وهما، أولاً، التغيير البنيوي الذي تحقق في طبقة العمال نتيجة انخفاض عدد وأهمية العمال الصناعيين، ونمو عدد وأهمية العمال الموظفين (White - collar). وثانياً، فشل هؤلاء العمال الصناعيين في البلدان الصناعية المتقدمة في تحقيق الإمكانات الثورية التي عزاها إليهم التحليل الماركسي. هذا قاد إلى خيبة كانت تزداد مع الوقت عند قسم من المفكرين الثوريين.

المنظرون لطبقة عمال جديدة يقولون إن العمال الجدد يختلفون عن العمال السابقين (الذين عجزوا بكلمة أخرى عن تحقيق الثورة أو التحول إلى طبقة ثورية) في كونهم يتمتعون بمستوى تعليمي أعلى، ولأن أعمالهم تتطلب معرفة أوسع. وبما أنهم يتميزون، على الأرجح، بإدراك أكثر شمولاً لعملية الإنتاج ككل، يكون من الممكن لهم اتخاذ موقف نقدي أكبر حول كيفية استخدام هذا الإنتاج، وحول درجة ومعنى التبذير فيه، والنتائج التي تترتب على اللاعقلانية التي تتسرب إليه. منظرو طبقة العمال الجديدة يعتقدون أن هؤلاء «العمال» يكونون أكثر قدرة على تجاوز أوضاعهم المباشرة، وإدراك السمات العامة للإنتاج الذي ينشغلون به لأن تعليمهم يؤكد على المعرفة العامة وإعطائها أولوية على الكفاءات أو الاختصاصات الخاصة. هذ يولد فيهم قدرة على التعميم حول حدود الرأسمالية ونظامها الإنتاجي. إن تمرد العمال المهنيين والتقنيين في فرنسا، في مايو 1968، وفي إيطاليا عام 1969-1970، وفر بعض «التدليل» على هذا التحليل. وعلى الرغم من أنهم يعانون تناقضات طبقة العمال السابقة في شكل أكثر تجريداً مما يستطيعه هؤلاء، فإن قدرتهم على العمل تكون أحسن، وذلك بسبب انفصالهم النسبي عن المهنة، والعائلة، والبنى الاجتماعية، مما يوفر لهم إدراكاً أحسن لجوانب النقص في الرأسمالية.

ميل «العمال» التقنيين والمهنيين إلى تنظيم نقابات لحماية أنفسهم إقتصادياً، أشار في البداية إلى إمكان وجود «طبقة عمال جديدة». وعندما ابتدأ العمال التقنيون بتنظيم أنفسهم بشكل نضالي، خصوصاً بعد النشاط الذي قاموا به في أواخر الستينات في فرنسا وإيطاليا،

(1) Goldman, Lucien: socialism and Humanism, in Fromm, E.: op. cit. pp. 46-47.

أصبحت نظرية طبقة عمال جديدة أكثر قبولاً في كثير من الأوساط اليسارية[1].

هذا بكلمة مختصرة مفهوم طبقة العمال الجديدة التي يفترض فيها أن تحل محل طبقة العمال التقليدية في صنع الثورة، وهو مفهوم يكشف عن مشاكل نظرية وبنيوية وتنظيمية مهمة لا تقل عن تلك التي كانت تواجه مفهوم الطبقة السابقة. المجال لا يتسع لتقديم نقد عام لجميع جوانب هذا المفهوم، ولكن من الممكن القول باختصار إن وضعية العمال ـ الموظفين ليست أكثر انفتاحاً وإعداداً للوعي الثوري من وضعية طبقة العمال التقليدية. فالحدود المهنية، والفكرية والمادية التي تتكون منها، على الأقل في عدد من الجماعات التي تشملها، ضيقة كالحدود التي تتكون منها وضعية هذه الطبقة الأخيرة. لهذا كانت التجربة السياسية تدل باستمرار بأنها لم تكن، في أكثرية الجماعات التي تتشكل منها، طبقة ثورية، أو حتى طبقة تقدمية. على العكس، بعض هذه الجماعات كالموظفين في البنوك والشركات، مثلاً، كانوا ذوي اتجاه محافظ، هذا إن لم نقل رجعياً. هذه الجماعات تنشغل أساسياً بتحسين وضعها المادي، وليس بمقاصد فكرية، ثقافية أو سياسية.

من ناحية أخرى، ما يسمى بطبقة العمال الجديدة ليست أقل تبايناً واختلافاً في الجماعات التي تتشكل منها، من طبقة العمال السابقة وذلك بسبب تركيبها الذي يشمل مهندسين وعلماء، بائعين في المتاجر وحتى بوابين. إن تجاهل هذه الاختلافات بين المجموعات التي يُفترض في الطبقة الجديدة أن تتكون منها يقود طبعاً إلى خلل أساسي ليس فقط في التحديد بل في التنظيم.

إن أحد الاعتراضات الأولى على تحديد طبقة العمال السابقة كان القول بأن تعدد مجموعاتها المتباينة ينفي وجود تماثل حقيقي بينها. ولهذا كان من الخطأ الافتراض أن جميع العمال الصناعيين كانوا متماثلين في التجارب التي يقاسونها والمشاعر التي يشاركون فيها، والأفكار التي يعبرون بها عن وضعهم، هذا على الرغم من أنه كان من المعقول القول بأن بعض هذه التجارب، والمشاعر والأفكار كانت مشتركة من ناحية عامة. هذا التماثل المحدود كان، علاوة على ذلك، يضعف ويتقلص مع الوقت بسبب التقدم الصناعي الذي كان يزيد من تعدد المجموعات التي يُفترض في طبقة العمال الصناعية أن تتشكل منها، ويوسع نطاق التباين الموجود بينها. إن التطور الصناعي كان، في الواقع، يعمل، مع تعقد الصناعة المتسع والتخصص الصناعي المتزايد، على فصم الروابط والتجارب الواحدة التي يمكن أن توحد بينهم. فالعمال الذين كانوا ينشغلون، مع الوقت، بعمليات (Processes) متزايدة الاختلاف والتعقيد، كانوا يقومون بأعمالهم اليومية بأشكال مختلفة، وبكفاءات مختلفة، وبمعاشات مختلفة، ومن مواقع جغرافية واجتماعية منفصلة عن بعضها، لا في المجتمع الصناعي ككل، بل في المصنع نفسه، وفي القطاع الصناعي الواحد. لقد أدى ذلك إلى بعثرة متزايدة لطبقة العمال. هذا الوضع كان يفسر بقدر مهم عجزها الثوري، وتزايد هذا العجز مع الوقت. وهذا الاعتراض ينطبق بشكل أكبر على ما يُسمى بطبقة العمال الجديدة.

(1) Friedland, W. et al.: op. cit. pp. 57, 58.

لهذا لم يكن غريباً أن تكشف هذه «الطبقة» الجديدة عن عجز ثوري أكثر بروزاً من العجز الذي كشفت عنه الطبقة السابقة. إن أهم نقد يمكن أن يوجه إلى هذا المفهوم حول طبقة عمال جديدة هو، في الواقع أن هذه الطبقة لم تدلّ أبداً حتى الآن على وجودها بأيّ ممارسة ثورية.

ماركس وأنجلز رفضا، على عكس الاشتراكيين الطوباويين واشتراكيي الدولة، الفكرة القائلة بإمكان إقامة نظام إجتماعي جديد بالاتجاه إلى العقل أو إلى شعور بالعدالة الإجتماعية. لهذا كان من العبث توقع صدور تنظيم جديد للمجتمع الرأسمالي سواء عن طريق البورجوازية أو عن طريق الدولة. ليس هناك من طبقة حاكمة تنازلت طوعاً عن مركزها وامتيازاتها، ولهذا يجب أن لا نتوقع من البورجوازية استخدام سلطة الدولة في إلغاء النظام نفسه الذي تفيد منه. خلق نظام جديد يمكن أن يتم فقط عن طريق استلام السلطة السياسية من قبل طبقة ترفض النظام القائم بسبب مصلحتها الإقتصادية. هذه الطبقة هي طبقة العمال الصناعية أو البروليتاريا. كل نظام يخلق في ذاته الطبقة التي تدمره.

ولكن هذه الطبقة لم تكن قادرة، كما تبين فيما بعد، على تحقيق هذه الرسالة. الوضعية الاقتصادية التي كان يفترض فيها إفراز هذه الطبقة الثورية كانت، في الواقع، تفرز مع الوقت الحدود التي تحول دون تحولها إلى طبقة كهذه.

الوضعية الزمانية المحدودة

بالإضافة إلى حدود الوضعية الإقتصادية التي تحيط بطبقة العمال، والتي تكلمنا عنها في الفصل السابق، هناك وضعية أخرى يمكن تسميتها بالوضعية الزمانية التي تكشف أيضاً، هي الأخرى، عن حدود تتناقض مع تحول هذه الطبقة إلى طبقة ثورية. ما نعنيه بهذه الحدود هو الأفق الزماني الضيق الذي تُلقح به عقلية العمال - وفي الواقع أكثرية الناس بشكل عام - والذي يتناقض مع الأفق الزماني البعيد المدى الذي يميز العمل الثوري.

وضعية العمال تعني التوكيد على ما يُلاحظ مباشرة، والانشغال بالحسي والشخصي، وهذا يحدد المنظور الزماني الذي يميزها، وهو منظور قصير المدى والنفس، عاجز عن إدراك الإمكانات غير المباشرة، والأعمال البعيدة المرمى والنتائج التي تترتب عليها. عبارة الوعي الثوري هي العبارة الأكثر ملاءمة في تحديد العمل أو التقليد الفكري الذي يؤكد إمكان تجاوز صعيد المشاغل العملية المباشرة والنظر إلى وجود الإنسان الإجتماعي من منظور نقدي. هذا المفهوم يؤكد بالتالي أن كبت أو تجاوز المشاغل الآنية وتحويلها إلى مشاغل عامة بعيدة المدى ترتبط بالمستقبل وتدور عليه، يشكل الشرط الأساسي للعمل الثوري، الشرط الذي لا يستطيع بدونه هذا العمل أن يحقق ذاته. العامل ينشغل يومياً بإرضاء حاجات مباشرة بدلاً من الإنشغال بمكافآت بعيدة المدى، وهذا يولد لديه منظوراً زمانياً محدوداً يتناقض مع هذا العمل، «العمال لا يستطيعون عادة استخدام مقاييس مجردة لمفهوم الملكية أو الاستثمار، مثلاً، كأساس لنضال سياسي، وذلك لأنهم يحتاجون في هذا النضال إلى صور حسية» [1]. لهذا فإن الأفق الزماني وحتى المكاني الذي يمتد إليه وعي العمال يميل بأن يكون بلدته، أو مصنعه أو مهنته، وليس الوطن، أو الطبقة أو النظام، أو الثورة، أو الإنسانية، إلخ.

في «1984» جورج أورويل يجد أن «البروليتاريا» كانت ضعيفة وعاجزة إلى درجة جعلت إخضاعها للنظام الكلياني غير ضروري. حتى عندما يصبح البروليتاريون متذمرين كما كان

(1) Heilbroner, Robert Marxism For And Against W.W. Norton, 1980, pp. 130-131.

يحدث في بعض الأحيان، فإن تذمرهم لا يقود إلى شيء، لأنهم «كانوا بدون أفكار عامة»، ولذلك كانوا فقط قادرين على التركيز على مظالم معينة.

غورتر كان مفكراً بريطانياً ولكن شهرته كشاعر لا تزال مستمرة. لقد أصدر نشرة ناقش فيها أسباب الشعور القومي عند البروليتاريا، وهي نشرة وصفها لينين «بأنها ممتازة». لقد كتب فيها بأن السبب الذي يدفع البروليتاريا إلى وضع نفسها في خدمة البورجوازية يعود إلى كونها لا تدرك كيف تتجه على صعيد عالمي ضد البورجوازية. إنها لا تعرف كيف تناضل من أجل أهداف بعيدة المدى كالاشتراكية، وإنما تناضل من أجل حاجاتها الخاصة المباشرة[1]. شهادة لينين هي التي دعت إلى الإشارة لهذه النشرة التي تعبر، في تقويم إمكانات العمال القاصرة عن التفكير العام، عن خط مماثل لخط لينين في «ما العمل؟» الذي أشرنا إليه سابقاً.

باكونين يشير أيضاً إلى هذا الزمان القصير المدى، الأفق الزماني المحدود، إنه يكتب «كي يمكن التصويت بمعرفة تامة وبحرية كاملة على القوانين التي تُقترح عليه أو التي يُدفع إلى اقتراحها، وجب أن يتوفر للشعب الوقت والتعليم الضروري لدراستها، ولإنضاجها ومناقشتها.. في كثير من الأحوال تكون هذه القوانين ذات طبيعة خاصة إلى درجة تحتاج معها، كي يمكن إدراك أثرها الحقيقي، إلى عادة التفكير المجرد والقانوني. لهذا فهي تخرج طبيعياً عن انتباه وإدراك الشعب الذي يصوت عليها بشكل أعمى، في ضوء إيمانه بخطباء يفضلهم»[2].

«البيان الشيوعي» يلتقي، هو الآخر، مع هذا الخط وينبه إلى الحدود الزمانية الضيقة التي تميز تفكير البروليتاريا، وذلك عندما نبه إلى ضرورة الشيوعيين لحركة البروليتاريا وذلك لأنهم «يتميزون عن جمهور البروليتاريا الكبير بميزة الإدراك الواضح لسير الأوضاع، وللنتائج العامة النهائية للحركة البروليتارية».

هذا التوكيد على البعد الزماني البعيد المدى واضح في كتابات كبار الماركسين التي كانت تؤكد هنا وهناك على دور الوعي أو العنصر الإيديولوجي في صنع الثورة، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

عند مراجعة كتابات غرامشي، مثلاً، «نجد فكرتين أساسيتين تهيمنان عليها: كيف يمكن لوعي الناس، كما كان يحدث فعلاً، بأن يكون متخلفاً عما يجب أن يفرضه عليهم وضعهم الإقتصادي؟.. كيف يمكن أن نفسر قدرة الطبقات الحاكمة بأن تجرّ وراءها كل المجتمع وذلك باستخدام بعض شرائح المثقفين؟.. إدراك دور الإيديولوجية في الإجابة عن ذلك يصبح بالنسبة لغرامشي، أمراً حيوياً. بعض أفكاره المُفحمة تصدم، في الواقع، مستقيمي الرأي (Bien - Pensants): إن ثورة البولشفيك كانت ثورة ضد «رأس المال» لكارل ماركس. «رأس المال» لماركس كان في روسيا كتاب البورجوازيين أكثر مما كان كتاب البروليتاريين».. ثم يضيف: «إن عنصر التاريخ الأساسي ليس الوقائع الإقتصادية الخام بل الإنسان، مجتمعات الناس، الناس الذين يتحدون فيما بينهم.. والذين يصوغون عبر اتصالاتهم إرادة إجتماعية جماعية، ويدركون الوقائع الإقتصادية، ويحكمون عليها،

(1) Horace Davis: op. cit. p. 118.

(2) Bakunin, M.: Oeuvres, II. P. 110.

ويكيفونها مع إرادتهم إلى أن تصبح هذه الأخيرة القوة المحركة للإقتصاد»[1].

هذا الدور الذي تمارسه الإيديولوجية كان بعيداً عن العمال الذي يرتبطون بأوضاع إقتصادية صرفة. «من ناحية نظرية كان يجب على وعي البروليتاريا الطبقي أن يكون أكثر وضوحاً من نقيضه، ولكن هذا لم يحدث، وذلك لأن الاغتراب الذي عانته كان مزدوجاً. فهي بقيت ضمن نطاق صراع إقتصادي مجرد من المنظورات السياسية لأنها كانت فريسة نقابات إصلاحية، سجينة إيديولوجيات سائدة تُقدم كقيم شاملة، وتعمل كجزء من أوضاعها»[2].

تحرير البروليتاريا من هذا الوضع يفترض تثقيفها بتصور إيديولوجي بعيد الأفق الزماني تتجاوز به هذه النقابات والإيديولوجيات السائدة. إننا لا نستطيع، كما يكتب، الانتظار صابرين إلى أن تتمزق البنى الإقتصادية في ذاتها، وخلق حزب يعني ضمناً تكوين الرجال القادرين على تجاوز المطالب الإقتصادية الصرفة. هنا تلتقي النظريات اللينينية حول الحزب، والتفكير حول الإيديولوجيات وحول التربية الثورية. غرامشي يفسر بأن الحزب السياسي يحل، في العالم الحالي، محل البطل المنفرد، أمير القرن السادس عشر. كي يمكن لحزب من النوع الحديث أن يوجد، يجب تحقيق ثلاثة شروط، وجود أساسي يتشكل من مناضلين يقبلون إرادياً النظام ونموذجاً معيناً من العمل، وجود جماعة قيادية تركز وتنظم العمل. وأخيراً، عنصر وسطي يعبر عن القادة والضباط ويشكل الكوادر السفلى. الحزب أو «المفكر الجماعي»، كما أسماه توغلياني، يمارس دورين أساسيين: يجب عليه، كممثل لمصالح طبقة، أن ينشر مفهوم هذه الطبقة الجديد حول العالم، وبذلك يثقف الذين لا يزالون في قبضة الإيديولوجيات القديمة. وأخيراً يجب عليه تنظيم الصراع بالاعتماد على الجماهير، أي بالعمل تبعاً لمبدأ التركيز الديمقراطي الذي يقاوم التركيز البيروقراطي للأحزاب البورجوازية. إننا ندرك آنذاك الدور الحاسم للتربية الجماهيرية والمكانة المعطاة لبناء ثقافة ـ مضادة[3].

التوكيد على «العام» على الأفق الزماني البعيد المدى واضح جداً أيضاً في كتابات ماو تسي تونغ. في نقد لكتاب أصدرته الحكومة السوفياتية بعنوان «موجز للإقتصاد السياسي في الاتحاد السوفياتي»[4]. يكتب ماو: «إن الكتاب يعالج مشكلة الحوافز المادية من ناحية جزئية ومطلقة، ولا يعطي مكانة مهمة للعمل على رفع مستوى الوعي. إنه لا يستطيع أن يفسر كيف أن العمل الذي يقدمه جميع العاملين الذين ينتمون إلى جماعة واحدة ليس واحداً.. حتى وإن اعترفنا بأن الحوافز المادية تشكل عاملاً مهماً، فإنها لا يمكن أن تكون الوحيدة. يجب أن يكون هناك مبدأ آخر: مبدأ الحوافز العقلية في الصعيد السياسي ـ الإيديولوجي. ومن ناحية أخرى، إن الحوافز المادية لا يمكن أن تعالج فقط في ضوء مصالح شخصية. يجب أن تعالج أيضاً كمصالح جماعية، كأولوية المصالح الجماعية على المصالح الشخصية، وأولوية المصالح البعيدة المدى على المصالح الموقتة، وأولوية المصالح العامة على المصالح الخاصة»[5].

(1) Verdine, Hélène: Les Philosophies de L'Histoire, Payot, 1975, pp. 62-63.
(2) Ibid, p. 86.
(3) Ibid. Pp. 66-67.
(4) Manuel d'économie politique de L'Unione Sovietique, 1960.
(5) Mao Tse-Toug et la Construction du Socialisme p. 126.

بعد الإشارة إلى مقاطع أخرى من هذا الكتاب، يعلق ماو، بأن «الكتاب يتكلم وكأن نشاط الجماهير الخلاق يرتبط بالمصالح المادية، وهو لا يضيع أبداً أيّ مناسبة في الحديث عن المصالح المادية الشخصية وكأنه يحاول بدون انقطاع اللجوء إلى هذه المصالح في جذب الناس، هذا يعني في رأيه إهمالاً للعمل الإيديولوجي السياسي، ويدل أن هذا العمل لا يحظى بالاهتمام الكافي به»(1).

الكتاب يتجاهل الأفق الزماني البعيد المدى الذي يحتاجه العمل الثوري، إنه «لا يؤكد أبداً أهمية المستقبل، إنه يؤكد فقط على المصالح المادية».. ولكن هذا التوكيد يتناقض مع الوعي، ولهذا «يجب علينا العمل بشكل يحقق فيه الشعب نوعاً من الوعي»(2). من ناحية أخرى يؤدي هذا التوكيد إلى الفردية، وهذا خطر على الوعي الثوري. ماو يشير بأن الكتاب يعلن بأن هدف الإنتاج الاشتراكي هو تحفيز العمال على الاهتمام بشدة بنمو حيوي للإنتاج، وتشجيعهم على الاهتمام بنتائج عملهم من زاوية مصالحهم المادية، ففي هذا تكمن القوة المحركة القادرة على الدفع إلى تنمية القوى الإنتاجية الاشتراكية. ثم يعلق بأن الكلام بهذا الشكل المطلق «عن الارتباط بالمصالح المادية الشخصية» يعني التعرض لخطر نمو الفردية(3).

«هذا الارتباط بالمصالح المادية الشخصية» يتناقض مع الثورة. «إن الأجيال العديدة التي ناضلت في سبيل الثورة الاشتراكية في الصين «لم تعتمد على حوافز مادية مزعومة، بل على الروح الثورية.. أثناء مرحلة الثورة البورجوازية ضحى كثيرون من الثوريين البورجوازيين بحياتهم ببطولة. إنهم لم يصنعوا ذلك لأجل منفعة شخصية مباشرة، بل في خدمة مصلحة طبقتهم الخاصة، ومصلحة أجيالها المقبلة»(4).

الذين ينشغلون بعملهم طيلة النهار يخسرون الشعور «بالاتجاه التاريخي العام» وهذا خطير جداً. «ليس هناك أي شك بوحدة السياسة والإقتصاد، ووحدة السياسة والتقنية (Technique).. الذين لا يهتمون بالإيديولوجية والسياسة وينشغلون فقط بعملهم طيلة النهار، يصبحون إقتصاديين أو تقنيين خسروا الشعور بالاتجاه العام وهذا خطير جداً. العمل الإيديولوجي والعمل السياسي هما الضمانة في إنجاز العمل الإقتصادي والتقني. الإيديولوجية والسياسة تلعبان دور القائد الأعلى»(5).

أقوال كهذه لا تعني فقط اعترافاً ماركسياً عاماً بالحدود الزمانية الضيقة التي تميز العمال، وتترتب على أوضاعهم ومشاغلهم المادية، وبتناقض هذه الحدود مع الروح الثورية، بل تعني أيضاً، وضمنياً على الأقل، أولوية دور الإنتليجنسيا التي تستطيع الخروج من هذه الحدود، والتي ترجع إليها صياغة الصعيد الإيديولوجي - السياسي والتعبير عنه.

بدون التحرر من هذه الحدود الزمانية الضيقة لا يستطيع العامل أن يعي حتى تعاسة

(1) Ibid, p. 120.
(2) Ibid, p. 127.
(3) Ibid, p. 118.
(4) Ibid, pp. 127-128.
(5) Shram, Stuart: Mao Tse-Toung and the Theory of the Permanent Revolution, 1958-1969. The China Quarterly, n. 46, April-June, 1970, p. 228.

وضعه نفسها. إن فرديناند لاسال كان يقول: «يجب أن نعلم العامل بأنه تعس»، وعلى الرغم مما قد يبدو من غرابة في أقوال كهذه، فإن العامل الذي لا يعتمد أفقاً زمنياً بعيد المدى لا يُدرك ذلك. إن قدرة الإنسان على التكيف مع بؤسه هائلة. والعامل لا يميل إلى الثورة بسبب بؤسه بل نتيجة الوعي الذي يحققه ويكتشف به هذا البؤس. إن وضعيته الإقتصادية تفرز في ذاتها حدوداً زمانية ضيقة لأنها كما أشرنا مراراً ترتبط بتحسينات وإصلاحات مباشرة في وضعه الإقتصادي الإجتماعي. لهذا كانت هذه الوضعية عاجزة في ذاتها عن دفعه إلى الثورة.



في انشغالهم بمصالحهم المباشرة والفردية كان العمال، على نقيض البورجوازية، غير قادرين على دفع وتقديم مصالحهم كطبقة، ككل يتجاوز المجموعات التي يتشكل منها. عن العكس، إن نضالهم في تحقيق حاجاتهم المباشرة كان، كما يبدو، يبتعد بهم بشكل خطير على الطريق الأساسية إلى السلطة السياسية. لهذا كان العمال لا يحتاجون فقط إلى مجموعة من الأفكار تعدهم لإدراك طبيعة النظام الرأسمالي الأساسية في نظرية عامة، فلا يخسرون القصد العريض النهائي نتيجة الإنشغال الرتيب بمشاكل يومية، بل كانوا يحتاجون أيضاً إلى إدراك ذلك وتمثله. ما كانوا يحتاجون إليه كان صورة واضحة عن نظام بديل، يدركونها ويستوعبونها إن هم أرادوا أن لا تضيع جهودهم في مشاغل عملهم وعيشهم اليومية. ولكن حدود وضعيتهم الإقتصادية الضيقة التي تقترن بحدود زمانية ضيقة كانت تحول دون ذلك، أي دون تحولهم حقاً إلى طبقة ثورية تستطيع إقامة نظام جديد.

العمال كانوا ينغمسون دائماً في مشاكلهم ومقاصدهم الخاصة المباشرة، وبشكل تصبح فيه السياسة غير مهمة بالنسبة لهم. إن إنشغالهم بهذه المقاصد والمشاكل كان كلياً تقريباً، وكانوا بالتالي غير قادرين أساسياً، كما يكتب كولاكو سكي، الفيلسوف الماركسي البولندي، على ربط ما يحدث هناك وخارج أوضاعهم المحدودة، بأحداث حياتهم الخاصة.

الوضعية الذاتية التي تميز العامل محدودة جداً من حيث الزمان (والمكان أيضاً). إنها لا تمتد بعيداً في المستقبل لأنها تدور حول مشاكل ومشاغل مباشرة وحيوية له. لهذا فهو يريد المساعدة مباشرة. إن قطاعاً كبيراً جداً من العمال الفرنسيين والإيطاليين، مثلاً، الذين يرتبطون بأكبر حزبين شيوعيين في أوروبا الغربية، لا يريدون أبداً إنتظار فوائد بعيدة المدى، أو وعوداً حول ما سيحدث بعد بضع سنوات. «تصور العامل الأول هو أنه يرى في ذاته إنساناً منتجاً مُستهلكاً، مستعداً للتضحية بذاته أو للإضراب فقط عندما يكون على ثقة بأن هناك فائدة مباشرة وحسية تعود إليه من ذلك. وعلى الرغم من أن الأكثرية الكبرى من الناخبين الفرنسيين والإيطاليين المحتجين يحبذون حكومة اشتراكية، فإنهم يفكرون بحكومة تنشغل بمشاكلهم كأفراد، وليس بحكومة تخدم مصالح حزب أو طبقة. هذه واقعة واضحة تماماً بالنسبة لبعض القادة الشيوعيين المحليين الذين خاب أملهم بالتصور الذي يحمله الحزب حول العامل «الفقير، لكن الشريف». إن أحد هؤلاء قال: «لقد سئمت نفسي من الوهم الذي يُفترض علينا الإيمان به حول الطبقات العاملة. العمال ليسوا أحسن من أصحاب العمل. إنهم في أكثريتهم جهلة،

خرافيون، غير مستعدين بأن يتعلموا، عاجزون عن المشاعر النبيلة التي يقول قادة الحزب لنا بأنها تشكل رسمياً مشاعر العمال»[1].

على عكس البورجوازية التي طورت أسس سيادتها المقبلة في داخل المجتمعات الأرستقراطية التي دُعيت إلى إسقاطها، فإن طبقة العمال كانت تجد نفسها بشكل متزايد بعيدة عن هذه السلطة. النظام البروليتاري لم يبرز طبيعياً من العامل الرأسمالي كما برز النظام البورجوازي طبيعياً من النظام القديم. لا شك أن العمال كانوا يعون قوتهم المتزايدة، ويأملون ممارسة نفوذ متزايد يؤدي بهم إلى سيادة الدولة وإخضاعها لمصالحهم، ولكن لم يشعروا إلا نادراً بأن الدولة أصبحت في متناول يدهم. «إن السيادة على الدولة بقيت بالنسبة لهم قضية معقدة كثيراً، سرية جداً، بعيدة جداً، ولم يكونوا في أي حال مهيئين لها»[2].

بما أن الإنتليجنسيا كانت تمثل في تجارب التاريخ الحديثة القوة الثورية الطليعية الرئيسية، وبما أنها كانت تتكون عادة من أفراد ذوي أصول بورجوازية تخلوا عن طبقتهم وقاوموا سلطتها وسيطرتها، فإن كثيرين، وابتداء من لينين، رجعوا إلى وضعية الطبقة الوسطى يكشفون فيها العناصر التي تميز هذه الوضعية عن وضعية العمال وتمهد الطريق أمام خروج الإنتليجنسيا أساسياً من صفوفها. أهم هذه العناصر التي تمت الإشارة إليها هي:

1 . إن أكثرية أعمال الطبقة العاملة تشغل بأشياء بينما أكثرية أعمال الطبقة الوسطى تشغل بأفكار، أو تفترض ضبطها عن طريق أفكار. العمل مع الأشياء يعني نموذجياً درجة من الحرية أقل في تكوين الأحكام المستقلة، بينما العمل مع أفكار وعلاقات شخصية متبادلة يعني نموذجياً درجة من الحرية أو حتى ضرورة الأحكام المستقلة. استخدام الأفكار يكون بالضرورة تحت سيادة مباشرة أعلى للفرد، بينما استخدام الأشياء يكون أسهل على التنظيم من الخارج، وعلى القياسية (Standardization) عندما ينشغل العمل بالأفكار يمهد الطريق للاستقلال الذاتي ويخلق فرصة طبيعية له.

2 . فرد الطبقة الوسطى يؤكد، من ناحية عامة، على إدراك الأهمية القائمة بين الوسيلة والمقاصد البعيدة المدى، ويُفترض فيه القدرة على تبني الإجراءات أو الوسائل المناسبة في تفيذ مقاصد تتجاوز الحدود الزمانية لتجربته اليومية.

3 . فرد الطبقة الوسطى ينمو من ناحية عامة أو نموذجياً في وسط يعرف الانضباط الذاتي الدقيق وعلى نطاق واسع. الجوانب الزمانية والمكانية والعلاقات الإجتماعية تكون منظمة بوضوح داخل العائلة وخارجها.

4 . الأفراد الذين يتميزون بمنزلة بورجوازية أعلى في المجتمع المعاصر يعون، بدرجة أعلى، أهمية العمل السياسي للمصلحة الخاصة، وذلك لأن هذه المنزلة تقترن بدرجة أعلى من التعليم، وهذا يزيد درجة النضج السياسي. في المجتمع الصناعي نجد، كما أشار ماكس فابر، منذ مدة طويلة، أن العلاقة بين عمل الحكومة والنتائج التي تترتب عليها، تكون أكثر

---

(1) Cantril, H.: op. cit. pp. 121-122.
(2) Martinet, J.: op. cit. p. 24.

وضوحاً لذوي الأعمال الصناعية والتجارية مما هي عليه للذين يجدون أنفسهم في أعمال دنيا. هؤلاء أكثر استعداداً لرؤية السلطة في المصنع كشيء أهم من السلطة في الدولة.

هذه هي بعض الأسباب التي تفسر قدرة البورجوازية على تطوير سيادتها المقبلة في داخل المجتمعات الارستقراطية، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه. هذه الأسباب تخلق من ناحية أخرى مناخاً يساعد بطريقة غير مباشرة في تحول أفرادٍ من هذه الطبقة إلى إنتليجنسيا.

من ناحية أخرى، تجب الإشارة إلى أن تقسيم العمل الذي يمارسه العامل في عمله، والذي كان يزداد مع تقدم المجتمع الصناعي، كان يزيد من انحسار الحدود الزمانية التي يعمل فيها، وبالتالي يضعف بازدياد استعداداته الثورية.

العامل ينشغل بأعمال جزئية، وهذا العمل يجعل من الصعب أو المستحيل تحقيق وعي «للكل» و«للعام» ويجرد العامل من المبادرة والقدرة على التركيب التأليفي (Synthetism).

تقسيم العمل (Division of labor) ضروري لتطور المجتمع ولكنه، من ناحية أخرى، يُفقر، ويشوه إنسانية الإنسان لأنه يحد نشاطه في عمل ضيق، محدود جداً، يفرض عليه القيام بالشيء نفسه طيلة حياته، ويركز إمكاناته أو بالأحرى جزءاً من هذه الإمكانات عليه. ازدياد درجة تقسيم العمل كان يعني ازدياد محدودية العامل الزمانية وضعفه الثوري. إنه يؤدي إلى إضعاف متزايد لطاقات العامل الإنسانية، وإلى تبليد وعيه.

هذه النتائج السلبية التي تترتب على تقسيم العمل كانت واضحة لكثير من المفكرين ابتداءً من القرن التاسع عشر، من أمثال دي توكفيل، برودون، سان سيمون، ماركس، إلخ.. إن برودون وجد، في الواقع، أن إنخفاض قيمة أو إنسانية الفرد الذي ينتج عن خضوع العامل للآلة يماثل الانخفاض الذي كان ينتج عن نظام الرق القديم.

عندما دلت تحولات المجتمع الرأسمالي أنها تتعارض بوضوح مع توقع ماركس لبؤس متزايد للعمال، رجع الماركسيون، في الواقع، إلى تفسير آخر للمعنى الذي أراده ماركس لهذا البؤس. فأمام هذا التناقض بين الكتابات أو التوقعات الماركسية وبين التاريخ، أشار هؤلاء إلى الإفساد الذي يصيب العمال في أوضاع يسودها تقسيم حاد للعمل كمصدر لهذا البؤس، وهي نظرية قدمها سابقاً مؤرخون اسكتلنديون في القرن الثامن عشر، ومنهم آدم سميث نفسه.

أنطونيو غرامشي يعطي صورة حادة عن هذه النتائج السلبية التي تترتب على تقسيم العمل في حياة العامل. فهو يكتب: «ما هي قوة الامتداد الذي يمكن إذن أن تتخذها مشاعر العامل المنطوي على آلته، الذي يكرر لمدة ثماني ساعات يومياً حركته المهنية الرتيبة كفتِّ الحبات في دائرة المسبحة المغلقة، وذلك عندما يصبح «سيداً» عندما يكون هو الذي يعطي مقياس القيم الإجتماعية؟.. كون العامل لا يزال قادراً على التفكير، على الرغم من اضطراره إلى العمل بدون أن يعرف الـ«كيف» والـ«لماذا» الكامنة وراء نشاطه العملي يشكل أعجوبة. كيف يمكن للعامل في هذه الأوضاع أن يصبح «السيد»، «المدير» بينما هو يمارس في المصنع دور «المنفذ» فقط؟.. إن عملية الإنتاج والعمل العامة تخرج عن إدراكه[1].

---

(1) ذكرها: Belkir, J.: op. cit. p. 80.

غرامشي يرى، في الواقع، أن العامل يميل إلى نقل هذا النوع من السلوك إلى جميع الأوساط التي تمتد إليها حياته خارج المصنع. إنه يكتفي بسهولة، وفي كل مكان، بدوره كمنفذ مادي، كجزء من جمهور ينقاد لإرادة غريبة عن إرادته. إنه كسول فكرياً، لا يعرف، لا يريد، ولا يتنبأ بما يقع وراء المشاغل المباشرة. لهذا ينقصه كل مقياس ممكن في اختيار قادته، يترك نفسه ينقاد بسهولة بالوعود، يلذّ له الاعتقاد بأنه يستطيع أن ينال ما يريد دون جهد كبير، ودون تفكير كبير من جهته.

هذا القول يعبر بوضوح عما أسميناه هنا بالحدود الزمانية الضيقة التي يعمل فيها العامل، والتي تتناقض مع الوعي الثوري وتشل القدرة على المبادرة الثورية.. لا شك أن الوعي الواضح لوضع البروليتاري العام يحوله مباشرة إلى ثوري، ولكن هذه الحدود الزمانية تمنع عنه، أو على الأقل تُعثر بقوة تحقيق هذا الوعي، وتجر العامل إلى تبني وضعه. المثقفون يتعرضون أيضاً لبعض أشكال تقسيم العمل، ولكن عملهم الفكري نفسه يغذي الوعي الذي يمكن الرجوع إليه واستخدامه في تجاوز هذا التقسيم. هذا يتحقق بشكل خاص للذين تتشكل منهم الإنتليجنسيا التي تعني صياغة هذا الوعي في رؤية عامة جامعة للوضع ككل، رؤية تدرسه وتحلله ككل، ومن ثم تحدد طريق تجاوزه أو تصحيحه ككل. التفكير الإيديولوجي في معناه الصحيح هو تفكير كلي، أي جامع للمجتمع أو المرحلة التاريخية ككل. ولكن عندما يرتبط الفرد بجزء معين محدود جداً فإنه لا يعجز فقط عن الإسهام في هذا التفكير، بل يعجز أيضاً عن الإنفتاح له، أو إدراكه. بما أن هذا التفكير هو أداة الوعي الثوري الذي يُخرج الفرد من الوضع أو النظام القائم، ويوفر له مسافة ما منه تسمح له بنقده ككل، فإن الذين لا يمارسونه بشكل مباشر أو غير مباشر لا يستطيعون الانفصال عن هذا النظام أو الوضع ويلتزمون ضمناً أو صراحة بقيمه ومؤسساته الأساسية. هذا يعني «وعياً مزوراً» يحوّل صاحبه إلى فريسة سهلة له، لأنه يلغي البُعد الزماني الضروري في الانسلاخ عنه. هذا ما حدث لطبقة العمال.

هنا، في هذه الحدود الزمانية الضيقة وما يترتب عليها، نجد ما يفسر ما أشرنا إليه في القسم الأول من هذه الدراسة وهو أن اتساع القواعد الجماهيرية للأحزاب الاشتراكية كان يقترن بتقلص لثوريتها، وأن هذا التقلص كان يزداد مع اتساع هذه القواعد. هذا الاتساع كان يعني أن على هذه الأحزاب صياغة وعيها بشكل مبسط غير معقد نسبياً كي يكون في متناول هذه القواعد. لهذا نرى، مثلاً، أن الأحزاب الشيوعية الصغيرة. التي لا تعتمد على قواعد شعبية عريضة كالتي نجدها في السويد، النروج، الدانيمارك، الولايات المتحدة، بريطانيا، إلخ.. لا تزال تقدم فكراً «معقداً» في صياغة وعيها العام. فحيث يكون الحزب - أي حزب ثوري وليس الأحزاب الشيوعية فقط - صغيراً وضعيفاً، لا يستطيع أن يعد بحل نهائي سريع للقضايا التي يعالجها، أو بتحولات مباشرة في وضع الجماعات أو الطبقات المحرومة. إنه يقدم أشكالاً فكرية «معقدة» في التعبير عن مقاصده، أو أدلة وتفاسير تحاول التدليل بأن حركته ستزداد قوة مع الوقت نتيجة تناقضات واتجاهات متأصلة في النظام القائم، أو في منطق التاريخ العام الذي يسود المرحلة التي يعمل فيها.

هذه الوضعية الزمانية المحدودة التي يحياها العمال كانت تفرض، من ناحية أخرى، على

الأحزاب الاشتراكية صياغة وعيها الإيديولوجي بشكل ينسجم مع هذه الحدود، أي مع المشاغل اليومية والمقاصد الإقتصادية المباشرة التي تعبر عنها، لقد قاد هذا إلى برجزة العمال وإلى تحويل هذه الأحزاب إلى أحزاب إصلاحية لم تلبث أن تحولت إلى جزء من النظام الرأسمالي نفسه.

إن توقع ماركس لوعي سياسي متكامل ولروح ثورية بروليتارية متزايدة مع الوقت لم يتحقق. على العكس، إن تاريخ البروليتاريا منذ صدور كتاب «رأس المال» كان يتميز من ناحية عامة بانتشار تدريجي للميول البورجوازية في صفوفها وببرجزة متزايدة لها. هذا يعود بقدر كبير، ولا شك، إلى ارتفاع مستوى المعيشة المادية بين العمال ابتداء من 1870. عنصر الوعي السياسي الفوقي المهم الذي كان يجب أن يرافق ويعبر عن اتجاهات الأساس الإقتصادي التحتي لم يظهر، على الأقل كما تصوره ماركس، والنتيجة كانت فشل البروليتاريا كطبقة ثورية.

«البروليتاريا لم تثر على النظام الرأسمالي لأن حاضرها» كما يكتب المفكر الماركسي واطسون، «كان أحسن قليلاً من ماضيها، ومستقبلها يعد بأن يكون أحسن قليلاً من حاضرها»[1]. والنتيجة كانت كما يكتب المفكر التقدمي هايلبرونر، «فشل الثورة. فنجاحات الرأسمالية الإنتاجية لم تنفس فقط المزاج الثوري في طبقة العمال بل غذّت أيضاً شعوراً محافظاً ربط بقوة بين العمال في معظم البلدان الرأسمالية وبين المحافظة على النظام الراهن»[2]. تحسن وضع العمال الإقتصادي الإجتماعي كان يعني إلتزاماً جزئياً أو أساسياً بالنظام القائم، وبالتالي عقلنة له في ضوء إيديولوجية أو تفكير إيديولوجي يضفي عليه الشرعية التي يحتاج إليها. لهذا لم يكن من الغريب أن ينتهي العمال إلى مواقف محافظة، أو أن يتغير تصور الأحزاب الاشتراكية للمستقبل فيتطابق مع دولة الخدمات الإجتماعية وليس مع فكرة حضارة جديدة كما كان يُفترض فيه.

إن ما يُشار إليه عادة «كالأعجوبة» الإقتصادية الطويلة الأمد في الخمسينات وبداية الستينات أدّى إلى تغييرات أساسية في نظرة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الغرب التي وجدت أن العمال الذين أخذوا ينعمون كنتيجة لذلك بارتفاع سريع في مستوى الحياة تحولوا عن الاهتمام بإحداث التغيير الإجتماعي. كي تتمكن من تحسين وضعها الإنتخابي اتجهت هذه الأحزاب آنذاك إلى الطبقات الوسطى المهنية، الناخبين العائمين، وعدلت فلسفتها بشكل مناسب. إن حزب العمال البريطاني حاول إلغاء برنامج الملكية العامة والإدارة الشعبية، ولكن معارضة الجناح اليساري في الحزب أوقف ذلك. الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني ذهب إل أبعد من ذلك عام 1959، وتبنى برنامجاً أعاد النظر في مبادئه السابقة وأعلن الولاء لسياسة إصلاحية، وحافز الربح، وأنكر الإيديولوجية الماركسية التي استبدلها بالمسيحية. هذه التكيفات والتعديلات كانت ناجحة من حيث إنها جعلت من الممكن للأحزاب الاشتراكية أن تصل أثناء الستينات إلى الحكم في كل بلد أوروبي تقريباً.

ذلك النمو الإقتصادي الكبير لم يؤدِ فقط إلى اعتدال سياسي اكسب الأحزاب الاشتراكية قوة انتخابية جديدة، بل أدّى إلى إفسادها أيضاً لأنها أخذت، مع نقابات العمال، ترى في

(1) Watson, L.: op. cit. p. 146.
(2) Heilbroner, R.: op. cit. pp. 134-135.

الرأسمالية نظاماً إنسانياً نسبياً، استطاع أن يضع نهاية للأزمات الإقتصادية، وأن يسخر نفسه للنمو الإقتصادي والإصلاح الإجتماعي. البعض ذهب بعيداً إلى درجة القول إن حلول المدراء (Managers) مكان الملاكين سوف يلغي نهائياً الفروق الطبقية نفسها.

هذا أضفى على النظام الرأسمالي في أوروبا «شرعية» لتلك التي كانت تحيط به منذ مدة طويلة في الولايات المتحدة، إن أحد المفكرين الاشتراكيين كتب في العشرينات معلقاً على الوضع في أميركا:

«كان يجب أن أكون في أميركا، في وضع يسمح بالحكم على الاشتراكية الأوروبية من ذلك المرصد البعيد، كي أدرك أن هذه الاشتراكية لم تكن، في الواقع، نتيجة معارضة للكيان أو الوجود الرأسمالي في ذاته، بل نتيجة صراع ضد بعض الأوضاع التي رافقت ظهور الرأسمالية الأوروبية، كإفقار العمال، وخضوع الطبقات المدعوم بالقوانين، والعادات والتقاليد، وغياب الديمقراطية السياسية، وعسكرة الدول، إلخ.. إن نمط الإنتاج الرأسمالي كان يمكن، في وسط تاريخي مختلف، أن يقود إلى نوع من التوازن الإجتماعي. ما منع هذا في أوروبا هو التقدم الهائل الذي أحرزته البورجوازية من زاوية توازن القوى الإجتماعية. لو لم يحدث هذا لكان هناك دون شك عمال بؤساء كما نجد في أميركا، ولما كانت هناك بروليتاريا، أي طبقة وراثية ودائمة من الجماعات الدنيا. لو أن النظام القانوني والتقليد الإجتماعي سمحاً للأفراد ذوي الكفاءة بتجاز الوضع البروليتاري، ووضعا الآخرين في حالة ينعمون فيها بجزء مهم من فائض القيمة لا تبدو معه حصة الرأسمالي أكثر من معاش لمدير العمل، لكانت هناك ولا شك صراعات مصلحة، لا صراعات طبقات إجتماعية.. في بداية العصر الصناعي بشكل خاص ظهر استعداد طبقة العمال الاشتراكي بوضوح كنتيجة لما يمكن تسميته «عقبة البداية» وذلك بسبب القوة المفرطة الحاكمة الجديدة»(1).

الأحزاب الشيوعية نفسها كشفت عن التحول نفسه الذي ساد الأحزاب الاشتراكية، وابتدأت تدل بأنها ستنتهي في النتيجة نفسها. ظهور ما يسمى بالشيوعية ـ الأوروبية شكل مؤشراً بذلك. فهذه الشيوعية لا تعني فقط إعلان استقلال الأحزاب الشيوعية الأوروبية عن موسكو، وتجديد العلاقة مع الصين ودعم دعوتها إلى تحويل أوروبا إلى منطقة وسطى بين القوتين العظميين والعالم الثالث، والتخلي عن دكتاتورية البروليتاريا والصراع الطبقي، والالتزام بالإجراءات (الدستورية)، لا تعني فقط المثل الديمقراطية، بل بداية التخلي عن الماركسية نفسها كقياس الانتماء إليها. ما يسمى «بالتسوية التاريخية» في الحزب الشيوعي الإيطالي لم يكن يعني فقط كل هذا، بل أيضاً سياسة تحالف حكومي مع الحزب الديمقراطي المسيحي، أي تحالفاً مع القوى الرأسمالية والبورجوازية الكبيرة(2). إن توغلياتي، السكرتير السابق للحزب، كتب في صحيفة الحزب، وذلك قبل وفاته بوقت، أي منذ ربع قرن: «بأن الصراع الطبقي الكلاسيكي خسر معناه في أوروبا الغربية»(3).

---

(1) De Man, H.: op. cit. pp. 58-59.
(2) Kaldor, Mary : The Disintegrating West, Hill and Wang, 1978, pp. 187-190, 194.
(3) Kogan, Norman : A Political History of Post-War Italy, Pall Mall, 1966, p. 189.

تحول العمال عن الثورة إلى الإشتراكية أو البرلمانية الإصلاحية كان يعود من ناحية عامة، أولاً، إلى النمو الإقتصادي الصناعي السريع. وثانياً، إلى التحقيق المتزايد لحقوقهم السياسية. الأول فتح أمامهم أبواب العمل الذي يؤمن مقاصدهم الإقتصادية الأساسية، والثاني وفر لهم وسيلة حماية هذه المقاصد. ولكن التفسير الشيوعي لهذه الظاهرة كان يرجعها إلى قيادات خائنة. لهذا هاجم الشيوعيون قادة الديمقراطية الإجتماعية واتحادات العمال كخدم للبورجوازية، وكضباط عمل مأجورين للطبقة الرأسمالية، وكفاشيست إجتماعيين، وكحلفاء لهتلر وموسوليني، إلخ.. وعندما كانوا يدخلون إلى اتحاد عمال إصلاحي كانوا يحاولون تشويه سياسته الإصلاحية من الداخل.

إن انتصار هذه البرلمانية أو الاشتراكية الإصلاحية لا يعود، كما أكد لينين وتروتسكي، إلى ظهور قيادات عمالية «مبرجزة» أغرتها واشترتها البورجوازية، بل إلى انشغال العمال بشكل أساسي بمصالح اقتصادية، وبالبرلمانية التي تساعد على تأمينها. ظهور هذه القيادات لم يحدث في فراغ، ولم يترتب على فساد مجموعات قيادية، بل كان انعكاساً لاتجاهات وميول أفرزها العمال أنفسهم، وانتصارها كان ممكناً بسبب انتصار العمال لها. إن ظاهرة عامة كهذه لا تُفسر بأسباب ذاتية.

هذا التفسير الذي يقدمه لينين يتناقض، من ناحية أخرى، مع تفسير آخر ذكره في «ما العمل؟»، ويؤكد فيه على ضرورة الحزب الثوري لأن طبقة العمال غير قادرة بدون مساعدة وإرشاد من الخارج أن تفرز الوعي الثوري، وذلك لأنها تتجه، بسبب أوضاعها الخاصة، إلى النقابية، أي إلى تنظيم يتمحور على مصالحها الإقتصادية المباشرة.

تفسير كهذا هو، في الواقع، تفسير غريب لأنه يأتي من ماركسيين كبار، وهو من أكثر التفاسير لاماركسية وذلك لأنه يعطي العنصر الذاتي الدور الأساسي في صنع التاريخ. إنه يذكر بالتفسير الذي أعطاه الماركسيون، وخصوصاً في الاتحاد السوفياتي «لانحرافات» المرحلة الستالينية كانحرافات تعود إلى انحرافات ذاتية في شخصية ستالين ذاته، بدلاً من إعادتها أساسياً إلى جدلية المرحلة الإنتقالية التي كانت تعبر عنها الستالينية وتجد فيها تفسيراً لاتجاهاتها وملامحها الأساسية.

الصورة العامة التي تبرز من هذه الملاحظات هي أن وضع طبقة العمال الإجتماعي كان يجعلها منفتحة للمشاعر والأفكار الاشتراكية التي أصبحت الحافز الأساسي لها في تحسين وضعها. ولكن هذا النضال في تحقيق التحسين كان يعرضها بدرجة متزايدة لنفوذ الوسط البورجوازي - الرأسمالي المضاد لتشكيل عقلية أو وعي اشتراكي. تقدم هذا التحسين كان يعني برجزة متزايدة لها بلغت فيما بعد درجة خلقت معها النقيض لتلك المشاعر الاشتراكية التي بدأت منها، وهو تحول طبقة العمال إلى طبقة محافظة. إن فكرة «ثقافة بروليتارية جديدة» كانت، في الواقع، فكرة أقلية من المفكرين الاشتراكيين المؤمنين الذين كانوا يطالبون بها ويدعون إليها. هذه الفكرة كانت تقتصر عليهم بشكل متزايد ابتداءً من بداية هذا القرن: المفكرون الاشتراكيون كانوا يحاولون بها الرد على وضع كان يخيفهم باستمرار، وهو أن الجماهير كانت

تعمل بتركيز أو بشكل متزايد على تحقيق رغباتها الغريزية في إطار الحضارة البورجوازية. لهذا «ليس من الغريب أبداً أن يكون الإيمان بالثقافة البروليتارية تاجاً خاصاً لعقلية مفكرين اشتراكيين. أساس هذا المعتقد هو بالضبط العداء للثقافة البورجوازية الذي يميز اشتراكية المثقفين»[1].

هذه واقعة تجد اعترافاً عاماً بها في الأوساط الماركسية نفسها، وفي طليعتها الماركسية المحدثة. إن هربرت ماركوزه كان يتكلم باسمها في كتاباته الكثيرة التي كان يرد فيها بأن طبقة العمال لم تعد تتميز بالقدرة على ممارسة دورها كقوة نقض للنظام الرأسمالي لأن الاستثمار المادي زال إلى حد بعيد، وكذلك أيضاً الإفقار الإقتصادي الذي حلّ محله، إلى حد كبير، تصاعد متزايد في مستوى المعيشة. إن ماركوزه يؤكد العلاقة بين الاستثمار المادي وبين الإفقار الاقتصادي في النظرية الماركسية. حتى وإن كان هذا الإفقار حالياً من النوع الثقافي والنفسي، فهناك فرق أساسي بين الفرد الذي يعيش في البؤس، والفرد الذي يعرف «الفقر الثقافي» ولكنه يملك بيته الخاص، وسيارته وتليفيزيونه. ولكن أهم هذه الأسباب التي يشير إليها ماركوزه، هي على الأرجح، كون العمال أنفسهم لا يشعرون بأن الحياة في المجمتع الرأسمالي حياة لا تطاق، وأن هذا لا ينتج أولاً عن مستوى استهلاكي عالٍ، بل عن بنية اجتماعية أصبحت تمتنع على تحولات إجتماعية جذرية. إن ماركوزه يجد، بكلمة مختصرة، بدلاً من طبقة عمال ثورية، أو يمكن لها أن تكون ثورية، طبقة عمال ساكنة تفيد من مجتمع الوفرة، وترتاح إلى نمطه الاستهلاكي، وتستبدل بالتالي الصراع الطبقي بالمصلحة العامة.

ولكن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن العامل لا يعي عجزه نفسه. فانخفاض ساعات العمل، وارتفاع مستوى المعيشة، ورفاهية أكبر بكثير مما كان يتوقعه في الماضي، وخيار واسع في صعيد الفراغ، إلخ.. هذه العوامل دفعته، كما أشار كثير من المفكرين، إلى نسيان عجزه، وكون القرارات التي تدور حول وجوده نفسه تُتخذ من فوقه بدون الرجوع إليه، وبدون أن يكون من الممكن له أن يمارس أي نفوذ عليها.



نظريات كهذه حول عجز العمال الثوري وتحولهم إلى طبقة محافظة، تشارك كلها في تناقض أساسي. عندما تشير إلى ذلك، وترى أن السبب يعود إلى ما ذكرناه من تصاعد متزايد في مستوى المعيشة، إلخ.. فإنها توحي ضمناً على الأقل بأن البؤس المادي هو الذي يحول طبقة العمال إلى طبقة ثورية تناضل في سبيل نظام جديد وحضارة جديدة. ولكن طبقة العمال عانت في بدايتها هذا البؤس في أشكال حادة، ولمدة طويلة، بيد أنها لم تكن طبقة ثورية في هذا المعنى. هنا نجد أيضاً تناقضاً يميز هذا الاتجاه، فالذين كانوا يقولون بذلك، كانوا في الوقت نفسه يقولون إن أوضاع بؤس العامل تمنعه من تطوير وعي ثوري خاص به (لينين مثلاً عندما يميز بين ثورية الإنتليجنسيا ونقابية العمال)، مما يعني أن توفر درجة من الرفاهية يكون ضرورياً لهذا الوعي أو بالأحرى لصياغة هذا الوعي.

(1) De Man, H.: op. cit. p. 220.

لكن بالإضافة إلى هذا الاتجاه الأول كان هناك اتجاه فكري آخر نبه فقط إلى النتائج اللاثورية التي تترتب على هذا البؤس، ولكن دون أن ينتقل من ذلك إلى القول بأن معالجة هذا البؤس ضرورية في تمهيد الطريق لظهور وعي ثوري بين العمال، فكان بذلك فريسة تناقض مماثل، لكن من زاوية أخرى. إنه يقول بأن اضطرار الجماهير إلى استخدام معظم وقتها في توفير وسائل العيش يترك قليلاً من الطاقة أو الوقت لكسب المعرفة السياسية، والوعي الطبقي الصحيح، هذا إن لم نقل الوعي الثوري، أو ممارسة دور سياسي فعال. ولكنه كان يقف عادة عند ذلك، فلا يتابع التسلسل المنطقي لهذا القول ليشير بأن التقدم الإقتصادي الذي يحرر هذه الطاقة أو الوقت سيجعل العمال قادرين على التحول إلى طبقة ثورية.

البؤس لم يؤدِ إلى ثورة بروليتارية أو إلى ظهور طبقة عمال ثورية تعمل على إقامة نظام أو مجتمع جديد يتحرر فيه الإنسان، ولكن زوال هذا البؤس لم يؤدِ هو الآخر إلى تحويل العمال إلى طبقة ثورية. هذا يعني وجود عامل آخر مسؤول عن ذلك إلى حد كبير. إن كان البؤس لا يدفع إلى الثورة، وإن كان التقدم الإقتصادي والرفاهية لا يدفعان إليها، إذن يجب أن يكون هناك عنصر واحد يقف وراء البؤس وكذلك أيضاً وراء التقدم، يضبط نتائج الإثنين في وجهة غير ثورية. هذا العنصر هو الحدود الزمانية الضيقة التي لا تتغير، بل تسود الحالتين، أو بكلمة أخرى أكثر دقة هو ما أسميناه بحدود الوضعية الإقتصادية الضيقة في الفصل السابق، والتي تقترن بما أسميناه في هذا الفصل بحدود الوضعية الزمانية الضيقة، التي تفرز بدورها حدوداً نفسية ضيقة تمتنع على الوعي الثوري.

السبب ليس، بكلمة أخرى، الاستثمار أو البؤس الإقتصادي في ذاته، وليس الرفاهية المادية في ذاتها، بل البنية الإقتصادية الإجتماعية الثقافية التي تفرز وضعية زمانية محدودة، لا يمكن معها وفي إطارها تلقيح العمال، بل الإنسان بشكل عام، بالوعي الثوري. هنا نصل إلى حقيقة أساسية مهمة جداً في دراسة التجارب الثورية والتحولات التاريخية، وهي أن ما قلناه حتى الآن حول العمال يمكن أن يقال، أو كان يجب أن يقال، حول الفرد بشكل عام. فأكثرية الناس الساحقة وبصرف النظر عن الطبقة الإجتماعية التي ينتمون إليها، يشاركون في هذه الوضعية الزمانية المحدودة، أي باستعدادات وميول غير منفتحة في ذاتها للثورة أو الوعي الثوري. الانتماءات الطبقية تختلف وتتمايز من هذه الزاوية في الأزمات الكبرى والمراحل الثورية. عندئذ فقط يمكن لإحدى الطبقات أو بعضها أن تتميز عن غيرها بالانفتاح للثورة، وللوعي الثوري، لأن قوى التاريخ الجديدة تدعوها إلى ذلك. الأزمات والمراحل الثورية، وخصوصاً عندما تقترن بدعوة «ألفية»، هي التي تحرك هذه الاستعدادات والميول الثورية. ولكن كي يمكن لهذه الاستعدادات والميول أن تتحرك يجب أن تكون المصالح والمشاعر التي تفرزها الوضعية الموضوعية للناس الذين يتحركون بها من النوع الذي يجاري حركة التاريخ، القادر على العمل معها.

هنا تمارس الإنتليجنسيا دورها الأساسي، الدور الذي يعني قبل كل شيء صياغة الأفكار والتصورات أو أشكال الوعي التي تعبر عن هذه المشاعر والمصالح، وعلاقتها مع حركة التاريخ في مرحلة تاريخية معينة، ثم تثقيف الناس عامة والجماهير خاصة بها، وقيادتها في إطارها.

ولكن مهما اعتمدنا على الإنتليجنسيا في صياغة المفاهيم والتصورات وأشكال الوعي التي يحتاج إليها العمل الثوري فما يهمنا نهائياً هوالأحكام التي يعطيها الذين يُفترض فيهم العمل بها. إن أهمية أحكام الجماهير هي الأساس الذي يجب على الإنتليجنسيا التي تريد النجاح أن تعتمد عليه. فمن هذه الأحكام، ومن كليتها الكثيفة تشكل كل إنتليجنسيا، وكل حركة ثورية، مشروعها الثوري، أو الأسس التي تنطلق منها في صياغة هذا المشروع. وكي يمكن ذلك يجب على هذه الجماهير أولاً مواجهة أزمات حادة وضغوط وتحديات خارجية هائلة تهددها مباشرة وتقتلعها بالتالي من وضعيتها الإقتصادية ـ الزمانية المحدودة. إن الصراع العنيف الجامع والمباشر ضد الاستثمار أو القمع المنظم الشامل الذي يهدد طبقة العمال أو الجماهير في بقائها ذاته هو الذي يجعلها قادرة بأن تدرك بأنها تُستثمر كطبقة أو كمجموعة إجتماعية وليس كأفراد. طالما أن وعيها يتركز على حدود تلك الوضعية، أي على المشاكل المحلية والمباشرة التي تواجهها، فإن طبقة العمال (أو الفلاحين) والجماهير بشكل عام لا تستطيع تطوير الوعي العام الضروري في تحويلها إلى قوة ثورية فعالة، وهي تكون بالتالي قادرة فقط على الانشغال بمقاصد ومشاغل يومية ومباشرة. لهذا لم يكن من الغريب أن نجد، عند مراجعة تجارب التاريخ وتحولاته الثورية الحديثة، بأن النقابات، لا الأحزاب والحركات الثورية، هي التي كانت تمثل أساسياً إرادتها وتعبر عن تطلعاتها.

- 5 -

الخاتمة

نحو إنتليجنسيا وحدوية جديدة

بما أن الوضعية الوحدوية الموضوعية غير متوافرة حالياً، وبما أن غياب هذه الوضعية يعني مراوحة العمل الحدودي السياسي مكانه عاجزاً عن تجاوز التجزئة بأي شكل جدي كان، وبما أن أوضاعاً كهذه تدل تاريخياً على تقدم الوعي والتركيز عليه نسبياً، وبماأن تجارب التاريخ الثورية الحديثة تدل بوضوح أن الإنتليجنسيا تتخذ في هذه الأوضاع المبادرة التاريخية وتمارس في هذه التجارب الدور الطليعي الرئيسي، وبما أن الإعتراف بهذا الدور فرض نفسه حتى على النظريات التي تعطي العمال والجماهير رسالة ثورية خاصة، إلخ.. فذلك يعني أن المعركة التي تفرض ذاتها وتواجه النضال العربي حالياً هي أولاً معركة فكرية ضد قوى التجزئة والإقليمية، معركة يخوضها إلى أن تقوم وضعية وحدوية موضوعية تسمح بممارسة فعالة ناجحة للعمل الوحدوي السياسي الذي يتصدى لهما ويتجاوزهما نحو دولة - الوحدة. إنها معركة تنطلق من التناقض الأساسي الجذري بين فكرة دولة - الوحدة وواقع التجزئة والإقليمية وتعمل على توسيع الأولى على حساب الواقع الثاني.

الهوة بين الرؤية الوحدوية وبين السياسة العربية زادت اتساعاً مع الوقت، وإلى درجة يمكن القول معها إن الأخيرة أصبحت نقيض الأولى. الإنتليجنسيا الوحدوية تشكل حالياً «القوة» الوحيدة التي يمكن لها، إن نظمت نفسها، تشكيل جسر بين الإثنين، والربط بينهما والعمل على تضييق الهوة. العمل الوحدوي السياسي الذي تفرضه هذه الرؤية غير ممكن حالياً بأي شكل فعال بسبب غياب الوضعية الوحدوية الموضوعية، أو بشكل خاص الإقليم - القاعدة الذي يعني بدوره، فيما يعنيه، تحريك هذه الوضعية، والكشف عنها، وصياغتها. الأنظمة القطرية استطاعت حتى الآن، وبوجودها ذاته، أن تحرف الإمكانات والتحديات الوحدوية التي لم تستطع استيعابها. وهذه القدرة ستزداد فاعلية إن لم تُجمد، وأداة التجميد المتوفرة حالياً هي هذه الإنتليجنسيا.

عندما يكون الوضع وضع مدّ وحدوي، فإن العمل السياسي الثوري الذي يعبر عنه يجب أن يهاجم مباشرة وبكل إمكاناته التجزئة وأنظمتها القطرية، وذلك بتصعيد مطالبه الوحدوية، وبتعبئة الجماهير في خدمة هذه المطالب ودفعها إلى معارك فاصلة حاسمة مع هذه التجزئة

والأنظمة. هذا المد أو الوضع يجب طبعاً أن لا يدفعه إلى أعمال اعتباطية غير ناجحة، وإلى أعمال تدفع بالجماهير بعيداً عن مطالبه، فيفقد بذلك ثقتها. ولكن يجب عليه من ناحية أخرى أن لا يترك هذه الفرصة الوحدوية تفلت من يده بأعمال حذِرة أكثر مما يجب، فيسمح بذلك للإقليميين ودعاة التجزئة باتخاذ المبادرة في تجميد طاقته والإنحراف بها عن وجهتها الوحدوية.

ولكن عندما لا يكون الوضع وضع مدّ وحدوي، أو عندما لا يكون هذا المد في حالة تصاعد، فإن العمل الوحدوي يجد نفسه مضطراً بأن يركز اهتمامه وجهوده على توسيع دائرة نفوذه الفكرية، وذلك بعمل فكري دؤوب منظم في جميع الجهات والاتجاهات وعبر جميع الجماعات التي يمكن أن يتسرب إليها بغية الإعداد لصراع سياسي حاسم مع التجزئة وأنظمتها عندما تبرز مرحلة مدّ وحدوي جديد.

ما يمكن تسميته بالمأزق الوحدوي الذي نواجهه يعني بقدر كبير الانفصام الجذري المتزايد بين القصد الوحدوي والواقع السياسي، بين الأفكار الوحدوية التي «تقول» بها حتى الأنظمة القطرية وبين ممارسات هذه الأنظمة. استمرار التجزئة يتحدى بشكل متزايد عقلانية القصد الوحدوي، وهو استمرار يعني تكريس الضعف العربي الذي تترتب عليه نهائياً المهانات الخارجية وفي طليعتها مهانة الاحتلال الصهيوني - الأميركي لفلسطين، وإفراز شعور داخلي بالعجز يتزايد مع الوقت. فالأنظمة القطرية التي تزداد هيمنة وتسلطاً علينا تبدو وكأنها تتميز بحياة مستقلة خاصة بها تعلو على إرادتنا وتلغيها. فهي تستهلك طاقاتنا وإمكاناتنا وأفكارنا نفسها بالطريقة عينها التي تستهلك بها الغذاء، بالطريق نفسها التي تستهلك بها المعامل المواد الأولية والكهرباء، ولكن بدون أن يؤدي هذا الاستهلاك إلى أية نتائج جديدة كما نجد في استهلاك هذا الغذاء أو هذه المواد. استمرار هذا الوضع أصبح يوحي بحالة تخرج تماماً عن الإرادة العربية، بحالة توحي إلى العربي بأنه فريسة عاجزة في يد قوى عمياء تتلاعب به وكأنه شيءٌ من الأشياء. الإنتليجنسيا مدعوة إلى التصدي إلى هذه الحالة والعمل على الأقل على تجميدها وعدم استفحالها، وهي تستطيع ذلك إن جمعت صفوفها وركزت جهودها على مقاومتها، وجددت ذاتها في تكوين عقلية علمية.

إن نحن أردنا للقصد الوحدوي أن يفرض ذاته جدياً على الأنظمة القطرية، ويجمد انزلاق التجزئة في إقليمية نهائية، يجب أن يتم ذلك عن طريق أداة يمكن لها أن تقف «خارج» هذه الأنظمة، خارج هذه التجزئة. هذا يمكن أن يحدث بتدخل الإنتليجنسيا كقوة موحدة لأن الوعي الذي تمثله، أو يجب أن تمثله، ويمكنها أن تمثله، يوفر لها هذا «الخروج» الذي يضفي عليها استقلالية تستطيع بالانطلاق منها التحول إلى قوة فكرية ضاربة ضد التجزئة والأنظمة القطرية. إن عجزت الإنتليجنسيا الوحدوية عن توحيد ذاتها وإمكاناتها، وتوسيع نطاق وطبيعة عملها كمياً ونوعياً عبر الوطن العربي، إن هي عجزت عن هذا التدخل المقدور عليها كنتيجة لغياب وضعية وحدوية موضوعية، فإن التجزئة ستستمر في ترسيخ قواعدها وفي إفراز أهم ما يترتب عليها من نتائج، أي الإقليمية النفسية - الفكرية التي تهدد بسحق نهائي للقصد الوحدوي، وبالتالي تكريس هيمنة الذل التاريخي الذي يسود الشعب العربي منذ ألف عام تقريباً.

صراع الإنتليجنسيا الوحدوي الفكري ضد هذا التناقض بين القصد الوحدوي والتجزئة القائمة، التناقض الذي كان يعمل حتى الآن لمصلحة الأخيرة، يجب أن يتجه إلى كل مكان يمكن أن يمتد إليه، من الفن إلى الفلسفة، من المدرسة إلى الجامعة، من العائلة إلى الجيش، من النادي إلى الجمعيات والمؤسسات المختلفة، من الفريق الرياضي إلى الفريق العلمي في المختبر، إلخ.. هذا التناقض بين فكرة دولة ـ الوحدة، وبين واقع التجزئة يجب أن يخسر أبداً حدته، وما يجب يميزه دائماً من حدة، من توتر نفسي وأخلاقي. إن خسر هذا التناقض ذلك، فإنه يعني زوال القصد الوحدوي كقوة تاريخية، وموته خنقاً بقوى التجزئة، نتيجة آلية التجزئة. إن حدث هذا فإن الإنتليجنسيا تخون ليس فقط ذاتها ودورها كإنتليجنسيا، بل تخسر أيضاً إنسانيتها نفسها.

المشكلة هي أن التجزئة وأنظمتها القطرية، وحتى أبعادها الإقليمية، أخذت تمتص وتحتوي المثقفين العرب بالضبط أثناء مرحلة تكشف عن حاجة ماسة إلى دورهم كإنتليجنسيا وحدوية ليس فقط في إيقاظ الأفكار والمشاعر الوحدوية والتنبيه المركز إلى ضرورة دولة ـ الوحدة، بل في تقديم مشروع وحدوي علمي جامع حول الطريق إلى هذه الدولة.

هذا يعني، بكلمة مختصرة، أن على العمل الوحدوي في هذه المرحلة التي يسودها جزر وحدوي يتزايد شدة، أن يركز على الاتجاه إلى المثقفين الوحدويين وذوي الاستعداد الوحدوي، عبر الوطن العربي، والعمل بجد وجهد على تجميعهم في حركة فكرية تعمل على ترسيخ الوعي الوحدوي، وتعميقه، ونشره وتوسيع نطاقه، والتصدي بهذا الوعي للتجزئة وبشكل خاص للإقليمية النفسية ـ الفكرية التي تترتب على استمرارها، والتي تصبح بعد مدة معينة من الاستمرار مانعاً لا يمكن، بدون هذا التصدي المنظم المتواصل، تجاوزه حتى وإن توفرت وضعية وحدوية موضوعية.

هذه الإنتليجنسيا تستطيع القيام بهذا الدور الناجح لأن التجزئة لا تنطوي فقط على جوانب سلبية من زاوية وحدوية، بل تنطوي أيضاً على جوانب أخرى وحدوية، أي قوى وتناقضات تدفع في وجودها ذاته نحو دولة ـ الوحدة[1].

الإنتليجنسيا تستطيع، إن هي حققت وعياً وحدوياً علمياً، أن ترجع إلى هذه الجوانب وتعتمدها في هذا التصدي الذي أشرنا إليه، والذي يمكنه مع الوقت أن يقلص النتائج الإقليمية التي تترتب على التجزئة. إن الفيضان لا يحدث فجأة، فالمياه تتسع وتتكاثف تدريجياً قبل أن تُدمر السد أو السدود التي كان يُفترض أن تحتويها. إنها ترتفع ببطء ولكن عندما تبلغ ارتفاعاً معيناً، فإن انهيار السدود يحدث بسرعة.

كل تحول ثوري كبير يكون نتيجة تراكمات وتناقضات بطيئة التجمع، فتحول المشاعر والأفكار والحاجات الذي يعبر عنها يحدث تدرريجياً وبتراكمات بطيئة. ولكن عندما يبلغ هذا التحول الموضوعي درجة معينة من الاتساع والعمق، فإن المجتمع يجد نفسه في مواجهة سريعة، وكأنها حدثت فجأة، مع أزمة أساسية تفرض منعطفاً تاريخياً جديداً. التحول الثوري التاريخي كان أداة منعطفات كهذه. الإنتليجنسيا تستطيع بممارسة دؤوبة طويلة النفس التصدي الذي أشرنا إليه

(1) راجع حول هذا الموضوع كتابنا "حدود الاقليمية الجديدة" معهد الإنماء العربي - بيروت 1981.

والإسهام الفعال في إفراز هذا المنعطف أو الإعداد له.

غياب الوضعية الوحدوية الموضوعية يعني أن التجزئة تدفع، فيما تدفع إليه، وخصوصاً بالنسبة إلى المواطن العادي، إلى الإنشغال بالمشاكل والمصالح والقضايا المحلية على حساب المشاغل القومية الواحدة، وبشكل يؤدي إلى اختلال تام للتوازن بينها. الإنتليجنسيا الوحدوية تستطيع على الأقل الحفاظ على هذا التوازن، هذا إن لم نقل قلب أو عكس العلاقة، وتحويل المشاغل القومية الواحدة إلى المشاغل القطرية الأساسية.



الإنتليجنسيا الوحدوية يجب أن تنتزع السيادة الإيديولوجية في جميع المستويات والأبعاد التي تسود فيها القيادات والأنظمة القطرية والاتجاهات الإقليمية والتي تعبر فيها هذه الأخيرة عن ذاتها. هذا لا يعني كسب هذه المواقع لأي حزب، أو لأيّ حركة معينة، بل للمنطلق الوحدوي ذاته، المنطلق الذي لا يمكن خارجه لأيّ حركة، ولأي حزب، ولأي نظام أن يكون ثورياً أو حتى تقدمياً. الإنتليجنسيا الوحدوية يجب أن تنظم نفسها[1] لأجل حرب طويلة من الاستنزاف الإيديولوجي تعمل فيها على انتزاع كل شكل من أشكال الهيمنة والشرعية من قوى التجزئة والإقليمية.

الوحدوي يستطيع أن يؤثر في مجرى الأحداث عن طريقين، طريق التدخل السياسي المباشر، وطريق التدخل الفكري. ولكن بما أن التدخل السياسي يحتاج، كي يكون ناجحاً، إلى وضعية وحدوية موضوعية، وبما أن هذه الوضعية غير موجودة، فإن التدخل الفكري يصبح أداته الأساسية في مقاومة التجزئة والإقليمية.

وكي يمكن لهذا التدخل الفكري أن يكشف عن جميع طاقاته، وأن ينتظر في معركة الاستنزاف الإيديولوجي للقوى الإقليمية، فإنه يحتاج إلى نظرية وحدوية علمية جامعة للطريق إلى دولة - الوحدة، وللجوانب الأساسية التي يتكون منها العمل الوحدوي. المجال لا يتسع طبعاً لأي تحليل وافٍ لهذا الدور وضرورته[2]. هنا اكتفي بالقول بأن العمل الوحدوي - وأي عمل ثوري - لا ينطلق من نظرية جامعة كهذه يعجز عن الخروج من المشاغل المحلية، من المشاكل والقضايا المباشرة التي يواجهها، فيصبح فريسة لآنية الأحداث وتجزيئيتها، ويتحول أساسياً إلى انفعالات وردود فعل انفعالية، وذلك لأنه يكون عاجزاً عن الوقوف على مسافة ما من هذه الأحداث والنظر إليها من وجهة نظر «العام» الذي يسودها، ومن زاوية «الكل» الثوري الذي يجب أن يضبطها. هذا ما كان يميز، في الواقع، الفكر الوحدوي حتى الآن. بدون نظرية وحدوية علمية جامعة كهذه

---

(1) كيفية تجميع المثقفين الوحدويين وذوي الاستعداد الوحدوي في إنتليجنسيا منظمة أو موحدة عبر الوطن العربي تخرج عن مجال هذه الدراسة، ولكن هنا أود الإشارة بأن "المجلس القومي للثقافة العربية" الذي أنشئ حديثاً لمكافحة الغزو الثقافي من زاوية وحدوية يعمل الآن جاهداً على تجميع هذه الإنتلجنسا لخوض هذه المعركة الإيديولوجية التي اشرت إليها. الخطوة الأولى التي اتخذها كانت إصدار مجلة "الوحدة"، التي لقيت حتى الآن استجابة فريدة، وذلك كي تكون صوتاً قوياً لهذه الإنتليجنسيا. هذا المجلس انهار الآن وكان عاجزاً عن القيام بهذا الدور.

(2) القارئ يستطيع الرجوع إلى كتاب "دور النظرية الثورية" الذي صدر في نوفمبر 1985 عن معهد الإنماء العربي، بيروت، الذي شرحت فيه ضرورة نظرية كهذه، حللت دورها، وكشفت عن واحد وعشرين وظيفة، كلها ضرورية للعمل الثوري الفعال.

يعجز هذا الفكر عن اختراق الظواهر والأحداث السطحية، والكشف عن جوهرها، ويتعرض بالتالي إلى السقوط في مزالق الإنحراف والانتهازية نفسها. الإنتليجنسيا الوحدوية يجب أن لا تقاوم فقط، التجزئة والإقليمية بشدة، بل أن تعرف كيف تقاوم، وكيف تهاجم بفاعلية. كي تصير كذلك يجب أن تعتمد على نظرية كهذه. إن دور هذه الإنتليجنسيا (دور كل فكر كبير) هو تحويل الواقع وإخضاعه إلى نقد «العقلاني» الذي لا يرحم أو يتردد، واجبها هو إضاءة الطريق أمام العمل الوحدوي وتمزيق لا عقلانيته في ضوء هذا العقلاني الذي تمثله.

الإنتليجنسيا لا تستطيع ممارسة هذا الدور بدون نظرية وحدوية علمية جامعة للظاهرة الوحدوية عبر التاريخ، بدون إدراك موضوعي علمي يتحقق لها، بالانطلاق منها لجوانب العمل الوحدوي الأساسية. هذه العقلانية العلمية كانت، كما أشرنا في المقدمة، تشكل الخلل الأساسي في الفكر الوحدوي العربي، هذا الخلل يجب تصحيحه، وتصحيحه بشكل جذري كي يمكن للإنتليجنسيا الوحدوية أن تمارس دورها بفاعلية.

إن الوقائع والظواهر الإجتماعية السياسية كما نجدها في عالم الواقع الموضوعي، عالم الحياة اليومية الذي يجابهنا مباشرة، لا تكشف عن طبيعتها، لأنها من ناحية وقائع وظواهر خارجية سطحية، واصطناعية وحتى محافظة، ومن ناحية أخرى، تبدو وكأنها مصممة ومرتبة للحفاظ على الواقع القائم، وعلى النظام الراهن، وإقناعنا بشرعيتهما النظرية العلمية الجامعة «للكل» الذي ننشغل به تكون ضرورية في اختراق هذه الوقائع والظواهر بغية الكشف عن مخادعاتها، تمزيق أغشيتها ولا عقلانيتها، واكتشاف العقلانية الجدلية وراءها.

دون نظرية كهذه، تحل ما يمكن تسميته «بالعقلانية القطرية» محل «العقلانية الوحدوية» وذلك بسبب ما يحدث من تجزيئية للقضايا والمشاكل التي تواجه العمل الوحدوي في ممارساته اليومية، ولأن كل مفهوم حول هذا «الكل» لا يكون علمياً يؤدي بالنتائج السلبية العاجزة التي تترتب عليه إلى تكريس هذه «العقلانية القطرية». إن الإنشغال الذي يتم بهذه القضايا والظواهر المباشرة يعني أن الفكر عاجز أو يصبح عاجزاً عن الرجوع إلى الوراء وتبني وجهة نظر «العام» - أي العقلانية العلمية التي تحدد طريق الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة، وكيفية معالجة جوانب العمل الوحدوي الأساسية. استمرار هذا الانشغال يجعل، بعد درجة معينة من الممارسة له، الفكر عاجزاً عن الرجوع إلى هذا «الكل» أو استيعاب «العقلانية الوحدوية العلمية» التي تمثله عند ظهورها.

علم الإجتماع كان دائماً ينبه، عن طريق بعض مفكريه الكبار، إلى ضرورة هذا النوع من العقلانية التي تمتد إلى المجتمع ككل. العصر الحديث بالنسبة لماكس فابر مثلاً، يتميز «بالعقلانية الوظيفية» . التطبيق المتزايد للعلم على الأعمال الإقتصادية والإجتماعية - ولكن ما ينقصه هو «العقلانية الجوهرية» أو شعور بالكل.

ماركس قال بالتمييز نفسه الذي قال به فابر، ولكن بشكل آخر، إن تقسيم العمل في المصنع يُخطط، كما كتب في «رأس المال»، بتفصيل دقيق (ما يعادل العقلانية الوظيفية عند فابر) ولكن تقسيم العلم في المجتمع ككل هو وضع تسوده الفوضى (أي دون العقلانية الجوهرية التي يتكلم

عنها فابر).

لقد أصبح، في الواقع، من المعتاد حالياً، حتى في العلوم الطبيعية، التوكيد بأن جميع العلوم تعمل عن طريق نماذج عامة ـ نظريات تسمح لها بتنظيم الوقائع غير المحدودة. إن أينشتاين وضع المسألة بوضوح حاسم عندما كتب «بأن النظرية هي التي تقرر ما يمكننا ملاحظته».

يجب أن يكون من الواضح جداً أنه من الممكن إعطاء أجوبة موضوعية صحيحة عن المشاكل العامة التي تواجه العمل الوحدوي فقط عند توفر نموذج علمي تفسيري عام له، وأن الإنتليجنسيا الوحدوية تستطيع بالتالي ممارسة دورها بفاعلية ونجاح عندما تنطلق من نموذج كهذا. بدون نموذج من هذا النوع لا يمكن تحديد الطريق إلى دولة ـ الوحدة تحديداً موضوعياً علمياً أو القيام بتحليل موضوعي صحيح ومتكامل لجوانب العمل الوحدوي الأساسية، هذا على الرغم من أن النموذج يقتصر على الخطوط الأساسية ولا يستطيع مهما كان عاماً وجامعاً في علميته أن يفسر أو يضبط جميع هذه الجوانب أو المشاكل التي يواجهها هذا العمل.

الذين يرون فقط الوقائع والظواهر السطحية أو المباشرة لا «الجوهر» أو «النظام» الذي يقف وراءها، أو الذين يقدمون مفهوماً خاطئاً غير علمي عن هذا «الجوهر» أو «النظام» يتعرضون للانحراف وحتى الانتهازية. هؤلاء يقتصرون واعين أو غير واعين بشكل مباشر أو غير مباشر، على جانب واحد، ويكونون عاجزين عن اتخاذ نظرة شاملة للوضع ككل. إن مصالح وفاعلية العلم الوحدوي لا يمكن أن تتناقض مع معرفة موضوعية علمية، بل، على العكس، ترتبط بهذه المعرفة. كل نظرية تزور، لأي سبب من الأسباب، الواقع الموضوعي، أو تعجز عن إدراكه في ديناميكه، وفي جدليته، تصبح غير فعالة، وتخسر، عاجلاً أو آجلاً، قدرتها على ضبط العمل الثوري والكشف عن طاقاته.

غياب العقل العلمي أو العقلانية الوحدوية العلمية يعني ببساطة أن هناك قوى أخرى تكوّن، في الواقع، العمل الوحدوي، أو أن هذا العمل مهيىء ومنفتح لهيمنة قوى اخرى. هذه القوى قد تكون المشاعر، المصالح، الانفعالات العاطفية، الجهل، المخاوف، الحقد، الجمود، الشعارات اللفظية، إلخ.. أي شيء خارج العقل. ولكن إن كانت القوى التي تهيمن على هذا العمل ـ أي عمل ثوري ـ ليست قوى العقل والعقلانية العلمية، فإن هذا العمل يبقى دون الوسائل الفعالة التي يحتاج إليها في التغلب والانتصار على الواقع الذي يرفضه.

في ظل الفوضى والبلبلة اللتين تسودان وضعنا الوحدوي حالياً، نواجه خيارين، إما الاستمرار على «التبشير» بحل، بطريق إلى دولة ـ الوحدة في ضوء رغبات مثالية، وإما استراتيجية وحدوية نصوغها في ضوء منهج علمي يدرس حالات مماثلة يكشف عنها الواقع السياسي التاريخي، أي تجارب التاريخ الوحدوية بغية الكشف عن الانتظامية أو القوانين العامة التي تسودها وذلك بغية العمل بها. إما معالجة تتفرع من مشاعر ومفاهيم دون جذور في الواقع وتتفرع من ذاتية جامحة، إما معالجة تضبطها العقلانية العلمية. الطريق الأولى تعني استمرار البلبلة والفوضى، وبعثرة الإمكانات وهدر الطاقات والمراوحة في مكاننا، وفي الحلقة المفرغة التي

ندور فيها، والطريق الثانية تعني احتمال الخروج من ذلك، والمقدرة على ضبط الواقع وتطويعه لقصدنا الوحدوي، وبالتالي لجميع مقاصدنا التي تدور حول مجتمع جديد، وحول مستقبل جديد يتحرر فيه الشعب العربي من الذل التاريخي الذي لا يزال ينوء به منذ ألف عام. لهذا كان ظهور نموذج فكري وحدوي علمي عام متكامل تعبر عنه الإنتليجنسيا الوحدوية يتميز بأهمية قصوى ورئيسية في تصحيح مسيرة العمل الوحدوي وتوفير الفاعلية والنجاح لها.

كل شعب، كل مجتمع يملك مجموعة معينة من الموارد، والطاقات والإمكانات، وكل قسم منها يستخدم في مجال معين يعني بالضرورة قسماً تخسره المجالات الأخرى. ولكن كل استخدام لقدر ما من هذه الطاقات والإمكانات والموارد يجب أن يكون موجهاً بإدراك موضوعي علمي تصاغ له استراتيجية بعيدة المدى إن نحن أردنا الإفادة التامة منه، والفاعلية الصحيحة له. بما أن المجال الوحدوي بالنسبة لنا هو المجال الذي يجب أن يتقدم ويعلو على كل مجال آخر، المجال الذي يقيس فائدة وقيمة أي عمل في أي مجال آخر، وبما أن العمل الخلاق المنتج في المجالات الأخرى يرتبط نهائياً بالعمل الخلاق المنتج في االمجال الوحدوي، فإن هذه الطاقات والإمكانات يجب أن تُطوع أولاً وقبل كل شيء في خدمة دولة ـ الوحدة، أي في خدمة الطريق التي يمكن أن تؤدي إليها. توفر نموذج علمي عام للعمل الوحدوي العربي يعني بالتالي ضرورة أولى رئيسية لأنه أداة في تجنب بعثرة هذه القوى والإمكانات والموارد واستخدامها بشكل فعال خلاق في خدمة القصد الوحدوي، أو بكلمة أدق، في خدمة الطريق إلى دولة ـ الوحدة، وكيفية الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة، وهي القضية الأساسية المحورية التي يدور أو يجب أن يدور عليها العمل الوحدوي.



الفكر االوحدوي لا يزال يعيش على الأفكار والمفاهيم التي لازمته منذ قرن تقريباً حول هذه القضية الأساسية الجوهرية المحورية، قضية الطريق إلى دولة ـ الوحدة وكيفية الانتقال إليها، وهو لا يزال يجترها بشكل رتيب. فالاستقلال، مثلاً، سيقود حتماً، حسب هذه المفاهيم إلى الوحدة لأن الاستعمار هو الذي يحول دون تعبير الأمة الواحدة عن ذاتها بهذه الوحدة، أو أن الوجود القومي الواحد يفرض الوحدة بسبب جوهره الواحد، فالوحدة حتمية بسبب هذا الوجود القومي الواحد. ثم يضاف إلى ذلك مفهوم الاشتراكية الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية كطريق حتمية إلى الوحدة على أساس أن الأنظمة التي تحققها ستحقق الوحدة بينها حتماً. ثم مفهوم الحزب الواحد كطريق حتمي إلى الوحدة، إلخ.. كل هذه المفاهيم تشترك، بالإضافة إلى عجزها المشترك الصارخ في تحقيق الوحدة، بخلل أساسي واحد وهو أنها كانت كلها مثالية أو تبشيرية لا علاقة لها بالظاهرة الوحدوية أي بتجارب التوحيد السياسي عبر التاريخ، الظاهرة التي تدل لمن يدرسها دراسة علمية في ضوء المنهج العلمي، أن القوانين الأساسية التي كانت تلازم عمليات التوحيد السياسي كانت من نوع آخر تماماً. هذا يعني أن هذه المفاهيم أفلست إفلاساً هائلاً، وأن إفلاسها ترك فراغاً كبيراً خطيراً فيما يتعلق بهذه القضية المحورية، قضية كيفية الانتقال إلى دولة ـ الوحدة. هذا الخلل الأساسي كان يمتد بالتالي إلى الجوانب الأخرى في هذه النماذج الفكرية الوحدوية العامة التي لازمت هذا الفكر حتى الآن. لهذا كان من

الضروري ظهور إنتليجنسيا جديدة تحل محل الإنتليجنسيا الحالية الفاشلة، إنتليجنسيا تتكون بالعقلية العلمية بدلاً من العقلية التبشيرية التي تكون هذه الأخيرة.

لهذا ليس من الغريب أن نجد بأن نماذج الفكر الوحدوي السابقة كانت دائماً تواجه أحداثاً وتحولات وتحديات تعجز تماماً عن توقعها، وعن ضبطها، وعن تفسيرها في إطارها الخاص. هذا يعني طبعاً إفلاسها وبالتالي تخبط العمل الوحدوي في فراغ، في أزمة، وفي مأزق مستمر. الخروج من هذا الفراغ، من هذا المأزق، من هذه الأزمة يفترض، فيما يفترضه، ظهور نموذج فكري وحدوي عام جديد يحل محل تلك النماذج التي أفلست. هذا النموذج الجديد يجب أن يجد منطلقه العلمي في تصحيح جذري للخلل الأساسي الذي لازم تلك النماذج التقليدية، وهو التجاهل التام للظاهرة الوحدوية عبر التاريخ. إنه نموذج يجب، بكلمة أخرى، أن يجد أساسه الأول في نظرية وحدوية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية في جوانبها الأساسية.

بدون نظرية كهذه تعجز الإنتليجنسيا الوحدوية عن ممارسة مسؤوليتها الكبرى، التي أشرنا إليها، في هذه المرحلة التي تتوفر لنا فيها الوضعية الوحدوية الموضوعية. هذا هو التحدي الأول الكبير الذي يواجه هذه الإنتليجنسيا.

التحدي الآخر هو التحدي الذي أشرنا إليه سابقاً، أي ضرورة تجميع المثقفين الوحدويين وذوي الاستعداد الوحدوي عبر الوطن العربي في قوة فكرية منظمة تستطيع التصدي للتجزئة والتغلب على الانزلاق في الإقليمية الفكرية - النفسية التي تترتب على استمرارها. ولكن هنا يجب النبيه بأنه كي يمكن للإنتليجنسيا تحقيق ذلك بفاعلية يجب عليها إعادة صياغة وعيها الوحدوي في نظرة وحدوية علمية جامعة كهذه. من الممكن، في الواقع، الذهاب إلى أبعد من ذلك، والقول إن تشكيل هذه القوة الفكرية المنظمة يرتبط بتوفر هذا النوع من النظرية.

التحدي الثالث الذي يواجه هذه الإنتليجنسيا الوحدوية هو ضرورة صياغة هويتها الوحدوية، وليس فقط وعيها الوحدوي، صياغة جديدة جذرية، أي صياغة تتمحور فيها مشاعرها وأفكارها كلها تقريباً في القصد الوحدوي وحوله، وترى أن القياس الأول والأعلى لأفكارها وأعمالها ووجودها ذاته هو القياس الوحدوي السياسي الذي تقيس به كل شيء، وتحكم به على كل شيء، وتميز به بين الخير والشر، وترى فيه أن كل ما يخدم القصد الوحدوي خير ترضاه، وكل ما يسيء إليه شرٌّ تأباه.

هناك، في الواقع، أرضية مشتركة بين العلوم الإجتماعية والسيكولوجية الحديثة تحدد الهوية بأنها مركز، محور لمشاعر وأفكار الفرد الذي يضفي عليها وحدة عامة. بدون مركز، محور كهذا تتبعثر طاقات وإمكانات الفرد، وبالتالي يخسر شعوره بهوية خاصة متكاملة فيه، وهو شعور ضروري لنموه أو لاتزانه الفكري الأخلاقي. غياب هوية كهذه يعني مشاكل واضطرابات فكرية ونفسية وأخلاقية تترتب على ذلك.

من المعقول إذن القول إن الإنسان الذي لا يخضع للغرائز كالحيوان يكون في الواقع مشروعاً بيولوجياً فاشلاً إذا لم يطور بديلاً لهذه الغرائز التي تنقصه. هذا البديل كان موفقاً واستطاع أن يقوم بدوره كبديل لأنه يمارس في الواقع دور الغرائز، أي سلوكاً يجعل الإنسان قادراً

على العمل بشكل تلقائي عفوي وكأنه محكوم بغرائز. هذا البديل هو ما يسمى في الفلسفة والسيكولوجيا «بالهوية الإنسانية» أي بنية نفسية فكرية أخلاقية محددة تنظم الطاقات الإنسانية في ضوء مقاصد يسعى الإنسان إلى تحقيقها وتهيمن على سلوكه. الهوية تحفز الإنسان وتدفع سلوكه في ضوء مقاصد معينة. هوية واضحة كهذه تدفعنا إلى القول، كما يكتب العالم السيكولوجي المعروف، أريك فروم: «بأن الفرد يعمل غريزياً بالانسجام مع هويته، أو كما يقول هرقليطس، الهوية هي قدر الإنسان، البخيل لا يفكر إن كان يجب أن يوفر فلوسه أو يصرفها. فهو ينقاد باطنياً إلى توفيرها»[1].

الهوية الوحدوية التي أشير إليها، إلى ضرورة هيمنتها على الإنتليجنسيا، هي من هذا النوع. إنها تجعل السلوك الوحدوي عفوياً وتلقائياً. ولكن هنا أيضاً نجد أنه لا بد أن تتوفر للإنتليجنسيا نظرية وحدوية علمية جامعة، كي يمكن بها تنظيم مشاعرها وأفكارها حول المحور الذي تدور عليه، وهو القصد الوحدوي. الصراع ضد التجزئة في إطار نظرية كهذه يعمل. وهذا ضروري جداً. على تنقية المشاعر والأفكار وتحويلها إلى مشاعر وأفكار وحدوية صرفة.

أما التحدي الأخير الذي أود الإشارة اليه بين التحديات الأساسية التي تواجه الإنتليجنسيا الوحدوية في دورها الذي نبهت إليه، فهو الإعداد لرجوع مصر إلى دورها كإقليم. قاعدة وضرورة الارتباط بهذا الدور. إن الإنتليجنسيا الوحدوية مدعوة بدورها ذاته إلى تركيز الكثير، الكثير، من طاقاتها وإمكاناتها على الإعداد لوضعية وحدوية موضوعية جديدة، أي لرجوع مصر إلى ممارسة دورها هذا، وعلى تحقيق القاعدة. المركبة بينها وبين ليبيا. إنني على اقتناع تام بأن قيام هذه القاعدة. المركبة سيولد مداً وحدوياً جارفاً يدمر سريعاً إلى مدى كبير على الأقل التجزئة وأنظمتها.

إن صحت النظرية الوحدوية العلمية الجامعة التي نقدمها، والتي أشرت إليها في المقدمة، وخصوصاً في القوانين الوحدوية الأساسية العامة التي كشفت عنها. وهي في قناعتي العلمية صحيحة. لا يكون هناك من شيء أهم أو حتى بأهمية هذا الإعداد. كل شيء يجب أن يكرس، كل وسيلة يجب أن تستخدم في تمهيد الطريق أمامه، وخصوصاً إعداد الوعي الوحدوي وجعله مهيئاً لهذه العودة فلا يفاجأ بقضية الارتباط بالإقليم. القاعدة كما فوجىء مسبقاً في الخمسينات والستينات.

(1) Fromm, Eric : The Anatomy of Human Destructiveness, Holt, Rinehort and Winston 1973, pp. 251-252.

فهرس المحتويات

أهم دراسات د. نديم البيطار

- **الايديولوجية الانقلابية**، الدار الأهلية للطباعة والنشر - بيروت، **1964**.
- **الفعالية الثورية في النكبة**. دار الاتحاد - بيروت **1965**.
- **من النكسة الى الثورة**. دار الطليعة، بيروت **1968**.
- **من الحقيقة الانسانية الى الحقيقة الانقلابية**، دار الطليعة، بيروت **1969**.
- **نحو الارتباط بمصر الناصرية او طريق الوحدة العربية**، دار الطليعة، **1971**.
- **النظرية الاقتصادية والطريق الى الوحدة العربية**، معهد الانماء العربي، بيروت، **1978**.
- **حدود الاقليمية الجديدة**، معهد الانماء العربي، بيروت، **1981**.
- **جذور الاقليمية الجديدة**، معهد الانماء العربي، بيروت، **1982**.
- **ضرورة النظرية الثورية**، معهد الانماء العربي، بيروت، **1985**.
- **هل يمكن الاحتكام الى الولايات المتحدة الاميركية في النزاع العربي الاسرائيلي معهد** الانماء العربي، بيروت، **1986**.
- **حدود اليسار الثوري**، دار الوحدة، بيروت، **1982**.
- **حدود الهوية القومية: نقد عام**، دار الوحدة، بيروت، **1982**.
- **من التجزئة الى الوحدة**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، **1979**.
- **المثقفون والثورة**، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، **1987**.
- **التجربة الثورية بين المثال والواقع**، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، **1989**.
- **التاريخ كدورات ايديولوجية**.

  الكتاب الأول، **الايديولوجية الانقلابية**، مكتبة بيسان، بيروت، **2000**.

  الكتاب الثاني ، **فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والايديولوجيات الحديثة**، مكتبة بيسان، بيروت **2000**.

سيصدر قريباً قبل نهاية العام الحالي كتاب: سقوط الإنتيليجنسيا العربية، مكتبة بيسان، بيروت، **2000**.

مكتبة بيسان بدأت بإعادة طبع مؤلفات د. نديم بيطار.

هذا الكتاب

«في ظل الفوضى والبلبلة اللتين تسودان النضال العربي حاليا وفي مقدمته الوضع الوحدوي نواجه خيارين، إما الاستمرار في التبشير بدولة الوحدة في ضوء رغبات مثالية، وإما استراتيجيا وحدوية نصوغها في ضوء منهج علمي يدرس حالات مماثلة يكشف عنها الواقع السياسي التاريخي، أي تجارب التوحيد السياسي التاريخية بغية الكشف عن الانتظامية أو القوانين العامة التي تسودها وذلك قصد العمل بها؛ إما عقلية تبشيرية تنقاد لرغبات ومشاعر ذاتية وتعمل خارج أي إدراك علمي منظم للواقع الذي تتعامل معه، للظاهرة التي تنشغل بها، وإما عقلية علمية تدرك الاتجاهات الموضوعية التي تتحكم، أو يمكن أن تتحكم بهذا الواقع، فتكون بالتالي قادرة على تطويعه لمقاصدها؛ إما استمرار انتيليجنسيا فاشلة تمثل العقلية الأولى وكانت مسؤولة عن سقوط النضال العربي الحالي، وإما انتيليجنسيا جديدة تمثل العقلية الثانية كتحول ضروري في خروج هذا النضال من سقوطه. الطريق الأول يعني استمرارية السقوط وما يعنيه من بلبلة وفوضى، بعثرة الإمكانات وهدر الموارد والطاقات والمراوحة في المكان نفسه - في أحسن الحالات -، والطريق الثاني يعني احتمال الخروج من ذلك والقدرة على ضبط الواقع وتطويعه للقصد الوحدوي، وبالتالي لجميع مقاصدنا التي تدور حول مجتمع جديد يتحرر فيه الشعب العربي من الذل التاريخي الذي لا يزال ينوء تحته منذ مئات السنين. لهذا يكون ظهور فكر وحدوي علمي متكامل الجوانب الأساسية تعبر عنه انتيلجنسيا جديدة يتميز بأهمية قصوى تصحيح مسيرة النضال العربي وتوفير الفاعلية والنجاح له».

